جان بول سارتر

مواقف

4

قضايا الماركسية

ترجمة : جورج طرابيشي

غلاف : علي مولا

جان بول سارتر

مواقف

٤

قضايا الماركسية

(١)

ترجمة : جورج طرابيشي

صورة المغامر

أقبل بسرور ان أضيف بضع كلمات الى دراسة اسطفان المرموقة حـــول المغامر . لا لأقرظها أو لأوصي بها القراء : فهي توصي بنفسـها من تلقاء نفسـها . لقد كانت فكرة بارعة من اسطفان ان يقرب بين هذه الاسماء الثلاثة وهذه الخبرات الثلاث . وسوف يحكم القارىء إذا كان هذا التقريب مثمراً . كما لا أود أن اعلق عليها او ان اجازف بالكلام : فأنا اخشى ان أسقط في الاسهاب والحشو نظراً الى غنى افكارها ووضوحها . إن ما يغريني بالاحرى هو ان أسلط الضوء على موازنة مضمرة باستمرار في هذا الكتاب شاء تخابث اسطفان ألا يلمح اليها إلا تلميحاً خاطفاً .

ان الفكر لينتقل بكل منا ونحن نطالع صورة المغـــامر هذه (وكنت افضل : صورة رجل العمل) الى نقيضه ، المناضل . بل يبدو انه يكفي أن نعكس ما يقوله اسطفان حتى نكوّن فكرة لا بأس بها عن الشيوعي الوسطي . بيد ان المغامر والمناضل لا يتعـــارضان كمحض مفهومين مجردين . فهما رجلان حيان يتواجهان ، يتعارفان ، يعترف كل منهما بالآخر ، تارة يتحـالفان وطوراً يتحاربان . وبودي لو أحاول ، كما لو انني اكتب فصل الختام ، أن أسلط الضوء على بعض العلاقـــات المعقدة التي تجمع بينهما ، اي ان أعرض وأشرح بعضاً من الأفكار التي أوصى لي بها اسطفان .

* * *

ان المناضل يوحي الينا بالمزيد من الثقة كلما بـــدا دخوله الى الحزب أشد ضرورة . وأنا لا أفكر هنـــا بالكلام عن تلك الضرورة الداخلية ، المشبوهة دوماً، التي تولد من الصراعات الباطنية ومن العقد والصبوات الاخلاقية ، وبصورة اعم بما يسمى بـ « الاسباب الشخصية » . بل المرجو ، على العكس ، ان يكون انتماؤه قد أملته اسباب لاشخصية كالجوع ، على سبيل المثال ، الذي هو حـالة جامعة بين الجميع ، او الخوف او الغضب اللذين يفترسان الجوع النفل : وباختصار أن يكون ايضاً طبيعة ومحركاً من قبـــل القوى الطبيعية الكبرى التي تـسيّر الحيوانات البدائية وتتحكم بها بطريقة او بأخرى ، من غير ان تكون بحاجة إلى امتلاك جهـــاز عصبي . ان الغضب والخوف والجوع لا تكفي لتخلق شخصاً ، وهذا ما ينبغي ان يكون . ذلك انه ليس من الصحيح ان المطلوب منك أن تتنازل عن « أناك » : فكثير بالأصل ان تكون لديك « انا » لتتنـــازل عنها . ان الانتماء إلى الحزب يجب ان يتجاوب بدقة مع الدخول إلى الملكوت الانساني . والحزب لا يجردك من « أناك » ، بل يهبك اياها . اقول ذلك بلا سخرية : انه لمن المستعذب ان يكتشف الانسان نفسه في عيون الآخرين الأخوية . ان المنـاضل الجديد لن يكون موضوع نفور مبدئي ولا هيام غير متبصر .

فقبل كل شيء سيعترف به الحزبيون على انه ندٌ لهم ، اي عضو في الحزب : انها عملية تكريس . وفيه يتحول الحزب الى ذاته كما هو شأنه في سائر الآخرين . وطالما انه مخلوق الحزب ، فهو سيجد الحزب ايـــنما ذهب . وسيكون الحزب وسيطاً ضروريـــاً بينه وبين اقرب اصدقائه الى نفسه . قيل لشاب شيوعي : « خذ زوجتك من الحزب . فبذلك لن تضيع وقتاً » . انه ليس وحيـــداً قط لأنه يأتي الى ذاته بدءاً من الجميع . انه ليس عمقاً ولا سراً . انهم يحرمون عليه أبسط العقد وأكثرها تواضعـــاً : انهم يؤسسونه في نظر نفسه بالذات بواسطة معطيات موضوعية صرف ، ويفسرونه بطبقته ، بالظروف التـــاريخية . وهو يرى نفسه من الداخـــل كما يرونه من الخارج : لا ادراج سرية ولا خزائن ذات قاعين . وإذا كان لا يتكلم عن نفسه بضمير الغائب فهذا من قبيل الاستسهال .

بيد ان وجوده ليس وجـــود تجريد محض : انه يتعرف نفسه عضواً في الطبقة والحزب اللذين يصنعان التاريخ ، ويعلم انه محدد بمهمات واضحة وبأمل كبير ، ويعرف ايضاً قلبه الذي يتغذى بالحقد والصداقة. وفيما عدا ذلك سيتميز بأفعاله. لكن هذا لا يعني ان المطلوب منه « أن يخلق من ذاته ... ذلك الكائن الذي لا يمكن لأي كائن آخر ان يكون بديلاً عنه » . فالحزب لا حاجة له إلى كائنات لا يمكن ان يكون لها بديل . ان المناضل يقف في منتصف الطريق بين الكائن الذي ليس له من بديل وبين الكائن الذي يمكن استبداله بغيره : انه يخدم ، هذا كل شيء . في عام ١٩٣٥ كان بوليتزر [1] يعمل ما لم يكن بوسع اي انسان آخر ان يعمله : كان يعمل في علم النفس العيني . لكن كانت هنـــاك حاجة الى الاقتصاديين. فترك علم النفس الى الاقتصاد الاجتماعي . وسألته : « وأعمالك ؟ » . فقال لي : « ليس ثمة من عجلة . فبعد الثـورة ، سيأتي عاملون آخرون يقومون بالعمل خيراً مما في وسعي الآن » .

* * *

ليس مناضلاً كل من يريد ان يكون مناضلاً . فإذا جاءت الأنا في المرتبـــة الأولى ، كان الانفصال الى الأبد . والأنا تولد مبكراً في الطبقة البورجوازية . حين كان جيد طفلاً ، كان يرمي بنفسه بين ذراعي أمـــه صائحاً : « أنا لست كالآخرين » . أن يكون الانسان ذاته فهذا معناه أولاً ألا يكون كالجار ، أن يكون متميزاً . يقال : « احطم القالب » . والحال ان القالب يجب ان يكون دوماً محطوماً . فالحضارة البورجوازية هي « حضارة عزلة ووحـــدة » . ولا ريب في انه يتوجب أولاً ان يعترف البورجوازيون ببعضهم بعضاً فيما بينهم على انهم بشر . لكن هذا الاعتراف المجرد لا يستهدف في أي منا غير ما هو عام ، ويتركنا وحيدين في تفردنا . وباختصار تعترف لنا الحضارة البورجوازية بالحق

---

١ – جورج بوليتزر : مفكر ماركسي معاصر ، اعدمه النازيون اثناء احتلالهم فرنسا .
ع . م . ع .

بأن نكون في نظر أنفسنا كل ما نريده من خلف جدار الحياة الخاصة . ولفظة « الخاص » بالذات ، بفكرة الحرمان[1] التي تنطوي عليها ، تبين بما فيه الكفاية ان شمولية الاعتراف هي شمولية رفض الاعتراف . إن الإنسان البورجوازي ، الملتجىء خلف هذه الأسوار الدائرية ، هو إنسان مجنون ، حيوان متوحش ومهجور ، دغل من نباتات مجنونة . ترى ألا نجد انفسنا منقادين الى القول بأن هذا المناضل ، العلني في اعمق اعماق قلبه ، والذي تزداد حميميته مع ذاته كلما ازداد شفافية في نظر الجميع ، وبأن هذا البورجوازي الذي ليس بذاته إلا في نظر ذاته ، والمنغلق على نفسه في ظلمات لا يمكن لأحد ان يتعرف فيها ، انما ينتميان الى نوعين متمايزين ؟ اذا ما حدث لأحد ابناء العائلات ان تملكه الخوف امام هجرانه ، فإن الأوان يكون قد فات : انه لن يجد في الحزب أي عون له. وحتى لو سمح له بالدخول اليه ، فلن يكون له من حظ تقريباً في ان يجد فيه حلا لصراعاته : فهذه الصراعات عبارة عن مشكلات شخصية ، وهو لا يريد ان يهديه الحزب قطعة غبار تسمى بالأنا ؛ انما يطلب فقط ان تشفى أناه . وعبثاً يحتج بالأصل بأن ضرورة داخلية ما هي التي قادته الى الحزب ، لأن الجواب الذي سيتلقاه هو ان هذه الضرورات مترفــة وكمالية ، وسوف يظل مشبوهاً بالتالي . انه لانطلاق سيء ان يرفض الوحدة . ذلك انه حتى يرفضها ، فلا بد ان يلحظها ، وملاحظتها هي خير وسيلة لإعطائها أعلى درجات الوجود . واذا ما هرب منها ، يكون قد اعترف بها ، وجعل منها بالتالي دافع اعماله كافة . هل سيحاول أن يخرج من ذاته بواسطة الحب ؟ لكنه سيكون حب انسان متوحد يهرب من ذاتــه . كتب مالرو : « الحب هرب من الذات » . وهــذا صحيح اذا لم يكن الحب مطلوباً لذاته ، بل كوسيلة للخروج من الذات . وهذا يكفي بالأصل حتى يصبح هذا الهرب مستحيلاً . ولقد أحسن كافكا ، ذلك المتوحد ، التعبير عن هذا النوع من الحب : « كان يخيل إلي انها عاطلة بأناس

---

١ – لفظتا « خاص » و « حرمان » مشتقتان في الفرنسية من فعل واحد هو « Priver »
« هـ.م. »

مسلحين يوجهون حرابهم نحو الخارج . في كل مرة كنت احاول فيها ان أقترب كنت اصطدم برؤوسها المدببة التي تجرحني وترغمني على التراجع ... انا أيضاً كنت عاطلاً بأناس مسلحين يوجهون حرابهم نحو الداخل وبالتالي ضدي . حين كنت أندفع نحو الصبية ، كنت أصطدم أولاً بحراب حرّاسي بالذات ، دون ان اتمكن من تجاوزها . ولعلي لم أصل قط الى حراس الصبية ، واذا ما حدث مرة وتمكنت من ذلك فهذا ليس إلا بعد ان جرحت نفسي بحرابي ومن غير ان ادري » .

إن فرصة العامل الشاب الذي يدخل الى الحزب هي انه ليس له من « أنا » قبل ان يحب : انه يكتشف نفسه في الهبة التي يقدمها للآخر والتي يعترف بها الآخر . وحتى يتوصل شبابنا البورجوازيون الى الحب ، فلا بد ان يكون في وسعهم ان يجازفوا بأن يتركوا الغير يعلنهم لأنفسهم . والحال ان الأوان قد فات : فهم يعلمون حق العلم ما هم . لكن يبقى أمامهم على الأقل ان يجدوا من يحبهم . فربما ستعترف امرأة ما ، بدافع من حبها ، بهذا التفرد الذي يرفض المجتمع البورجوازي ان يصادق عليه. وربما سيكون في وسعها أن تتبنى « ذلك المسخ الذي لا شبيه له ، المفضل على كل شيء ، الذي هو كينونة كل كائن في نظر نفسه والذي يدلله في قلبه » . لكن كلمة « يدلل » هذه لها دلالتها : انهم يريدون ان يهربوا من ذواتهم ومع ذلك يدللونها . انها ليست أناهم التي يبغضونها بل هي وحدتهم ، وهم لا يفهمون انهم لا يستطيعون ان يقضوا على هذه إلا إذا قضوا على تلك .

لكن ثمة شباناً يبدو عليهم انهم فهموا ذلك : انهم على وجه التحديد أولئك الذين يتكلم عنهم اسطفان . ولما كان العمل رابطة بين البشر ، فإنهم سيحاولون عن طريق العمل ان يهربوا من عزلتهم . فبالعمل يصبح الانسان آخر ، وينسلخ عن ذاته ، ويتغير بتغيره العالم .

لكن لا بد أيضاً من تحديد هدف معين ومن إرادته بعمق. غير أن الهدف في مثل هذه الحال هو الأساسي ، لا الفعل الذي لا يعدو أن يكون أكثر من وسيلة

لبلوغه . والحال أن الغايــة بالنسبة الى المناضل هي التي تجلت أولاً ، وبضرورة مطلقة : عليه ان يعيش ، ان يسد رمقه ، ان يحمي نفسه من البطالة ، من ارتفاع الأسعار ، من الاستغلال ، من الحرب. وعند دخوله الى الحزب تغيّر الهدف تحت ناظريه : ففهم ان هذه المطالب لن تلبى إلا بقيام مجتمع اشتراكي . ولقد تغيّر هو نفسه مع الهدف : ان الحزب يتابع ، فيه وعن طريقه ، تحقيق هــذه الغاية المطلقة . والتفرد المعترف له بــه هو إرادته المتفردة خدمة هــــذا التحقيق . وهكذا يتوطد نظام : الغاية هي الموجودة أولاً وهي التي تحدد الحزب بأنـــه المجموع المنسق للأعمال التي ستسمح ببلوغها. ان المناضل لا يسأل فعله ان يبرره : انه غير كائن أولاً حتى يبرر نفسه فيما بعــد . لكن شخصيته تنطوي على تبريره الذاتي ما دامت الغاية المطلوب بلوغها هي التي تؤسسها . وعلى هــــذا فإنه تابع للعمل التابع بدوره للهدف . أما العمل نفسه فينبغي ان نسميه مشروعاً ، لأنــه جهدُ بناء بطيء وعنيد يمتــد طوال حقبة غير محددة . ولا ريب في ان هذا الجهد يشتمل على مظهر من مظاهر النفي ، لأنه لا بــد من النضال ، ومن تقويض المجتمع القديم ، ومن تحطيم المقاومات وتمهيد الطريق ، لكن علينا ان نرى فيــه في مجموعه بنـاء إيجابياً وانتاجاً منهجياً وتدرجياً لأشكال اجتماعية جديدة . ان المناضل ، الذي يدعمه ويعاود خلقه باستمرار هــــذا المشروع الذي يتجاوزه ، يجد نفسه محمياً من الموت : ان المشروع الذي يحدده أطول عمراً بكثـير من عمر حياة واحدة . وهو يعمل بالتالي باستمرار فيما وراء موته الذاتي ، واختفاؤه لن يبدل الصيرورة التاريخية تمامـــاً كما ان ظهوره لم يبدلها . ان إرادته ستبقى من بعده ، تلك الارادة التي أعاره إياهـا الحزب لحقبة من الزمن ، وستتابع العمل من دونه .

لكن العمل هو الغاية بالنسبة الى البورجوازي الشاب الذي يحاول ان يتصل بالبشر ، لأن العمل هو الذي سيحقق هذا الاتصال . وبذلك ينعكس الترتيب : انه يعمل من أجل ان ينقذ ذاته ويختار غاية ليعمل . وكل غاية صالحة مبدئياً : يكفي ان تبرر العمل الذي سيبرره . بيد ان مشروعه الأساسي مشروع سلبي .

وبالفعل ، انه لا يستطيع ان يفكر بأن يستمد من البشر شخصية جديدة : إنما هو يريد الخلاص للشخصية التي له من الأصل . وهذا يعني انه يريد ان يجعلهم يتعرفون في تفرده . ولهذا لا يكفي أن يخدم مآربهم : لأنهم في مثل هذه الحال لن يعترفوا إلا بخدماته . وإذا كان يريد ان يقبلوا بطبيعته المتفردة ، فعليه ان يهبهم إياها . ولما كانوا بغير حاجة إليها ، فهو سيدمرها باحتفال كبير وسيجعلهم شهوداً على تضحيته . ان بيركن[1] ، أحد أبطال مالرو ، يريد أن « يوجد بين عدد كبير من البشر ، وربما لمدة طويلة » . وهو يضيف هذه الفكاهة : « المرء لا يقتل نفسه إلا ليوجد » . وبالفعل ، ان الميت لن يكون له من وجود إلا عن طريق الآخرين . فهو يأتي ليتسلط على وحداتهم المديدة ، فيأخذونه على عاتقهم من جديد ، شاؤوا أم أبوا ، ولا يعود وحيداً . وهذه الميتة العامة العلنية قريبة الى أبعد الحدود مما يسميه الأميركان « Conspicuous Consumpsion »[2] وما نسميه بالترف . فالطبقة المالكة ، التي ينتمي إليها رجال العمل عندنا ، لا تتميز بالادخار والتوفير إلا في لحظة معينة من تاريخها . انها تستهلك : وهذا يعني انها تهدم نفسها بهدمها ثرواتها عن طريق الاستعمال ، وتفكر بالتالي انها تربح امتلاكاً لذيذاً لذاتها . وعند هذه المرحلة يمكن للتبذير المنهجي أن يصبح الوسيلة الوحيدة للاتصال مع الآخرين : وهكذا تقيم أعياد البوتلاتش[3] — تدمير الثروات إكراماً للغير — وتقيم الحفلات — تدمير الثروات بحضور الغير . لقد أهلكت الارستقراطية الرومانية نفسها بهذه الألعاب ، وكذلك فعلت النبالة الفرنسية : كان أبناء العائلات يريدون الافلاس كما يريد هؤلاء الشبان البورجوازيون الموت . ان المغامرين سيضرمون النار في مستودع البضائع الضخم الذي هو المجتمع البورجوازي ، وبعد ذلك سيرمون بأنفسهم بين ألسنة اللهيب . البوتلاتش ، الحفلات ، الجود : هكذا ستكون نهايتهم . ولا أستطيع ان أمنع

١ — من أبطال رواية « الطريق الملكي » لأندريه مالرو . « م.م »

٢ — ومعناها « الاستهلاك الفاخر » . « م.م »

٣ — عيد ديني هندي أميركي تتبادل فيه العطايا . « م.م »

تني من التفكير بذلك المغامر الآخر ، جان جينيه ، الذي كتب في « مواكب جنائزية » : « إن غابــة حياتنا دقنة جميلة ، جنازة حافلة . جنازة ستكون الرائعة الكبرى ، وعلى وجــه التحديد تتويج حياتنــا . يجب ان أقضي نحبي بحوطني تبجيل عظيم ، ولا أهمية تقريباً إن عرفت المجد قبل موتي أو بعده إذا كنت أعلم بأنني سأناله » .

المجد : هــذه هي الكلمة الحقة . انهم لن يبحثوا عن الاتصال في الأخوة التي يترك فيها الانسان دوماً شيئاً من ذاتــه للآخر ، بل في المجد الذي يوجد فيــه الانســان بالنسبة الى الجميع دون أن يبتر شيئاً من ذاته . إن لحظة الموت ستكون لحظة حياتهم ، وهم ينتظرونها « بوجد » . وفي هذه اللحظة اللامتناهية الصغر ، سيشعرون ، وهم على قيد الحياة بعد وهم اموات في الوقت نفســه ، بأنهم اصبحوا بالنسبة الى الآخرين ما كانوه بالنسبة الى أنفسهم . وبانتظار هــذه اللحظة الفائقة ، يكتفون بـ « لحظات كامـــلة » يعكس فيها الكون للحي الظاهر الكبير المتوفى الذي سيكونه . « اننا نؤمن بالسعادة التي يوفرها قرار سريع » . لكن اذا كان للقرار يلزم الحياة بأسرها ، فإن الحياة التي ستتلوه لن تتميز عن موت يحدث كل يوم بيومه . واتخاذ القرار على هــذا النحو يعني الركض فوق الذروة المدببة التي تفصل الحرية الفائقة عن استقالة الجثة ، بمعنى أن يقلد المرء ميتته الذاتية . ولقد بتنا نعرف نموذجهم : فهــذا الانســان المشغول بجنازته القادمة ، المشؤوم بالنسبة الى ذاتــه وبالنسبة الى الغير ، والذي لا يجد للحياة طعماً إلا في بعض اللحظات الخارقة ، انما هو البطل . . ويجدر بنا ان نلاحظ أن المناضل ليس بطلاً . وليس ذلك لأنــه لا يعرف أن يموت ، لكنه لا يسعى الى الموت اذا كان يمكنه ان يتجنبه ، واذا ما داهمه ، فإنه يموت بتواضع . أنا اعرف أن بعض الأشخاص المغرضين سموا الشيوعيين « أبطال زماننــا الدائمين » . ولقد كانت هذه التسمية إهانة لهم : فأولئك الذين لم يتكلموا تحت التعذيب كانوا يقولون ببساطة : « لم يكن بوسعي ان أفعل غير ذلك » . كانت إرادتهم تجسيداً لإرادة الحزب وكانت إرادة الحزب ألا يتكلموا . وما داموا لا أهميــة لهم في نظر أنفسهم ، وما دام

مشروعهم ان يبنوا وما دام ان هذا المشروع سيكتمل من دونهم ، وما دامت حكتهم تأمل في الحياة ، فإن موتهم لا يبدو لهم وكأنه زعزعة للكون بأسره بل يبدو لهم كحادث عرضي يؤسف له .

بيد أن الأبطال هم طفيليو المناضلين . إن البطولة بحاجة الى ذريعة ما ، وإلا فلن تكون سوى انتحار . وكل يأس المدمرين سيكون غير مجد اذا لم يحمله أمل الجماهير المريض . وحتى تكون جنازاتهم فخمة ، وحتى يعمروا طويلاً في ذاكرة البشر ، فلا بد أن يكونوا قد حاربوا « من اجل ما كان في زمانهم يحمل أضخم الاماني وأكبر الآمال » . وعلى هذا فإنهم سيعقدون تحالفات مع حركة ثورية أو مع حزب مقاومة وطنية . لكن هذه التقاربات مؤقتة والمغامر لن يتكفل إلا بالأعمال السلبية : انه سيكون إرهابياً او ضابطاً . وعلى كل ، فإنه يظل مشبوهاً من قبل حلفائه ، ولا يحبهم : « لا احب حتى النـــاس الفقراء ، اولئك الذين سأقاتل من أجلهم بعد كل شيء ... انني أفضلهم فقط لمجرد انهم المغلوبون » . وانه لما يثير الفضول أن يكون لورانس وكثيرون من أبطال مالرو غرباء في البلد الذين يقاتلون فيه . ففي القرن التـــاسع عشر كان الكاتب الغني يذهب ليمارس الحب ويبذر ماله خارج وطنه : فقد كان يعجبه ، هو المستهلك الأجنبي في جماعية مكدة ، أن يكون الصورة الكاملة للطفيلية . أما الكاتب المغامر اليوم فإنـــه يذهب الى البلاد نفسها ليغامر بجلده : إنه يطلب ، هو الطفيلي البطل ، من اولئك المقاتلين الذين لم يختاروا معركتهم ان يبرروا موتـــاً اختاره بنفسه . واختلاف اللغات والأعراف يسمح له بأن يظل منفصلاً عنهم . وأهمية الغايات الجماعيـــة تضيء عمل المغامر لكنها إضاءة غير مباشرة .

بيد أن الموقف ليس بالموقف الذي يمكن للمغامر أن يســـاير عليه : ففاعلية مغامرينا مستمدة من قبل رجال متحمسين وتابعي الجنان لا يطيعون أوامرهم إلا ليمكنهم استخدامهم بصورة افضل . والمجتمع الذي يريـــد المناضلون ان يبنوه يستبعد بحزم الـ Desperados[1] وهباتهم العظيمة . إن الارهابيين لا مكان لهم في

---

١ المغامرون . « م . »

مجتمع منتجين . لقد كان تشن[1] يعرف إن « العالم الذي يعدونه له معساً يدينه بقدر ما يدينه عالم اعدائهم » . وفي هذا العالم الذي يعترف فيه البشر بعضهم بعضاً عن طريق عملهم وفيه ، لا أمل البتة في أن يلقى تفرد هـذه الكائنات اعترافاً بـه . والأنكى من ذلك ان ذكراهم بالذات ستمحى منه ، وموتهم بالذات يبدو مجهول المصير : فهو لن يفهم على انـه عطاء مجاني ، بـل سيخلط بينه وبين تفاني المناضلين المبهم . ولحظة النصر ستكون بداية فشلهم . فهـل يمكنهم ان يريدوا انتصار حزب سيدفنهم مرتـين ؟ لكنهم اذا لم يريدوه فإن البطولة ستنهار : ويبقى الانتحار . وعمل المغـامر يتأرجح من غير أن يتوقف ابداً بين اكثر انواع الكرم جنوناً واكثر انواع الانتحار أنانية . انه يتطلب ايماناً ويدمر كل ايمان : ان المغامر يصبح مضللاً اذا آمن بمـا يفعله ، ودجالاً اذا لم يؤمن به . فينكش ، ويتشنج على ارادته الهدامة ، وتبدو له حرب اسبانيا ، حيث يقاتل ، « كوميديا كريهة » ، وينقض الغايـة الموضوعية التي تنقضه في غاياته : « الربح الذي سيأتيكم به التحرر الاقتصادي ، من يستطيع أن يقول لي إنه سيكون اكبر من الخسائر التي سيأتي بها المجتمع الجديد ؟ » وعندما يتبين انه سيموت من أجل لا شيء ، تأخذه الرغبة في ان يؤكد في الوقت نفسه بطلان كل مشروع : « البشر يموتون من أجل ما هو غير موجود » . لقد التزم بالعمل ليفلت من الوحدة ، فإذا به يجد نفسه وحيداً اكثر من أي وقت مضى . ولا مجال لأن ندهش بذلك : فهذا المتلاف الذي يفرط بنفسه من اجل اللـذة سيكون دوماً مغايراً لحلفائه ، وسوف يعتبرونه دومـاً مشبوهاً : فهو لم يكن مرغماً على القتال . وبالأصل ماذا يريد منهم ؟ الاخوة ، الرفقـة ، الصداقة ؟ يقيناً ، أجل . لكن هذا يعني على الأخص انه يطالبهم بأن يكونوا شهود موته . ان رفاق المغامر هم نائحات مستقبلات ، أمناء مستودع مصيره . يقول مالرو : « لا وجود لبطل بلا نظارة » .

ويعود من جديد الى العمل ، لكن هذه المرة ليرجعه الى ماهيته . انه ينظر

---

١ ـ من أبطال رواية « الشرط الانساني » لمالرو ، التي تدور احداثها في الصين . « م. ع. م »

اليه بصحو فكر ، بعيداً عن الدوافع التي ولدته والغايات التي تبرره ، في عقمه المحض : « لا قوة ، ولا حتى حياة حقة بدون يقين بطلان العمل وبدون تسلط فكرة هذا البطلان على الانسان » . وآنذاك فقط سيريده لذاته . سيريد هذا العمل لذاته ، ولحسابه الشخصي ، من غير أن يبالي بالشهود ، وآنذاك ، ومهما كانت ديمومة هذا العمل قصيرة ، فإنه يبرره . حين ينسحب عملي مني ... يذهب معه ايضاً شيء من دمي » . لكن هذا لأن العمل لم يعد محض حالة ذاتية. فهو قد شرع به كي يخرج من ذاته، ويتابعه ليعود إلى ذاته . انه يريده في الوحشة والترف ، من غير ان يموه عن نفسه عبثيته ، بلا أمل وبلا إيمان ، من أجل لا شيء . وهذا الحلم ، الذي شرع به ليبرره ، يصبح هو الذي يبرره الآن . وما من غاية متعالية يمكن ان تجعله مشروعاً . ان هذا العمل يتعلق به وحده ، انه تمرد محض لا مجد ضد مجرى الاشياء وضد الطبيعة الانسانية . ولا يعود المهم التدمير عن طريق فعل ما ، بل القيام بفعل ما يدمر نفسه بنفسه ، بطلانه بالذات يشهد على صفته المضادة للطبيعة . وطالما انه ما من شيء يستدعي المغامر ، وطالما أن كل شيء ينقصه ، وطالما انه ما من رمية نرد يمكن ان تلغي الصدفة ، اذن يبقى امامه ، شأنه شأن مالارميه الشاعر ، ملكوت اللاكينونة . ان الانسان كائن يموت من اجل ما هو غير موجود . وعلى هذا فإن العمل ، إذ يغور ويتلاشى ، يشير ، شأن شيفرة الفشل لدى ياسبرز ، إلى ملكوت ما فوق طبيعي للكائن الذي لا يتراءى إلا عبر الهزيمة والموت والخيانة . وعلى كل ، فإن داعي المغامر الى ان يضع في الفشل انتصاره اقل سمواً : ذلك ان انتصاره سيكون فشلاً . « ان التحقيق ، اذا ما جاء ، سيكون خيبة كبيرة ووهماً متبدداً » . إذن فالمطلوب ألا يجيء ابداً . المطلوب ألا تجيء ابداً جنة عدن المستقبلة تلك ، المدينة الشفقة بالنسبة الى المغامرين وحدهم . « كان الهدف ، بالنسبة إلى البصير ، الفشل وحده . كان علينا ان نؤمن دوماً بالرغم من كل شيء بأنه لن يكون هناك من انتصار ما لم ننزل الى عالم الموت ونحن نقاتل ونطالب بالهزيمة » . وفي الهزيمة والاحتضار ، يشعر المناضل والمغامر لأول مرة

بأخوة حقيقية : والحق ان المناضل هو الذي يتغير لا رجل العمل . لقد اختار الاخير ان يموت ، فسوف يموت إذن ، ولن يكون قد خسر من شيء . لكن الاول كان يريد ان يعيش، ان يبلغ هدفاً يتناءى ويختفي . كان متفائلاً ، وكانت له ثقة برؤسائه ، بعمل أحسن اداؤه : لكن كل شيء يتشوش ، ويعلم أن الربح قد يكون مستحيلاً . كان موظفاً مطمئناً ، محدود المبادهات ، معتاداً على اكتشاف وجهه الأليف في عيون رفاقه ، واثقاً من ذاته ، واثقاً من انه يجد في اعماق ذاته ارادة الحزب الحازمة كصخرة . وها هو ذا يجد نفسه مهجوراً في عزلة الهزيمة التي لا كفارة عنها ، والحزب قد غلب على أمره ، والأمل قد سحق ، ويكتشف في عيون العدو المنتصر وجهاً وحشياً ومجهولاً ذو وجهه . وتنهار أناه ، التي كان يدعمها الكثير من الأوامر والخطابات والرسائل ، وتظهر أنا اخرى ، تتفرد يأس يذكره على نحو غريب بالوحدات البورجوازية . وموته الذي موهه طوال حياته بتظاهره بأنه سيموت من اجل القضية ، يرتد نحوه على حين غرة لأن القضية قد تمزقت ولأنه يموت من أجل لا شيء . فهل خسر حياته ؟ وهل ربحها الآخر ؟

اني مدرك ان كليهما بحاجة إلى الهزيمة ليثيرا اهتمامي . بل انني سأتمنى ايضاً هزيمة حقيقية للمغامر ، اي انتصار المناضل : انه لمن مقتضيات الاخلاق ان ينتصر المناضل (وهذا يتجاوب علاوة على ذلك مع الصيرورة التاريخية) . انه على حق في كل نقطة : لقد وهب نفسه للحزب من غير ما عودة الى ذاته ، وثابر على نشاطه درغما تخاذل ، رأحب جميع اخوته ، وحين كان احدهم يفصل من الحزب ، لغلطة اقترفها كان يكف عن حبه لأنه يكون قد كف عن ان يكون اخاه . والمجتمع الذي يريد أن يبنيه هو المجتمع الوحيد العادل. ولقد كان المغامر على خطأ : لأنه كان يحمل جميع رذائل الطبقة البورجوازية من انانية وخيلاء وسوء نية . لكني بعد ان أصفق لانتصار المناضل ، أتتبع المغامر في وحدته . فلقد عاش حتى النهاية شرطاً مستحيلاً : يهرب من الوحدة ويبحث عنها ، يعيش ليموت ويموت ليعيش ، مقتنعاً ببطلان العمل وبضرورته ، يحاول ان يبرر

مشروعه بأن يسند عليه هدفاً لا يؤمن به ، يبحث عن موضوعية النتيجة الشاملة ليحلها في ذاتية مطلقة ، يريد الفشل الذي كان يرفضه ، ويرفض الانتصار الذي كان يتمناه ، يريد أن يبني حياته كما لو انها قــــدر ، ولا يعجب إلا باللحظات اللامتناهية الصغر التي تفصل الحياة عن الموت . لا حــــل لهذه التضادات ، لا تركيب لهذه التناقضات . ان كل زوج اذا ما ترك لنفسه ينحل ، فيسقط الحدان كل في جانب ، او يتلاشى من الوجود فيتلاشى الحدان بدورهما . ومع ذلــك استطاع هذا الرجل ، على حساب توتر لا يطاق ، ان يبقي على الحدين معاً ، في تضادهما بالذات . وكان الوعي الدائم هــــذا التضاد . انني انظر اليه يتناءى ، مغلوباً وغالباً ، قد تم نسيانه في ذلك المجتمع الذي لا مكان له فيه وأفكر بأنه يشهد على الوجـــود المطلق للانسان وعلى استحالته المطلقة معاً . بل أكثر من ذلك : انه يبرهن على ان استحالة الكينونة هذه هي شرط وجوده وان الانسان موجود لأنه مستحيل . والمناضل ؟ ماذا اتمنى له في فجر نهاره الجديد ؟ ان يتعلم كيف يستعيد ما لا تمكن استعادته . انني أفهم ألا يكون للورانس مكانه إلا في ظروف ١٩١٤ التاريخية ، وأن يفسر نفسه بـــدءاً من امبريالية الانكليز الاستعمارية وبالتالي بدءاً من الرأسمالية . انني أفهم ألا يظهر من جديد لورانس آخر ، ولا سيما بعد تصفية الطبقة البورجوازية. وأفهم ايضاً ألا يحبه الشيوعيون تقريباً ، واعتقد بالأصل ان له صلات وثيقة بالشر ، بيد ان مجتمعاً اشتراكياً قادماً يستحيل فيه جذرياً وجود امثال لورانس يبدو لي عقيماً . وحتى لو كان لورانس الشر بعينه في نظر الاشتراكيين ، فإنني اصر على ان الهدف يجب ألا يكون إلغاء الشر بل الحفاظ عليه في الخير .

يقول لي اسطفان : « هؤلاء هم آخر المغـــامرين ، وبعدهم لن يكون هناك غير مناضلين » . انني اتمنى ذلك اذا كان المناضلون سيحتضنون تراث فضائــل المغامرين. وأنا اعرف من الآن رجالاً جمعوا معاً بين تلك الأنا المعطاة التي تلقتوها من الآخرين من اجل النضال ، والتي يتجاوزونها في النضال ، وبين أنام الحقيقية الكائنة فيما وراء الانا . انهم لا يفكرون إلا بواسطة العقـــل الكفاحي الذي

منحهم اياه الحزب ، لكن لما كان فكرهم يرفض كل قيد فإنهم يدفعون بهذا العقل المكوَّن الى اقصى مداه ويحولونه الى عقل مكوِّن . رجال وهبوا ذواتهم كاملة للطاعة ولا يحتفظون منها بشيء ، اي شيء على الاطلاق ، فيما خلا تلك الحرية التي تهبهم بلا تحفظ . رجال خائضون حتى نخاع العظم في المعركة اليومية التي هي الموضوع الوحيد لاهتمامهم ، ويقفون في الوقت نفسه خارجاً عنها تماماً لأنهم يعلمون ان الغايات المباشرة ثانوية بالرغم من تصميمهم على بذل حياتهم من اجل بلوغها ، ولأنهم قرروا ان الرهان ليس على سعادة الانسان ، بل على الانسان المحض المطلوب خلقه . مغامر او مناضل : انني لا أؤمن بهذا الاحراج . فأنا اعرف اكثر مما يلزمني ان للفعل وجهين : السلبية التي هي مغامرة ، والبناء الذي هو انضباط . ولا بد من إحياء السلبية والقلق والنقد الذاتي في الانضباط . ونحن لن نربح إلا إذا استخلصنا جميع النتائج من هذه الحلقة المفرغة : الانسان ما يزال يتطلب ان يُصنع ، والانسان هو وحده الذي يستطيع ان يصنع الانسان .

(مدخل الى « صورة المغامر » لروجيه اسطفان – منشورات ساجيتير – ١٩٥٠).

علماء مزيفون أو ارانب مزيفة

إن ميرلو – بونتي مؤهـل أكثر مني ليقدم كتابـك للقراء . فقد كتب « المذهب الانساني والارهاب» ليتساءل عن طبيعة ونتائج الفشل السياسي. ففي مجتمع شديد الاندماج ، تحاول معارضة مـا ان تستولي على السلطة ، وسواء أربحت أم خسرت. فإن قانون العمل التاريخي يريد ان تتغير. فإذا ما كان النصر حاسماً نهائياً ، جعلت من نفسها قياس التاريخ وقررت معنى الماضي وهي تشيد المستقبل . وفي حالة الهزيمة،يكون الوضع أكثر تعقيداً. إلامَ يؤول المعارضون؟ من سيحاكمهم ؟ باسم أي مبادىء ؟ وكيف سيحاكمون انفسهم بأنفسهم ؟ هل سيقبلون بمعايير قاهريهم ؟ وبكلمة واحدة : ان المشكلة التي درسها ميرلو–بونتي تتعلق بنفي النفي : ماذا يحدث اذا لم يتمكن هـذا النفي من تفجير الاطارات التي تضيق عليه الخناق ؟ ان كتابك ، يا عزيزي دالما ، يقدم له مناسبة ليضيف ملحقاً الى دراسته : إن احداث يوغوسلافيا الأخيرة تظهر لنا المعارضة وقـد حققت نصراً جزئياً ، منقوصاً ، غـير مؤكد ، يتوجب تعزيزه . فباسم أي مبادىء ، أي قيم ، سيتم تقييمه ؟ ان تيتو لم يحصل بعد على الحق في ان يطبق مقاييسه على تاريخنا لأنه لم « ينتصر » بعد نهائياً ، لكنه أصبح له من الآن الحق في رفض مقياس الآخرين لأنـه لم يخسر . ان الغرب لا يستطيع ان يفسر الحركة التيتوية تبعاً لمبادىء الليبيرالية : انه لمن غير المباح له ان يرى في يوغوسلافيا ثلمة في الحصن السوفياتي إلا اذا توصل الى ان يجعـل من نفسه سيـد الاقتصاد اليوغوسلافي . وطالما ان الاتحاد السوفياتي ، من جهـة أخرى ، لم يتمكن من

سحق هذا التمرد ، فإنه يعجز عن تغييره حسب رغباتـــه . وحتى يكون في مكنته ان يقرر ان تيتو خائن ، فلا بد ان يكون قادراً على شنقه . وأخيراً فإن المعارضين المتآمرين في اوروبا يخطئون اذا ما رأوا في الانشقاق اليوغوسلافي دليلاً على قرب انبعاث ثورة مناهضة : فقد رفض المسؤولون اليوغوسلافيون أكثر من مرة العمـــل على تقطيع أوصال تنظيم الشغيلة الأممي . لا الليبرالية البورجوازية ولا الستالينية ولا التروتسكية تلك في ذاتها مفتاح ذلـــك الواقع الملتبس والمتحرك الذي هو يوغوسلافيا : إن المزيـة الكبيرة لدراستك هي على وجه التحديد حفاظها على التباس هـــذا الحدث . وبالرغم من انـــك لا تخفي تعاطفك - الذي أشاطرك اياه - مع النظام التيتوي ، إلا انك لا تخفي عنا لا احتمالات الخطأ ولا التهديدات الخارجية . ذلك انك تأبى ان توقف صيرورة ما تزال تجري وان تحكم عليها . وليس ذلك لأنه لا يمكن ان تتوفر لديـــك اليوم جميع العناصر التي ستسمح لك بتقييم تلك الصيرورة فحسب ، بل أيضاً وعلى الأخص لأن لديك قناعة - بالغة الندرة اليوم لدى الماركسيين - بأن المستقبل لما يصنع بعد .

ومع ذلك ليس كتابك لا تحقيقاً صحفيا ولا عرضاً وصفياً صرفاً - يقينا ، انه هذا أيضاً . فأنت أحد القلائل في فرنسا الذين قدموا وثائق أخـــذت من منابعها ومصادرها عن انشقاق تيتو وعن التصنيع اليوغوسلافي وعن مضاعفة التعاونيات الفلاحية الخ . وفي الوقت نفسه تعرف كيف تعطي عرضك ، بين حين وآخر ، قوة الاقناع الحي والمتحمس التي تملكها الشهادة . لقد رأيت تيتو وجعلتنا نراه . لقد حادثته وانت تجعلنا نشهد المحادثة . لكن ما يعطي هـــذا المؤلف قيمة استثنائية هو انه أول محاولة لتفسير الانشقاق التيتوي عميقاً . انك لا تطبق على هذه الواقعة التاريخية أي مبدأ قبلي : فقد تركتها تعرض نفسها امامنا عبر منظورات الديالكتيك الماركسي ، لكنك بدلاً من ان تفسرها قسراً باسم ماركسية خصوصية ، اعتبرتها تجربة حققها التاريخ تثبت صحة المنهج الذي يسمح بتفسيرها وتتممه في بعض نقاطه وتعدله في نقاط أخرى . إن هذه المحاولة

جديدة بما فيه الكفاية ، فهي تترك الحدث يجري تحت بصر القارىء ، بمـــلء الحرية ، وتكتفي بأن تظهر لنا كيف تولد الوقائع ديالكتيكها الذاتي . انهـــا محاولة جديرة بأن تكون مثالاً يحتذى .

ما دمت انا الذي اقدم لكتابك ، فسوف احاول ان احــــدد اهمية الحركة التيتوية . لا اهميتها في ذاتها ، هناك ، عند التخوم السوفياتية ، بل اهميتها هنا، بالنسبة الينا نحن مواطني ديموقراطيات الغرب . وسوف أحـــاول ، مقـــلداً منهجك ، ان أترك الوقائــع تنتظم من تلقاء نفسها . وبالرغم من ان لغتي ليست لغة ميرلو – بونتي منة بالمنة ، فسوف أتخــذ مكاني في اطار اهتمامات « المذهب الإنساني والارهاب » لأستجوب هذه الوقائع .

إن العقول التي أرادت ان تحدد قبلياً معنى التجربة اليوغوسلافية ، حاولت هي ذاتها ان تقرر قبلياً الأهمية التي يجب ان تأخذها هـــذه التجربة في نظرنا . فالبعض لا يريد أن يرى في تيتو سوى تابع وظيفته الوحيدة ان يؤجج جرحاً حياً في جنب الاتحاد السوفياتي : وهذا لأنهم راهنوا سلفاً على القوة الاميركية ، ولأنهم اختاروا سلفاً الحرب . وقرر الآخرون ان أهمية التيتوية تكمن في التأثير الذي يمكن ان تمارسه على بروليتاريا الغرب : لكنهم عبثاً يحاولون ، كما بينت أنت بما فيه الكفاية من الوضوح ، ان يستثيروا حماسة الشغيلة الفرنسيين للمرافعة مع تيتو أو ضده . فهــذه المرافعة لا تشغل حتى الآن سوى بال المثقفين الذين هم عاجزون بالأصل . واذا ما حاولنا على العكس ان نترك الحـــدث اليوغوسلافي يحدد بنفسه اهميته في التطور الديالكتيكي وعن طريقه ، وجدنا ما يلي : لقـــد ارتفعت ، من جميع الجهات ، في الأوساط اليسارية احتجاجات ، ولا سيما منــذ التحرير ، ضد مـــا يمكن ان يسمى بالمذهب الموضوعي الستاليني[1] . إن ذواتاً

---

١ – انني أستخدم هذا التمييز آسفاً لأنه يبعث على الخلط . وبالفعل ان الستالينيين يطلقون اسم « مذهب موضوعي » على موقف معين في الفلسفة والتاريخ البورجوازي يزعم انه ينظر الى المذاهب السياسية والاجتماعية والى الصراعات السياسية على حـــد سواء « بشكل موضوعية » باسم الحقيقة المطلقة. وهذا الموقف المثالي النزعة يجد في كل رأي حقيقة معينة ، وفي كل سلوك قيمة =

المذهب الموضوعي من قبل حركة التاريخ بالذات . فلو حقق المعارضون نصراً مطلقاً، لكانوا سادة الموضوعية. ولو كانوا غلبوا على أمرهم، لسحقتهم موضوعية الغالب. وانتصار تيتو تنصفه يعلي من شأن الذاتية لدى المسؤولين اليوغوسلافيين، وينقل عدواها الى المسؤولين السوفياتيين .

وليس أسهل ، بالفعل ، من نسب نزعة هؤلاء الأخيرين الموضوعية الى عنادهم . فهذه النزعة هي في الحقيقة ظاهرة معقدة تكمن جذورها في موقف موضوعي وفي تقييم ذاتي لهذا الموقف . وانه من السهولة والضرورة معاً أن ننسب دوراً معيناً الى ذاتية الجماهير حين تكون هذه الجماهير ، في بلد رأسمالي وعالي التصنيع ، تجسيداً لتناقضات المجتمع بأسره . وتلك كانت الحال على سبيل المثال في ألمانيا روزا لوكسمبرغ[1] . كتب ماركس : « حين تعلن البروليتاريا عن انحلال النظام الاجتماعي الراهن ، فإنها تكشف بذلك عن سر وجودها بالذات ، لأنها تشتمل في ذاتها على الانحلال الفعلي لهذا النظام الاجتماعي » . وفي هذا الوضع السلبي للبروليتاريا التي هي بحد ذاتها « تفسخ المجتمع بصفته طبقة خصوصية[2] » ، يكون هناك تطابق كبير بين ردود فعلها الأكثر مباشرة وبين مهمتها التاريخية بحيث ان وعي الجماهير هو الذي يتسم مثال الراديكالية . ونتيجة مطالباتها التلقائية هي التعجيل بانحلال المجتمع الرأسمالي ، في الوقت نفسه الذي تعبر فيه عن طابع البروليتاريين العميق . ان الطبقة المضطهدة « ذات طابع شمولي نتيجة آلامها الشمولية » ، وهي « لا تستطيع ان تتحرر من سائر دوائر المجتمع من دون ان تحررها جميعاً بالتالي » . إذن فوعي الجماهير له حقيقة عملية لأنه التعبير الضروري عن موقف معين ولأن مطالباتها تنطوي على تجاوزها الذاتي نحو مجتمع « يكون فيه الانسان الكائن الاسمى بالنسبة الى الانسان » . ولهذا يمكن لماركس ان يستخدم تعبير الواجب

---

١ - اشتراكية وماركسية ألمانية، أكدت على الدور الذاتي للجماهير وساهمت في ثورة ١٩١٩، واشتركت في تأسيس حزب السبارتكيين الماركسي (١٨٧٠ - ١٩١٩) . « م.م »

٢ - « مساهمة في نقد فلسفة الحق » - المؤلفات الفلسفية - المجلد الأول - ص ١٠٦ .

الخُلقيّ ليحدد خصائص المطالبات التي يرجع أصلهـا الى المصلحة المباشرة : « حين يجاهد العمال كيما يرجعوا يوم العمل الى حدوده المعقولة القديمـة ، او حين يسمون الى عرقلة إرهاقهم بالعمل عـن طريق رفع الأجور عندما لا يكون بإمكانهم الحصول على تحديد مشروع ليوم العمل الطبيعي ... فإنهم إنمـا يؤدون واجباً تجاه أنفسهم وتجاه دورهم ويضعون حدوداً لاستبداد الرأسمال الجـائر الاستثماري[1] » . ولما كان وضع البروليتاريا هو الانحطاط ، لذا يكون رد فعلها تمرداً على انحطاطها او نفياً له ونفياً للمجتمع الرأسمالي . وتكون البروليتاريا آنذاك نفي النفي . وعملها بصفته تدميرياً ، هو دوماً كل ما يمكنه أن يكونه ، ويبلغ دوماً هدفه . ان البروليتاريا لا تستطيع ان تعيش من غير ان تطـالب لأنها مجردة من كل شيء ، ولا تستطيع ان تطالب من غير ان تهدم لأن المجتمع البورجوازي لا يتوطد إلا عـن طريق سحق العامل . ولهذا يلح ماركس على تحرر البروليتاريا الذاتي،ولهذا تكتب روزا لوكسمبرغ : « ان الدور الوحيد لقادة الحركة الاشتراكية – الديموقراطية « المزعومين » هـو تنوير الجماهير حول رسالتها التاريخية...وحظوة «الزعماء» وتأثيرهم في الديموقراطية الاشتراكية... لا يزدادان إلا بقدر ما يحملون من الجماهير القائدة ومن أنفسهم الأجهزة التنفيذية لعمل الجماهير الواعي[2] » .

لكن إذا كانت هناك وحدة عضوية ، في مرحلة الهدم ، بين ردود الأفعـال المباشرة والمصالح البعيدة للبروليتاريا ، فإن هـذه الوحدة تنفصم في مرحلة البناء ، أي عندما تستلم البروليتاريا السلطة . ان التصور الذي قالت بـه روزا لوكسمبرغ في نطاق ألمانيا الامبراطورية لم يعد من الممكن القول به عام ١٩١٧ في روسيا السوفياتية . إن الهم الأول للقادة في بلد بلا أدوات وبـلا إطارات سيكون تحقيق الشروط المادية لحل المشكلات التي خلقتها الثورة . وانك لعلى صواب كبير حين تلاحظ ان ماركس « كان يتوقع التحول الثوري في البلدان

---

١ – « الأجور والأسعار والأرباح » .
٢ – الماركسية ضد الدكتاتورية : « الجماهير والزعماء » ص ٥٠ – دفاتر سبارتاكوس .

الرأسمالية المتقدمة » ، وان « الثورات حدثت جميعها حتى الآن في بلدان « متخلفة » بل « مستعمرة » . وينجم عن هذا ان وعي الحركة الثورية متقدم على اقتصاد البلاد . وعلى البروليتاريا ان تعطي عقيدتها اقتصادها » . بيد ان قلب المشكلة يؤدي الى انفصال حاجات الطبقة البروليتارية ومصالحها المباشرة من جهة ، والتركيز على الانتاج من الجهة الثانية . وفي مثل هذه الحال لا يعود بوسع سياسة البناء ان تستلهم ردود أفعال الجماهير العفوية ، وبالمقابل تهدد ردود الأفعال العفوية بأن تسير في عكس اتجاه المصالح العامة للاقتصاد . فقبل الثورة كانت كل حركة غاضبة أو يائسة مستندة الى ألم او حاجة خاصة شمولية وذلك بقدر ما تكون فردية . وبعد الثورة تظل هذه الحركة عينها فردية ومناهضة لما هو شمولي عام . وماركس يشرح ان الشكل الثوري للعامل في المرحلة ما قبل الثورية ينجم عن « التناقض بين طبيعته الانسانية وبين وجوده الحيوي الذي هو النفي العلني والنهائي والشامل لهذه الطبيعة[1] » . بيد ان هذا التناقض يظل قائماً في الآونة الاولى من المرحلة ما بعد الثورية . ولا ريب في انه يمكن تحقيق تلبية جديدة لهذا التناقض عن طريق الدعاية ، وتحويله الى « تضحية مرتضاة » ، لكن هذه الفكرة مضافة إضافة الى المصلحة بدلاً من ان تصدر عنها . وفي تلك الفترة من المجاعة والحرب الأهلية المصحوبة بحرب اجنبية تهدد حركة العامل العفوية بأن تكون هدامة : تهدد برفض العمل المكثف ، وبتطلب رفع للأجور وسياسة إسكان الخ . واذا كانت الشروط العامة تقتضي تعبئة جميع قوى البلاد لخلق صناعة ثقيلة على وجه خاص ، يصبح من المستحيل استثارة وعي الجماهير ، باعتبار ان مصلحة العامل هي أن يحذف « التناقض بين طبيعته وبين وجوده » أي ان يطالب بخلق وتطوير صناعات استهلاكية . وبديهي انه يمكن اقناعه ، لكن الذي سيقنعه سينطلق من معرفة الضرورات الموضوعية الى التأثير المركز على الوعي الطبقي . وبعبارة اخرى ، سيؤثر من الخارج على ذاتية الجماهير . إن الاختصاصي يكف عن ان يكون منتمياً الى

---

١ – العائلة المقدسة – ص ٢٠٥ .

الجماهير البروليتارية ، وعن ان يكون معبراً عنها ، وعن استلهامها : بل يقف خارجاً عنها ، لا تشغله سوى المشكلات التي لا يستطيع الشغيلة ان يقرروا شيئاً بصددها على الاطلاق .

اذن فالجماهير الثورية التي كانت متقدمة على الاقتصاد في المرحلة ما قبل الثورية تصبح متخلفة عنه بعد الثورة نتيجة انقلاب شيطاني .

وانما في هذه اللحظة يتدخل التقييم الذاتي ويختار القادة السوفياتيون سياسة معينة وتصوراً معيناً للإنسان . ولقد كان ممكناً ، حتى في هذه الظروف الصعبة، ان يعتبر الكائن الإنساني كائناً متقدماً دوماً على وضعه ، وأن تستخلص من هذا التجاوز الوسيلة لتكوين ذاتية بناءة. كان ذلك ممكناً في اطار الماركسية بالذات . ذلك ان فكرة ماركس في هذا الموضوع ملتبسة . وصحيح انه كتب: « ان افكار الدماغ البشري المشوشة هي تصعيدات ضرورية لصيرورتهم الحيوية المادية ، القابلة للفهم تجريبياً والمرتبطة بشروط مادية » ، وبالفعل يبدو ان هذا يعني أن الوعي ، ذلك النتاج الهامد الصرف للشروط المادية ، لا يستطيع ان يتجاوز اللحظة الحاضرة ، وعليه ان يكتفي بأن يعكسها سلبياً[1] . لكنه يكتب أيضاً : « ... ان ما يميز من البداية أسوأ المهندسين المهاريين عن أكثر النحلات خبرة هو انه بنى النخروب في رأسه قبل ان يبنيه في خليته. والنتيجة التي يفضي اليها العمل تكون موجودة سابقاً بصورة مثالية في مخيلة العامل . وليس ذلك لأنه يدخل تغييراً شكلياً على المواد الطبيعية فحسب : بل يحقق فيها في الوقت نفسه هدفه الخاص الذي هو واعٍ له والذي يحدد نمط عمله كقانون ، والذي يتوجب عليه ان يخضع له ارادته[2] » . لكن القادة السوفياتيين، بدلاً من ان يعمقوا اقتراحات ماركس ويشيدوا نظرية عن الذاتية متلائمة مع المرحلة الجديدة من الثورة ويحددوا الى أي حد يمكنهم ان ينسقوا بين توجيه الوجدانات من الخارج وبين التوضيح التدرجي لنياتهم المشوشة ، بدا عليهم

١ - العائلة المقدسة - ص ١٥ - ١٦ .
٢ - الرأسمال - المجلد الأول - ص ١٩٣ .

وكأنهم ذهلوا على الأخص بالهوة التي تنفصل بين الذاتية الشعبية وبين ما سماه ماركس « الفهم النظري للحركة التاريخية في مجموعها » . ان المعرفة النظرية والعملية للصيرورة التاريخية تصبح علماً وتقنية يُعدّ لها الاختصاصيون. وهكذا سبقت الصناعة لفترة من الزمن العلم : فقد كان البشر يبنون المراكب قبل ولادة أرخميدس بمدة طويلة . وكان الحدس يسمح لهم بتجاوز النظرية عن طريق الممارسة . لكن التعقد التدريجي للأنظمة العلمية أدى في النهاية الى عزلها عن الفنون والمهن . وبالرغم من أن هذه الأنظمة بمتناول الجميع نظرياً ، لكنها في الواقع وقف على ارستقراطية صغيرة من الاختصاصيين . وما يزال في وسع العمال أن يمارسوا عدة مهن ، لكن اختراعات الصناعة ينتجها بالضرورة سلك من التكنيكيين كونه العلماء . وهذا الانفصال الذي نلقاه في المجتمعات البورجوازية بين محترفي الموضوعية (العلماء ، المهندسون ، الاحصائيون) وبين الجماهير العاملة هو الانفصال الذي قام في الاتحاد السوفياتي بين الايديولوجيين والقادة من جهة ، وبين الطبقة العاملة من الجهة الأخرى . ولهذا يمكن للشاغين ان يكتب شارحاً ستالين : « ان أنجع سلاح في يد البروليتاريا ... هو نظريتها الثورية الخاصة . وإذا ما ارتبطت هذه النظرية ارتباطاً غير قابل للانفصام بالحركة الثورية للطبقة العاملة، فإن مبدعها يكون حزب البروليتاريا في شخص قادته وايديولوجييه[1] ». ولقد سبق لروزا لوكسمبرغ قبل حرب ١٩١٤ ان وقفت ضد هذا الاتجاه وأخذت على لينين عن طريق قلب للمواقف مثير للفضول « مذهبه الذاتي » : « انه ليخيل إلينا اننا نميز في هذه الرغبة ... في فرض وصاية لجنة مركزية مطلقة المعرفة ومطلقة القدرة لحماية حركة عاملة ، حافلة بالوعود مليئة بالنسغ ، من الوقوع في بعض الخطوات العاثرة ، أقول يخيل إلينا اننا نميز في هذه الرغبة أعراض نفس ذلك المذهب الذاتي الذي سبق له ان نصب أكثر من مقلب واحد للفكر الاشتراكي في روسيا[2] » . لكن هذا المأخذ إن لم يكن ظالماً فهو على

---

١ – تشاغين : فكر الحزب في الفلسفة – المنشورات الاجتماعية – ص ٣ .

٢ – المركزية والديمقراطية ، مقال شهر عام ١٩٠٤ .

الأقل سابق لأوانه . فليست هي الأنا ، بخلاف زعمها ، التي تأخذ بثأرها . فالأنا والذاتية قد تلاشتا معاً .

إن الجماهير الشغيلة مطوعة الصلة بوعيها العفوي ، وهي تكتشفه أمامها « مشيئاً » ، وآخذاً طابعاً موضوعياً ، شأن قوة عملها في المرحلة ما قبل الثورية . وهي لا تملك لغز هذا الوعي بنفسها ، بل تتعلمه عن طريق قادتها ، وتتعرف نفسها أولاً كمواضيع عن طريق وساطة هؤلاء القادة . وإذا كانت قوة عملها لم تعد محض بضاعة ، إلا انها ظلت منفصلة عنها ، وما قاله ماركس عن الصناعة البورجوازية يظل صحيحاً : « لا ينبغي أن نقول ان ساعة إنسان تساوي ساعة إنسان آخر ، بل ينبغي ان نقول ان انسان ساعة يساوي انسان ساعة آخر »

لكن لا ينبغي ان نستنتج من هذا ان الذاتية توجد على مستوى القادة . وحين تكون إحدى الطبقات الاجتماعية مستلبة ، فإن الاستلاب يمتد ، كما بين ذلك لوكاش[1] بعد ماركس ، الى درجات المجتمع كافة . وفي المرحلة التي تسقط فيها البروليتاريا ، ذات التاريخ ، خارج الوعي النظري والعملي لهذا التاريخ ، تصبح بالنسبة الى ذاتها مادة محضة للتاريخ ، موضوعاً سالباً . لكن القادة المنفصلين عن العامل التاريخي لا يؤثرون على التاريخ نفسه في هذه الحال إلا من الخارج : فيصبح هذا التاريخ شيئاً في ذاته يمكن تأمله ومعرفته ، ويمكن التأثير عليه من الخارج تبعاً للقوانين محددة . انهم يؤثرون إذن بصورة غير مباشرة على التاريخ بتحديدهم العامل التاريخي من الخارج كموضوع ، لكنهم لما كانوا قد كفوا عن أن يكونوا انبثاقاً لوعي الجماهير ، فانهم يكفون بالتالي عن صنع التاريخ مباشرة . هم خاضعون إذن للموضوعية بصورة لا تقل جذرية عن خضوع الجماهير الشغيلة لها . والحق ان هذه الجماهير موضوع بالنسبة الى القادة و ، « بالتالي » يعرف القادة التاريخ كموضوع خارج عنهم . وهم بالنسبة الى الجماهير كعالم القرن التاسع عشر بالنسبة الى النظام التجريبي : في الخارج . بينما نجد ان بيبل[2] وروزا لوكسمبورغ

---

١ – جورج لوكاش : فيلسوف مجري ماركسي معاصر . (م.ع)

٢ – أوغست بيبل : أحد مؤسسي الاشتراكية – الديموقراطية الألمانية وماركسي بارز (١٨٤٠ – ١٩١٣) . (م.ع)

في معرفتها وفي عملهـــا قريبان من العالم المعاصر الذي يعتبر ان المجرب يشكل جزءاً من النظام التجريبي . وخلاصة القول ان القادة السوفياتيين بتحويلهم وعي الجماهير الخلاق الى موضوع وبلفظهم خارجاً عنهـــا ، لم يعد لذاتيتهم من ضمانة نظراً الى أنها غير مدعومة بذاتية الجماهير : لم يعد يرفدهـــا نهر « الروح[1] » الشعبية الكبير الذي ما يزال موحلاً لكنه عارم قوي ، فهي تذبل وتعتبر نفسها مفتقرة الى حق والى أساس . وهم في الوقت نفسه معلقون في الهواء نظراً الى ان وضعهم كقادة فصلهم عـن الشرط البروليتاري : انهم يستطيعون ان يضعوا أيديهم على تناقضات الموقف الموضوعية لكن ليست هـــذه التناقضات هي التي تكونهم وهم لا يستطيعون ان يستفيدوا من قوتهـــا المنتجة . وبالتالي ليسوا في الواقع سوى المعرفة المحضة للموضوعي والتأثير الوحيد الذي يمارسونه عليـــه تأثير تنسيقي ليس إلا ، أي عنلـــم الشبه بذلك الحساب العقلي الذي يرى فيه لوكاش الوظيفة النظريـــة — العملية للبورجوازية الصناعية . وهكـــذا تصبح الجماهير موضوعاً سالبـــاً ولاواعياً للتناقضات التاريخية بينما يكون القادة والايديولوجيون وعيـاً مجرداً خالصاً لهذه التناقضات . ولمـــا كانت وظيفتهم الوحيـــدة تنسيق المعطيات الموضوعية ، فإنهم يدركون من الخـــارج أسباب الظاهرات والقوانين التي تسيّر هذا الانسياب[2] . إذن فليس المنهج كامناً فيهم ،

(١) ماركس هو الذي استخدم هذه اللفظة .

(٢) ان كوريا ، على سبيل المثال ، المقسومة الى قسمين ، هي تناقض خاص . وقد كان لا بد ان ينشب صراع بين الشمال بنتائجه للتصنيع والعقلنة وسعيه الى إقامة نظام اشتراكي ، وبين الجنوب باقتصاده المتخلف ونظامـــه الاقطاعي وملكيته الزراعيـــة الكبيرة . لكن السياسة السوفياتية الخارجية ، بحفزها الى هذا الصراع من الخارج ، عبر منظورات الدفاع عـــن المعسكر السوفياتي ، وباعتبارها له واحداً من عوامل الموقف الدولي وتطوره ، وبتحديدها تبعاً لهـــذا الموقف التاريخ والساعة اللذين يمكن ان يتـــاح فيهما هجوم شمالي اكبر قدر من فرص النجاح ، وبرسمها الموقفين المحتملين للاتحـــاد السوفياتي في حالة النجاح وفي حالة الفشل ، تستخدم اشلاء فلاحي الجنوب او حماسة الشماليين الثورية كبيدق في رقعة شطرنج ، بحيث يكون الكوريون عملاً واعياً للتاريخ بالنسبة الى انفسهم ، وأداة مسيرة من الخارج بالنسبة الى القادة السوفياتيين . لقد أصبح الوعي الثوري للجماهير الكورية بالنسبة الى الزعماء السوفياتيـــين عنصراً من عناصر حساباتهم الموضوعية .

وهو لا يكشف عن علاقتهم الحية بالموضوع . بل هو بالأحرى قاعدة موضوعية للموضوعية . انـــه يتجمد من الخارج ، يتعظم ، يصبح قاعدة ساكنة خالصة للتغير . وتموت الماركسية وتصبح سكولائية . وعلاوة على ذلك فإن العودة الى التحليل البورجوازي تجهز على ما تبقى فيها من الديالكتيك وتحولها الى تحليل للشروط المادية للصيرورة التاريخية . إذن فمن غير الصحيح ان الذاتية هي المطلب الأخير للنظام السوفياتي ، على الأقل عندما ننظر إليه قبل انشقاق تيتو. ان القـــادة والبيروقراطية التي تنفذ أوامرهم هم ضحايا الموضوعية كما ان البورجوازي ضحيـــة الرأسمال . والذاتية لا وجود لهـــا في أي مستوى من مستويات النظام . أو هي بالأحرى موجودة في كل مكان ، لكن مقنعة ، غير منظورة : موجودة كهرب من الذات نحو الموضوعية . بيـــد انهم اعطوها مع ذلك مكانها في النظام . انهـا مدانة وتتبدى كصفة موضوعية معينة للموضوع . وهذه الذاتية الكاذبة تتجاوب بدقة مع مـا يعتبره لوكاتش الذاتية في المجتمعات البورجوازية : « نتيجة لعقلنة صيرورة العمل ، تبـدو صفات الشغيل الانسانية وخصوصياته أكثر فأكثر وكأنها محض منابع للأغلاط والأخطاء تعارض العمل المتوقع والمحسوب لتلك القوانين المجردة والجزئية » . وأي عجب في ذلك أصلا طالما أن لينين ، نظري المركزية الأول ، أمكنه ان يكتب هـــذه العبارات الفظيعة متناسياً كلياً نظرية التشيؤ (التي تقبل عن طواعيـــة بأن ينظم المعمل الشغيلة لكن كأشياء) : « تتهمني الايسكرا[1] بأنني أتصور الحزب كمعمل ضخم على رأسه مديره ، اللجنة المركزية ... ان هذا المعمل الذي يبدو للبعض وكأنه فزاعة ولا شيء آخر هو الشكل الاسمى للتعاون الرأسمالي الذي ضم البروليتاريا وضبطها وعلمها التنظيم ... والماركسية ، عقيدة البروليتاريا التي ثقفتها الرأسمالية هي التي علمت وتعلم المثقفين المتقلبين الفرق بـــين الجانب الاستغلالي من المعمل (الانضباط المبني على خوف الموت من الجوع) وبين جانبه التنظيمي (الانضباط

---

١ ـ ومعناها بالروسية الشرارة، وهي اول صحيفة ماركسية عامة اسسها لينين عام ١٩٠٠ ، ثم استولى عليها المنشفيك عام ١٩٠٣ . « هـ. م »

البروليتاريات ، الناقصة التكوين ، المحتقرة بسبب عدم انضباطها ، متروكة لمصيرها مؤقتاً : ومطالباتها المشروعة تستخدم لتغذية شغب مشوش في اوروبا يعرقل الانتاج ويسيء الى سمعة الحزب في الوقت نفسه . وفي بلدان الكتلة السوفياتية ، من هو البيروقراطي الذي ما يزال يعرف ما هي الذاتية ؟

إن البيروقراطي ، الوسيط بين موسكو وبين أبناء وطنه ، يعرف انه موضوع بالنسبة الى القادة السوفياتيين ، أما الموقف الذي يفك لغزه وينظمه ، فهو لا يدركه إلا من خلال الصفة الموضوعية التي يضفونها عليه في اطار الظروف العالمية . انه يلائم ، هو الموضوع والمنظور اليه كموضوع ، البنى المحلية الموضوعية مع الموقف الموضوعي الذي ينعكس عبر المتطلبات السوفياتية . وحين توصي البعثات التجارية على « طلبات » ، يتوجب على الموظف ان يوجه الانتاج المحلي وينشطه حتى يمكنه ان يسلم هذه الطلبات في موعدها المحدد . وهذا النشاط التنظيمي يتم من تلقاء نفسه على اساس الحساب والاحصاء .

ولهذا أرى انه من فادح الخطأ ان نفسر « العصيانات » ، الجهضة التي قام بها الألباني دزودزيه والبولوني غومولكا والمجري راجك والبلغاري كوستوف بأنها اكتشاف ومطالبة بحقوق الذاتية . إن نقطة الانطلاق على العكس ، كما تشير الى ذلك ، هي ، في كل حالة ، تناقض موضوعي بين المتطلبات السوفياتية والمهام التي تفرضها صيرورة التشريك المحلية . وهذه التناقضات ليست بالضرورة محسوسة من قبل الجماهير ، او اذا كان السكان يشكون منها ، فإن التمرد لا يولد على كل حال من هذا الصدام المعاش والمحسوس : فما هذا التمرد إلا وعي البيروقراطي الذي يلاحظ التضاد والتناقض من الخارج شأن عالم الرياضيات الذي قد يكتشف اخطاء في صياغة المعادلة . إن استياء الفلاحين او العمال لا يظل غير ملحوظ : لكنه يقيم كمعطى موضوعي وكتعبير وعلامة عن التناقض . حين ألقى كوستوف خطابه في صوفيا في ٨ ايلول ١٩٤٧ ، تجلى له هذا التناقض وكأنه محفور في الأشياء . فمن جهة اولى ، تلك العقيدة الجامدة الثابتة عن « الدفاع الدائم عن الوطن السوفياتي » : كيف السبيل الى الشك في موضوعيته ؟

فالاصطفاء البيروقراطي اختار كوستوف على وجه التحديد ليستخلص النتائج العملية من تلك الموضوعية ، وكوستوف لا يستطيع ان يرى نفسه إلا على انه ذلك الموضوع المكلف بتطبيق سياسة مناصرة للسوفييت وذلك الوعي المجرد الذي يدرك الضرورة الموضوعية لهذه السياسة . لكن الموظف كوستوف مكلف من جهة أخرى ، وفي اطار الدفاع عن الحصن الروسي ، بتشريك بلغاريا على مراحل وتبعاً لمناهج مجربة . والحال ان الاستغلال الاقتصادي لبلغاريا من قبل الاتحاد السوفياتي يجعل هذا التشريك مستحيلاً عملياً. واليكم المظهر الآخر للموقف الموضوعي : « مهما تكن الظروف فلن نسمح بتدخل اجنبي في قضايانا الداخلية. إن الشعب البلغاري يعرف حق المعرفة انه بدون استقلال وبـدون سيادة لا يمكن ان توجد ديموقراطية شعبية ولا تصنيع ولا كهربة ، ولا ملكية وحياة سعيدة للشعب » . بيد أن التناقض يتابع تحويل الموظف : فهو برغمه ، يتكشفه عن انه الصراع بين مهمتين متنافرتين لا يمكن تجاوزهما وتحددانه في واقعه ، على ان يختار نشاطاً يحدده في كينونته ، بصرف النظر عن كل نشاط آخر ؛ وباختصار يرجعه الى الذاتية[1] . وينتقل التناقض اليه ، تحت شكل صراع بين الموظف – الموضوع الذي يتحدد بتطبيق التعليمات السوفياتية وبين الوعي المجرد الذي يعكس فيه الاستحالة الموضوعية . لكن لا ينبغي ان نظن ان اكتشاف ذاتيته يفعمه بالسعادة . فهذه الذاتية تتجلى له على العكس في القلق ، وهي مندمجة علاوة على ذلك بالنظام الموضوعي النزعة ، ولقد اعتبر الذاتية دوماً « منبعاً للأغلاط والأخطاء» . وعلى هذا فإن اللحظة الذاتية ليست بالنسبة اليه سوى مرحلة انتقالية ، وهدف « تردده » حذف التناقض في الموضوع وبالتالي محو اللحظة الذاتية في شخصه. ويبدو انه من المرجح ان تلك العصيانات المزعومة لم تكن تهدف إلا الى إرساء اسس سياسة حزم تجاه الاتحاد السوفياتي للحصول من موسكو على ترتيبات تسمح بمتابعة التشريك مع الاستمرار في تأمين الدفاع

---

١ – ان التناقضات الجزئية التي صادفها في عمله اليومي تنحل في الهدف وفي اطار المعتقدات المكونة ، ولا ترجع الى الذات .

عن المحضن السوفياتي وبذلك يكون البيروقراطي، عن طريق توفيقه بين مهامه، قد استرجع الموضوعية .

والحال انه في كل مرة يفشل ، ويسجن ، ويحاكم . فكيف سيفهم فشله ؟ انه لا يملك ان يميز الذاتي من الموضوعي . ولا يستطيع ان يلجأ بالتالي الى تفسير ذاتي النزعة : « لقد اخطأت التصرف » . ذلك ان كونه قد اخطأ التصرف بالذات يعني ، في منظور المذهب الموضوعي المطلق ، انه لم يكن بوسعه ان يحسن التصرف . وبالفعل ماذا يتوجب عليه ان يقول ؟ « لقد عجلت بالتصرف، ام « تأخرت » ؟ لكن الموضوعية هي التي تحدد بنفسها لحظة الشروع : ولا ريب في ان الأوان كان قد فات حين انكشف التناقض . لكن قبل ان ينكشف كان الأوان مبكراً بعد،نظراً الى ان هذا التناقض لم يكن قابلاً لأن يكشف أو على الأقل لم يكن باعثاً على القلق بما فيه الكفاية ليبرر عملاً ما . هل سيقول : « سينجح آخرون » ؟ لكن جميع الذين يمكنهم ان ينجحوا والذين يعدون على اصابع اليد قد فشلوا معه : ما دام البيروقراطي قد انفصل عن الجماهير ، فإنه لا يستطيع ان يعتمد في البداية على المساهمة الشعبية ، ويأخذ تمرده في مستهله وجه تآمر . « أكنت على حق ؟ أأنا على حق حتى في فشلي ؟ » . ان هذا الموقف شعري : إن مالارميه يغوص في قاع البحر ، مقهوراً ومنتصراً ، لكن الموظف في جمهورية شعبية لا يقامر إلا على اساس: من يخسر يربح . والنجاح هو معيار الحقيقة . اذن فهو مخطىء : وما كان بوسع مشروعه ان يأخذ مكانه في الواقع . لقد كشف العقل الموضوعي عن حقيقته ، عن واقعه المطلق ، وعن ضرورة كل حركة من حركاته عندما جاءت لتتحطم على صخرة ذلك العقل الموضوعي . لكن الكارثة تصالحه مع نفسه لأن الفشل يكشف له عن الدلالة الحقيقية لتلك الذاتية التي ما تزال متسلطة عليه كذكرى حلم: انها عدم ، تناه، عجز . وكل ما هو موضوعي واقعي ، وكل ما هو واقعي موضوعي . ولقد كان تفسيره للموقف العيني خاطئاً . أي عدماً . لقد أراد ان يصدر حكماً بدون ان تتوفر لديه العناصر ، وهذه العجلة نتيجة عيب في طبعه . وبالفعل ان العمل

الأمثل هو تلاؤم أمثل مع متطلبات الموضوع ، اذن فالذاتية لا تستطيع ان تفعل شيئاً سوى ان تفسد هذا التلاؤم . ان الكبرياء والادعاء وضيق النظر قوى سالبة أو بالأحرى غياب كينونة . واذا كان يُخيّل اليه لحظة من الزمن انه سينجح ، واذا كان مشروعه قد حظي ببداية تنفيذ ، فهذا لأنه تقيد بالقواعد الموضوعية . وهو انما يستمد فعاليته من الموضوعي . لكن هذه المساعدة تتبخر من تلقاء نفسها عندما يسعى الى تحويل القوى الموضوعية ضد الموضوعية . ان المذهب الموضوعي الذي استعاد انسجامه المادىء على هذه الصورة يقترب هنا من أخلاق كلوديل : « الأسوأ ليس مؤكداً دوماً » . وهكذا يصبح الموقف متواطئاً مع قضاته : ففي الوقت الذي يحكم فيه على الذاتية بالا تكون سوى محض غياب ، يصور هؤلاء التآمر الذي حاك شباكه وكأنه النتيجة الضارة الموقف الذاتي . انه متفق معهم على النظر الى الذاتية لا باعتبارها تأويلاً معيناً للموضوعي بل نفياً لهذه الموضوعية : انها بالنسبة اليه كما بالنسبة اليهم العدم الذي يهب الكائن قوته ليقلبها ضده . وباختصار : انها الشر . وفي نظره كما في نظرهم، ليس الفشل النهائي للمشروع إلا الدليل على ان الشر عاجز ، وهو يعزز تفاؤلهم المفروض بالارهاب . ولا بد ان يغالي القضاة أكثر من ذلك أيضاً : فما هم إلا موظفون مهمتهم ان يقدموا التقارير للسلطات العليا . وتظل المشكلة هي هي في التيوديسيات[1] كافة : الواجب الأول هو تبرئة الله . وبالفعل لا يكفي ان يوضع الخير والحق والنظام والموضوعي والكينونة في جانب ، والشر والخطأ والذاتي والعدم في الجانب الآخر : بل لا بد أيضاً من تفسير العدم . ذلك ان الشر غير كائن ومع ذلك هناك شر ، والخطأ ليس شيئاً ومع ذلك يخطىء الانسان . ومهمة الكتبة هي ان يبينوا ان اللاكينونة تأتي من الكينونة وانه لا وجود لها إلا عن طريق الكينونة وإن الكينونة مع ذلك ليست مسؤولة عنها البتة . « الادارة لا تتحمل أي مسؤولية ... » . فبالنسبة الى ديكارت على سبيل المثال يأتينا الايجابي كله من الله ، والسالب انما ينبع منا . لكن ديكارت

---

١ — التيوديسيا علم صفات الله وعدالته . «م.م» .

كان يؤمن على الأقل بالحرية الانسانية ، وكان لديه مبدأ من مبادىء التفسير . لكن المسألة أدق وأعقد بالنسبة الى الكتبة السوفياتيين الذين لا يؤمنون بحرية الارادة: ان الشخص لا يمكن أن يستخدم بعد اليوم ككبش فداء ، انما المطلوب على العكس، معرفة من الذي ستلقى عليه مسؤولية وجود الشخص. إن السالب، فيّ ، لا يمكن أن يولد من الصيرورة التاريخية ولا مني باعتباري نتاجاً وعاملاً موضوعياً لهذه الصيرورة . كما لا يمكنه أن يولد من الطبيعة التي يقول عنها انجلز انها على وجه التحديد صيرورة متحركة تحددها قوانين عامة . كتب يقول : «إن الفرد المعزول لم يعد ضرورياً كمصدر للتجربة ، بل يمكن أن تستبدل تجربته الفردية الى حد ما بنتائج التجارب التي قام بها عدد معين من أسلافه . واذا كانت المسلمات الرياضية على سبيل المثال تبدو لدينا بديهية من تلقاء نفسها بالنسبة الى أي طفل في الثامنة من العمر وليست بحاجة الى البرهان عليها بالتجربة ، فهذا فقط باعتبارها نتيجة لتراث متراكم[1] » .

وطالما إنه لا النظام الاجتماعي ولا النظام الطبيعي مسؤولان عن الفرد بصفته ناهياً ومنبعاً للأخطاء ، فلا بد اذن من نسبه الى تلافيها . ان الذاتية عيب في الصنعة ، ذنب يتفسر ، اذا ما نظرنا اليه بصفته انتاجاً طبيعياً ، بالقوانين والظروف ويندمج بالتالي بما هو عام وشمولي ، لكنه يصبح ، من وجهة النظر الاجتماعية ، استثناء ، وحشاً . والمسؤول انما هي الصدفة ، اي تلاقي سلسلتين مستقلتين . والصدفة تعني على وجه التحديد عدماً — مـــا دامت كل سلسلة من السلسلتين تنتج من تلقاء نفسها الايجابية الخالصة وليست علة السالب إلا من وجهة نظر السلسلة الأخرى وبالنسبة اليها — الجانب غير القابل للفهم فيما هو قابل للفهم — وما دامت كل ظاهرة في كل سلسلة قابلة للتفسير بتمامها ، لكن لا تلاقي السلسلتين ، باعتبار ان سبب هذا التلاقي غير كامن من حيث تعريفه بالذات لا في هذه السلسلة ولا في تلك ولا في حـــد ثالث وجوده كفيل بالقضاء على استقلال السلسلتين — المعجز — ومـــا دامت الصدف يلغي بعضها بعضاً حسب قانون

---

١ - انجلز : « ملاحظات حول ضد دهرينغ » في « ديالكتيك الطبيعة » - ص ٣٦٠ .

الاعداد الكبيرة . ان الفرد ، الذي هو محض مثال عن القوانين الطبيعية ، ليس شيئاً في الطبيعة سوى ما هو عام. لكنه قد يكون الاستثناء في العالم الاجتماعي. ومذ ذاك يتوجب على الذاتية باعتبارها عيباً في الصنعة ان تكون قد وجدت من لحظة تسلم النتاج . انها صفة موضوعية للموضوع البيروقراطي . ولا بـد بالفعل من تحديد موضعها وحصرها: إلامَ ستصير الادارة اذا كان المرض الذاتي يستطيع في كل لحظة ان ينقضّ على الموظفين السوفياتيين ؟ وقـد يحدث أن يتم اكتشاف هذا المرض في زمن متأخر ، لكن هذا لأن المريض كان يخفيه . وبكلمة واحدة: ان الذاتية عيب في التكوين اسمه الآخر الخيانة . ان بعض الأشخاص يولدون ذاتيين ، أي تعساء ومذنبين ، ومآلهم الى المقصلة . وحتى هنا ، حتى الادانـة ، حتى تنفيذ الاعدام ، يكون المتهم متواطئاً مع قضاته : ثم يأتي فشله ليحرره من قلقه . ومن أعماق سجنه يتأمل باطمئنان العـالم الموضوعي الذي صلحت حاله . ويلمح وعيه الخالص موضوعاً جديداً بين سائر المواضيع : هو نفسـه مع ذاتيته . وهذه الذاتية ، المرتدة الى محض صفة خارجية ، تكشف عن إقلاقه وبلبلته . انها في الخارج كلون شعره ، كوزنه او كقامته . لقد كفّت عن أن تكون ذلـك الصوت الخاتل ، المجهول ، الذي كان يهمس في اذنه ويحاول ان يقنعه بأنه ذاتـه وبأنه — اي الصوت — لا ينتمي الى عالم الأشياء . والآن ها هي ذي امـامه ، جامدة ، تهددها الصيرورة التاريخية . ولا يعود هو سوى نظرة مجردة تتأمل جثة . يقيناً ، لقـد كان خائناً : وكان لا بد أن يكون كذلك . كان سير العالم نفسـه يتطلب الخيانـة . وكان تكوينه المعيب يسميه لاقترانها ، وكان محتماً على الظرف التاريخي ان يحبطها ويجهضها . وينتصر المتهم : كان يريد النظام ، ولقد ناله . والخونة بالذات يحتلون مكانهم في النظام ويساهمون في توطيده . وحبـل النظام لم يضطرب قط . ووعي المذنب القفلُ يؤلف كلاً واحداً ووعي القاضي القفل . وهذا المذنب يستعيد براءته بإدانته جريمته باسم الموضوعية التي خدمها دوماً . وبذلك يعود من جديـد بيروقراطياً . ويسعى مع سائر البيروقراطيين الى استغلال واقعة خيانته الموضوعية الى أقصى حد . ولمـا كان واحداً من

تكتيكي الدعاية ، فإنــه يجيء مع زملائه الاعترافات « المدروسة جداً » التي سيدلي بها أثنــاء المحاكمة . وإني لأدهش إذ يثار كل ذلك اللغط حول هـــذه الاعترافات وهذه النزعة الموضوعية . فمعرفتنا بها ليست بنت اليوم . فمنذ اكثر من قرن وضع هيغل نظريتها وكتب : « لقد طرح الوعي مبـــدأ التفرد . وفي تطوره الكامـــل طرح التفرد الذي هو وعي واقعي فعلاً كنفي لذاتـــه ، اي كموضوعية فائقة ، او هو انتزع من نفسه كينونته لذاته وجعل منها كائناً . وفي هـــذا التطور جاءت ايضاً الى كائن الوعي وحدته مع هـــذا الشمولي ، وهي وحدة ... تشكل في الوعي كوعي ماهيته[1] » .

ولنعد قراءة الصفحات المخصصة للوعي التعيس. إن النقاش حول لعب التفرد والعمومية في الوعي المسيحي ينطبق أيضاً على صراع الموضوعي والذاتي في وعي الموظف المجري او البلغاري . لكن تقـــدم المناهج الحديثـــة ولاسيا تكتيك الاعترافـــات – المتفوق الى حد بعيد على تكتيك الاعتراف الكاثوليكي – سمح لهذا « الوعي التعيس » الجديد باستبعاد التعاسة .

وكل ما هنالك ان النظام الموضوعي النزعة يتطلب إخفاق المؤامرات . انـــه يقمر المغلوبين ويتغذى بهزيمتهم . وكل نجاح يسدد إليه ضربة قاضية : والحـــال ان تيتو قد نجح . يقيناً ، من الممكن ان يسحق غداً ، ومن الممكن ان يتلاشى حكمه مع نشوب حرب عـــالمية جديدة ، ومن الممكن ان تقوضه المصاعب الداخلية ، ومن الممكن ان تعيش يوغوسلافيا عيشة كفـــاف ضمن حدودها الاقليمية : إلا أنه بانتظار ذلك يقود انشقاقه من نجاح الى نجاح ويسيطر سيطرة تامة على قواته . ان المذهب الموضوعي لا يملك أدوات فكريـــة لتفسير وتقييم هذا التاريخ الجزئي . والاتحاد السوفياتي تعوزه الوسيلة لمحاكمة تيتو . ذلك انـــه لو كانت الذاتية عجزاً ، لكان توجب على تيتو أن يكون « راجلك » ، ولما كانت « الصيرورة التاريخية » أتاحت له أي فرصة للنجـــاح . والحق ان الماركسية تتغلب هنا على الستالينية ، وتتغلب الستالينية على نفسها .

---

١ – فينومينولوجيا الفكر – ترجمة هيبوليت – ص ١٩٤ .

كتب انجلز : « ان مسألة ظهور فرد معين ، لا أي فرد آخر ، في عصر محدد ، في بلد محدد ، هي بالطبع مسألة متعلقة بالصدفة الخالصة . لكننا إذا ما حذفناه ، فسوف يكون دوماً بحاجة الى بديل ، وهذا البديل سيوجد بهذه الصورة او تلك . سيوجد حتماً مع مر الزمن . ولقد كانت صدفة ان يكون نابليون ، ذلك الكورسيكي ، الديكتاتور العسكري الذي كانت تحتاجه الجمهورية الفرنسية التي أنهكتها حروبها . لكن لو لم يوجد نابليون هذا ، لقام غيره بمهمته[1] » . ضعوا في هذا النص تيتو مكان نابليون فتجد التيتوية تبريرها المطلق . كان تزيف يوغوسلافيا الاقتصادي ، والتذمر الفلاحي ، والاستياء العمالي ، وانخفاض مستوى الحياة ، وتوقف التصنيع ، كان هذا كله يتطلب القطيعة مع الاتحاد السوفياتي ، بل كان هذه القطيعة نفسها : وذلك من حيث المعنى الذي تدل على أساسه ان البروليتاريا هي تناقض المجتمع البورجوازي . ولقد كان واجباً ان تتم هذه القطيعة عن طريق وساطة زمرة من القادة الذين يتحددون على وجه التحديد بتصميمهم على إنجاز هذه القطيعة . ان تيتو ، فيما إذا صدقنا إنجلز وستالين ، هو النتاج الموضوعي للوضع اليوغوسلافي . سيقال : كلا ، فهو يحكم بالارهاب . أمن الممكن إذن ان يقوم على الارهاب ضد التاريخ ؟ وفي مثل هذه الحال ، من يثبت لي ان « المكتب السياسي » لا يحكم ضد إرادة الشعوب السوفياتية ؟ لكني لا اعتقد ان هذا التفسير حاسم : فمن أنى له القوة التي تفرض حكم الارهاب ؟ أمن الجيش ، أمن الحزب ، أم من الاطارات ؟ أهي ممه إذن ؟ إذا صح هذا ، نكون قد تجاوزنا على نحو مستغرب موضوعة « العيب الذاتي في الصنعة » . ويجيبنا ستاليني آخر : كلا انه يعتمد على العناصر الرجعية من السكان : الفلاحين ، البورجوازية . لنقبل بذلك : إذن فهذه العناصر تملك ما فيه الكفاية من القوة والأهمية لتفرض سياستها . وفي مثل هذه الحال كان

---

١ - انجلز : رسالة الى ستاركنبرغ - ٢٦ كانون الثاني ١٨٩٤ . أنظر أيضاً كاوتسكي : المفهوم المادي للتاريخ ، المجلد الثاني ، ص ٧٠٣ . وكذلك بليخانوف : مشكلات الماركسية الأساسية ، ص ١٠٠ .

يتوجب على الاتحـــاد السوفياتي ان يجري تعديلات على سياسته ، وان يتوقع مراحـــل أكثر عدداً نحو التشريك ، وان يعتدل في مطالبه على الصعيد الاقتصادي . وبكلمة واحدة ، لقد أخطأ هؤلاء القادة : ان الذاتية تمر بجانبهم، هناك من سيجيبني بأنه لا يمكن ان يكونوا على خطأ وبأن سياستهم تعبر عـــن المطالب الموضوعية للوضع في الاتحاد السوفياتي . حسناً . إذن فنظرية الثورة في مثل هـــذه الحال متناقضة ، نظراً الى ان لينين كان يرى ان من ضرورات الاشتراكية ان تقوم الوحـــدة الاقتصادية للدول التي في طريقها الى التشريك على أساس « معونة منزهـــة وبلا سيطرة » ، ونظراً الى ان الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية مرغمة من قبل وضعها على ان تقيم مع يوغوسلافيا علاقات تجاريـــة رأسمالية تسيء الى هذه الدولة . لا بد من الاختيار : إما ان التفسير الماركـــسي للتاريخ خاطىء – باعتبار أن الصيرورة التاريخية سترغم البلدان الاشتراكية على ان تطبق فيا بينها قانون السوق العالمية الرأسمالية – وإمـــا ان التصور البيروقراطي للذاتية خطأ فادح . وبعبارة أخرى : إمـــا ان نجاح تيتو يتفسر بشروط يوغوسلافيا الموضوعية من خـــلال منظور مذهب موضوعي يهدم نفسه بنفســه ، واما انه يتفسر بأخطاء سياسية – ارتكبها الاتحاد السوفياتي او القادة اليوغوسلافيون – وعندها لا بد من الاعتراف بفعالية معينة ، بصلابة معينة لما هو ذاتي . ان يوغوسلافيا المنشقة هذه كانت مستحيلة : مستحيلة لأن جهـــاز الاتحـــاد السوفياتي البيروقراطي لا يمكن ان يخطىء في تقييمه للمعطيات الموضوعية ، ولأن الأخطاء الفردية صدف تتراكم ، ومستحيلة أيضاً لأن الخيانة حلم قديم عاجز يتبخر ما إن يمس الواقع . والحال ان هذه الاستحالة الموضوعية تعيش وتزدهر ، والصاعقة الديالكتيكية لم تحلها الى رمـــاد ، وهي تتطور رغم أنف كل بديهية ، بل إن يوغوسلافيا سابقة معينة كان واقعها مراقباً من قبـــل السوفياتيين ومدموغاً بدمغتهم . تقول إحدى الأغاني : كان علماء يجرون تجارب على أرانب وكانت النتائج الموضوعية لهذه التجربة مقررة سلفاً بناء على عادات عقلية متينة . وكانت الأرانب تعرف مقدماً ما ستثبته . والحـــال ان التجربة لم

تؤيد النتائج المرتقبة . وفهم العلماء عندئذ ، أمام هذا العبث ، ان الارانب التي أجروا عليهـــا تجاربهم كانت أرانب مزيفة . حسناً : نحن نفهم ان تيتو أرنب مزيف ، وان يوغوسلافيا هي يوغوسلافيا مزيفة . لكن مـــا الارنب المزيف ؟ على كل الأحوال ، ان هذا الحيوان الكذاب يستلزم ان يكون العالم قد أخطأ : فإما انه أرنب حقيقي يظنه العالم مزيفاً ، وأمـــا انه مزيف فخطيئة العـالم لا تغتفر إذ ظنه حقيقياً. ان رجال الكومنفورم يقولون ان تيتو كان دوماً فاشياً . إذن فقد كان دوماً تيتو مزيفاً . لكن في مثل هذه الحـال يصح أن نقول ان الاتحاد السوفياتي قد أخطأ : وهل هنـاك من طريقة أخرى لتفسير المديح الذي ضفرت أكاليله لـ « ستالين رقم ٢ » ؟ إذا كان الأرنب أرنباً مزيفاً ، يكون العالم عالماً مزيفاً . ويكفي ان يصرح العالم بأن العالم الحقيقي لا يمكن ان يخطىء حتى يكون قد انساق في سلسلة من الحماقات تجعله يفقد رأسه : ان العالم الحقيقي لا يمكن أن يخطىء ، إذن فأوصافه للأرانب صحيحة ، والحـــال ان الأرانب المزعومة لا تؤيدها ، اذن فهي أرانب مزيفة ظنها العالم حقيقية ، إذن فالعالم قد أخطأ ، إذن فهو عالم مزيف . لكن العالم المزيف لا يقول الحقيقة ، إذن فهو قد أخطأ عندما قـال ان العالم الحقيقي معصوم عن الخطأ ، إذن فالعالم الحقيقي يمكن ان يخطىء ، إذن فالعالم المزيف قـد يكون عالماً حقيقياً مخطئاً ، إذن فالأرنب المزيف قـــد يكون أرنباً حقيقياً . ان الموضوعية ليست محض تقييم للموقف الراهن ، بل هي أيضاً وعلى الأخص تخمين . وإذا لم يؤيد تطور الموقف صحة التخمين ، فهذا لأن الموضوعية ذاتيـة دوماً من بعض نواحيها . ولما كان للتخمين ، سواء أكان صائباً أم خاطئاً ، نتائج واقعية ، ولمـــا كان الاتحاد السوفياتي ، سواء أخطأه بصدد السياسة الواجب اتباعهـا ازاء الديموقراطيات الشعبية أم بخطئه بصدد الطبيعة الحقيقية للحزب الشيوعي اليوغوسلافي ، قـــد أثر على مجرى الأحداث ، ينجم عن هذا ان الواقع ليس متطابقاً مع الموضوعية الصرف . وعلى الواقعية الاشتراكية ان تأخذ بعين الاعتبـار العوامل الذاتية . وعليها ان تحل هذا التضاد الجديد : الأطروحة : الذاتي بنية ثانوية للموضوعية ؛

النقيض : الموضوعية منوطة بذاتيـــة تقيم الظاهرات وتنوعها وتعدلها تبعـاً لتقيياتها .

وهذا الحرج البالغ الذي يواجهـــه القادة السوفياتيون يتجلى في تناقضات الصحافـــة الشيوعية : فهي لا تتوصل الى تعريف تيتو . أخائن ذاتي ؟ أخائن موضوعي ؟ اذا كان خائناً ذاتياً ، شأن راجـــك ، فقد كان دومـــاً خائناً ، والذاتية ، باعتبارها عيباً ، هي شر في أصل تكوين طبيعته . بيد ان هـــذا يفترض اننا نعترف بمذهب حتمي نفسي - فيزيولوجي مستقل عن الديالكتيك التاريخي . ونحن نفتت التاريخ على هذا الأساس ، بـــدلاً من ان نعتبر الواقعة التاريخية الجزئية تعبيراً عن الكلية ، ونفهم الحدث على انه نتاج سلاسل سببية مستقلة ومتلاقية : « لو كان انف كليوباترة أقصر ... » ، ولو كان تيتو أقل خبثاً ، أو لو كان مات بداء الحصاة أو برصاصة المانية ، لكان تغير وجه العالم . لكن إلامَ ينتهي التفسير الماركسي للتاريخ ؟ ان ماركس ، بـلا أدنى ريب ، يقبل بتأثير الصدفة : « ما كان أسهل ان يصنع تاريخ العالم لو كان كل صراع يخوضه البشر يتم في شروط مناسبة بصورة لا يتطرق اليهـا الخطأ . ثم انـــه سيكون ذا طبيعة مغرقة في الصوفية لو لم تكن « الصدف » تلعب فيه أي دور . إن هذه الحالات العارضة تعاود الدخول بسهولة في المسيرة العامة للتطور وتعادل كفتها حالات عارضة أخرى . لكن تسارع الأحداث أو تباطؤها منوطان الى حد كبير بـ « صدف » مشابهة يمثل من بينها أيضاً طبع الناس الذين يقفون على رأس الحركة »[1] . لكن السياق يدل على ان المسألة هي مسألة تسارع أو تباطؤ في صيرورة تطور جارية . وبتعبير آخر ، ان الانشقاق اليوغوسلافي محذور في الاشياء : لو لم يكن تيتو موجوداً أو لو كان مختلفاً ، لحدثت القطيعة فيما بعد ؛ لكن تيتو لا يستطيع وحده ان يخلق شروط هذه القطيعة ولا ان يمنع وقوعها . وعلى كل فإن الايديولوجيين الستالينيين قد رفضوا وجهة نظر ماركس المعتدلة نسبياً . إن المذهب الموضوعي مضطر اضطراراً الى استبعاد الصدفة . وهكذا

---

١ - رسالة الى كوجلمان ١١ نيسان ١٨٧١ .

امكن لمؤرخ رسمي ، بوكروفسكي ، ان يكتب في مؤلفه « تاريخ روسيا » أن « الاستنجاد بالصدفة دليل على الفقر الفكري » . وبتعبير آخر ، ان الاعتماد على الصدفة كمبدأ للتفسير مشروع في حالة إخفاق المحاولة المدروسة . اما في حالة نجاحها ، فهو ينسف الماركسية . لكن الشيوعي الستاليني سيقول : « لم ينته كل شيء بعد : انتظروا بضع سنوات وستطيح يوغوسلافيا من تلقاء نفسها بالطاغية ، ولن يعدو عندها الانحراف التيتوي ان يكون أكثر من احدى تلك الصدف التي لا اهمية لها والتي تؤخر فقط سير التاريخ من غير ان تتوصل الى تغييره » . جائز : لكن الستالينيين ما عادوا يملكون غير ايمانهم لتأييد هذه التوقعات . وطالما انهم اخطؤوا في تقييمهم للحزب الشيوعي اليوغوسلافي ، بين ١٩٤٥ و ١٩٤٨ ، فمن يثبت لهم انهم لا يخطئون اليوم في تقييمهم للتطور اليوغوسلافي؟

ولهذا يفضل معظم الستالينيين ان يعترفوا ، في احاديثهم الخاصة ، بأن تيتو قد لا يكون خائناً ذاتياً . ونياته ليست هي التي موضع اتهام . لكنه موضوعياً يخون لأن انشقاقه يخدم الدول الغربية ويهدد بأن يضعف الاتحاد السوفياتي . واني لأنهم بالفعل ان تكون هذه الحجة قيمة لو طبقت ، على سبيل المثال ، على بورجوازي صغير غير مثقف سياسياً : فمثل هذا الشخص يمكن ان تكون له ، بالفعل ، « افكار كريمة » ، « حساسية يسارية » ، مثل أعلى تقدمي ، لكنه يلعب مع ذلك في ظروف محددة ، وعلى جهل منه ، لعبة الرجعية . لكن الطفل نفسه يستطيع ان يفهم ، في الحالة المطروحة هنا ، نوع الأخطار التي تتعرض لها قضية الاشتراكية نتيجة السياسة التيتوية . فكيف يمكنني ان اقبل بأن مناضلين متمرسين وقادة ونظريين من امثال باتشي وبابوفيتش يمكن ان يجهلوا هذه الأخطار ؟ واذا كان اقل الشيوعيين الفرنسيين ثقافة يتبين بوضوح ان تيتو ، بتخليه عن عقيدة «الحصن السوفياتي» ، مرغم على الانتهاء الى المعسكر الاميركي ، فكيف لا يفهم تيتو ذلك ؟ إن هذا غير معقول ، وبخاصة اذا ما فكرنا بأن القطيعة وقعت بعد شهور من النقاش وتبادل المذكرات ومحاولات التسوية ، وان جميع مظاهر المشكلة قد درست من كلا الجانبين . كلا : لقد كان تيتو مدركاً

بوضوح لأخطار مشروعـــه ، وهو لا يستطيع ان يجهلها . واذا كان خائناً موضوعياً ، فلا بد انه كان كذلك ذاتيـــاً . أو بالعكس : اذا لم يكن خائناً ذاتياً ، فلا يمكنه ان يكون خائناً بصفة موضوعية صرف . وهذا يعني : انه لم يأخذ بعين الاعتبار الحجج الستالينية ، إما لأنه لم يعد يؤمن بنظريـــة الحصن السوفياتي، وإما لأنه لا يعتقد بأن النهاية المحتمة للانشقاق اليوغوسلافي هي حجر الاشتراكية والانتماء الى الكتلة الاميركية . وفي مثل هـــذه لا بـد ان نعترف بان هناك امكانية لتقييمين اثنين متباينين لموقف واحـد : الذاتية ضد الذاتية .

لكن التيتوية لن تكون لهـا سوى فائدة ثانوية لو كان الهدف منها إحراج نظريي الحزب وصحفييه ليس إلا. والحق ان ما يعطيها اهميتها الاستثنائية الفائقة هو انها مترافقة بالنسبة الى القادة اليوغوسلافيين بإعادة اكتشاف الذاتي. وبالفعل لقد كان تيتو في البداية ، شأن راجلك ، موضوعي النزعة . ولا اهمية إن كان طبعه وتجربته كمقاوم جعـــلا الطاعة صعبة عليه إلى أقصى حد : فالأمر الواقع هو انه اندمج ، بصفته قائداً عليا ، بالنظام البيروقراطي الصارم والضخم الذي شاده الاتحاد السوفياتي . والأمر الواقع ، كما تنوه بذلك يا عزيزي دائما ، هو انه « ما من عنصر من العناصر التي يمكن للماركسي أن يجعل منه سبب البيروقراطية السوفياتية ... غائب عن يوغوسلافيا ». وتيتو ، شأنه شأن راجلك وكوستوف ، قد انساق إلى التمرد نتيجة التأمل الموضوعي المحض في الموقف . ان خطاباته ، التي كان يمكن لكوستوف او راجلك ان يلقياها مع بعض تعديـــلات طفيفة ، تشدد اللهجة على الارتباطات الموضوعية وعلى الواقعية الاقتصادية : انه يلح على الحاجة الموضوعية لتحرير الاقتصاد الوطني من سيطرة الرأسمال الأجنبي، واعادة بناء صناعة دمرتها الحرب وتعزيز التصنيع لتوفير قاعدة مادية وفنية لبـــناء الاشتراكية . ولقـد وقعت القطيعة جزئياً لأن عقيدة « الحصن السوفياتي » الموضوعية ولدت لدى السوفياتيين مشروع تحويل يوغوسلافيا إلى اهراء للاتحاد السوفياتي . اذن فالمسألة في البداية كانت مسألة تصورين للموضوعية متعاكسين . وآلية القطيعة شبيهة بالآلية التي وصفناها آنفاً بصدد راجـــك او كوستوف .

والهدف منها الضغط على الاتحاد السوفياتي ليعدل سياسته . وإذا كان صحيحاً ان مقاومة تيتو سابقة لعام ١٩٤٨ ، فلا بد من الاعتراف بأن الاتحاد السوفياتي هو الذي بادر إلى جعل النزاع علنياً والقطيعة حتمية .

وحتى نفهم هذه القطيعة ونتائجها ، فمن المهم ان ننظر إلى التيتوية بالطرف الآخر من المنظار ، اي من وجهة نظر السياسة السوفياتية . إن يوغوسلافيا هي البلد الوحيد في الكتلة السوفيـــاتية الذي استلم فيه الحزب الشيوعي السلطة على الفور وبمفرده ، البلد الوحيد الذي اتجه فيه التفكير على الفور نحـــو اتخاذ تدابير تشريك تدرجية لكن حازمة . اذن فهـــذا الحزب الشيوعي اليوغوسلافي هو بالضرورة حزب أشداء . وهو ليس بحاجة البتة الى التأمل والى اخذ المقاومات البورجوازية بعين الاعتبار . انه يحث الخطى ، وينجح ، ويفضح انتهـــازية الاحزاب الشيوعيـــة في الديموقراطيات الغربية . وحـــين سيفرض مولوتوف وفوسنيسنسكي سياسة الشدة في الاتحاد السوفياتي ، فإنما نحو تيتو سيتوجهان بالطبع ، وانمـــا في شخصه سيجدان الحليف الأفضل . والحـــال ان سياسة مولوتوف – تيتو هذه تمثل الحـــد الاقصى من المذهب الموضوعي : ان تحليلاً اقتصادياً لوضع الولايات المتحدة الاميركية يسمح باليقين الجازم بأن الانتـــاج الاميركي سيشهد أزمة واسعة النطاق . ومن هنـــا كان الاستنتاج ، عن طريق التسلسل المنطقي الصارم ، بـــأن الحرب حتمية . وبدءاً من هذه المعطيـــات الموضوعية سيتم تحديد سياسة متصلبة ، بـــل جذرية ، يمكننا ان نطلق عليها اسم استراتيجية . وإذا ما أضفنا إلى ذلك ايديولوجية جذرية النزعة ، لا بد ان ترافق بالضرورة اتجاهاً سريعاً نحـــو التشريك ، وسياسة مبنية على توقعـــات « علمية » ، تبين لنا ان الحزب الشيوعي اليوغوسلافي كان لا بد ان يصبح بطل المذهب الموضوعي . والحال ان القادة السوفياتيين لاحظوا فشل هذه السياسة ، الشيء الذي يعني في العالم الموضوعي النزعة إجراء تبديل في الجهاز . وبعد تنحية مولوتوف شعر الحزب الشيوعي اليوغوسلافي الذي كانت أسهمه « في ارتفاع » ، شعر على حين غرة بتحول جذري يأتيه من الخارج من غير ان يكون قد عندل

شيئاً في موقفه . وهكذا اصبحت نزعته الجـذرية طفولة يسارية ، وأصبحت المقاومات التي كان يعـارض بها مطالب الاتحاد السوفياتي الاقتصادية لمجرد ان هذه المطالب تهدد بعرقلة التشريك ، اصبحت علامة على انحراف قومي النزعة . واصبح الحزب الشيوعي اليوغوسلافي هرطقياً ، وولدت التيتوية . ولقـد كان يكفي بالطبع ، لتجنب ذلـك ، الإقرار بالخطأ ، وتبني تبدل اتجاه السياسة السوفياتية ، والانضمام بسرعة الى قطيع الروح الشيوعية . لكن هنا تتدخل استحالة موضوعية اخرى : ان حركة التشريـك متقدمة اكثر مما ينبغي ، والايديولوجية الكفاحية راسخة الجذور اكثر مما ينبغي في الجماهير حتى يمكن تبديل الاتجـاه . وهكذا فإن عاملين موضوعيين اثنين سبباً حصر المسؤولين اليوغوسلافيين في موقف ذاتي : إن عليهم ان يختاروا : إما ان يصبحوا خونة تحت اسم « تروتسكيين قوميين » ، وإمـا ان يتحملوا بتفردهم أخطار الموقف . لكن ما كادوا يقررون التمرد حتى تكشفت الذاتية لهم بكل وحشيتها بالرغم منهم. يقيناً، ان الضرورة المنطقية البسيطة التي تقضي بأن يردوا تهمة التحريفية الى الاتحاد السوفياتي تتطلب منهم شجاعة لا يمكن إلا ان تترافق بقلق معين : بلد زراعي صغير ، متخلف اقتصادياً ، يجرؤ على توجيه تهمة الانحراف إلى أمة تعدادها ١٥٠ مليون نسمة إلى دولة صناعية كبيرة مستمرة في التشريك منذ ثلاثين عاماً ! لكن الذهول ولد على الأخص امام نتائج سياستهم . لقـد كانوا لينينيين وستاليينيين ، وهم ما يزالون كذلك ، ومبادىء الستالينية ما تزال تعمر عقولهم كما ان تماثيل ستالين مـا تزال تعمر حدائقهم . كانوا يريدون ان يمضوا حتى آخر الشوط ويريدون ان تندلع الثورة في كل مكان ، ويتهمون قادة الحزب الشيوعي الفرنسي بالانتهازية . والحال ها هم مضطرون ، لأنهم طالبوا بنضال أحزم وأحدّ ضد الرأسمالية ، الى الالتفات نحو الغرب الرأسمالي ليطلبوا منـه المساعدة الاقتصادية التي ستسمح لهم بمحاربته . بل أكثر من ذلك ، وكما يقول احد مراقبي المشكلة اليوغوسلافية ، وجـدت كتائب الصدام الشيوعية هذه نفسها وقد تحولت موضوعياً الى « قوة ثالثة » : « ان وجود القوة العسكرية

الاميركية هو الذي يضمن استقلال يوغوسلافيا القومي ، لكن ... الوزن السياسي للاتحاد السوفياتي هو الذي يحول بين النظام السياسي اليوغوسلافي وبين ان يطيح به زحف البورجوازية العالمي [1] ». وهؤلاء المتعلبون لا يصحون من دهشتهم : فلأنهم ارادوا سياسة بلا تسويات ، وجدوا انفسهم مرغمين على المراوغة ، على اللعب على الحبلين ، على الموازنة بين المتنازلات . ولأنهم وقفوا بلا تردد الى جانب احد المعسكرين المتعاديين ، وجدوا أنفسهم بغتة في No mans-land [2] ، ووجودهم يضمنه الاتحاد السوفياتي والويات المتحدة الاميركية معاً . ولأنهم أعلنوا تأييدهم بلا تحفظ وبلا مرة استراتيجية لقيام الثورة في كل مكان ، وجدوا البورجوازية تبتسم لهم والثوريين يدينونهم . وهذه التناقضات تخلق موقفاً مأساوياً وهزلياً لا يمكنه ان يفهم نفسه ويتجاوز ذاته إلا بألفاظ الذاتية .

وبدءاً من هنا يأخذ تيتو الذاتية على عاتقه على وجه التحديد لأنه صمد ولأنه لا ينهار تحت لوم الكومنفورم. ولقد رأينا انه لا يستطيع ان يدافع عن سياسته الا اذا اتهم القادة السوفياتيين بالانقسامية . فهو يبدأ اذن بإلقاء حمل الذاتية كله على الخصم . وهذه الذاتية ما تزال بعد محض «منبع للأخطاء» ، ما تزال سالبة. لكن تيتو بإلحاحه على الأخطاء السوفياتية يجد نفسه مرغماً على القبول بإحتمال ان يخطىء هو نفسه . وهكذا ننتقل دفعة واحدة الى ميدان جديد تكون فيه تقنيات الموقف السياسي او الاقتصادي محتملة فحسب . ننتقل من المذهب الموضوعي الدوغماني الى مذهب قائم على حساب الاحتمالات . لكن ليس هذا كل شيء : إن أمة مؤلفة من ١٥٠ مليون نسمة ، حين تختار سياستها ، تستطيع أن تؤكد على نحو رائع بأن هذه السياسة هي وحدها الصحيحة . وقوتها تسمح لها بالاعتقاد بأنها ستفرضها ، ولاسيما على جيرانها الضعفاء . لكن حكام بلد صغير غير صناعي مرغمون في كل لحظة على أن يأخذوا بعين الاعتبار القوى الخارجية

---

١ - كلود بورديه : الانشقاق اليوغوسلافي - ص ١١٠ .

٢ - هي الارض المنزوعة السلاح التي تفصل بين حدود دولتين . «هـ . م» .

التي قد تحبط جهودهم. ان مصيرهم ليس بأيديهم إلا جزئياً . وعليهم ان يراوغوا ويماطلوا ويعبروا بالسفينة عبر المهالك ويستغلوا النزاعات التي تشل الدول الكبرى : بل إن أمهر سياسة على الاطلاق قد تكون عاجزة عن تلافي كارثة ستولد في مناطق أخرى من الكرة الأرضية وستمتد بسرعة الى البسيطة كلها . وهكذا يظهر شكل جديد من الذاتية ، ويجازف المسؤول بأخطار ، ويحسب حسابها ويأخذها على عاتقه . وانك لتبدع إذ تقول : « إن يوغوسلافيا تواجه تهديداً مزدوجاً : فكما انها قد تستسلم أمام الولايات المتحدة الاميركية وتنضم الى الكتلة الامبريالية ، كذلك فإنها قد تستهلك نفسها الثوري وتنحط الى دولة بوليسية » . أخطار في الداخل ، وأخطار في الخارج . وهي أخطار ظاهرة للعيان بصورة يمكننا معها بسهولة أن نعتقد بأن تيتو يعرفها جيماً . ومع ذلك لم يرضخ ، وهو مستمر في النضال . إذن نطاقة القادة ووعيهم وإخلاصهم وبراعتهم يمكن ان تؤخر الى حد ما الميعاد ، وتتجنب الأسوأ ، وتبتكر مخرجاً لموقف يبدو ميئوساً ، ومن يدري ؟ ربما حققت النصر . ان مشروع تيتو عبث لا يمكن حتى تصوره لولا ثقة مطلقة في قدرات الانسان . يقول بوبوفيتش: « لا بد من الاستمرار برباطة جأش وبالرغم من جميع المصاعب » . لكن حتى في مثل هذه الحال يظل الهلاك والانهيار ممكنين . وعلينا ان نفهم ان التيتوية ترنو ببصرها باستمرار الى امكانيتين، أولاهما الانتصار وثانيتهما الانسحاق الجذري والموت . لكن لما كان موقف اليوغوسلافيين يستبعد المذهب الموضوعي المطلق ، لذلك ما عادوا يوحدون النجاح بالحقيقة ، والفشل بالخطأ . فمن الممكن ان يتهي الانسان ويكون على حق . وفي مثل هذه الحال تتم استعادة الفشل نفسه : إن بلداً صغيراً يختفي لأنه ناضل بلا تخاذل وبلا تسويات يصبح قدوة تحتذى . ولقد قال تيتو ذلك بصراحة . ولقد كان يستطيع ، بهذه المناسبة ، ان يستشهد بماركس ، ما دامت كومونة ١٨٧١ ، المقهورة ، ظلت في نظر الأخير انتصاراً للبروليتاريا ومثالاً . إمكانيات ، احتمالات ، اختيار ، مجازف ، إرادة ، تقبل الفشل بالذات : اننا لنجد هنا جميع معالم مذهب انساني مأساوي

كان لمدة طويلة من الزمن مذهب الطبقة العاملة .

لكن الذاتية لا تؤخذ بعين الاعتبار . فلو أعاد القادة اكتشاف ذاتيتهم لأعادوا في الوقت نفسه اكتشاف ذاتية الجماهير التي يقودونها . ان المذهب الموضوعي يفترض ان الجماهير "تسيّر . ويقين الزعيم يسمح له بمعاملتها كموضوع . لكن إذا كان من الممكن ان يخطىء الزعيم ، وإذا كان النجاح ممكناً فحسب ، وإذا كان عمله يمكن ان يفشل نتيجة تخاذل وخور ، وإذا كان على العكس بحاجة الى أن يبذل كل طاقاته حتى ينجح فيه ، فآنذاك تصبح الجماهير من جديد العامل الرئيسي في النضال الاجتماعي . وفرص نجاح أهداف المشروع تتعلق بموقف الجماهير : فهل تميز هذه الجماهير تلك الأهداف بوضوح أم لا ، وهل تمحض تأييدها لهذه الأهداف أم لا ، وهل تتطلع بكل ما لديها من طاقة الى تحقيقها أم هي تكتفي بأن تتلقى التوجيه سلبياً . إذا كان مستقبل يوغوسلافيا محدداً من الآن ، فالسياسة إذن هي من اختصاص الفنيين . وإذا لم يكن مرسوماً سلفاً ، فهو يتعلق إذن بالجماهير أولاً . ولهذا تشبه خطابات الزعماء اليوغوسلافيين أحياناً وعلى نحو غريب مقالات روزا لوكسمبرغ. كتب كاردلي : «نحن لا نعتقد اننا نستطيع ان نعمل من غير ان نقع في أخطاء ، لكننا نرى ان الأخطاء التي ترتكب عندما تأتي المبادهة من القاعدة بحرية لتفرض نفسها هي أقل خطراً من أخطاء أولئك البيروقراطيين الذين وضعوا في رؤوسهم فكرة انهم معصومون عن الخطأ،وأنه ينبغي ألا يحدث أي شيء كان قبل ان يعطوه بركتهم » . ولقد كتبت روزا لوكسمبرغ منتقدة لينين : « ان الأخطاء التي ترتكبها حركة عاملة ثورية حقاً هي ، من وجهة النظر التاريخية ، أخصب وأثمن بما لا يقاس من معصومية خير لجنة مركزية في العالم عن الخطأ[1] » .

وانطلاقاً من هنا يمكننا ان نفهم كيف ان دكتاتورية البروليتاريا الضرورية يمكن ان تتفق مع ممارسة ديموقراطية اشتراكية . يقول تيتو : « لا مزاح مع الثورة » وهذا يعني ان مجتمعاً في سبيله الى التشريك عليه ان يشل العناصر

---

١ - الماركسية ضد الدكتاتورية - ٣٧ .

الرجعية التي ما تزال فيه وأن يعجل بتذويب هذه العناصر. لكن لم لمـــا يكن لهذه العناصر من هدف سوى معارضة التدابير الاشتراكية، فإن هذه الدكتاتورية ليست سوى خطة سالبة : انهـــا تمثل نفي للنفي . والمظهر الايجابي والبنــاء للتشريك يظل حراً ، أي غير معرقل من الخارج . واذا ما مورست الدكتاتورية ضده ، فــإن النفي نفسه يصبح مجرداً ورجعياً . وكما سبق لروزا لوكسمبرغ ان لاحظت ، فإن « دور الاجهزة القيادية في الحزب الاشتراكي يأخـــذ طابعــاً محافظاً الى حد كبير : ففي كل مرة تكسب فيها الحركة العاملة أرضاً جديدة ، تحرثها هذه الاجهزة ، كما تدل التجربة ، حتى حدودها القصوى لكنها تحولها في الوقت نفسه الى حصن ضد التقدم اللاحق الأوسع نطاقاً[1] » . وبكلمة واحدة : إن جهاز الدولة يلعب دور العقـــل الهيقلي ، فيحلل ويوضح ويسلط الضوء ، لكنه يحدد ويحد أيضاً . وواجب على حركة الجماعية العينية ان تتدخل باستمرار ضد هذا التحديد ، وان تفجر الأطر ، وان تطالب في كل مرة لأجهزتها العينية بقدر أكبر من السلطات التي ألحقتها الدولة بها . وانما بهـذه الصورة فقط يمكن ان يتحقق تدريجياً تلاشي الدولة الذي كان لينين نفسه يطالب به : لا عن طريق تكييف انسانية باللغة الوداعة و « باللغة التهذيب » تطبع من تلقاء نفسها بدون وجود استاذ ، شأن الفتيات النموذجيات الصغيرات اللواتي يحافظن على هدوئهن العاقل اثناء غياب مربياتهن ، بل على العكس عن طريق حث الجماهير على رفض الطاعة ، أي عن طريق تنمية المبادهة في كل مكان . وطالمـــا ان الدولة تعتبر نفسها دكتاتوراً ، فلن نخرج من المرحلة اللاهوتية .

سيقال لي : لكن ألا تعترف بأن المصلحة المباشرة للجماهـــير يمكن ان تتعارض مع ضرورات التشريك وبأن الدعاية الحكومية مهـــددة بأن تضيف الفكرة اضافة الى المصلحة بدلاً من ان تشتقها منها ؟ هذا صحيح : لكن فقط من خـــلال منظور ماركسي معـــين يعتبر الفكرة محض انعكاس للنشاط المادي لا تجاوزاً لهذا النشاط وللحاجات . اما اذا كان الكائن الانساني متقدماً

---

١ – الماركسية ضد الدكتاتورية – ص ٢٠ .

دوماً على وضعه المادي ، وأما اذا كانت الحاجة تتجاوز نفسها باستمرار نحـو المطالبة وتتجاوز المطالبة نفسها نحو متطلبات عامـة وقيم تشتمل على تصور معيّن للإنسان وللمذهب الإنساني، فعندها لن تضاف الفكرة اضافة الى المصلحة بـل ستولد الفكرة من المصلحة . يقول تيتو : « علينا ان نشرح ، ان نشرح باستمرار » . وهذا صحيح بشرط ألا يلصق التفسير بالوجدانات كدابوق ، بل ان تحث هذه الوجدانات على اكتشافه بنفسها ، وبشرط ألا تكون المصلحة التي تم توضيحها واصبحت واعية لمستلزماتها وسيلة في ايدي القادة لفرض الاستقرار، بل ان تكون دافعاً لمتطلبات جديدة : بشرط ان تستبدل عقيدة المعصومية البيروقراطية بنقد ذاتي دائم يطبقه القادة على انفسهم . أليس هو ماركس الذي وجه التقريظ التالي الى كومونة ١٨٧١ : « لم تدعِ الكومونة لنفسها المعصومية، تلك الصفة الملازمـة لجميع الحكومات التي من الطراز القديم . وكانت تشهد علانية افعالها وأقوالها ، وتدرّب الجمهور على اكتشاف نقاط ضعفها[١] » . والحال ان فرصة التيتوية ، التي رأت النور بسبب خطأ ، بسبب نزاع بين معصوميتين متناقضتين ، هي على وجه التحديد كونها لا تستطيع ان تدعي المعصومية . والوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها ان تدافع عن نفسها ضد الاتحاد السوفياتي في نظر الجماهير اليوغوسلافية ، ليست هي معارضة دوغمائية بدوغمائية أخرى — ذلك انه إذا ما وجدت الدوغمائية فكيف السبيل الى البرهنة على أن المعتقد الصحيح ليس هو معتقد الطرف الآخر ؟ — بـل أن تطالب ضد كل دوغمائية بحق القائد في الخطأ وان تصور البناء الاشتراكي على انه مجازفة . لكن هـذا مستحيل اذا لم يُسلم بالحقوق نفسها لجميع اعضاء الحزب ، واذا لم يُسمح لهم بركوب المجازفات نفسها. والشيء الاعمق من ذلك هو ان هذا التغير السياسي في الحزب الشيوعي اليوغوسلافي سيعبر عن انقلاب في تصوره عن الانسان : إذ لو كانت البنى الفوقية نتائج ثانوية ملحقة بـ « الموضوعية المادية » ، ولو كانت هذه الموضوعية مجرد محصلة من الانعكاسات المشروطة ، اذن لما كان لأي انسان أي

١ — الحرب الأهلية في فرنسا .

حق من الحقوق » القادة شأن الآخرين ، ولكانت التيتوية هي الخطئة .

سيقال : حسناً ! هل تؤيد الوقائعُ النظرية ؟ هل هناك ديموقراطية اشتراكية في يوغوسلافيا ؟ انك لشديد التحفظ في هذا الموضوع يا عزيزي دالما . اما بورديه فهو يجزم بلا تردد : « لا وجود لديموقراطية في يوغوسلافيا ، بل هناك نظام شعبي يبذل جهده ليبني بأكبر سرعة ممكنة بلداً حديثاً في شروط انضباط عسكري »[1] . لكن بورديه يلاحظ هو نفسه ان « الاكراه قد تراخت قبضته على الارجح وبصورة تدريجية منذ القطيعة مع موسكو » ، وهو يعطي هذا التراخي تفسيراً ذا لهجة مباينة بقوله : « ان الحزب ... مرغم على ان يهتم اهتماماً أكبر برغبات السكان ... » . ويضيف ان « الشغيلة يتمتعون فعلاً بإمكانية التأثير على حياتهم الخاصة » . لكن من المفهوم ان يكون تحرر الطبقات الكادحة وبخاصة الفلاحية أبطأ وأشق في بلد متخلف منه في بلد كألمانيا على سبيل المثال . ولا سيما اننا ما نزال في البداية : إن اليوغوسلافيين ما يزالون يكتشفون وضعهم الغريب ، وقد صحوا لتوهم من الحكم الستاليني ، وهم يطرحون على انفسهم اسئلتهم الأولى بنوع من الدوار . لقد قال احدهم لبورديه ، على سبيل المثال : « اذن ... محاكمات موسكو أيضاً ؟ ... » . ان الطريق ما تزال غائمة امامهم باعتبار انهم يستنكرون محاكمة راجك في الوقت نفسه الذي يحملون فيه من انفسهم صدى الاتهامات التي توجهها موسكو ضد كوستوف . هذا لأنه ما تزال تعوزهم الادوات النظرية التي تسمح لهم بالحكم على الموقف الراهن . يقول بورديه : «انهم يقفون عند عتبة تطور فكري طويل ، يتقدمون فيه ببطء ، نظراً إلى انهم مكبلون بالقيود الفكرية للشيوعية الاورثوذكسية الضيقة » . وانت يا دالما تروي لنا ان تيتو وايديولوجيي الحزب الشيوعي اليوغوسلافي الذين ما عادوا يترددون في ان يدينوا بعنف « الانحراف الستاليني » يقعون في أكبر الحرج عندما يطلب منهم ان يفسروه . واذا كانوا يتهربون من السؤال ، فهذا لأنهم ليسوا على استعداد للإجابة : إن النظرية تعوزهم وهم

---

١ - الانشقاق اليوغوسلافي - ص ٦٦ .

يخشون ان ينساقوا الى ادانـــة لينين والمعتقد الماركسي نفسه فيما وراء لينين . وبكلمة واحـدة : إن ضغط الظروف الموضوعية وتناقضات المذهب الموضوعي نفسه قادتهم رغماً عنهم الى اعادة تقييم الذاتية . لكن اعادة التقييم هذه تتطلب بدورها تنقيحاً نظرياً . لا بد من اعادة التفكير بالماركسية ، لا بـــد من اعادة التفكير بالانسان .

ونستطيع الآن أن نخلص الى نتيجة : ان انتصار تيتو النصفي قد علمنا من تلقاء نفسه الأهمية التي يجب ان يأخذها في نظرنا نحن الغربيين. ولا مجال للتفكير بإنشاء امية جديدة أو بتحويل بلغراد الى « مكة عمال » جديدة . وكل مـــا هنالك ان وجود يوغوسلافيا اشتراكية ومستقلة عن الكرملين لا بد أن يؤثر من الداخل على وعي مناضلينا الشيوعيين إذ يجعلهم يعيدون اكتشاف ذاتيتهم . ولا ينبغي ان نعتقد بأنهم سيتركون الحزب الشيوعي الستاليني ، ولا بأنه من الممكن أن يقع انشقاق في فرنسا أو في ايطاليا بصدد القضية اليوغوسلافية ، بل لا ينبغي حتى أن نتمنى ذلـك . كما انني لا أقول ان المناضلين يمكن أن يظهروا ذات يوم تعاطفاً او تفهماً تجاه الحركة التيتوية ، انما اقول فقط انه اذا مـــا قيض لمجتمع اشتراكي أن يتوطد ويدوم ضد القادة السوفياتيين والكومنفورم ، فلا مفر من ان ينير السبيل امام الشيوعيين الغربيين بصدد طبيعة نشاطهم . وكما قلت يا دالمـا ، « اذا لم يكن هناك شيء آخر » ، فإننا لا نستطيع حتى ان نقول إن العامـــل يدخل الى الحزب الشيوعي . بل ينبغي في مثل هذه الحال أن نقول انه يولد فيه لأنه لا فرق بين أن يكون الانسان بروليتارياً وبين ان يكون ستالينياً . لكن اذا كان هنـاك شيء آخر ، ولو بصيص مبهم بعيد، حركة ملتبسة يعود منشؤها الى انشقاق مشوش بما فيه الكفاية ، لكنها صامدة مستمرة ، لا تتراجع أمـام التهديدات السوفياتية ولا يغريها الذهب الأميركي ، اذن فإن العامـــل يشعر من تلقاء نفسه بأن انتماءه الى الحزب ليس نتيجة لحركة آلية صرف ، او بأن هـــذا الانتماء، اذا كان قد تم آلياً ، يصبح الآن اختياراً. وليس معنى هذا انه ينكره، بل هو على العكس يجدده ، لكنه يفهم إنه يجازف ، انه قد يكون مخطئاً وانه

لا بد من المراهنة ، ووفاؤه بالذات يصبح انسانياً . ان هذا الانتماء يكفّ عن ان يكون قائماً على استحالة مغادرة الحزب الشيوعي ليقوم بالتالي على ارادة البقاء فيه ... وبدءاً من هنا يمكن ان تقوم علاقات اخرى بين الجماهير والمسؤولين ، بين المناضلين والزعماء . ويمكن للوعي الطبقي ان يعود من جديد وعياً . وهذه هي الفائدة التي يمثلها كتاب ككتابك . انني أعرف انــه لن يوزع على الجمهور الكبير ، وان صحف الحزب ستفتري عليه او ستلزم حوله الصمت . لكنه ههنا، انه موجود ، انه شهادة ، ويستطيع اي كان ان يرجع اليه ، أن يقيّمه ، ان يناقشه . ويكفي أن يحمل بعض أوساط المناضلين المثقفين تطرح السؤال ، حتى يكون قد أدى دوره . ذلك ان هناك سؤالاً . وهو سؤالنا بقدر مـا انه سؤال اليوغوسلافيين : مـا دام الذاتي يتكشف من جديد في اللحظة بالذات التي يوشك فيها العــالم الانساني على الغرق في الموضوعية المطلقة ، فكيف ينبغي ان نتمم التاريخ والعمل السياسي لننقذ كلاً من الحركة الثورية والذاتية في آن واحد معاً؟

إنه ما من انسان يستطيع ان يتوقع ما ستؤول اليه التيتوية . وما من انسان يستطيع اليوم ان يفهم دلالتها الحقيقية . ولهذا لا بد من المراهنة عليها . وحين يوضع الرهان ، وتبدأ كرة الروليت بالدوران ، لا يعود بإمكان أحد أن يغير لعبه ، ويختفي الانسان . لكن العظمة الانسانية لمشروع من المشاريع انما تقاس بقدرة الانســان على ان يراهن حتى آخر لحظة على نجاحه او ضده .

(مقدمة « الشيوعية اليوغوسلافية » للوي دالما ـ ١٩٥٠) .

هل نحن في ديموقراطية؟

كان من العبث ان نموت من أجل دانزيغ[1]، وسيكون من المنطقي ان نموت من أجل الديموقراطية: هذا على الأقل ما يكررونه على مسامعنا يومياً. إنني لا أناقش المبدأ: فالمرء إذا ما وهب حياته من أجل «شيء ما» فسينتهي به الأمر الى ان يهبها من أجل لا شيء. لكن بودي، قبل أن أموت من أجل الديموقراطية، ان أتأكد من انني أعيش فيها. يبدو ان الديموقراطية هي نظام بلادي: بودّي ذلك، لكنني حين أبحث عن أدلة، أتبين انها تستند الى شهادة الغير. لقد قرأت فوق طوابع بريدية وعلى واجهات دور المحافظة ان الدولة الفرنسية تسمى جمهورية. واستطيع ان أقرأ الدستور والقوانين التنظيمية والتشريعات. لكن المؤرخين يعرفون منذ زمن طويل ان دراسة القوانين المكتوبة لا تعطي فكرة دقيقة عن عمل المؤسسات الواقعي. لقد لقنت في حداثتي نظرة متفائلة الى التاريخ تقوم على أسطورة التقدم. وإذا ما صدقنا هذا التصور الرسمي للغاية، فإن آلام أسلافنا واتعابهم، من كرومانيون[2] الى فالمي[3]، قد قادت الجنس البشري نحو اللحظة المقدسة التي تسلمت فيها البورجوازية أخيراً السلطة. انني لم أتحرر نهائياً من هذا التفاؤل، ولما كانوا قد أقنعوني بأن كل مرحلة

---

١ – مدينة بولونية كان احتلال النازيين لها عام ١٩٣٩ السبب المباشر لاندلاع الحرب العالمية الثانية. «هـ.م»

٢ – بلدة ما قبل تاريخية تقع في فرنسا. «هـ.م»

٣ – قرية فرنسية انتصر فيها الفرنسيون على البروسيين عام ١٧٩٢. «هـ.م»

تاريخية تحقق تقدماً على المرحلة السابقة وتنطوي على بذور التقدم اللاحق ، فإنني ما أزال أميل الى الاعتقاد بأن الجمهورية الرابعة أكثر ديموقراطية من الثالثة ، وان هذه الأخيرة أكثر ديموقراطية من الثانية . ومن سوء حظنا أن هذا المفتاح ما عاد يفتح أي باب : فقد كان التقدم ، أثناء صعود البورجوازية ، هو التغيير الشمولي. لكن جميع الاقفال قد جرى تبديلها اليوم بعد أن أخذت البورجوازية بالأفول ، وقد بلغت بلبلة المعقول حداً باتت معه البورجوازية تسمي رجعية الحكومات الفاشية التي خرجت بالأساس من حظيرتها ، وتطلق صفة التقدمية على الأحزاب الشعبية التي تستبدل أسطورة التطور المتفائلة بالايمان التراجيدي والمأساوي بالثورات . لكني إذا ما عدت أؤمن بالتقدم ، فمن يثبت لي عندها أن الديموقراطية ليست في انحطاط ؟ وهل أعرف كيف يجري تطبيقها في الجزائر، في غاو[1] ، بل حتى في كروزو[2]؟ وباختصار انني اعرف نظام فرنسا الذي أعيش فيه عن طريق القال والقيل شأن معرفتي بتضاريس افغانستان التي لم تطأها قدماي قط .

بيد أن الكثير من الناس يزعمون ان لهم معرفة حدسية مستمرة وعملية بمؤسساتنا . إن الديموقراطية بالنسبة اليهم بديهية . وهم يعونها يومياً من خلال ممارسة وثائقهم بالذات، حين يفرضون الاحترام لحقوقهم بل حتى عندما يؤدون واجباتهم . فأنتم تستطيعون ان تذهبوا وتجيئوا ، ان تفكروا وتقولوا ما تفكرون به ،وأنتم تنتخبون ، تطلعون على الأحداث عن طريق صحافة مستقلة، ولكم حصانتكم ضد تعسف الدولة والأفراد : وما الديموقراطية إلا هذا .

لكن الامور ليست واضحة الى هذا الحد بالنسبة إلي. انني مدرك ، بالفعل، اننا متمتعون ببعض الحقوق ومطالبون ببعض الواجبات ، شأننا شأن أي عضو في أي مجتمع قومي . لكن من اللحظة التي أرغب فيها أن اتأكد بأن لي فعلاً حقوقاً معترفاً بها ، يغيم كل شيء ويتشوش . فمن المؤكد ان لي حق

---

[1] - احدى مدن افريقيا الغربية الفرنسية . « هـ. م »
[2] - بلدة فرنسية صغيرة مشهورة بصناعتها النجمية . « هـ. م »

الانتخاب . لكن هل أنا واثق من ان صوتي لن يضيع ؟ لنفترض ان الامة التي أنتمي اليها مرغمة على إلحاق سياستها الخارجية بسياسة بلد اقوى « يحميها » : فأي أهمية في مثل هذه الحال إن كان صوتي يساهم في تمكين هذا الحزب او ذاك من تسلّم « السلطة »؟ أي اهمية لذلك ما دامت السلطة نفسها لم تعد موجودة ، وما دامت جميع الحكومات ستنتهج نفس السياسة ؟ فحتى أعرف أن لي فعلاً حق الانتخاب ، فمن الضروري ان أحدد اولاً اذا كانت فرنسا قد احتفظت بسيادتها أم أضاعتها . وهذا مثال آخر : انني افتتح صحيفة من الصحف ، كل صباح ، لأبحث فيها عن معلومات حقيقية عما جرى البارحة . وأنا أثق بالصحافة لأنني اعرف أنها « حرة » . وهذا يعني انها غير خاضعة للرقابة وان حكومة بلادي لا تملك الوسيلة للضغط عليها مباشرة . لكن لنفترض ان وضع فرنسا والعالم لا يسمح لهذه الصحافة بأن تستوفي الشروط الاقتصادية والاجتماعية التي تكفل لها حريتها المهنية . لنفترض ان الصحف اليومية الكبيرة مكرهة من قبل الظرف التاريخي – وحتى من غير ان تبيع نفسها – على التخلي عن استقلالها من تلقاء نفسها . لنفترض ان مفاهيم الحرية والموضوعية بالذات فقدت معناها في مجتمع يمزقه الصراع الطبقي وفي عالم منقسم الى كتلتين متناحرتين . إن ثقتي الجميلة هذه ستتبخر دفعة واحدة اذا أدركت ذلك : وآنذاك سأجد نفسي على حين غرة محاطاً بسور من الكذب . وفي مثل هذه الحال سيكون المثل الاعلى للصحافة هو الموضوعية ، وسيكون واقعها التضليل الدائم . واذا كنا نستمر في شراء الصحيفة كل صباح، فهذا لأننا نرفض من حيث المبدأ ان نطرح السؤال. وباختصار، انه ليخيل الينا اننا نشعر في كل لحظة بحرياتنا وبحقوقنا لأنهم أقنعونا في البداية بأننا نعيش في نظام ديموقراطي . لكني اذا لم اكن أفعل شيئاً سوى انني أساهم في طقس الاقتراع والفرقة السرية التافه ، بدلاً من أن امارس فعلاً حقي الانتخابي ، وباختصار اذا كانت أفعالي كمواطن تمسخ سراً الى حركات ظاهرية ، فهذا لأنهم كيفوني مذهبياً بصورة يستحيل معها علي ان أدرك حقيقة الواقع . واذا ما شعرت مع ذلك ، نتيجة لاستياء مبهم ، بأن كل شيء لا يسير

عن ... يوم ، فإني سأتهم الآخرين بدءاً من ... النظام .

صحيح اني في بعض ملفات واقعية . لكن كيف سبيل الى جزء ... تمثيلي من الدستور لا من كوني منتمياً الى الطبقة صاحبة الامتيازات ؟ اني حر على سبيل المثال في السفر الى الخارج ، والعمال ... لا يملكون مثل هذا ... سناً . لكن العمال الفرنسيين هم ايضاً لا يملكونه . انهم يملكون حق الهجرة في ... المحدود : لكن هل ثمة من ... سواحاً؟ واذا ما ... أن يهاجروا ، فإن منظمات قومية ودولية ستبت في أمرهم ... حقوقاً متماثلة ، لكن ليس جميع ... تتمتع بهذه الحظوة.

النظام الذي اعيش فيه اكثر ديموقراطية بكثير بالنسبة إلي منه ... أليس هما مظهراً ... من تقسيم ... لمواطنين الأحرار ... والعمال ... الى الحكم ... حسب قاعدة ... عقولاً متميزة ... في القانون المتعلق بحق المرشحين في تكوين لائحة ... لتقرر تجميع مقاعد الدائرة الانتخابية ، ذروة الديموقراطية . وكانت هذه العقول تقول . اذا كان الحزب الشيوعي ... الحركة الجمهورية ... متحالف اذن مع غيره . انهم يتظاهرون بالاعتقاد بأن عزلة تشريعيين ... نوع من « الغيرة » . واذا ما أثبتنا لهم العكس ، عزوا ... ان ... متعصبون ومشاغبون ، وان قانوناً يحافظ على الديموقراطية لا يمكن أن يكون غير ديموقراطي . ... انهم يقبلون باستخفاف ان تفقد الأوراق ... والماليين . فلقد تقرر ، بجرة قلم ، أن صوتاً معطى لهذين الحزبين هو اقل ... من غيره ، وتقرر أن حق بعض الآراء في تمثيل نفسها هو أقل من حق غيرها ، ومع ذلك يعلنون انهم ديموقراطيون ويعلنون سرورهم ورضاهم .

لهذه الأسباب ولأسباب كثيرة غيرها ، خيل إلي ان الواجب يقضي بأن نحاول ان نتحرر من الأساطير والأضاليل . انا شرعت بدءاً من اليوم ، بتحقيق عن التطبيق الواقعي للديموقراطية الفرنسية . هل يسمح الظرف التاريخي ، تحت ... الاجتماعي والاقتصادي والدولي ، بتجربة الشعب للمبادىء الديموقراطية ...

ما مقدار الطلاق بين الحقوق والوقائع في المجالات الأساسية (الصحافة ، الادارة الاستعمارية ، العدالة ، البوليس ، المجالس النيابية ، الخ) ؟ أما تزال فرنسا أمة ذات سيادة ؟ هل الانتخاب العام هو النموذج الواقعي للاقتراع ؟ هل تتقيد الادارة في المستعمرات بالاتفاقيات التي عقدتها الحكومة ؟ هل نتمتع فعلاً بحسنات التي يطلق عليها اسم habeas corpus"[1] ؟ الخ . وبالطبع إن الوقت مبكر على ان نحدد بدقة البنية الحقيقية للمجتمع الفرنسي المعاصر (الذي ليس هو بالتأكيد لا محض ديموقراطية ولا محض توتاليتارية"[2] ملتمة) . لكن يبدو لنا ممكناً ، من الآن ، أن نضع النقاط على الحروف . اننا سنخصص سلسلة من المداخلات لتوضيح ذلك المزيج المعقد من الوقائع والقيم ، من الأساطير والحقائق ، من التراجعات والتقدمات ، من الأضاليل والوقائع . ومساعدة قرائنا لن تكون فائضة عن الحاجة : اننا نتوجه اليهم ، لأن هذا المشروع لن يكون له من معنى إلا اذا كان جماعياً . فليحيطونا علماً اذن ، اذا كانت المشروع يحظى باهتمامهم ، بجميع الوقائع التي يمكن أن تكون مفيدة لنا (ليس لنا من موقف مسبق لا في هذا الاتجاه ولا في ذاك) . وسوف نأخذ بعين الاعتبار جميع الانتقادات وجميع الاقتراحات التي سيمدون بها الينا ، واذا كان عددها لن يسمح لنا بنشرها بتمامها ، سنخصص لها ، على كل الأحوال ، تعليقات خاصة .

كلمة أخيرة لنجتنب اي سوء تفاهم : إن الطلاق الآنف الذكر الذي يمكن أن نساق الى ملاحظته سيحتمل ولا شك اكثر من تفسير واحد . فنحن نستطيع ان نزعم ، على سبيل المثال ، انه توجد تحت سماء الافلاطونية جمهورية مثالية لا يحول بينها وبين أن تتجسد على الأرض سوى نواقص الطبيعة البشرية . وبمكننا ان نزعم ايضاً ان السير الطبيعي للمؤسسات الديموقراطية قد شوهته احداث

---

١ . اسم قانون مشهور في انكلترا يضمن حرية المواطن الشخصية بمنعه من توقيف اعتباطي المرفرف الى المحكمة لتبت في صحة اعتقاله . م . ع . ع

٢ . نظام سياسي تنعدم فيه حقوق الأفراد وحرية القول لا تقبل بوجود حزب غير حزب الحكومة . م . ع . ع

خارجية وانـــه من الممكن إصلاح الآلة . ويمكننا ان نزعم اخيراً ان العصر الذهبي للديموقراطية قد أمسى وراءها ، وان تفسخ النظام سيكون فقط تمهيداً لذلـك الحكم القيصري الذي يتلو عادة ، حسبا يقول التاريخ المقارن ، عهـد الجمهوريات .

إن وجهة نظرنا لا يمثلها أي من وجهات النظر هذه ، وبالأصل نحن لا نبالي هنا بأن نتفلسـف حول التاريخ . ان الديموقراطية في نظرنا نظـام بورجوازي ، والتناقضات التي قد تكشفها فيهـا متلاحمة داخلياً بالمجتمع البورجوازي . ولا وجود لديموقراطية مثالية ، إنما هناك نظـام ليبيرالي يولد تناقضات من نقطة المبدأ بالذات لأنه يفترض المشكلة محلولة : انـه ينفي بالفعل — على الورق — واقع الطبقات وصراع الطبقات ، ويزعم انـه لا ينظر إلا الى المواطن المعزول والمجرد في علاقته بالدولة أو بسائر المواطنين المعزولين . وإذا كان قد وجد عصر ذهبي للمذهب الليبيرالي السياسي وإذا كان بعض السذج يعتقدون انهم يستطيعون الرجوع الى ذلك العصر ليدبنوا « تعفن » مؤسساتنا ، فهذا لأن النظام الذي كان يقيـد حق الانتخاب بأداء ضريبة معينـة او لأن سحق البروليتاريا التي كانت سيئة التنظيم من قبل جيوش البورجوازية ، قـد حذفا للفترة من الزمن التظاهرات المنظورة لصراع الطبقات . والبروليتاريا ، الصامتة او المختـارة ، لم تكن تبـدو آنذاك كعامل تاريخي ، بحيث ان الحكومة والبرلمان وأجهزة السلطة القضائية كانت تبـدو بالفعل وكأنها انبثاقات لمجتمع لاطبقي : كانت الطبقة البورجوازية هي وحدهـا التي تنتجها وتراقبها وتستخدمها لمصلحتها . وعلى هذا ، لم يكن بوسع تلك الأجهزة ان تعكس تناقضات مجتمع لا تعبر عنـه بتمامه . ونحن سنرى ان الطلاق المتعاظم باستمرار في بعض المجالات ، بـين الوقائع والمبادىء ، يظهر على العكس مقاومـة الواقعي ، أي انزلاق أوروبا وبورجوازيتها وظهور طبقة عاملة منظمة وواعية لنفسـها في إطار الأمة ، في آن واحد معاً . ان عدم استقرار الحكومة والبحث الدائم والباطل عـن غالبية برلمانية ليس سببه ، كما تؤكد أوساط اليمين ، قلة أخلاق نوابنا : كل مـا هنالك

ان الصراع الطبقي ، بانعكاسه على الصعيد البرلماني ، قــد عطب آلة لم تخلق إلا لتعكس انسجام « البيئات » الاجتماعية ولتسمح لهــا بالتوفيق بين مصالحها . وسوف نلاحظ في الوقت نفسه ان المنجزات الديموقراطية، في قطاعات أخرى، تسجل « تقدماً » بالنسبة الى فترة ما قبل الحرب . لكننا سنرى أيضاً ان هــذا التقدم بالذات يسام ، بما يولده من نتائج ، في تدمير النظام الذي حققه . فكأن التحقيق الكامل للديموقراطية البورجوازية سيتطابق ولا بد مع دمارها الشامل. وليس في هذا ما يدعو الى العجب : فبقدر ما كان الفكر الليبرالي ينفي وجود الطبقات ، بنيته شبه الصريحة لإخفاء المشكلة الحقيقية ، كان لا بــد ان يولد فكرة واضحة عن مجتمع بلا طبقات سيكون حقيقة الديموقراطية البورجوازية وسيسام في هلاكها .

« الأزمنة الحديثة » — العدد ٧٨ .

« نهاية الأمل »

ذات ليلة ، في أيام الاحتلال ، كنا مجتمعين انا وبعض الاصدقـــاء في غرفة فندق . وتعالى فجأة صوت مجهول في الشارع يطلب النجدة . ودفعتنا نبرة هذا الصوت إلى النزول الى الشارع ركضاً حتى من غـير ان نتشاور . وجدنا الشارع مقفراً ، وجلنا حول المنازل ولم نصادف احداً . عدنا الى محلنا لكن ذلك الصوت لم يكف طوال الليل عن الصراخ في آذاننا . صوت بلا وجه ، بلا اسم ، يصرخ منادياً الجميع : في أيام الرعب تلك كنا ننتظر جميعاً مساعدة بعيدة ، نجـــدة تأخرت عن موعدها ، وكان كل واحد منا يتساءل إن لم يكن الصوت الذي سمعه هو صوته الخاص . وهذا الصوت هو الذي خيل إلي انني أتعرفه حين قرأت للمرة الأولى « نهاية الأمل » . انه هو الذي وجّه ، من مدريد ، ذلك النداء في نهاية كانون الثاني ١٩٤٦ : كان يقول آنذاك : « إن الأوان قد فات تقريباً » ، وقد وصلنا النداء عام ١٩٥٠ . وحين نشرناه في « الأزمنة الحديثة » ، تلقينا رسائل كانت تسألنا : « من هو هرمـــانوس ؟ أين هو ؟ » . وأجبت : « لا أدري » . وكانت تعرض مالاً ومساعدة ، فأجبت : « لقد فات الأوان » .

عندما ستشرعون بقراءة هذا الكتاب ، سيخيل اليكم انه يحدثكم عن الشكم : الاشخاص ، الاعتقالات السرية ، النضال السري ، توزيع المنشورات ، الخوف ، الاصغاء المقلق الى الاذاعة البريطانية : لقد عرفنا هذا كله . ولقد أحسن المؤلف اختيار اسمه المستعار : فهؤلاء الاسبانيون أشقاؤنا . ولقد كانوا ينتظرون بفارغ صبر خلاصنا لأن خلاصنا كان أيضاً خلاصهم . ثم جـــاء الخلاص : ولم يكن

خلاصهم . وكل ما عشناه في الفرح ، عاشوه هم في القلق والخيبة والذهول . وإذا ما قلبنا صفحة ، انقلبت ذكرياتنا إلى تأنيب ضمير : لقد سلبنا أشقاءنا . ويتغير الصوت ، ويصبح صوت شخص آخر ، صوت انسان قتلناه . صوت ما يزال على قيد الحياة ، يرن للمرة الأولى في آذاننا ، اما صاحبه فكل شيء يدل على انه مات . مات في اليأس : ترى أما يزال في مقدوركم ان تفهموا ما تعنيه هذه الكلمات ؟ ليس المــوت بشيء ذي بال : لكن الموت في العار ، في الحقد ، في الرعب ، في الندم على ساعة الولادة ؟ انه الشر الجذري ، ولا تحسبوا ان النصر ، مهما كان ، يستطيع ان يمحوه . وحتى لو حررنا اسبانيا ، وبحثنا عن هرمانوس ورفاقه من برشلونة الى مالاغا ، فعبثاً : لقد اختفوا . واسبانيا فارغة منهم كما كان مقفراً ذلك الشارع الليلي . وما عاد هناك شيء يصلح ، فكلمات الكتاب الاخيرة تقول : « هذا ما فعلوه بنــا جميعاً ، جميع اولئك الأنذال مجتمعين ، الديمقراطيات والقمصان الزرق » . انها الكلمات الأخيرة لرجل يحتضر ، ولن يكون في وسعنا ان نبدل فيها حرفاً واحداً . لقد فات الاوان .

لكن من الواجب مع ذلك ان تسمعوها ، صرخة ضحيتكم تلك ، الصرخة التي تسبق بثانية واحدة الذبحة الأخيرة : صرخة نهاية الأمل . ان هذا الصوت لم يصمت منذ عشرين سنة : كان صوت ضحايا الألمان ، ثم النمساويين ، ثم الاسبانيين ، ثم التشيكيين ، ثم البولونيين : ولقد ماتوا على التوالي ، وكانوا كلما سقطوا جاء آخرون ، ورفعوا الصوت ، وراحوا يصرخون بدورهم . اما نحن فكنا نسد آذاننا . والكتاب الآن امامنا ، وآخر الصارخين قد مات : تبقى كلمات مطبوعة . وينبغي ان تقرؤوها حتى تعلموا كيف يكون الصراخ بنهاية الأمل ، لأن دورنا سيأتي قريباً . وبعدها لن يوجد أحد ليصرخ . كما لن يوجد أحد ليسد أذنيه .

(مقدمة « نهاية الأمل » لجوان هرمانوس ، باريس – منشورات جوليار ١٩٥٠) .

الشيوعيـــة والسلم

حين كانت قوات الأمن تهاجم عمال المناجم ، راحت الصحافة اليمينية تنشر بيانات النصر : الأمر الذي جعلني اعتقـد ان الفيغارو[1] لا تحب العمال . لكنني كنت مخطئاً . وعليّ ان أقـــدم اعتذاراتي للجميع ولا سيما الى السيد روبينه . ذلك لأن السيد روبينيه يعبدهم ، أولئك العمال. وهو لا يريد ان يعترف بذلك ، من قبيل الحياء على مـا افترض . لكن بعد مشاجرة مصانع رينو ، عبّر أخيراً عـن عواطفه الجميلة . ولقـــد أدهشني في البدء ، أقرّ بذلك ، ان أقرأ العنوان التالي بالأحرف الكبيرة : « انتصار عمـالي » . ذلك انني رحت أتسـاءل : على من أمكن للطبقة العاملة ان تحقق هـــذا النصر ، إن لم يكن على أرباب العمل وعلى الحرس المتنقل ، أي على قراء الفيغارو ؟ لكن يبدو انني لم أفهم من الأمر شيئاً : كلا ، ان البروليتاريا لم تقهر الشرطة . ولا البورجوازية . إنمـا انتصرت على الحزب الشيوعي — المنظمة السياسية الوحيدة التي تمثلها في الجمعية الوطنية — وعلى الاتحاد العام للشغل[2] ، أكبر وأقدم اتحاداتها النقابية . وباختصـار ، لقـد سلمت البروليتاريا ، وألقت سلاحها ، وثمـــة جهد أخير منتظر منها : فلتحلّ نقاباتها ، ولتصوت للمستقلين في الانتخابات الفرعية ، وعندها تحرز أجلّ نصر : النصر الذي يحرزه الانسـان على ذاته . أجل ، هكذا يكونون محبوبين ، العمال :

١ — أكبر الصحف اليمينية الفرنسية . « م.ه » .

٢ — في فرنسا عدة اتحادات عمالية ، والاتحاد العـــام للشغل هو الاتحاد اليساري الماركسي بينها . « م.ه » .

بـــلا سلاح ، عزل الأيدي ، مفتوحي الأذرع . وما كان أجمل الشعب في « فورمي » في ١ أيار ١٨٩١ : لا كتائب صدام ، ولا تنظيات شبه عسكرية ، إنما أناس في الشارع ، أناس كثيرون : دونمـــا نظام . أطفال ، شبان ، صبية تمسك بغصن غار . ولقد أمكن لجنود القائد شابوي ان يسددوا بلا عجلة وان يطلقوا فيصيبوا .

ولعل هــذه الأيام الرغدة ستعود : وإني لأفهم ان يهنىء البعض أنفسهم على ذلك : لأن مجزرة فورمي تنتمي بالتأكيد الى ذلك الصنف من التمثيليات الذي يسميه السيد موربك « فاضحاً لكن بالمعنى الجيد » . لكن مـا يتجاوز طاقات فهمي هو السرور الغبي الذي يدلل عليه بعض رجال « اليسار » وبعض صحفه . يا لهم من مساكين : لقد نجح الحزب الشيوعي مرة أخرى في ضربته : كانوا يحبونه ، فتركوه على ندم ، فلطخهم بالبراز ، فباتوا يبغضونه . مسألة عواطف. اني ألتقي بهم أحياناً ، هؤلاء المستبعدين . ان ابتسامتهم مـا تزال عذبة لكن نظرتهم شاردة بعض الشيء : لقد ضرب تناقض زماننا خيامـــه فيهم . كيف يمكنكم ان تؤمنوا في آن واحد بالرسالة التاريخيـــة للبروليتاريا وبخيانة الحزب الشيوعي ، إذا كنتم تلاحظون انها تصوت له ؟ لكنهم يتدبرون أمرهم مع ذلك، وإن بمشقة . وكل منهم يجتاز ، في فترة زمنية تطول او تقصر ، المراحل المحتمة الأربع . المرحلة الأولى : « الحزب الشيوعي مخطىء ، أجـل ، لكن لا يمكنني على كل الأحوال ان أعادي البروليتاريا » . والمرحلة الثانيـة : « الطبقة العاملة هي موضع حبي الدائم ، لكن لا بد من الاعتراف على كل الأحوال بأنها ليست بصيرة بالقدر المطلوب . أنظروا الى الشغيلة الالمان : لقد أخذوا بتدجيل هتلر » . والمرحلة الثالثة : « لم تعد الطبقة العاملة تثـــال اهتمامي منذ ان أخذت موقف المتسامح غير الساخط من معسكرات الاعتقال السوفياتية » . والمرحلة الرابعـة والأخيرة : رؤيا يوحنـــا : « سنعقد لك تحالفاً مع الولايات المتحدة . قف . سنقذف لك روسيا بالقنابل الذرية . قف . سنشنق لـــك جميع الشيوعيين . قف . وسنبني لك فوق الانقاض الاشتراكية الأممية ، الديموقراطية ، الاصلاحية

وكل ما هو مع الحرية كما هي مـا تزال موجودة فيا وراء الستار الحديدي ، كل هذا يجب ان يهدم من الوجود قبل ان يباد ويستأصل ... » .

هل لاحظتم : « إذا ما رأى ذلك واجباً » ؟ ألا كم في هـذه الكلمات الخمس من براعة وتضمين ، وما اعظم استعداد الانسان كي يموت عـن طيبة قلب من أجل اللغة والثقافة اللتين تسمحان بمثل هذه التعابير المرهفة الدقيقة ! اذا مـا رأى ذلك واجباً : إن كل ما في هذه الكلمات يدل على انها تريد فقط ان تقول : « إذا كان هذا رأيكم » . لكن ينبغي ألا ننسى الاستياء الطفيف المرتبط بتعبير : « ما دمتم قد ستحسنتم ان تلزموني من غـير ان تأخذوا رأيي ... » . أنهم اذن : انتقدوا حلفاءكم الاميركان اذا بدا لكم ذلك واجباً . اما السيد آلتان فهو لا يرى ذلك واجباً ، واذا كان يترك لكم الحرية ، إلا انه يحذركم خلسة من انكم ستركتكبون حماقات . واأسفاه ! انني اخشى ان تضيع هذه الحذاقات سدى : فالأميركان الذين سيقرأون المقال لم يهيئهم بعد التعليم الاساسي لتذوقه كما يجب . على كل حال ، انهم حلفاؤنا : وهذا شيء يقطع فيه السيد آلتان جازماً . وهو على حـق بالأصل ، على مطلق الحق : فالحكومة الفرنسية ـ أي حكومـة في الحقيقة؟ ـ قد وقعت على معاهدة الحلف الاطلسي . وخلاصة الكلام ان العامل يتمتع بحريات ديموقراطية : انـه يستطيع ان يفكر ، ان يتكلم ، ان يصوت ؟ اذن ! ما حاجته الى النزول الى الشوارع ليتشاجر ، كالرعاع ؟ آه ! انه الستاليني الذي يحرضه ! ذلك الستاليني ، الدافـع على الشر ، المحرض الأزلي ، الروسي اليوم ، الألماني بالأمس ، الثائر الذهب الانكليزي عام ١٧٨٩ والذهب الروسي عام ١٨٤٠ ، المؤجج نار الاستياء الجماهيري ، والمستغل هـذا الاستياء ليدفع بالجماهير الى السياسة . وهذه الجماهير ، التي أهيجت عصبيتها خطاباته الماكرة ، تخرج على الشرعية وتقع أول ضحية لعنفها . انه هو الذي حث الرعاع ، نحن نعرف ذلك اليوم ، على مهاجمة الباستيل ، هو الذي استغل غضبة بعض العبيد السود الذين ربما عوقبوا بصرامة أكبر مما ينبغي ، ليجعلنا نخسر سان دومانغ[1] ،

---

١ ـ اسم آخر لجزيرة هايتي . (م . ع) .

وهو الذي مـــوّل مؤامرة « الرقبـــاء الأربعة[1] » ، وايام حزيران ١٩٤٨ ، والاضرابات التي لا يحصى لها عدد في أواخر القرن ، وأخيراً عصيانات عـــام ١٩١٧ . كيف السبيل الى إحباط حيله ؟ كيف السبيل الى شل يده ؟ ان السيد آلتان يقول لنا ذلك : « لو كان في وسع ديموقراطية اجتماعية جريئة ان تعرف كيف تنتزع من الستالينيين احتكار الدفاع عن الشغيلة ، لما وصلت بنا الأمور الى ما وصلت بنا اليه اليوم » . وهذا ما لا يجدد شبابنا : فمنـــذ مئة واثنين وستين عامـــاً لم يتبدل لا الداء ولا الدواء . وجرأة السيد آلتان الديموقراطية تذكرنا من بعض الوجوه بالتقدمية الحذرة التي نادى بهـــا الكونت دي موزني الذي كتب منذ كانون الثاني ١٨٩٨ في « مجلة العالمين » : « إن الشيوعية تلغـم بصمت أساس المجتمعات والحكومات . فهـــل في وسع تنازلات معتـــدلة ، واصلاحات ذكية ، ودراسة دقيقة للمسائل المالية والاجتماعية ، وغيرة الطبقات الغنية الورعة على الطبقات الفقيرة ، ومقاومـــة شجاعة للعصاة ، أن تقضي على الشرور التي تهددنا ؟ هذا هو السؤال الحقيقي » .

قبلنا بالديموقراطية الاجتماعية الجريئة : بتنازلات معتدلة لصالح النقابات ، بغيرة ارباب العمل الورعة على الشغيلة ، بالمقاومة الجريئة تجاه العصاة الانفصاليين . لكن اين هي عناصر هذه الديموقراطية ؟ اين الجهاز السياسي الذي سيطبق هذا البرنامج ؟ اين الغالبية التي ستحمله الى سدة الحكم ؟ ان السيد آلتان ليس بمخدوع : انه يعرف معرفة حقة انه لا بد من مرور سنوات قبل ان تتمكن جماعة سياسية من الوصول الى ما فيه الكفاية من النفوذ ليصبح لهـــا تمثيلها في الجمعية الوطنية . والحال انه مقتنع بأن الحرب واقعـــة غـــداً ، الحرب التي سيثيرها الروس ، والحرب الخاسرة اذا لم توجد وسيلة لتحرير الجماهير منذ اليوم من سيطرة الحزب الشيوعي . يا للسيد آلتان المسكين ، انه يعرف الشيوعيين منذ ثلاثين عامـــاً ويعلم تماماً انهم لن يتخلوا مهما يكن الثمن . لهـــذا فإن محاكمته العقلية المفضلة

---

١ – هم الرقباء الأربعة من حامية لاروشيل الذين اتهموا بالتآمر واعدموا عام ١٨٢٢ . «م.ع» .

تتقلب أحياناً من تلقاء نفسها في رأسه ويقـول في نفسـه : مــا دام « الحزب الديموقراطي الاجتماعي الجري» لم يصل بعد الى السلطة، أفلا يتوجب الاعتراف بأن الحزب الشيوعي هـو الممثل الوحيد الممكن ، في الوقت الراهن ، للناخبين العمال ؟ وأحب ان اقول لكم ان نوم السيد آلتمان يصبح خشناً في مثـل تلك الأيام ! ذلك لأنه منتسب الى جماعة واسعة الانتشار بما فيه الكفاية هي بالنسبة الى الحرب القادمة ما كانته رابطة المحاربين القدماء بالنسبة الى حرب ١٩١٤ : « رابطة معدومي المستقبل » . كثيراً ما دعوني الى مآدبهم لكني لم استطع ان آخذ على عاتقي الذهاب اليها ومشاطرتهم مرحهم الوجولي والجنائزي . كانوا يقولون : « تعال اذن ، فأنت منا ! » . لكن اذا ما اندلعت الحرب القادمة ، فإن لدي أكثر من سبب للاعتقاد بأننا سنقضي فيها نحبنا جميعاً ولن أضيع وقتي في تعداد الحيوات العزيزة علي .

وأخيراً يأتي يوم ٤ حزيران وكأنه يوم الخـلاص : فنسبة المضربين ٢٪ . ويهلل السيد آلتمان ، ويشعر بأن الحياة تدب فيه من جديد . ٢٪ ! اذن فقد فهم العامل اخيراً ، وسئم من الكد والعناء لمنفعة الاتحاد السوفياتي ، وبرهن على عدم ثقته بالحزب الذي كان يريد ان يحرضه على المؤسسات الجمهورية . هذا العامل ، الذي شبع من العنف ، يعود إلى حديقته الصغيرة في الضاحية ، إلى وداعة أخلاقه التي طالما تغنى بها البعض . وسرعان ما يتقدم الجميع عارضين عليه توجيهه وإرشاده . و « القوة العمالية [1] » تفتح له ذراعيها ، ويبدأ السيد آلتمان بالتساؤل جدياً عما اذا كان يستطيع ان يضمه الى « حزبه الديمقراطي الاجتماعي الجري» » .

ايها الأطفال الصيحون ، ايتها الجرذان الدبقة العزيزة ، انكم لتسعون الى الحرب ! تستطيعون ان تصدقوني . انـه جرذ دبق ذاك الذي يخاطبكم . انكم تسعون الى الحرب ، وستجروننا معكم اليها . ولامبالاة العمال لا تعرقل الانزلاق

---

١ - منظمة خاضعة لتوجيه الحزب الاشتراكي الفرنسي ، منشقة عن « الاتحاد العام للشغل » .
« م . ع » .

نحو الجزرة : بـل تعجل به . وإذا كانت نهائية ، تستطيعون اذن ان تمحوا احذيتكم . فلكثرة ما فتشتم عن قتل الحزب الشيوعي ، اصبح نظركم حسيراً . ولطالما شكوتم من أن الحزب الشيوعي « يحتكر الدفاع عن الشغيلة » حتى انتهى بكم الأمر إلى الاعتقاد بأن هذا الامتياز جاءه صدفة . انه ، على مـا تقولون ، حزب المستهترين والقتلة والكذبة ، انه يحث على الحقد ، وحيله غليظة خشنة الى حد ان صحفكم لا تجد مشقة في إحباطها كل صباح . اذن فلا بد ان البروليتاريا كلها مجرمة وكاذبة ومهترة . وإلا كيف نفسر انها مـا تزال شيوعية ؟ انف ستالين ، من الجائز ؟ لو انه كان أقصر قليلاً ؟ ...

ان الواجب يقضي بدعوة هذه النفوس المضطربة إلى الاحتشام ، حتى ولو اضطررنا الى تسميم اطمئنانها الجبان ، الى تذكيرها ببعض الحقـائق المزعجة ، ومنها : انه لا يمكن للمرء ان يحارب الطبقة العاملة من غير ان يصبح عدو البشر وعدو نفسه ، وانه اذا ما حلا للحزب الشيوعي ، وعندما تكونون انتم عاجزين حتى عن تحريك أصبعكم الصغير ، فـإن الطبقة العاملة ستكون ضدكم . وانه لا بد مع ذلك من الاحتفاظ بصحو الفكر في الوقت نفسه لأن الغضب والحقد وربما الخوف وابتسامات اليمين يمكن أن تدفع بكم بين ليلة وضحاها الى احضان الخيانة . وانه لا ينبغي البتة أخيراً الاعتماد على تصفية الحزب الشيوعي : صحيح ان البروليتاريا حردة منه بعض الشيء ، في هذه الآونة ، لكنها مسألة صغيرة بسيطة وستظل بينها ، ولقد أخذت اللجنة المركزية درساً منها منذ الآن . هـذه هي حقيقة الموقف : لا انتم تستطيعون شيئاً ، ولا أنا . وإذا ما وجدتموها قاسية اكثر ممـا ينبغي ، فافتحوا الغاز او اصطادوا بالسنارة . لكن لا تبدأوا بالتلاعب والغش وإلا انتهى بكم الأمر ، كما حـدث لشخص أعرفه ، الى الدعوة إلى الحرب في « قاعة كارنيجي » وإلى اثارة اشمئزاز الاميركان انفسهم . حين علمتم بالمظاهرة ضد ريدوي [1] ، أظهرتم لنا استنكاراً لا حدود له : ولقد جمعتم في استنكاركم

---

١ - جنرال اميركي ، قائد قوات الأمم المتحدة في كوريا بين ١٩٥١ و ١٩٥٢ .
« م . ع » .

كل شيء ، كل شيء على الاطلاق ! جميع العيـــوب الشيوعية التي لا تطاق : اللاشرعية ، العنف ، وذلك الهوس الضار في تعبئة الشغيلة المنتمين الى النقابات حول شعارات سياسية . وإنني لأصارحكم بأنني اخشى ان تكونوا قد لجأتم إلى الغش . وتلك الرذيلة العضال التي تأخذونها على الحزب الشيوعي ، أتساءل أنا إن لم تكن بكل بساطة طبيعة البروليتاريا الخاصة .

ان الوقائع ههنا : المظاهرة ، الاضراب الفـــاشل الذي تلاها ، الانتخابات الفرعية في معامل رينـو ثم في الجمعية الوطنية . خطوط مشوشة بعض الشيء ، متناقضة ظاهرياً . لا أهمية لهذا : فلندعها تتكلم لعلها ستقول لـــكم ان كنتم خونة او مجرد جرذان دبقة [١] . ستقول لكم ، بألفاظ أخرى ، إلى أي حد ينبغي ان نعتبر الحزب الشيوعي التعبير الضروري عن الطبقة العاملة ، والى اي حد ينبغي ان نعتبره تعبيراً دقيقاً عنها .

١ – تظاهرة ٢٨ ايار .

أ – الكد والعناء لمنفعة الاتحاد السوفياتي .

« لقد سئم العامل من كونه دمية في يد موسكو . لقد رفض أن يشترك في التظاهرة لأنه يستهجن مبدأهـا » . ما أدراكم بذلك ؟ هـــل سمعتموه بآذانكم يشتكي ؟ انما نحن الذين نرى في كل مكان يد موسكو . وأنا لا أقول اننا دومـاً على خطأ . لكن العامـل ليس مجبولاً من طينتنا . انه « مقسم كبير » شأن البورجوازي ، لكن مانويته بعكس مانويتنا : فهو انمـا يرى ذهب اميركا خلف حركاتنا كافة . والقول بأنه ادرك انهم يستغلونه كمطية ، فهذا معناه اننا نفترض ان نظام تفسيرنا قد حل محل نظامه هو . فهل ادرك الـسيد روبينه انه كان دمية في يد الولايات المتحدة ؟ والـسيد النيان ؟ ان الحزب الشيوعي الفرنسي لم

---

١ – الجرذ الدبق لم يخن. لكن الحزب واثق من انه كان سيقدم على ذلك لو سنحت الفرصة. وباختصار، انها كلمة تشير الى هذا الصنف من الافراد – الواسع الانتشار مع الأسف في مجتمعنا : صنف المذنب الذي لا يمكن أن يؤخذ عليه شيء .

يخف قط على كل حـــال انه يبقي سياسته على سياسة عامـــة ترسم تعليماتها في الكومنترن ثم في الكومنفورم[1]. وفي الموضوعات التي صدق عليها المؤتمر العالمي الثالث للأممية الثالثة نقرأ ان «الحزب بمجموعه هو تحت قيادة الاممية الشيوعية». وإن « قرارات الاممية الشيوعية ملزمة للحزب ولكل عضو من اعضائـــه ». والحال انه في ذلك الزمان (١٩٢١) كان من بين الأعضاء الخمسة في « رئاسة اللجنة التنفيذية » ثلاثة روسيين ، وألماني واحد ، ومجري واحد . وهذا لم يمنع، بعد مؤتمر تور[2] ، ١٣٠,٠٠٠ اشتراكي فرنسي من تشكيل الحزب الشيوعي ، بينما بقي ٣٠,٠٠٠ مع بلوم . وعلى كل ، فـــإن الاختلافات العميقة التي تفصل الحزب الشيوعي الايطالي عن الحزب الشيوعي الفرنسي تثبت ان مبادهة واسعة النطاق متروكة للقادة المحليين . أنتم تزعمون ان هذه السياسة تخدم مصالح الاتحاد السوفياتي وحده . وما أسهل مثل هذا الزعم عليكم . ولا بد بالفعل من ان نرى ان الاممية الثالثة ولدت للحاجة الى الهيبة والحزم . ففشل حركة ١٩١٤ السلمية ، وعجز العمال ، وتحـــالف الزعماء الاشتراكيين مع حكومة الاتحـــاد القومي البورجوازية ، جعلت المناضلين يميلون نحـــو سياسة الحزم . ولم تكن مؤتمرات الأممية الثانية « غير هيئات أكاديمية تنتهي بقرارات لا قيمة لها » ، وعلى جميـــع المستويات كانت « الشعبة الفرنسية من الاممية العمالية[3] » تعني الفوضى . والحال ان معظم المناضلين كانوا مقتنعين بـــأن « الصراع الطبقي قد دخل في مرحلة الحرب الأهلية » . اذن فقـد كانوا راغبين في تكوين حزب جديد يكون بمثابة سلاح . هيبة ، فعالية ، تسلسل : هذا مـا طلبوه من الاممية الثالثة . ولا ريب

---

١ ـ الكومنترن : المركز القيادي للحركة الشيوعية الاممية جرى حله عام ١٩٤٣ واستبدل عام ١٩٤٧ بالكومنفورم وهو « مكتب اعلام شيوعي » غير محدد المركز . « هـ. م »

٢ ـ وقد عقد عام ١٩٢٠ ووقع فيـــه الانشقاق بين الشيوعيين والاشتراكيين الفرنسيين . « هـ. م ».

٣ ـ هو اسم الحزب الاشتراكي الفرنسي يوم تأسيسه عام ١٩٠٥ . وقـــد بقي محافظاً على اسمه هذا حتى اليوم بينما انشق عنه الشيوعيون في مؤتمر تور ليشكلوا الحزب الشيوعي . « هـ. م ».

في انهم كانوا يؤثرون ان يتبعوا تعليمات الاجانب الذين قهروا بورجوازية بلادهم على ان يطيعوا فرنسيين تعاونوا مع البورجوازية الفرنسية . وما كان يتمناه المئة والثلاثون ألف منتسب الى الحزب الشيوعي ، وما حققوه هو المركزية البيروقراطية ، وهي نوع من تعبئة شاملة ودائمة تكفل لكل فرد منهم اقصى حد ممكن من الفعالية . ومنذ ذلك العهد بدأ القادة يردون عن أنفسهم المآخذين الذين سيوجهان اليهم فيما بعد باستمرار : « يجب ان تتم المركزية بصورة تكون معها بالنسبة الى اعضاء الحزب بمثابة تدعيم ... لنشاطهم ... وإلا فسوف تبدو للجماهير كمجرد بيروقراطية حزبية » ، و « الصراع بصدد دكتاتورية موسكو ليس إلا وسيلة لتسلية مبتذلة [1] » . بيد ان الجهاز الذي تم تصوره على هذا الشكل هو ، بماهيته ، ملتبس . ذلك ان العمل العمالي اذا ما خطط له ووجه على المستوى الدولي حزب مركزي، فإن شعاراته ستبدو في هذا القطاع المحلي او ذاك ، مهما يكن بالأصل هدفها، وكأنها أوامر مجردة . وسوف تعامل كل بروليتاريا علية وكأنها وسيلة لتلك الغاية غير المشروطة التي هي الثورة العالمية ، ونظراً إلى عدم توفر معرفة دقيقة بالاحداث كافة - وهي معرفة غير ممكنة إلا للمؤرخ وبعد تراجع زمني - فإن الثقة هي وحدها التي ستضمن للبروليتاريا انها لم تقع ضحية لعبة ما، وان التضحيات التي ارتضتها كانت مشروعة. وكما هي الحال دوماً فإن الوقائع لا تقول نعم او لا : فبعد بيرل هاربور طلب الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة من اعضائه السود ان يوقفوا حملتهم المعادية للعنصرية ، إذ لم يكن ثمة من فائدة من تغذية الدعاية النازية . وكان كثيرون من السود قد دخلوا الى الحزب لأنه الوحيد الذي كان يدافع عنهم : فاعتبروا ان الحزب ضحى بهم وتركوه . ولا يمكننا ان نلومهم على ذلك : لكن ماذا كان الهدف النهائي للشعار ؟ هل كان يستهدف مصالح الاتحاد السوفياتي فحسب ام كان يستهدف مصالح اوروبا والعالم ؟ حتى يمكننا ان نبت في الموضوع ، فلا بد من الافتراض اولاً بأن حرب ١٩٤٠ لم تكن سوى حرب امبريالية . وهذا ما

---

١ - رسالة الى العمال الالمان والفرنسيين (لينين) .

يعتقده بالفعل التروتسكيون ، وهم اوفيـاء بذلك لمنطقهم لأنهم ادانوا المقاومة عام ١٩٤٢ . لكن المقاومين اليساريين كانوا سيحرجون لو انهم ماشوهم . وعلى كل حال ، لا يمكننا ان نجزم في المسألة إلا بعد ان تكون قد حددنا موقفنـا بصدد مسائل أوسع بكثير ، ولا سيا مسألة قيمة الثورة الروسية والماركسية .

لقد شهد العالم موقفاً مماثلاً عام ١٩٢١ . فمنـذ الحرب راح الاشتراكيون الفرنسيون يميلون إلى العودة الى النزعة السلمية المطلقة التي حافظت على مكانتها في التقاليد الفرنسية بالرغم من فشل ١٩١٤ . وكان لينين يريد ان يميزوا بين الحروب الامبريالية والحروب الثورية . وقـد رفض فوضوبو اليسار المتطرف ذلك مدة طويلة من الزمن : انهم سلميون الى النهاية ويطالبون بحقهم في الهتاف : « لتسقط جميع الجيوش ، بما فيها الجيش الأحمر » . فمن كان على حق ؟ ان المسألة تتعلق بالطبع بقيمة الاتحـاد السوفياتي بالنسبة إلى الثورة ، اذن بقيمة الثورة في الاتحاد السوفياتي . وتستطيعون ، حسب قناعاتكم ، ان تبينوا ان مطلب لينين يحطم تقليداً عميقاً في الحياة الاشتراكية الفرنسية ، وانه يدخـل بالقوة والغصب استثناء باطلاً في قلب نظام متلاحم ، او ان الموقف الذي كان يبرر نزعة ما قبل الحرب السلمية المطلقة قد تجـاوزته ثورة اكتوبر على نطاق واسع . وانه ليخيـل الينا في مثل هذه الحال اننا خضنا في واحدة من تلـك المناقشات التي لا نهاية لها والتي يتعارض فيهـا الفلاسفة المتفائلون وتلامذة لاروشفوكو: مناقشة تستعرض فيها الأعمال البشرية ويفسرها كلٌ حسب وجهات نظره ، فهذا يفسرها بدوافع غيرية ، وذاك بدوافع مغرضة . وإذا كان هؤلاء المتخاصمون لا يستطيعون ان يتوصلوا الى اتفـاق ، فهذا لأنهم بتّوا قبلياً بالقيمة الانسانية . وإذا كنتم لا تستطيعون ان تتفاهموا مع الشيوعيين ، فهذا لأنكـم كونتم لأنفسكم قبليا رأياً بصدد قيمة التجربة الروسية .

في كانون الثاني ١٩١٨ كتب لينين : « إن جمهورية السوفييت ستظل مثالاً حيـا في نظر شعوب جميع البلدان ، وقوة التغلغل الثوري لهـذا المثال ستكون مدهشة » . وفي آذار ١٩٢٣ : « إن مـا يهمنا ليس هو ذلـك

الأحوال ، لن يكون أبداً التوحيد بين الاتحاد السوفياتي والطبقة الثورية أمراً ، وسيستطيع دوماً المناهضون للشيوعية ان يبينوا للعامل الفرنسي انه ويخرج الكستناء من النار لمنفعة موسكو » . لكنهم بالمقابل لن يستطيعوا ان يقيموا البرهان على ذلك إلا في حالة واحدة : اذا كان بمقدورهم ان يثبتوا ان القادة السوفييتيين ما عادوا يؤمنون بالثورة الروسية او انهم يعتقدون بأن التجربة سيكون مصيرها الفشل . وبديهي انه حتى لو كان هذا صحيحاً ، وهذا ما أشك فيه كثيراً ، فإن البرهان عليه لن يكون ممكناً اليوم [1] » . وفيما عدا هذه الفرضية ، وفي اي فرضية أخرى ، يمكن للمكتب السياسي ان يخطىء ، ان يسير في غير الطريق السليم ، ان يقترف اخطاء مميتة (الثورة عقيمة لكن الاتحاد السوفياتي يمكن ان يختفي) ، إلا انه مهما فعل فلن يضحي بالعامل لحساب الأمة الروسية .

وفي مظاهرة ٢٨ أيار نستطيع ان نجد مثالاً صادقاً عن الخلاف في الرأي الذي يمارس بصورة لا توفيق معها بين المناهضين للشيوعية وبين الشيوعيين . فكلا الطرفين منغلقان عن التجربة لأن مواقفهما محددة مسبقاً . لكن الاولين ، الخاسين وهدم المراق ، لم يروا في المظاهرة سوى نوع من عنف وحشي ومرابي ، كما أمكن للآخرين ان يحكموا عليها بأنها خرقاء ولم تجيء في وقتها : غير انها تظل في نظرهم احدى لحظات لعبة الشطرنج الكبرى التي تلعبها البروليتاريا ضد الرأسمالية الدولية .

ب – « موسكو تريد الحرب »

المشكلة الحقيقية ، على كل الاحوال ، ليست هنا ، واولئك الذين يتحدثون عن موسكو انما يريدون ان يضللونا . ذلك انه من المؤكد انه ليس الاتحاد السوفياتي الذي أمر بهذه المظاهرة . انا لا أنكر ان الاحزاب القومية تستلهمه لكن بصورة بالغة العمومية . لقد كتب بيبو [2] ، لدن عودته من موسكو ،

---

١ – سأعود الى هذا الموضوع في القسم الثاني .

٢ انه هو الذي سيوجه فيه ، بالفعل ، أقسى النقد والادانة في تقرير فاجون .

مقالاً يعلن فيه قطيعة الحزب الشيوعي مع «البورجوازية التي تسلم البلاد لاستعمار المحتل الجديد» . لكن حتى لو افترضنا ان المقال أملي عليه – الشيء الذي يبدو لي أن فيه تبسيطاً مبالغاً فيه للأمور – فإن الافعال التي يعلن عنها أخطر بكثير من مجرد تظاهرة بسيطة حتى لو رافقها شجار . والحق ان المظاهرة انما جرى تقريرها مع سائر الأمور الجارية من قبل المكتب السياسي وتحت مسؤوليته .

وبالواقع ، ما هدفها ؟ ذلك ان الصحافة تتكلم عن اضطرابات وفوضى وحقد ، لكن من غير ان تقدم سبباً لكل هذه الضجة . ان مناهض الشيوعية يتندر حول سذاجتي ويقول : « هدفها ؟ لكن هل يعمى عن الابصار ؟ انه الاعداد للحرب ! » . بديهي ! كيف لم يخطر لي ذلك : إن الحزب الشيوعي وأنصار السلام يدعون سكان باريس الى التظاهر ضد الحرب : وهذا دليل باهر يعمي الأبصار على ان الاتحاد السوفياتي يريد ان يهاجمنا . معمٍ للأبصار ، بالفعل ، بالنسبة الى من يأخذ بمذهب وزرائنا : إذا كنت تريد السلم فهيء الحرب ، ومن اصول المنطق ان تقلب الآية بعد ذلك وتقول : إذا كنت تريد الحرب ، فهيء السلم . ومنذ توقيع معاهدة الحلف الاطلسي ، اصبحت صور دعة الريف وهدوئه مرتبطة بمشهد بزة عسكرية ، كما ان لقاء عابراً بدبابة ما يكون مفعوله بالنسبة الى اصحاب الأمزجة العصبية كمفعول شراب مسكّن . وبالمقابل فإن المدني مشبوه لأنه لا يرتدي البزة العسكرية . أفلا يريد السلم ؟ بالضبط ، انه يطالب به بصوت عالٍ : لا مجال للشك اذن ، انه مشاغب . وواضح انه اختار هندامه ليقدم لأنظارنا صورة نزع السلاح المثبطة للهمم . ودعوته الى تآلف القلوب ليس لها من هدف سوى تخريب الدفاع . أتذكرون حرجنا حين كانت الحرب الباردة تترك لنا ، من حين الى آخر ، بعض الراحة ؟ فقد كنا نتساءل : ما وراء الاكمة ؟ وبالأمس أيضاً ، استولى القلق على الجنرال كلارك عندما رأى ان القتال قد توقف في كوريا . ولم يعد اطمئنانه اليه إلا بعد خمس عمليات قصف جوي شديد . وهكذا فإن صمتاً غريباً يخيم من حين لآخر ترتعد له أوصال العالم . والإنسان الذي يريد السلم ، سواء أكان شيوعياً أم لا ، يظل مرتبطاً في نظرنا

بمشاعر الضيق والحرج هذه : انه يعمل بالضرورة لحساب العدو. فكيف يكون الأمر اذا كان سلوكه يستلهم العنف الذي يرفضه ؟ واني لأقر بأن صوت الحزب الشيوعي جهوري : فقد صاح بارادته السلم بصوت عال للغاية حتى بات كل إنسان يعتقد ان ساعته الاخيرة قد أزفت .

لكن انتم ، يا من تلعبون دور الساخطين المتهجنين ، هل تفعلون شيئاً آخر ؟ ألا تزعمون انتم أيضاً انكم راغبون في السلام ؟ والحال انني ابحث عن اغصان زيتونكم فلا أجد غير القنابل . انكم تقولون انكم تظهرون قوتكم حتى لا تضطروا الى استخدامها ؟ لكن إظهار القوة هو بالأساس فعل عنف . انكم تغطون بقاذفات قنابلكم سماء إفريقيا لترضخوا لأوامركم مليكاً زنجياً . وهذا العنف الأبيض أدهى من الآخر : إن المليك سيطأطىء الرأس بدون ان تطلقوا طلقة بندقية واحدة لكنكم تكونون قد حطمتم ارادته بالارهاب . وانظروا على كل حال الى نتيجة تهديداتكم السلبية جداً : انها تنتج ردوداً سلبية جداً هي بمثابة مجازر . وانتم تنشرون نتائج تجاربكم الذرية وتتباهون بقدرتكم على محو موسكو في مدى أربع وعشرين ساعة : لصالح السلام ، بالتأكيد ، ولتثبيط همة المعتدي المتوقع. لكن الحكومة السوفياتية حريصة هي الأخرى على تثبيط همة المعتدي : فلتسقط طائرة سويدية لتثبت ان مجالها الجوي غير قابل للاختراق . من عدوان مثبط الى عدوان مثبط ، في اليونان ، في برلين ، في كوريا ، في باريس بالذات ، ورجال يموتون يومياً . وهذا هو سلامكم : السلام عن طريق الخوف . ولو كان الاتحاد السوفياتي خائفاً مثلكم ، لكان سلامكم قد انقلب حرباً .

ذلك أن الاتحاد السوفياتي يريد السلام وهو يبرهن على إرادته هذه يومياً . ان حلفاءكم الأميركان يرددون بأنه لا يمكن تجنب الصدام إلا عن طريق المغالاة في التسلح . « لن يعود الاتحـــاد السوفياتي يقلقنا حين سنصبح أقوى منــه » . أقوى منه : أي قادرين على سحقه إذا ما تحنح . لنفترض بأنكم وصلتم الى هذه الدرجة من القوة: فمن سيقرر انه تحنح! ما ستكون حدود صبركم ! أسيتوجب

أنا يغزو بلداً أجنبياً أم يكفي ان تعتقل دولة تابعة له أحد الكرادلة ؟ ان الحكومة الاميركية تؤكد انها لن تهاجم إذا لم يكن هناك داعٍ جليل الى ذلك. وبودي لو أصدقها . لكن الروس ؟ كيف تريدون ان يصدقوها ؟ كيف يثقون بوعود حكومة ديموقراطية عاجزة حتى عن إيقاف تحركات جنرالاتها ، وقد تخلي مكانها ، في مدى ستة أشهر ، لحكومة جمهورية ؟ انني لا أشك ، بالطبع ، بصفاء النيات الاميركية ، لكني أعرف مع الاسف ان تغيراً في الطاقة العسكرية يؤدي بالضرورة الى تغير في العقول. وليس ثمة من حاجة الى اللجوء الى التحاليل الماركسية لنعرف ان السياسة الخارجية لأي أمة كانت تتحد بتسلحها : ان عهدنا ما يزال قريباً بذلك الزمان المأسوف عليه الذي كان فيه الاميركان يبغضون الحرب لأنه لم تكن لديهم مدافع . والحال انكم تزعمون ان القادة السوفياتيين وحوش لا تأبه بالحياة الانسانية وقادرة على إشعال نار الحرب بطقطقة أصابعها . إذن فلماذا لا يهاجمون ؟ لماذا لا يهاجمون طالما ان الفرصة ما تزال سانحة ، وطالما ان مطارداتهم متفوقة على مطاردات العدو ، وطالما ان جيوشهم لا تحتاج الى أكثر من ثمانية أيام لاجتياح أوروبا ؟ تقولون : « لانهم يخافون من قنابلنا الذرية » فهمت : انهم ينتظرون إذن أن يتضاعف مخزونها ثلاث مرات وان يصبح الجيش الاطلسي على أهبة الاستعداد . يا له من حساب مدهش ! الاتحاد السوفياتي يريد دخول الحرب ، وإذا تأخرت ثلاثة أعوام فسوف يخسرها ، وهو لا يدخلها في الوقت الذي ما يزال فيه بوسعه ان يربحها . إذن فلا بد ان الناس هناك مجانين . اللهم إلا إذا كانوا بكل بساطة يريدون السلام .

السلام ؟ اني أراكم تخبئون ابتسامة : هذا محايد آخر ، إنسان يؤمن بالاب نويل . حسناً : أما أنتم فواقعيون . في حرب ١٩٤٠ كان اسم الواقعي يطلق على الفرنسيين الذين يتعاونون مع الجيش الالماني . والواقعي اليوم هو الفرنسي الذي يؤمن بأن الاتحاد السوفياتي هو الشيطان والذي يلتجىء صارخاً في تنورة أميركا . إذن فأنتم تعرفون ان أعضاء المكتب السياسي كلاب متكلبة . ومن

قال لكم ذلك ؟ ما أدلتكم ؟ انني أختار أرهف وأنعم معلقي الفيغارو ، السيد ريمون آرون ، واقرأ ما يلي : « يحلو للمحايد ... ان يتخيل اتحاداً سوفياتياً يقف موقف الدفاع المحض ، تقلقه الاستعدادات الأميركية ، ولا يرغب إلا في حماية أمنه . ويكفي ان نتذكر الدبلوماسية التي انتهجها الاتحاد السوفياتي بين ١٩٤٣ و ١٩٤٧ ، في الوقت الذي كان فيه الغربيون يضاعفون جهود التعاون ، حتى نفهم الوهم الذي يقوم عليه موقف المحايد [١] » . لقد انتبهتم بلا شك الى هذه الكلمة : « يكفي » . هذا هو نوع الحجج التي يعارضوننا بها . وإني لأعتقد جاداً ان آرون لا يتكلم جدياً : ذلك انني قد حاولت كثيراً ، كما يدعوني ، ان اتأمل في « الدبلوماسية » السوفياتية ، فلم أتوصل إلى التحرر من أوهامي . وهذه الدبلوماسية ليست بمجاملة ، بل هي فظة ، لا رادع لها من ضمير ، وتوحي بالريبة والحقد . وواضح ان الاتحاد السوفياتي ، الذي لم تتوفر لديه بلا شك المعلومات الكاملة ، لم ينظر بعين الجد الى مجهود الاوروبيين للتعاون . انه يراهن في كل مرة يمكنه ذلك ، واحياناً مجازفاً بزيادة حدة التوتر الدولي الى حد خطر[٢] . كلا : انني لن أمنح الاتحاد السوفياتي جائزة فضيلة . لكنه كان غير قابل للقهر في اوروبا ، ولم تكن اعادة التسليح الاميركي – باعتراف آرون – قد بدأت ومع ذلك لم تبدر عنه قط بادرة يمكن ان تؤدي الى اندلاع الحرب . ثم ان الحزب الشيوعي كان يتعاون مع الأحزاب البورجوازية في ديمقراطيات الغرب وكان شعاره : الانتاج. واذا كنتم تتهمون الاتحاد السوفياتي بأنه خرّب، بدءاً من عام ١٩٤٧ ، اعادة بناء اوروبا ، فاعترفوا على الأقل بأنه كان يحث عليه قبل ذلك . واذا كنتم ترون في هذا التخريب برهاناً على نياته الحربية ، اذن ، واكراماً للمنطق ، اعتبروا ستخانوفية مارسيل بول برهاناً على نياته السلمية .

يخيل إلي ، على العكس ، ان الموقف الراهن للاتحاد السوفياتي ، وتردده ،

١ – آرون : « تجربتنا الاوروبية » – مجلة « بروف » – حزيران ١٩٥٢ .
٢ – افكر على الأخص بقضية ايران .

والمعنى المزدوج لديبلوماسيته ، قد جرى تجديدها بصورة مثلى قبل ثلاثين عاماً في مقال لينين في البرافدا في ٢ آذار ١٩٢٣ (المؤلفات الكاملة - المجلد الثاني - ص ١٠٤١) .

« ... لن يكون سهلاً علينا ان نصمد حتى انتصار الثورة الاشتراكية في البلدان الأكثر تقدماً ... ان نظام العلاقات الدولية قد بلغ الآن في اوروبا درجة اصبحت معها احدى الدول - المانيا - مستعبدة من قبل الدول المنتصرة . ثم ان مجموعة من الدول ، ولنحدد بأنها من أقدم دول الغرب ، تجد نفسها ، على إثر انتصارها ، في شروط تستطيع معها الاستفادة من هذا الانتصار لتقوم بسلسلة من التنازلات لصالح طبقاتها المضطهَدة ، وهي تنازلات ، على تواضعها ، تؤخر الحركة الثورية في هذه البلدان وتخلق شبه « سلم اجتماعي » .

« وفي الوقت نفسه فإن مجموعة كاملة من البلدان - الشرق والهند والصين - قد وجدت نفسها ' ملقى ' بها نهائياً خارج تقاليدها نتيجة الحرب الامبريالية الاخيرة على وجه التحديد . ولقد اتجه تطورها نهائياً في طريق الرأسمالية الاوروبية العام . وفي هذه البلدان بدأ الاختمار الذي يشغل بال أوروبا بأمرها . وواضح الآن بالنسبة الى العالم قاطبة انها اندفعت في طريق للتطور لا يمكن ان يتخلف عن ايقاع مجموع الرأسمال العالمي في ازمة .

« نحن نقف اذن في الساعة الراهنة امام هذا السؤال : هل سنستطيع الصمود بإنتاجنا الفلاحي الصغير ، الصغير للغاية ، وبحالة الخراب التي يشكو منها بلدنا ، الى ان تنجز البلدان الرأسمالية في اوروبا الغربية تطورها نحو الاشتراكية ؟ لكنها لا تنجز تطورها كما كنا نعتقد في السابق . انها ستنجزه ، لا عن طريق « نضج » منتظم للاشتراكية فيها ، بل عن طريق استغلال دول معينة من قبل دول معينة اخرى ، عن طريق استغلال اول دولة مقهورة في الحرب الامبريالية ، بالاضافة الى استغلال الشرق كله ... لقد دخل الشرق ... نهائياً في مدار الحركة الثورية العالمية .

« ما التكتيك الذي يفرضه هذا الوضع على بلادنا ؟ انه بالطبع التكتيك

التالي : إن علينا أن ندلل على أكبر قدر ممكن من الفطنة والحذر حتى يمكننا ان نحتفظ بحكمنا الحالي ، وان نبقي تحت سلطته وقيادته طبقتنا الفلاحية الصغيرة ، الصغيرة للغاية ... ومما هو في غير مصلحتنا ان الامبرياليين تمكنوا من شق العالم الى كتلتين . وهذا الشق يتعقد بفعل ان المانيا ، ذلك البلد الذي بلغ درجة متقدمة فعلاً من الثقافة الرأسمالية ، لن يمكنها ان تعاود النهوض اليوم إلا بصعوبة ... ومن جهة أخرى فإن الشرق بأسره ... يجد نفسه في شروط لا يمكن فيها للقواه الفيزيائية والمادية ان تصمد البتة للمقارنة مع القوى الفيزيائية والمادية والعسكرية لأي دولة مهما تكن صغيرة من دول اوروبا الغربية .

« فهل نستطيع ان نتلافى الصدام القادم مع هذه البلدان الامبريالية ؟ هل نستطيع ان نأمل بأن التناحرات والنزاعات الداخلية بين بلدان الغرب الامبريالية المزدهرة وبين بلدان الشرق الامبريالية المزدهرة ستترك لنا هدنة للمرة الثانية ، كما فعلت في المرة الأولى حين فشلت الحملة الصليبية التي قامت بها الثورة المناهضة الغربية لمساعدة الثورة المناهضة الروسية بفعل التناقضات القائمة في معسكر المناهضين للثورة ؟ ...

« يخيل إلي انه يتوجب ان نجيب على هذا السؤال آخذين بعين الاعتبار ان الحل يتوقف هنا على عدد كبير للغاية من العوامل ، وأن ما يسمح لنا بعد كل شيء بالتنبؤ بنتيجة الصراع هو ان الغالبية الساحقة من سكان المعمورة تثقفها وتربيها للنضال الرأسمالية نفسها .

« ان نتيجة الصراع تتوقف في النهاية على كون روسيا والهند والصين الخ تشكل الغالبية الساحقة من سكان الكرة الارضية ... ومن هذه الزاوية لا يمكن ان يخامرنا ظل من شك بصدد النتيجة النهائية ...

« لكن ما يهمنا ليس هو البتة هذا الانتصار المحتم للاشتراكية . ان ما يهمنا هو التكتيك الواجب اتباعه لمنع الدول الغربية المناهضة للثورة من سحقنا . وحتى يمكننا ان نستمر في الوجود الى يوم ينشب فيه الصدام العسكري بين الغرب الامبريالي المناهض للثورة والشرق الثوري القومي النزعة ، بين اكثر بلدان

العالم تمدينا والبلدان المتأخرة كبلدان الشرق التي تمثل مع ذلك الغالبية ـ فلا بد ان يتاح الوقت لهذه الغالبية كي تتحضر . ونحن ايضاً نفتقر الى المدنية حتى ننتقل مباشرة الى الاشتراكية بالرغم من ان تباشيرها السياسية متوفرة لدينا ....» .

(ويلي ذلك مخطط إجمالي لاقتصاد الاتحاد السوفياتي الداخلي) .

فما الذي تغير منذ ان كتب هذا النص المثير للاعجاب بما فيه من صحو فكر ؟

ـ لقد تصنّع الاتحاد السوفياتي . لكن المجهود الضخم للولايات المتحدة الاميركية يهدف الى الإبقاء على التفاوت بين إنتاج الغرب وإنتاج الشرق .

ـ لقد انتهت الحركة الثورية الصينية الى ثورة . لكن تصنيع الصين لم يبدأ . وقد بقيت الهند خارج الحركة : ومن الممكن ان تولد فيها بين يوم وآخر نزاعات سيستفيد منها الاتحاد السوفياتي . لكن الأمور لم تصل الى هذا الحد بعد .

ـ لا يمكننا في ١٩٥٢ ان نتحدث عن « الازدهار » كما كانت الحال بعد ١٩١٨ . ولا عن السلم الاجتماعي . لكن الطبقة العاملة في مرحلة جزر والحكومات البورجوازية مصممة على قمع الاضطرابات الاجتماعية بجميع الوسائل . والعمل المركزي للامبريالية الاميركية يمنع مؤقتاً النزاعات القومية والدولية من التفاقم . ويبدو ان الروس اعتمدوا على ازمة اقتصادية في الولايات المتحدة الاميركية ، لم تنشب بعد .

وبصورة إجمالية فإن تفاوتاً حقيقياً ما يزال قائماً بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية . وبالرغم من أن الولايات المتحدة الاميركية والصين هما في حالة حرب عملياً، الا ان هذه الحرب بين بلد ما يزال متخلفاً للغاية اقتصادياً وبين أكثر الدول الرأسمالية « مدنية » لا تشبه في شيء تلك الحرب التي تنبأ بها لينين والتي كان ينتظر ان تنزل ضربات حاسمة بالرأسمالية . وبكلمة واحدة ، اذا ما حاولنا ان نتصور ، بالرجوع الى هذا المقال ، ما يمكن لمؤلفه ان يكتبه اليوم عن السياسة

التي يتوجب على الاتحاد السوفياتي انتهاجها ، لبدا لنا جلياً انه سيكرر الجمل الاساسية فيها : « علينا ان ندلل على أكبر قدر ممكن من الفطنة والحذر ... هل نستطيع ان نتلافى الصدام القادم مع البلدان الامبريالية ؟ هل نستطيع ان نأمل بأن تناحراتها ستترك لها هدنة للمرة الثالثة ؟... ان الحل يتوقف على قدر كبير للغاية من العوامل بصورة لا يمكننا معها التنبؤ بشيء ... لكن لا مجال للشك في نتيجة الصراع » .

ولا اتصور ان ستالين اتبع سياسة أخرى . فنحن نرى أولاً الحكومة السوفياتية تحتقر عصبة الامم ، تلك الاداة في يد الامبريالية البورجوازية ، ثم من اللحظة التي بدأت فيها اليابان والمانيا الهتلرية تقلقان بالها أخذت تتقرب من عصبة الأمم ، وتنادي في جنيف بنظرية السلم غير القابل للانقسام ، وتقف بجانب الأمم « المحافظة » ضد الأمم « البروليتارية » . كان ذلك في العصر الذي صرح فيه ستالين : « نحن لا نطمع في بوصة واحدة من أراضي الغير ولن نسمح لأحد بالاستيلاء على بوصة واحدة من أراضينا » . بل ان الاتحاد السوفياتي سيذهب الى حد توقيع اتفاقية معونة متبادلة مع فرنسا . وحتى مؤتمر ميونيخ[1] ، سيلعب لعبة الديموقراطيات ، مكتفياً بتوصيتها بالمزيد من الحزم . وموقف الحزب الشيوعي الفرنسي ، منظوراً اليه من خلال صلته بالسياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي ، بالغ الدلالة . فبين ١٩٢٨ و ١٩٣٠ ، بنى برنامجه النضالي ، لخشيته من اندفاع الدول الرأسمالية في هجوم على روسيا السوفياتية ، ضد الحرب الامبريالية ، وحدد التدابير الرئيسية الواجب تنفيذها في حالة نشوب القتال . وبدءاً من ١٩٣٥ وحتى ١٩٣٨ ، وامام تهديد الفاشية الداخلي والخارجي ، فكر ونفذ فكرة وحدة العمل مع الاشتراكيين . ونحن نعرف غضبة الاتحاد السوفياتي وتطيره بعد مونيخ ، و « محاولات رجعيي انكلترا وروما للاتحاد مع فاشيي ألمانيا وايطاليا على حساب الاتحاد السوفياتي » . ومن

---

١ - المؤتمر الذي عقد في ايلول ١٩٣٨ ، وضم رؤساء حكومات بريطانيا وفرنسا والمانيا وايطاليا ، وفرض على تشيكوسلوفاكيا التنازل عن جزء من أراضيها لألمانيا . «م.ع» .

المؤكد ان الاتحاد السوفياتي قد خشي من التطويق والحرب : وعبثاً طلبت الحكومتان الفرنسية والانكليزية التحالف الروسي بين ١٩٣٨ و ١٩٣٩ امام الخطر الوشيك الوقوع . ان ريبة السوفياتيين لن تلقي السلاح : انهم مقتنعون بأن المانيا على مفرق الطرق ، وبأنها ستهاجم جيرانها في الغرب أو جيرانها في الشرق ، وذلك تبعاً لميزان التحالفات . ويرقع ريبنتروب[1] ومولوتوف الحلف الجرماني - الروسي . ولقد قيل كل شيء حول هذا العمل، ولا ريب في انه كان خالياً من الرقة والمراعاة : لكن من يستطيع ان ينكر ان روسيا كانت تريد ان تحافظ على سلامها امام استحالة المحافظة على سلام العالم ؟ ولم تغير موقفها إلا مع هجوم المانيا عليها عام ١٩٤١ ، ويستدل من العمليات الأولى ان الجيش السوفياتي لم يكن مهيأ تمام التهيئة للصدمة . وبعد ١٩٤٤ ، ايقظ انهيار ألمانيا الصليبية المعادية للسوفييت من جديد . وحاول الاتحاد السوفياتي ، بمختلف الوسائل وبمختلف السياسات ، ان يحمي نفسه . وبدءاً من ١٩٤٧ ، ابعدت الاحزاب الشيوعية الاوربية عن المراكز القيادية . وكان تصلب سوفياتي جديد. لقد بحثت طويلاً ولم أجد خلال العقود الثلاثة الأخيرة أي ارادة عدوانية لدى الروس . انما وجدت أمة مرتابة محاصرة ، ما تزال تذكر تدخل الحلفاء عام ١٩١٨ وما تبع ذلك من فرض حجر صحي عليها ، أمة ستؤثر أي شيء كان على الانسحاق ، حتى ولو حرباً عالمية ، لكنها تسعى بجميع الوسائل الى درء هذه الحرب ؛ أمة خشنة ، أجل ، ومتعالية وغضوبة وشريرة عندما تدعو الحاجة : لكن اين العجب ؟ ذلك انه اذا كان صحيحاً ان الاحزاب الثورية بتبعيتها لها لا تساهم البتة تقريباً في تهدئة روع الناس ، إلا ان الشتائم التي تمرغ فيها هذه الاحزاب في الديموقراطيات البورجوازية ، وقمعها سياسياً ، وسياسة الزعماء الشيوعيين في البلدان الفاشية ، لا تقلل من شيء سوى انها تزيد في حدة التوتر . ذلك ان ما يبغضه البورجوازيون في الشيوعيين هو الاتحاد السوفياتي

---

١ – وزير خارجية المانيا بين ١٩٣٨ و ١٩٤٥ ، حكمت عليه محكمة نورمبورغ بالاعدام (١٨٩٣ - ١٩٤٦) . «م.ع».

وما يبغضونه في الاتحاد السوفياتي هم الشيوعيون . ومما لا مجال للشك فيه ، على كل الاحوال ، هو ان تسلط فكرة العدوان الروسي علينا يتجاوب بدقة مع تسلط فكرة التطويق على الروس .

لنكن على بينة من أمرنا : اذا فقد الاتحاد السوفياتي ذات يوم كل أمل في تجنب الحرب ، فسوف يتولى بنفسه اطلاق شرارتها الاولى . ومن يمكنه في مثل هذه الحال ان يلومه ؟ لكن قادته لا يقلون اتساماً عن قادتنا . فمنذ عام ١٩٤٦ بات مولوتوف يؤمن بحتمية الحرب . لكن المسألة اليوغوسلافية دلت على انه لم يقنع زملاءه تمام الاقناع ، وكان بعضهم ، على ما يبدو ، يفكر بأن الصدام يمكن إرجاؤه الى يوم تنشب ازمة حاسمة تزعزع اركان العالم الغربي . المقاومات الالمانية ، التحفظات الانكليزية، تقلبات الرأي العام في فرنسا وايطاليا ، تورط الاميركان في كوريا ، اضطراب العالم العربي ، حرب الفييت - منه : هذه وغيرها اوراق ما يزال بالامكان المقامرة عليها . وكان هذا التصور او ذاك يفرض نفسه ، تبعاً للموقف الدولي ، وربما ايضاً تبعاً لميزان القوى داخل المكتب السياسي ، لكن تصور الاقلية كان دوماً يعدل من كفته .

وقد انعكس هذا التأرجح في سياسة الحزب الشيوعي ، وانما في هذا المناخ ينبغي ان نضع تظاهرة ٢٨ أيار . فكثيراً ما ربطت هذه التظاهرة بالمقال الذي نشره بيبو بعد سفره الى الاتحاد السوفياتي . والحال ان هذا المقال ، وكما بيّن ذلك جيل مارتينه في « الاوبسرفاتور » ، يعلن عن عودة الى خط ١٩٥٠ اكثر مما يشكل « انعطافاً » في سياسة الحزب . ففي عام ١٩٥٠ ، في المؤتمر السابع للحزب ، وقف توريز[1] يفضح « الحكومات المتمرشلة »[2] التي وهبت نفسها للرأسماليين الاميركان ...و... التي تلجأ في حربها على الطبقة العامة الى طرائق

---

١ - موريس توريز : الامين العام للحزب الشيوعي الفرنسي بين ١٩٣٠ و ١٩٦٤ (١٩٠٠ - ١٩٦٤) . « م . ع »

٢ - نسبة الى مارشال الاميركي ومشروعه المعروف . « م . ع »

الاغتيال والارهاب ». وفي ايلول ١٩٥١ صرح جـاك ديكلو ، على العكس ، في دورة اللجنة المركزية: « ان ارباب العمل والعمال يمكنهم ان يلتقوا في المعسكر نفسه من اجل انقاذ الاستقلال الفرنسي ». وفي ايار ١٩٥٢ عاد بيبو الى موضوعات توريز : « ان الدفـاع عن الصناعة الفرنسية لا يمكن ان يتحقق ضمن نطاق « اتحـاد قومي » بين العمال والطبقات المتوسطة والصناعيين ». وهكذا رجع الحزب الى تصلب ١٩٥٠ ليعود بعد شهر واحد ، مع تقرير فاجون الى اللجنة المركزية (١٩ حزيران ١٩٥٢) ، إلى اتجـاه ديكلو : ان طبقة ارباب العمل ليست متجانسة ، وإن كثيراً من الصناعيين الفرنسيين مهددون بالافلاس نتيجة سياسة التسلح . ولقد أسيء فهم مقال بيبو ، ولا بـد من التخلي عن التعصب المذهبي ، وَمـد اليد الى الجماهير الفلاحية والى الطبقات المتوسطة وإلى المثقفين والى « من يشكو من أرباب العمل من السيطرة الاميركية » . والتـأرجح هذه المرة أسرع وأوسع نطاقاً : لقد غالى بيبو اكثر من توريز ، وفاجون يغالي اكثر من ديكلو . ويبدو ان النواس قـد طاش صوابه . ولقد قيل ان تناوباته كانت تتجاوب مع ايقاع الموقف الدولي . لكن هذا غير صحيح مئة بالمئة : فصحيح ان توريز صرح عام ١٩٥٠ بـأن « السلم معلق بشعرة واحدة ليس إلا » ، لكن حرب كوريا لم تكن قد اندلعت بعد (هـل كان يعرف انها قريبة ؟) وتجديد التسلح الاميركي يرجع تاريخـه الى العام التالي ، وفي ايلول ١٩٥١ لوحظ بعض الانفراج بالنسبة الى شهر كانون الثاني ، بيد ان الاخطار نفسها ما تزال تثقل على العالم : فقد تم تقرير اعادة تسليـح المانيـا ، ومفاوضات الصلح في كوريا تسير سيراً بطيئاً للغاية ، وفوز المحافظين في الانتخابات الانكليزية مؤكد ، ومؤتمر اوتاوا على وشك الافتتاح . اما التأرجحان الاخيران فقد حدثا في نفس الجـو المتوتر المهدد ، وهذه المفاجأة المسرحية المزدوجة لم تترافق بأي تعديل محسوس في الموقف السوفياتي الذي ظل ملتبساً بمـا فيه الكفاية . إلا اننا لا نجد شيئاً مماثلاً لهذا في ايطاليـا بالنسبة الى الفترة نفسها ، وانه لما يسترعي الانتباه ان

تولياتي [1] ، بعد بضعة ايام من نشر مقال بيير ، قد اقترح على دي غاسبيري [2] عن طريق نيني [3] جبهة مشتركة ضد الملكيين والفاشيين الجدد . وهذا وحده يكفي لاستبعاد فكرة وجود اوركسترا واحدة تتولى التنسيق بين الحركات الشيوعية القومية [4] . إن تأرجحات السياسة الشيوعية في فرنسا هي خاصية الحزب الشيوعي الفرنسي الذي يقلد ، لأسباب سأشرحها فيما بعد ، التناورات الروسية مع توسيعها : ووتيرة هذه التأرجحات وشدتها واتساعها تتعلق بثلاثة عوامل على الأقل : الظرف الدولي ، الحياة الداخلية للمكتب السياسي ، الحياة الداخلية للجنة المركزية الفرنسية . ولقد تم تقرير مظاهرة ٢٨ ايار في جو من التشاؤم. كانت جهداً اخيراً في سبيل السلم. لكن الحزب كان قد كف عن الايمان بالسلم ، وهذا ما يفسر ارادة الفشل واللجوء إلى العنف . ان الحزب الشيوعي يتوقع الأسوأ دوماً ، ففي عام ١٩٢٧ قال ستالين : « ما من بلد رأسمالي يمكن ان يجازف بحرب واسعة النطاق إن لم يكن مطمئناً الى مؤخرته سلفاً ، وقبل ان يكون قد قهر عماله وقمع مستعمراته » . ولما اقتنع الحزب بأنه سيحل ، بدأ يفكر بالعودة الى العمل السري . وتقرير فاجون يلمح صراحة الى هذه النزعة الانهزامية ، فقد قال : « على جميع نشاطات الحزب ان تستمر علناً في عملها الجماهيري » ، وكأنه اراد بذلك ان يطمئن المناضلين وان يستنكر في الوقت نفسه الاستنتاجات المتسرعة اكثر مما ينبغي . وحين قرر المكتب السياسي المظاهرة ، لم يكن يهمه كثيراً ألا يشارك فيها سكان باريس ، لأنه يعلم سلفاً ان

---

١ - بلميرو تولياتي : الامين العام السابق للحزب الشيوعي الايطالي ، توفي في اواخر عام ١٩٦٤ . «هـ . م»

٢ - سياسي ايطالي ، زعيم الديموقراطية المسيحية ، ورئيس الوزراء بين ١٩٤٥ و ١٩٥٣ . «هـ . م»

٣ - بترو نيني : الامين العام للحزب الاشتراكي الايطالي . «هـ . م»

٤ - في خطابه في شهر حزيران ، وبحجة مهاجمة دي غاسبيري ، قرع تولياتي بقسوة الحزب الشيوعي الفرنسي ، وقال ما خلاصته : « لسنا اغبياء الى هذا الحد ! . لقد حشدتم شرطتكم وقواتكم في شوارع روما لكننا لم نقع في الفخ ولم نرد على استفزازاتكم » . ومن السهل ان نستنتج من هذا الكلام رأيه في مظاهرة ٢٨ أيار .

الأمر لن ينفذ[1] . وقد قال بيير تيبو في « فرانس سوار[2] » : « كانت المظاهرة عبارة عن عمل منسق قام به فدائيون سائرون ، تنفيذاً للأوامر ، الى معركة خاسرة سلفاً » . معركة خاسرة سلفاً : هذا صحيح ، فقد كان لا مفر من فشل المظاهرة . لكن من الصحيح ايضاً ان انتصارات البروليتاريا طويلة الأمد وتولد في غالب الاحيان من معارك خاسرة حينياً . وما لا نستطيع ابداً تقريباً ان نفهمه ، نحن البورجوازيين الذين لا يريدون ان يحتفلوا إلا بذكرى أنصاف انتصاراتهم ، هو صبر العامل الطويل وذلك المزيج من القدرية واليأس والشجاعة الذي يحمله احياناً ، تحت ضغط وضع لا يطاق ، يدخل معركة هو شبه واثق من انه سيقهر فيها . ان الحزب الشيوعي بتقريره ذلك « اليوم » العبثي بالرغم من عدم وجود اي فرصة للنجاح ، انما كان يستلهم رغماً عن كل شيء التقاليد العمالية .

لكنه كان يعبر على الأخص عن نزعة الجماهير السلبية المتأصلة ، وانتم تكذبون متعمدين حين تهنئون العامل الفرنسي على انه رفض تجنيده لخدمة مصالح ليست هي بمصالحه . إن واحداً من اعمق وأبسط مشاعر البروليتاريا ، إن واحداً من المعطيات المباشرة لوعيها الطبقي ، هو فهمها لنفسها على انها ذلك الوجود الملقى به في الكل الاجتماعي من غير ما علاقة تضامن معه . انها غير مندمجة بالمجتمع ، بل هي تقف بجانبه ، في شبه انفصال يفرض عليها وينتهي بها الأمر الى المطالبة به . وفي فترات التوتر الدولي ، تتراخى روابطها الاجتماعية اكثر ايضاً ، في الوقت الذي تتوثق فيه في اي مكان آخر . فكيف يمكنها ان تضع نفسها على مستوى التوتر النفسي والاجتماعي للبورجوازية الصغيرة التي تحيط بها ؟ إن هذا

---

١ – وكيف يمكنه ان يكون على علم بذلك طالما انه ، كما يقول دوفرجيه ، « يتبع منهجاً علمياً يسمح له ... بمعرفة دقائق مشاعر الجماهير » ؟ يقال إن المسؤولين المحليين لا يقدمون معلومات دقيقة الى المسؤولين المركزيين . هذا ممكن : لكن الحقيقة في مثل هذه الحال ستحرف لكنها لن تختفي كلياً .

٢ – من كبريات الصحف اليمينية الفرنسية .

الطلاق بين انعدام المبالاة وبين الاهتياج العام يجعلها تميل نحو النزعـــة السلمية . والنزعة السلمية هي اولاً وبالمقابل اعـــادة تركيد العزلة العماليـــة وسط مجتمع استغلالي ، ثم تصبح ، بعد ذلك فحسب ، إعلاناً عن التضامن مع الطبقة العاملة في الأمة العدوة . وفي الوقت الذي تسقط فيه سائر الطبقات تضامنها الخاص في الجانب الآخر من الحدود ، مغيرة اسمه وكصورة شيطانيـة عن المجتمع ، يسقط العامل ذاته امام نفسه ومن غير أن يبدل الاسم ، لأن نفيه لذاته هو طبقة بلاده البورجوازية بالذات . وعلى هـــذا فإن الموقف الأبسط والأقرب من العفوية ، الموقف الذي يعبر على افضل صورة عن مشاعره ، هو النزعة الاممیـــة . ولعل اولئك الذين تقدمت بهم السن من العمال ما يزالون يذكرون النداء الذي وجهته عام ١٩٠٦ اللجنة الاتحادية للاتحاد العام للشغل : « حرب على الحرب . ايها العمال ... ان الحرب قد تنشب لأبسط حادث. والصحافة تعلم هذه الأشياء ... وتلتزم الصمت مع ذلك . هـــذا لأنهم يريدون ان يرغموا الشعب على ان يسير ، متذرعين بالشرف القومي وبحتمية الحرب ما دامت دفاعية . والحال ان الشعب لا يريد الحرب ... وليس للطبقة العاملة اي مصلحة في الحرب . فهي وحدهـا التي تتحمل تكاليفها كافة - وتدفعهـا من عملها ودمها . اذن فعليها تقع مهمة ان تقول بأعلى صوتها انها تريد السلم » .

ولقد رأينا كيف ان تحول الثورة الروسية الى أمة قـــد عقّد الامور بعض الشيء . والحزب الشيوعي ، بطلبه الى البروليتاريا ان تدخل استثناء على موقفها المعادي للنزعة العسكرية ، قـــد خلق تناقضاً سينتهي به الأمر الى تشويش كل شيء والى حرمان الشعور العفوي من تعبيره . ومنذ ١٩٢٨ وجدت رغبـــة في استغلال القوة المقدسة لبعض الكلمات ولبعض المواقف لصالح الاتحاد السوفياتي. وبدلاً من ان يشرحوا للعامل روابط التضامن الواقعي وغير القابل للانفصام التي تربطه بالاتحاد السوفياتي ، جعلوا من الاتحاد السوفياتي الوطن الاشتراكي للعامل ، ومن العامل جندي الاتحاد السوفياتي المحارب من وراء الخطوط. وفي الوقت نفسه تقدمت وتطورت اساليب النضال ضد الحرب واخذت بالتالي شكلاً عسكرياً :

وهكذا أراد الحزب الشيوعي ، وقد اخذ درساً من فشل ١٩١٤ ، ان يستبدل اسلوب « الاحزاب الصـام » المشهور والمبهم ، بأسلوب التخريب والدعاية الانهزامية واللاشرعية ، الخ . ومنذ ١٩٢٨ - ١٩٣٠ بدت الحـيرة على الطبقة العاملة وفشل « اليوم الاحمر الدولي ضد الحرب (١ آب ١٩٢٩) فشلاً ذريعاً شبيهاً بفشل ٢٨ أيار ١٩٥٢ . واليوم ، وكما كان متوقعاً ، تمزق المذهب الاممي الذي يفترض اصطفافاً لاعضوياً للجماهير (انها تجانب بعضها البعض ، تفصلها الحدود ، وليست القيادة لأحد ، وهيئات ممثليها برلمانية) تحت تأثير المركزية. والمادة ٥٧ ، موضوعة ايلول ١٩٢١ » : « اللجنة القائدة للحزب مسؤولة أمام مؤتمر الحزب وامام قيادة الاممية الشيوعية » يمكن ان تترجم رمزياً الى هـذه الجملة : للعامل وطنان ، وطنه وجمهورية السوفييتات الروسية . والحقيقة ان ظهور الأوطان اكمل وأنجز عملية الانفصال الافقي . وأصبح للحزب الشيوعي ، على المستوى الدولي ، تنظيم لا يقل قوة عنه في كل بلد على حدة : ان الأمم شأن الخلايا لن تتصل فيا بينها إلا عن طريق اعلى حلقات التسلسل . لكن مصلحة البروليتاريا ومصلحة الاتحاد السوفياتي تظل واحدة بالرغم من هـذه الحواجز الفاصلة الهادفة الى توثيق الأواصر وتدعيم هيبة السلطة المركزية : وبذلك تم التخلي عن حجج غريفيوله التي كان لها اطيب الوقع في قلوب النقابيين . (« الدفاع عن أرض الوطن ؟ لست أرى مانعاً لكن بشرط ان يكون النقابي مالكاً لهذه الارض » ، تحقيق عن الحركة الاشتراكية ، آب ١٩٠٥) . لكن ينبغي ان نعترف ايضاً بأن الدعاية الجديدة تهدف الى تحرير العامل ، والى تزويده على الفور بوسيلة للخروج من ذاتـه وبصلة تجاوز مع الآخر - لكن مع الأسف تحت شكل الآمر الكاثني والواجب العسكري . واللغـة المستعملة هي نفسها عسكرية : « إن يوم ١٩٢٩ ذاك سيكون بداية انتقال البروليتاريا الى الهجوم المضاد على الجبهة الدولية ... » . لكن خلف لغة البلاغات هـذه ، وبكلمات مقتبسة من دعاية دعاة القومية ، استمر نوع من حديث شاحب بين بروليتاريا لبثت متمسكة بالنزعة السلبية - بكل بساطة لأن وضعها يفرض عليها ذلك -

وبين مناضلين لبثوا متمسكين هم ايضاً على الارجح بهذه النزعة من خلف جهازهم الايديولوجي واللفظي . وباختصار ، إن هذا احد اعراض « حبسة اللسان » الخطيرة باعتبارها ظاهرة دوليـــة : فالاتصال يقوم عن طريق اللغة ، لكن الملاكات والقوات تستخدم ضد هذه اللغة كلمات تكذب ، غير أنها تتفاهم ضمنياً لتعبر عن الحقيقة . انهم يحدثون النقابيـين القدامى عن هجوم البروليتاريا المضاد فيسمع هؤلاء صوتاً قديماً صادراً قبل ١٩١٤ يهمس في آذانهم : « ايها الشغيلة ... في فرنسا كما في المانيا ، التفاهم الفكري كامل حول هذه النقطة : ان بروليتاريا كلا البلدين ترفض ان تخوض الحرب . اذن فليرغم كل منا حكومته ، بمطلبنا المشترك والمتوافق ، على أخذ اراداتنا بعين الاعتبار » . وبمعنى ما ، كان هدف مظاهرة ٢٨ أيار – التي كانت من تدبير مناضلين متمرسين اكثر مما كانت مظاهرة عفوية – ان تعطي الجماهير تصوراً مأساوياً عن صبواتها العميقة ، كما أن التمثيل « المجازي » في المأساة اليونانية يعكس ، على حد رأي نيتشه ، أعمق غرائز الجوقة .

وخلاصة القول انـــه يتوجب على سادتنا الوسماء ان يقتنعوا بهذا : ان البروليتاريا ليس لها من داع الى القتال . انكم تشرحون يومياً للعامل ان الاتحاد السوفياتي قد خان الثورة . وهذا ما يدهشه ، لأنه ما كان يظن ان هـذا يمكن ان يسبب لكم هذا القدر من الألم . وحرصاً على الايجاز اقول انه لا يصدق كلمة واحدة مما تقولونه . فالفيغارو حـين تنشر شائعات مطبخية عـن السفارة الرومانية ، فإن ما تنشره يسلي حتماً عجائز علية المجتمع ، لكن هـذا لأن علية المجتمع يحببن الخدم والفراشين . اما العمال فلا يحضنونهم حباً خاصاً . وحتى لو شاءت الصدف النادرة ان يكون هناك عامل يقرأ بانتظام هـذه الصحيفة ، وترك نفسه يقتنع بالخيانة السوفياتية ، فربما سيكون هذا سبباً كيلا يقاتـل في صفوف الجيش الأحمر ، لكنه لن يكون بالتأكيد سبباً ليقاتل ضده . لكنكم ستقولون : بـلى ! كي يحرر البروليتاريا الروسية التعيسة الحظ . حسناً . لكنني أشعر في مثل هذه الحال ان دعايتكم لما تنضج بعد ، ولا اعتقد انكم ستجندون

المتحدة ستصنع قنبلة هيدروجينية وتهيء خلسة لقبول اسبانيا في الأمم المتحدة من أجل ان تتاح الامكانية لـ « منضدات الصفائح » في الديموقراطيات الغربية للاستمرار في التفكير والتعبير عن افكارهن باستقلال كامل . لا تخافوا : انها لن تضربكم ، فهي أشد تعباً من ان تفكر بذلك . وانما انتم الذين ستتناظرون منها وستنصرفون آسفين وشاكين من ان حس الحرية قد ضاع في أوروبا . ومع ذلك فإنها تتمنى هي أيضاً التحرر . لكن الحرية التي تطالب بها لا تشبه في شيء حريتكم . واعتقد انها على استعداد للتخلي بكل طواعية عن حرية التعبير التي تتغنون بها اجمل التغني في صالة غافو فيما لو حررت من ايقاع الآلات الواخز ، من الاعباء التي ليس لإرادتها دخل فيها ، من البرد ، من ديكور المصانع الكئيب ، وحتى تشعر بأنها حرة ، أكثر حرية من أي وقت مضى ، يكفيها – مؤقتاً – ان يصبح في امكانها ، بالنسبة الى الزمن نفسه والأجر نفسه ان تنقل عشرة اطنان بدلاً من عشرين . ماذا تنتظرون ؟ لو فعلتم ذلك لكسبتم شرف خدمة الثقافة . تقولون انكم لا تستطيعون ، وانه لا بد من الصبر ، وان أحفاد منضدات الصفائح سيحررهم التقدم التكنيكي؟ حسناً : اذا كنتم تريدون الحرب ، فانتظروا ان يولدوا . ولا تعتقدوا انكم تقنعون جدتهم إذ تمدحون لها الاجور الاميركية المرتفعة وتفوق الحياة المادية في الولايات المتحدة الاميركية . فماذا تهمها المفاوتات الدائمة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية ؟ انها لا تعمل في ستالينغراد أو في شيكاغو بل في فرنسا حيث سلم أو حرب . اما انتم ، أيها المغفلون ، فلشدة خوفكم من النظام السوفياتي ، تعملون كل شيء لتذوقوا طعمه . ذلك ان هذه الأيام ايام سلم ، والاميركان عندنا والروس في روسيا ، لكن غداً حرب ، وسيكون الاميركان في اميركا والروس هم الذين سيكونون عندنا . والعمال يعرفون ذلك : فمن اللحظة الأولى لنشوب القتال ، سيفقدون حتى تلك الاجرة البائسة التي يطلق عليها اسم « الحد الادنى الحيوي » وهم لا مصلحة لهم في ان « يحتلوا » من قبل أحد ولو من قبل الجيوش الحمراء : انهم يريدون الروس في الاتحاد السوفياتي ، والاميركان في الولايات المتحدة الاميركية .

واذا كانوا لم يكلفوا انفسهم عناء ما يوم ٢٨ أيار ، فهــذا لأنهم كانوا يرون – لأسباب سأشرحها فيما بعد – ان اللعبة لا تستحق مثل هذا العناء . لكن الخلاف لم يتطرق قط الى مبدأ المظاهرة . وصدقوا انهم لا يشعرون البتة تجاه ريدوي بعطف خاص ، ولا تجاه أي اميركي آخر . ذلك انكم تعلمون حق العلم ، ايتهـا الجرذان الدبقة ، والفيغارو نفسها بدأت تشك في الأمر : ان الاميركان رجـال دعاية ممتازون ، لكن خير دعاية يقومون بها انما يقومون بها لصالح الروس .

جـ – « الحزب الشيوعي والاتحاد العـام للشغل يستهان العمال بفرضهما عليهم تظاهرات سياسية » .

لكن هي ذي حجة جديدة : إن العمال ينحون باللائمة على الحزب الشيوعي لأنه زيّف أداتهم الدفاعية الوحيدة حين استخدمها لأمور لم تخلق لهــا . ولقد دللوا على حسهم السليم وأفهموا المحرضين « العملاء للروس » انهـم مصممون على الابقاء على الانفصال بين ما هو سياسي وما هو اقتصادي .

إذا كنتم تقولون الحق ، فإنهم يكونون قد قدموا لأرباب العمل أجمل هدية : ذلك ان أرباب العمل حريصون على هذا الانفصال ، ربما أكثر من حرص رجال ١٧٨٩ على انفصال السلطات . فبعد أن علمنا الطهرانيون التجـارة والصناعة ، كان لا بد ، في هذا القطاع ، من استبدال الله بقانون حديدي : فكان هـــذا القانــون ، باعتباره صارماً ، يعيد البراءة الى المستغلين ، ويبرر باعتباره إلهياً النجاح . وكان يمكن إقامة الدليل ، بفضله ، على أن الغني صالح والفقير طالح .

وكان هـــذا القانون قانون العرض والطلب الذي هو بمثابـة « آلية منظمة حقيقية ، تعدل الاسعار ، تبعـد بعض المتطلعين الى ان يكونوا باعــة وبعض المتطلعين الى ان يكونوا شراة ... تحثّ على الانتاج في حالة النقص وتثبط عزيمته في حالة الفيض والوفرة[1] » . ولقـد سمح بالعودة الى التفاؤل ، وبإثبات ان الثروة متناسبة مع النفع الاجتماعي وان أفضل تاجر هـــو من يبيع بأرخص الأسعار ، وانه بالتالي مصطفى الله والمحسن الى الانسانية . وكان القانون ينطبق

---

١ – روبير موس : « الأجور » – ١٩٥٢ – ص ٤٠ .

على نحو مدهش على العلاقات بين المستخدِم والمستخدَم : فالعمل بضاعة والأجر ثمنها . ولا أحد يستطيع ان ينحي باللائمة على أرباب العمل : فالأجر هو في كل لحظة مـا يمكنه ان يكونه ، لا أكثر ولا أقل ، باعتبار ان التوازن يتم آلياً . وهكذا أصبح ميـدان الاقتصاد ميدان الضرورة ، بينا لبث ميدان السياسة ميدان الحرية . وكل شيء يسير على مـا يرام طالما ان الميدانين منفصلان . ولا مانع عند اللزوم من أن يؤثر الاقتصاد على السياسة ، لكن تدخـل السياسة في الاقتصاد يبلبل الوجدانات ويثير الاستهجان : فعمل الرجل السياسي يهدف الى إقامة الدليل على ان ميدان الاقتصاد قد لا يكون مستقلاً بذاته ، وانـه يمكن تبديل مجراه بالتأثير على عوامل أخرى . واقترح بعض النظريين إرجاع مـا هو سياسي الى ما هو اقتصادي : لكن البورجوازية أبت ذلك ، فهي تفضل الفصل والتقسيم . فرّق تسد . وجرت العادة بكل بساطة على إطلاق اسم الديماغوجية على كل تنازل تسلم به السياسة للطبقات الفقيرة من غير ان ينتزع منها انتزاعاً . فالكرم هو ، من حيث المبـدأ ، كرم كاذب . « إن ذلك الاصلاح ، الكريم ظاهرياً ... » . وهـذا يعني ان كل محاولة لإحلال نظام إنساني محل النظـام الميكانيـكي مقدر لها الفشل . وليس هناك إلا طريقة واحدة في ان يكون المرء صالحاً : هي ان يتلاءم مع النظام الطبيعي ، ان يخضع للقـانون ، أن يحمـل الآخر يعمل أكثر ما يمكن وأن يدفع له أقل ما يمكن . وهو سيخدم الانسانية قاطبـة إذا ما انتج بأقل تكاليف ممكنة . وهذا الجهد المشكور لتبرير الربح هو أصل تلك النظرية المضحكة : نظرية الطيبة الرهيبة الـتي نجدهـا لدى كلوديل ولدى الهتلريين . فالعامل إذا مـا استخدم حقوقه النقابية ليخلط بين الاقتصاد والسياسة ، قضى في النهاية على كل الميكانيكا المتنـاغمة . وكل شيء يسير على ما يرام إذا ما وقف العمل النقـابي على حماية مصالحه . وفي الحقيقة ، لا بد من الاعتراف بأن تماوجات السوق تميل الى ان تبعـد قليـلاً الأجر الوسطي عما كان يسمى بورع في القرن الثـامن عشر

بالأجر الطبيعي والذي كان تورغو[1] يعرفه بأنه « ما هو ضروري للعامل ليقوم بأود حياته » والنقابة لن تتدخل إلا لتحل متعاقداً واحداً محل عدة بائعين . وهي لا تستطيع ان تعدل قوانين الاقتصاد الخالدة . لكنها تتمتع ببعض السلطة لمجرد انها تعمل كاحتكار . وهي ستستفيد من هذه السلطة لتدخل بعض التعديل على الأجر الخام ، المتعلق بلعب القوى الاقتصادية وحده ، ولتقربه ما أمكن من الأجر الطبيعي .

وهكذا فإن الاقتصاد الكلاسيكي يصف ما كان سيحدث لو ان الملاقات بين البشر كانت قابلة كلياً للتشبيه بملاقات الأشياء فيما بينها . أو هو يقرر ، إذا شئنا ، قوانين عالم ، الانسان فيه لاإنساني بالنسبة الى الانسان . والنقابة مقبولة إذا ما أخذت مكانها ، بصفتها حالة خاصة (حالة بائع أوحد وعدة مشترين) ، في إطار هذه القوانين الصارمة . لكنها لن تكون مقبولة إذا كانت تتطلع الى أنسنة هذه القوانين . لكن بالرغم من ان وجهة النظر البورجوازية واضحة بما فيه الكفاية في حد ذاتها ، فإنني اكف عن فهمها اذا ما حاولت ان انظر الى الاشياء من وجهة نظر العامل الأجير ، فالتمايز بين الاقتصادي والسياسي يصبح غامضاً ومبهماً للغاية الى حد أجد معه مشقة في الايمان بوجوده . وبالأصل لست افهم ما يقصدونه حين يريدون ان يقتصر العامل على حماية مصالحه . فهل للعامل من مصلحة ؟ يبدو لي بالأحرى ان مصلحة العامل هي أن يكفّ عن ان يكون عاملاً . وقد قال ماركس : « ان المهمة الواقعية للبروليتاري هي بالضرورة قلب شروط وجوده » . وإني لأرى من الآن مناهض الشيوعية يهز كتفيه : إذ يبدو انني لست جاداً وان هذه الالعاب البيزنطية قد اضاعت فرنسا عام ١٩٣٩ . حسناً . لنكن جادّين اذن . ان للعامل مصلحة خاصة باعتباره عاملاً . اي انه يتوجب عليه كبداية ان يقبل بشرطه في مجموعه . وإذا ما فعل ذلك ، أقروا له بحقه في تحسين التفاصيل . وعلى هذا فإن الموضوعة البورجوازية (سواء أتحت

---

١ ـ اقتصادي فرنسي ، وزير المالية في عهد الملك لويس السادس عشر (١٧٢٧ ـ ١٧٨١) . م.ع.د .

شكل الاقتصاد الكلاسيكي الخشن بعض الشيء أم تحت الشكل الحديث للتعاون الطبقي) تقول إن العامل يجب أن يظلّ عاملاً. ولا عجب في ذلك طالما اله خلق ليكون عاملاً كما خلق رب العمل ليكون رب عمل. والاضراب يكون تخريبياً اذا كانت مطالب المضربين تستوحي تصوراً عن الانسان. وحين يصرح رب العمل بأن البروليتاري بروليتاري بالولادة وانه ينبغي ان يظل كذلك، فإنه لا يتكلم في السياسة: انما يطرح مبادىء الاقتصاد. اما العامل فإنه ينتقل بالمقابل الى ميدان السياسة حين يريد ان يلغي البروليتاريا. وكل تاريخ التشريع العمالي يكشف، لدى الحقوقيين البورجوازيين، عن اهتمامهم بتمييز الاضرابات الصالحة من الطالحة. ومنذ عام ١٨٧٢ صرح دوبير، وهو يدافع امام الجمعية الوطنية عن مشروع قانون يعاقب على الانتماء الى الأممية، بأن هدف المشروع حماية الفئات العمالية «من كل محاولة إضراب تكون نتيجة تفكير سيء وتآمر ضد النظام الاجتماعي». واليوم ايضاً، وبعبارات مخففة، يتبنى «مجلس ارباب العمل والعمال المشترك» (قرار ٢٦ آذار ١٩٤٧) من جديد نظرية «الاضراب المخالف للشرع»: «من المناسب تطبيق هذا الحق (حق الاضراب) مع الأخذ بعين الاعتبار المبدأ المطلق القائل ان ممارسة حق من الحقوق يحدها ما يمكن ان ينشأ عنه من شطط، وان الحق لا يكون ابداً غير محدود في مجتمع منظم، وانه يجد حده الطبيعي، في حال غياب تشريع خاص، في حقوق الغير والجماعية...».

ما أجملها وما أعدلها من كلمات: انما المشكل الوحيد هو ان «المجتمع المنظم» الذي يعيش فيه العامل والذي يتوجب عليه ان يحترم قوانينه هو على وجه التحديد المجتمع الرأسمالي الذي يضطهده. وعلى هذا فإن القرار البورجوازي بتحديد حق الاضراب وحدّه بالمطالب المهنية وحدها هو بالأصل قرار سياسي ويستند الى تصور كامل معين عن العالم والانسان.

حسناً، حتى لو قبلت بهذا التصور، وحتى لو حددت بالاشتراك مع ارباب العمل مصالح العامل، فإنني لا أتوصل الى ان افهم ما هي هذه المصالح. لنفترض ان مصنعاً من المصانع وضع في خدمة جهازه مفتشة: فمصلحة الجهاز هي ألا

يشد انبوب التفريغ . ويبدو هؤلاء الذين انساقوا الى حرب نتيجة سياسة غبية : فمصلحتهم هي ألا تقع الحرب . وبين المثال الاول والثاني هذين ، ثمة مجال للحياة الاجتماعية بأسرها . تقولون ان المثال الثاني سياسي الطابع ؟ هل هذا مؤكد الى هذا الحد ؟ ففي حالة اشتعال الحرب ، تقدم الطبقة الفلاحية « المادة البشرية » وتستفيد بالمقابل من ارتفاع اسعار المنتجات الغذائية . وباختصار ، تبتاع منها ليترات من الدم . اما وضع البروليتاريا فعلى العكس تماماً : فخسائرها من الحيوات الانسانية أقل ، ولكنها اقتصادياً تتأثر . ليس في البداية بل فيما بعد ، عندما يسبب التضخم المفرط للصناعة الثقيلة ومصاعب الانطلاق من جديد من مستوى بدائي الازمات والبطالة . ففي عام ١٩٣٨ كان مجموع الأجور يساوي ضعف مجموع الضرائب . وفي عام ١٩٥٠ اصبح مجموع الضرائب معادلاً لمجموع الأجور . وللعامل ملء الحق في ان يصرح بأن المعارك العسكرية تمسه في مصالحه المادية . بل اكثر من ذلك : اذا صرحتم ان الحرب واقعة سياسية ، تكونون قد رفضتم التفسير الاشتراكي للحرب والحلقة الجهنمية : تضخم في الانتاج – بحث عن اسواق – اصطدامات . وانا لا أقول انكم على خطأ ولا أن هذه النظرية صحيحة : فلا اهمية لهذا هنا . بل اقول فقط انكم تدخلون في تعريفكم لما هو سياسي ولما هو غير سياسي احكام قيمة وافتراضات وايديولوجية . يقيناً ، ان النظرية الماركسية عن الأزمات الدورية ، واطروحات لينين عن الامبريالية الرأسمالية صحيحة او خاطئة . لكن إقامة الدليل على ذلك مسألة تقع على عاتق الاختصاصيين . ومعظم الناس يرفضونها او يقبلونها حتى من غير ان يعرفوها ، ولا ريب في انهم سيجدون مشقة وعناء اذا ارادوا ان يتناقشوا حولها . ومع ذلك فقد صرح مرهايم في شعار طرحه للتصويت في مرسيليا عام ١٩٠٨ بأن « كل حرب ليست إلا مؤامرة على الطبقة العاملة ، ووسيلة دامية ورهيبة لصرفها عن مطالبها » ، وردد جميع المؤتمرين هذه الصيغة من بعده كما لو انهم فاهموها . وقد ردد دعاة القومية متهمين هؤلاء والانهزاميين بأنهم مباعون للعدو كما لو انهم عارفون بذلك . والحق انهما تصوران عن العالم

متقابلان ومتعارضان ، مماشان وعروسان اكثر منهما مفكراً بهما . ويبدو ان اي توفيق بينهما مستحيل : و « الاصلاحية » بوجه خاص تصدر على المطالب العمالية حكماً مباغتاً واعتباطياً يبدو غير مبرر بالمرة . ونستطيع ان نحكم على ذلك مما جرى عام ١٩٠٨ : فقبل عامين من هذا التاريخ صوت أحد المؤتمرات على شعار يدعو الى شن حملة « دعــاية مناهضة للنزعة العسكرية والوطنية » . وقد جاء « نيبل » ، وهو نقابي اصلاحي وزعيم الأقلية ، يعرض وجهة نظره في مرسيليا : انه ضد الـــنزعة اللاوطنية التي تجمع سياسياً بين المناضلين . وأيد جانفيون وجهة النظر ذاتها : ان المانيا التي ستنتصر من غير مشقة ستفرض غرامة سيدفع العمال القسط الأعظم منها . اذن فقد تميل الى الاعتقاد بأن الخطيبين سيعلنان كلاهما أنهما ضد النزعة اللاعسكرية لأسباب مماثلة . لكن لا شيء من هذا على الاطلاق : فالنزعة اللاعسكرية تبقى قائمة ، في نظر نيبل ، في المجـال النقابي « هادفة الى النضال ضد تدخل الجيش في الاضرابات » . وهذا شيء لن يبدو مجرداً ولا لاغياً بالنسبة الى الذين يتذكرون مجـــازر فورمي (١٨٩١) والمارتينيك (١٩٠٠) وشالون سور مارن (١٩٠٠) ورواون ليتاب (١٩٠٧) ودراڤي فينذو وفيلنوف سان جورج (١٩٠٨) . كان الواجب يقضي بالنضال ضد الجيش طالما ان الجيش يمثل القمع . إلا ان هذا لا يبدل من حقيقة ان هــذا التفكير لا يستند الى اساس من المنطق:ذلك ان تحريض العسكري على العصيان عمل سياسي . واذا كان تيار النزعة اللاعسكرية قوياً بما فيه الكفاية ، هدد بإضعاف الدفاع القومي وتسهيل انتصار المانيا وتعريض العمال لدفع تلك الغرامة الباهظة التي كان جانفيون يريد ان يجنبها العمال .

كلا ، لنكن على قناعة من الأمر : ان النقابية ليس لها إلا موقفان متلاحمان. فهي إما ان تقتصر على دعم المطالب المباشرة وإما ان تدافع عن العمال في جميع قطاعات النشاط القومي . لكن العامل الذي يكتفي بالمطالب الأولية ، لا بـد ان نعرف ان يكون قد اتخذ موقفاً سياسياً : فهو لا يرفض الثورة فحسب ، بل يرفض ايضاً على سبيل المثال ، اضرابات التضامن . انه يستسلم لمصيره ويخون

الطبقة العاملة .

والحقيقة هي انه يستحيل الاقتصار على المطالب المباشرة: ولقد قال ماركس ذلك بوضوح : « ان نضالاً من أجل زيادة الأجر انما هو استمرار لتعديلات سابقة . انه النتيجة الحتمية لتقلبات مسبقة في كمية الانتاج ، في قوة العمل الانتاجية ، في قيمة العمل ، في قيمة النقد ، في اتساع او كثافة العمل المضغوط ، في تأرجحات أسعار السوق التي تحمي تقلبات العرض والطلب والتي تتم تبعاً لمختلف مراحل الدورة الصناعية . وباختصار ، انها في الوقت نفسه ردود افعال من قبل العمال على الاعمال السابقة للرأسمال[1] » . لكن العامل في مثل هذه الحال يتدخل بمدفوعات الأوان و « في ٩٩ حالة من أصل ١٠٠ لا تكون جهوده لرفع الأجور غير محاولات للحفاظ على القيمة المعطاة للعمل[2] » . اذن فحتى يمكن للبروليتاريا ان تحمي نفسها فلا بد ان يكون في وسع النقابة ان تؤثر على الاسباب لا على المسببات . واذا ما انكرتم عليها حقها في التأثير على الظرف بكل مستلزماته السياسية والاقتصادية ، القومية والدولية ، تكونون قد هبطتم بمطالبها إلى مستوى الاندفاعات العمياء ، وجردتموها من امكانية التوقع والاتقاء الانسانية : انكم تجعلون من العامل معدة جائعة وفماً يصرخ . وبكلمة واحدة : « إن المهمة الواقعية للنقابة هي بالضرورة ، ان تطالب وتحصل ، على مستوى المشروع ، على حق المساهمة في الادارة ، وعلى المستوى القومي ، على حق مراقبة النتائج الاقتصادية للسياسة الحكومية . وهذا سواء أكانت اصلاحية ام ثورية ، اي فقط من زاوية مصالح العامل « باعتباره عاملاً » .

ذلك ان الواقعة الاقتصادية ، شأن الانسان الاقتصادي ، هي من تصورات العقل . او هي ترمز بشكل مطابق الى بعض الأوضاع القصوى التي يمكن فيها للمضطهِد ان يعامل المضطهَد كحصاة . ففي افريقيا الغربية الفرنسية على سبيل المثال ، تخلق العنصرية وغياب النقابية السوداء بروليتارياً دونا وطنية ، رغم

---

١ و ٢ – ماركس : الاجور ، الاسعار والارباح .

على الحياة في جميع الميادين في مستوى أدنى من مستوى الأبيض الأقل حظاً[1]. ومن هنا فإن « تعويض العمل يتجه عملياً الى ان يكون محدداً بقانون العرض والطلب[2] » . وبتعبير آخر ، ان الايديولوجية العرقية تسمح بالهبوط بالعامل الوطني الى مستوى الواقعة الاقتصادية الخالصة . لكن ليس تماماً : فلأسباب يمكن تخمينها يحدث للسلطة الادارية ان تحدد نسبة الحد الأدنى من الأجر . وهكذا تتضافر عقيدة العنصرية السياسية (بيناها التحتية الاقتصادية) وعقيدة الأبائية[3] السياسية (المتروبول – البيروقراطية) لتحددا مستوى الحياة الذي تقدران انه « عادل » و « كاف » بالنسبة الى زنجي . والحال ان الاقتصاديين البورجوازيين ، في المتروبول ، قد عدلوا عن إقامة نظرية الاجر على قانون العرض والطلب . كتب موسى : « ليس العمل بضاعة . وليس الأجر سعراً يتكيف حسب السوق ... ومن المستحيل ان نؤكد ان هناك علاقة بين أجر عامل وانتاجيته ، بين المستوى العام للأجور والاستخدام والانتاج والاسعار والنقد الخ » . انهم يعتبرون اليوم ان مشكلة الاجور قد اصبحت مشكلة تتعلق بتوزيع الدخل القومي بين الأشخاص والفئات الاجتماعية . ومن سيحدد النسب؟ مجموع معقد من العوامل تدخل فيه التصورات الجماعية والقيم ، والايديولوجيات ،

---

١ – التعويضات العائلية موزعة كما يلي :

الاوروبيون : الولد الاول ١٧٥ ، الولد الثاني ٥٠٠ ، الخ ، الولد السادس ٢٣٥٠٠ فرنكاً.

الافارقة : الولد الاول ٩٣٠٧٢ ، الولد الثاني ١٣٧٠٥٠ ، الخ، الولد السادس ٥٩٧ فرنكاً.

وللفرنسيين تعويضات في مختلف انواع الحوادث . أما السود فليس لهم من تعويض إلا في الحالات التي يقع فيها الحادث نتيجة انفجار او آلة « تحركها قوة غير قوة البشر او الحيوانات». وللحصول على كيلو واحد من الخبز الأبيض يضطر العامل المبارم في داكار إلى العمل ١٠٢٧ ساعة ، بينما يعمل العامل الباريسي ٢٥ دقيقة . وللحصول على بيضة واحدة يعمل أسود داكار ٢٩ دقيقة بينما يعمل الباريسي ١١ دقيقة .

٢ – ويلي توب : « قيمة عمل الأجراء الافارقة » في « العمل في افريقيا السوداء » – مجلة « الحضور الافريقي » – العدد ١٣ – ص ٢٥٢ .

٣ – كل نظام يدعي انه يرعى مصالح الآخرين ويعطي لنفسه بالتالي نوعاً من سلطة ابوية عليهم . « م . م »

وعلاقات القوة بين الفئات والمعطيات الاقتصادية الصرف . كتب موسى : « ان الأجر هو مساهمة ، اكثر منه سعراً ، في عصلة عامة يستحيل فيها تحديد الاسعار الفردية للعناصر التي يمكن فصلها عن هذا العامل او ذاك . او ربما هو جزء مقتطع يشبه الضريبة في نمط اقتطاعه ونسبه . او هو ايضاً المورد الذي يغذي الحاجات الفردية والعائلية . واذا كان هذا هو الواقع فإن مشكلة الأجور تصبح مشكلة علاقات انسانية وبسيكولوجيا وميزان قوى : وبكلمة واحدة مشكلة سياسية تحددها ايديولوجيات ومعتقدات متعلقة بالعدالة والانصاف والتسلسل الاجتماعي [1] » . ورق قلوب الاقتصاديين ، ويقول احدهم : « لقد انتقلنا من الحياد الى المذهب الانساني » . ويقول آخر : « انتقلنا من الاقتصاد الموضوعي الى الاقتصاد المعياري ، السياسي » . فما الذي حدث؟ كل ما حدث هو ان البروليتاريا دخلت في الجنس البشري بطريق الاقتحام . فحتى عام ١٨٤٨ لم يكن عامل المعمل ، المعزول ، ناضجاً لامتحان قوة . اذن فهو حيوان . وعلاقته بأرباب العمل تتجه الى أن تكون محض صلة اقتصادية . وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كونت البروليتاريا نفسها كقوة اجتماعية مستقلة . وعلى الفور اعترفت البورجوازية للعمال بكرامة الانسان . وبدءاً من هنا وقع المذهب الانساني الذي كانت فخوراً به الى أبعد الحدود في التناقض : إن العامل انسان لأنه يخيف ، لكن النظام الاجتماعي يتطلب الابقاء عليه في شرطه الحيواني . وأصبح التناقض الذي تعيشه البروليتاريا وترزح تحته تناقض الفكر البورجوازي . وراح كل يقترح حله . وراح كل ، باسم أحد المذاهب الانسانية التي أخذت تتكاثر بسرعة (اصلاحية ، تعاون طبقات ، نقابية مهنية ، اشتراكية مسيحية ، الخ) ، يبحث عن التدابير التي ستسمح للمجتمع البورجوازي بهضم بروليتاريته . كانت المشكلة بسيطة لكن صعبة الحل : فما الشروط التي ينبغي ان تتوفر في مخلوق له ظاهر من انسانية حتى نستطيع ان نعطيه صفة انسان وان نعامله في الوقت نفسه كحيوان ؟ والحل لما يوجد بعد . وهكذا فإن هؤلاء البشر ، بمجرد

---

١ – موسى : الاجور – ص ١٢٨ .

حضورهم الصامت والتهديد الهادىء الذي يوجهه نظامهم الصارم المرتغص الى النظام القائم ، يظهرون على حين غرة وكأنهم مجتمع في المجتمع ، ويثيرون الاضطرابات في الفردوس ويفجرون المذهب الانساني : انه فعل سياسي ، أليس كذلك ، بل لعله اهم الافعال منذ عام ١٧٨٩ . وليس ثمة صعوبة في ان نفهم ان كل عمل مشترك يقوم به المضطهَدون ، حتى لو كان محصوراً في حدود المطالبة المهنية ليس إلا ، هو بذاته ، وكما لو انه حدث من غط معين يحدث في مجتمع معين ، عمل سياسي : ذلك انه يكشف عن درجة تلاحم القوى العمالية ومناخها المعنوي وقوة واتساع حركة المطالبة ، وهذه القوة ستنمو وتزيد بوعيها نفسها أو ستتناقض ، والروابط التي تربط بين العمال المنتسبين الى النقابات ستتوثق او ستتراخى ، والعلاقة بين أرباب العمل والعمال الأجراء ستتطور في هذا الاتجاه او ذاك ، وذلك تبعاً لنتيجة الصراع . والعمال على أتم وعي لهذه العلاقة العميقة التي تربطهم بالطبقة العاملة بأسرها والتي تؤلبهم على الطبقة البورجوازية . وعلى هذا فإن الاضراب ، مهما يكن موضوعه ، هو دوماً شيء اكثر من مجرد اضراب ومغاير له . إن رابطة عمالية كبيرة لا تقتصر على مواجهة ارباب الصناعة : انما هي تهتم ايضاً بالمستهلكين ، بالجمهور . وهي تهدف الى إدخاله في لعبتها ، وتحرص على ألا تكون غير شعبية ، وعلى ان تجعله يقدر اهميتها في الاقتصاد القومي ، وعلى دفع الرأي العام الى الضغط على ارباب العمل . وفي غالب الأحيان لا يكون تحسين شروط الحياة هدفاً في ذاته للعمل النقابي: انما الانتصار مطلوب من اجل الحظوة ، من أجل الحفاظ على المنتسبين ، ومن اجل زيادة عددهم . أما المضرب نفسه فإن المسألة بالنسبة اليه تتجاوز على كل الاحوال مصلحته المباشرة وهي شيء آخر غير هذه المصلحة : ان ما يثيره ليس هو الحرج ولا البؤس بقدر ما هو الغضب والحاجة الى التأكيد بأنه إنسان في وجه اولئك الذين يعاملونه كشيء . ولنقل ان النقابية هي طريقة في ان يكون العامل انساناً .

والنقابية ، موضوعياً ، سياسة . فهي تتولج بنفسها كلية الواقعية العمالية .

والتحديدات التي تفرض عليها يرجع مصدرها بلا استثناء الى فكرتها السياسية المسبقة . فواضح مثلاً ان الاصلاحي خجول ، محافظ ، منجذب سراً الى البورجوازية : فالحدود التي يضعها للعمل النقابي لا بد ان تكون ناجمة عن مساومات سرية طالما انها لا تستطيع في أي حال من الاحوال ان تجد تفسيرها في الموقف الموضوعي . وواضح ان ابتعاد نبيل عن كل تظاهرة مناهضة للنزعة الوطنية تكمن جذوره في شوفينية غير معترف بها . لكن ينبغي ان نضيف ان المناضلين النقابيين وعوا دوماً اهمية النقابة السياسية . يقيناً ، لقد اظهروا ريبة تجاه الاحزاب في ايام النقابية – الفوضوية البطولية ، لكنهم انما كانوا مدفوعين بـ « شعور معارضة عنيفة للبورجوازية » . ويقول لنا غريفيوله انهم « يريدون بشراسة ان يقودهم عمال » . وهم يريدون ذلك على وجه التحديد لأن « الرجعيين والاجتماعيين » هم من طينة واحدة في نظرهم . انهم سيقومون بالثورة بأنفسهم ولقد دعا المؤتمر نفسه عام ١٨٨٨ العمال الى « الانفصال عن السياسيين » الذين يخدعونهم » والى وضع آمالهم في الاضراب العام الذي « يستطيع هو وحده ان يقودهم الى تحررهم » . ويمكننا فيما بعد ان نلاحظ في قلب « الاتحاد العام للشغل » بعض التناوب بين الاصلاحية والنقابية الثورية . لكن المناضلين من كلا الفئتين متفقان على تطوير العمل النقابي في جميع الاتجاهات . ان العامل ، في نظر الثوري ، هو بحد ذاته التناقض الأكبر للمجتمع البورجوازي ، وهو نفي نظام الملكية . وسيكون لمطالباته هدف مزدوج : فهي ستحسن وضعه في حال تحقيقها مؤدية في الوقت نفسه الى زعزعة النظام الرأسمالي تدريجياً . وسيأتي الاضراب العام ليقوضه نهائياً . والاصلاحي انما ينشد في الحقيقة الهدف النهائي نفسه لكن عن طريق تقدّم متصل . وعلى كل الاحوال سيكون « في كل مكان تطرح فيه مصالح العمال على بساط البحث » وسيطالب « بالمساهمة المباشرة وعلى جميع المستويات في الواقع الاقتصادي » .

ولقد كان كلا الاتجاهين سيوافقان بلا تحفظ على برنامج الاتحاد العام للشغل المنمى « برنامج ١٩٤٩ » ، والذي جاء فيه : « ان الشرط الاساسي تلبيه تجربة

الخطة الأولى للتحديث والتجهيز وتجربة ما طرأ بعد تدخل مشروع مارشال .. ينبغي ان نفضح الاتفاقات العسكرية المعقودة بين الكتلة الغربية ، ان نعيد العلاقات بين الدول الى حالتها الطبيعية ، ان نطالب بدفع التعويضات الينا ... والى غير ذلك من المستلزمات التي تشرط تطبيق البرنامج الاتحادي للنهوض بالبلاد اقتصاديا واجتماعيا ، هذا التطبيق الذي يشرط بدوره تحقيقها الكامل ... » .

ذلك ان حقدكم على الشيوعية ، أيتها الجرذان الدبقة العزيزة ، قد أنساكم انها متخلفة بالنسبة إلى حملات الإثارة في ذلك العصر . فبين ١٩٠٥ و ١٩١٠ كان آباؤكم يعيشون في خوف دائم من احتمال قلب الأوضاع بالقوة . ومع اقتراب يوم ١ أيار ١٩٠٦ طارت رؤوس أموالهم الى حيث تطير رؤوس أموالكم اليوم . ولم يعد الذهب والثقة إلا بعد اختراع مؤامرة وإلقاء القبض على عدد من النقابيين . ان شيوعيينا قوميو النزعة ، لا تنسوا ذلك . إنهم ضد سياسة معينة لكنهم ليسوا ضد الدفاع القومي. إننا نحكم بالسجن خمس سنوات على هنري مارتان ، لتوزيعه منشورات تفضح حرب الفيتنام وغباءها الدنيء : لكنه لم يحرض الجنود على العصيان . وعلى العكس من ذلك كانت الدعاية المناهضة للنزعة العسكرية يومية . لقد علا صياح كثير لأن بعض قادة الحزب الشيوعي صرحوا علناً بأن البرولیتاريا لن تقاتل ضد الاتحاد السوفياتي . لكن النقابيين الفرنسيين سبق لهم أن صرحوا علناً هم أيضاً ، وكل ظنهم أنهم على اتفاق مع العمال الألمان ، وأعلموا البلاد قاطبة عن طريق الاعلانات التي لصقوها على الجدران ، انهم سيلجؤون الى الاضراب العام لمنع الحرب . وإذا ما افترضنا للحظة واحدة ، بالرغم من أن هذا النوع من التوهم لا قيمة له ، ان غريفيوله ومرهايم وجدا نفسيهما في موقف مماثل لموقفنا ، فلن يكون ثمة مجال للشك في أنهما كانا سيجران المؤتمر الاتحادي الى إدانة كل صليبية معادية للسوفييت سلفاً . وهكذا ، حين تتكلم صحفنا الصالحة بحنين عن عصر ذهبي كانت النقابات تقدم فيه لأرباب العمل مطالبها كما لو أنها تهنئهم بعيد رأس السنة ، فانما هي تحلم. إنها تريد ان تذر الرماد في العيون حول واقعة الاستغلال التي لا تغيب أبداً عن أنظار المناضلين النقابيين . إن النقابية ،

في نظر هذه الصحف ، سلاح أعطاه أرباب العمل بملء إرادتهم للعمال حتى يمكن للمناقشات ان تدور في جو من المساواة . لكن العمال يعلمون جيداً ان منظماتهم قد منعت وحوربت . ويعلمون أن هدف النقابة الاول ، أسواء بمساعدة الحزب الشيوعي أم بدونها ، هو « تغيير العالم » . وسوء التفاهم الظاهري هذا هو الذي يضفي على الواقعة النقابية التباسها . لكن ارباب العمل لا ينخدعون بهـا ، وهم يعرفون كيف يعزفون لحنين متباينين . فحين تتظاهر منظمات الطبقـــة العاملة بمعارضة إعادة التسلح او سياسة الحرب ، يقطبون حواجبهم ، ويأخذون سيماء الدهشة المتألمة . ويقولون : « كيف ؟ أهكذا تشكروننـا ؟ ليس للسياسة من دخل في النقابية » لكن حين يقلقهم او يحرجهم إضراب ما ، وحتى لو كان اقتصادياً صرفاً ، فإنما باسم السياسة يزعمون أنهم يحطمونه . ففي عام ١٩١٠ توقف عمال السكك الحديدية عن العمل وأمر بريان[1] باعتقال لجنة الاضراب . وحين استجوب من قبل الاشتراكيين صرح بقوله : « ثمة حق يعلو على الحقوق كافة ، انه حق مجتمع قومي في أن يعيش في استقلاله وعزته . والحال انه مـــا من بلد يستطيع ان يظل مفتوح الحدود . كلا ، هـذا غير ممكن ... ولو توجب عليّ أن ألجأ الى اللاشرعية لأحافظ على الامن لما ترددت » . وهكذا أرسيت أسس المبدأ : إن أي إضراب يمكن ان يمنع باسم مصالح عليـا . ولا يحق للنقابات ان تقاوم الحرب . لكن من الممكن باسم ضرورات الحرب أن تلغى النقابات . وفي ١٣ كانون الثاني ١٩١٥ صرح ميوران[2] أمـام مندوبي « المعادن » : « لم تعد هناك حقوق عمالية ، لم تعد هناك قوانين اجتماعية ، لم يعد هناك غير الحرب » . وهكـــذا ألغيت الحقوق النقابيـــة باسم حرب لم يكن للنقـــابات حق في

---

١ - أريستيد بريان : سياسي فرنسي ، رأس الوزارة إحـــدى عشرة مرة (١٨٦٢ - ١٩٣٢) . « م.ع » .

٢ - اتيين ميوران : سياسي فرنسي اشتراكي ديموقراطي وزير الحربيـــة بين ١٩١٤ - ١٩١٥ ، ثم رأس الجمهورية (١٩٢٠ - ١٩٢٤) واستقال أمام معارضة « كارتل اليسار » (١٨٥٩ - ١٩٤٨) . « م.ع » .

رفضها[1] .

يقول لي عدو الشيوعية مستنكراً : «كان لها الحق في ذلك . كان لها الحق، فهل كانت تصوت ضد أنفسها ؟» . وقد عاد الى هذه الحجة ، بكل براءة قلب ، واثق من ذلك ، السيد نيبو المحرر السياسي لصحيفة «فرانس سوار»: «لقد جرت انتخابات حرة ، بعيدة عن ان تعرفها الجنات الموسكوفية ، في جميع بلدان أوروبة الغربية منذ توقيع معاهدة الحلف الاطلسي . وقد أعلنت غالبية الناخبين رأيها بوضوح في كل مناسبة ، وانه لغش وخداع ان يدعي المرشحون الشيوعيون انهم يتكلمون باسم الشعب الفرنسي الذي حدد موقفه علانية» .

لست ادري إن كان ينبغي علينا ان نراه مضحكاً أم كئيباً حوار الصمّ هذا الذي تتابعه التكتلات والطبقات منذ سبع سنين والذي يلقاه جميع البشر تقريباً في أنفسهم بعد ان يغلقوا صحفهم . ذلك ان السيد نيبو لا يأمل في آخر الأمر بأن يبلبل افكار إنسان ماركسي بمجرد استشهاده بحجة الانتخاب العام . واذا كان يعتقد فعلاً ان حجته حاسمة لا جواب لها ، فإنني سأذكره بهذا النص اللينيني الذي اخترته صدفة من بين مئة نص آخر مشابه : «إن البرلمانات البورجوازية تزداد تبعيتها للبورصة وللمصارف كلما تطورت الديمقراطية. وهذا لا يعني انه لا ينبغي استخدام البرلمانية البورجوازية ، ولقد استخدمها البلاشفة بنجاح أكثر من أي حزب آخر في العالم ... انما هذا يعني ان الليبرالي هو وحده القادر على نسيان ضيق ونسبية البرلمانية البرجوازية . ففي الدولة البورجوازية الأكثر ديموقراطية تصطدم الجماهير المضطهَدة في كل مرة بتناقض صارخ بين المساواة الشكلية التي تنادي بها «ديموقراطية» الرأسماليين ، وبين

١ – ينبغي ان نضيف بأنه إن كان من غير المعقول في الاقتصاد الليبرالي قصر العمل النقابي على حماية المصالح المهنية ، فإنه من العبث اليوم الاصرار على إبقاء هذه التشكيلات في الوقت الذي ولدت فيه ثورة وطاقات اقتصادية واجتماعية جديدة . فكيف يمكن تمييز السياسي من الاقتصادي في الوقت الذي ستكون فيه علاقة العامل مع الدولة ؟

آلاف التضييقات والحدود المصطنعة الواقعية التي تجعل من البروليتاريين أرقاء مأجورين ».

بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٧ ساعد الحزب الشيوعي الطبقة البورجوازية على اعادة بناء جهاز دولتها : وذلك لأنه كان يفكر باستخدام البرلمانية للاستيلاء على السلطة، ومن ثم ليحولها . لكنه لبث وفياً للمذهب اللينيني القائل ان قوة الطبقة العاملة لا تتجلى حقاً إلا على صعيد صراع الطبقات . ومنذ عام ١٩٤٦ وجد نفسه ممزقاً بين سياسته البرلمانية والمعارك الاجتماعية : فقد كان وزراؤه في الدولة البورجوازية يبدون وكأنهم محض رهائن، وفي داخل الحزب ظهر من جديد، تحت شكل توتر متزايد بين نوابه ومناضليه، الصراع بين الطبقات المالكة والبروليتاريا . وبعد اقصائه عن الحكم، سقط جهاز الدولة بأسره في ايدي البورجوازية التي استبدلت الشيوعيين في جميع المناصب الحساسة بصنائعها . واصبح مجموع المؤسسات الجمهورية يعمل ضد الحزب . ومن هنا فإن الحزب سيكون ترجمان الارادة الشعبية على صعيد آخر، صعيد تظاهرات الشارع .

هذا على الأقل ما سيجيب به الشيوعي . لكن هذا الجواب لن يقنع السيد تيتو بقدر ما ان سؤاله لم يطلل أفكار السيد فاجون . وسوف أحاول ان أعرض الوقائع بعيداً عن كل روح مذهبية، وان أبين بكل بساطة أنه يحق للعامل اليوم، إذا ما صوت للشيوعيين، ان يعتبر صوته لاغياً .

سأذكركم عابراً بما صنعتم منه : مواطناً من الدرجة الثانية . فما كاد يقرر التصويت للحزب الشيوعي، حتى تعرض صوته لانحطاط غامض فتضاءلت بالتالي قدرته الانتخابية عن قدرة صوت جاره . فلإرسال ١٠٣ شيوعيين الى البرلمان، يلزم ٥ ملايين صوت كصوته . ولإرسال ١٠٤ اشتراكيين لا يلزم سوى ٢،٧٥٠،٠٠٠ صوت، ولإرسال ٩٥ نائباً من « الحركة الجمهورية الشعبية » يكفي ٢،٣٠٠،٠٠٠ صوت[1] . والحزب الشيوعي بخسرانه ٤٠٠،٠٠٠ صوت

---

١ - معروف ان القانون الانتخابي الفرنسي موضوع تندد لدى الطرفين. والتفاوت الذي=

خسر ٧٩ مقعداً ، أما الحزب الاشتراكي فيربح خمسة مقاعد بخسرانه ٦٠٠،٠٠٠ صوت وبالإجمال – بالإجمال تماماً – يساوي صوت عامل المرفأ نصف صوت القندلفت ، او نصف صوت صهره ، سكرتير البلدية . وينبغي أن نعترف بأن حزب « تجمع الشعب الفرنسي[1] » مكروه المنظر هو الآخر . لكنه بـ ٩٠٠،٠٠٠ صوت أقل من الحزب الشيوعي نال ١٥ مقعداً زيادة عليه : وليست هذه بالصفقة الكبيرة الخسارة . لقد نفذت العملية ببراعة ضد الحزبين المتطرفين، لكن أحدهما أكثر تطرفاً من الآخر . ويقول عامل المرفأ : « إذن فأنا إنسان دون ؟ » . أجل : انه « ضعيف العقل سياسياً » والصدفة وحدها هي التي شاءت ان يكون عاملاً . أواه ! أدري : المسألة شرعية ، وليس ثمة ما يقال . إذ لا بد ، أليس كذلك ، من وجود قانون انتخابي ؟ ثم لم يكن على الحزب الشيوعي، بعد كل شيء ، إلا ان يتحالف مع غيره . والبيان الختامي لمؤتمر « الحركة الجمهورية الشعبية » يعلن بجلاء : « أولئك الذين يرفضون احترام القواعد الديموقراطية كما يرفضون احترام مختلف الأمر السياسية يستبعدون أنفسهم بأيديهم من هذا الاتحاد ويتحملون وحدهم مسؤولية ذلك » . وباختصار ، إذا كان هناك شخص « حردان » ، فترحى له ! لكن مع من كنتم تريدون أن يتحالف الحزب الشيوعي ؟ أمع الحركة الجمهورية الشعبية ؟ أمع تجمع اليساريين الجمهوريين[2] ، أما بصدد التقارب مع الحزب الاشتراكي « الشعبة الفرنسية من الأممية العمالية » فإن السيد غي موليه قد قطع الطريق بحزم : مع حزب شيوعي فرنسي ، وحدة عمل . وعلى الفور . أما مع الحزب الروسي ، فبتاتاً ! والخلاصة انها خدعة ناجحة : ففي إطار مؤسسات الديموقراطية العامة تم

= يتكلم عنه سارتر بين عدد نواب الحزب وبين عدد الأصوات التي نالها يرجع الى الطريقة التي يتبعها هذا القانون في تقسيم الدوائر الانتخابية وفي فرز النتائج على أساس القوائم لا على أساس الأصوات الافرادية . « هـ.م » .

١ – هو الحزب الديغولي . « هـ.م » .

٢ – هو التجمع الناتج عن اندماج الحزب الراديكالي مع عدد من الأحزاب الصغيرة . « هـ.م » .

الاقتراع على قانون غير ديموقراطي يستهدف بصراحة حزباً محدداً . واني لأقولها لكم فيما بيننا : هـــذا عمل كان يجب ان يقابل بالنزول الى الشارع وتحطيم بعض الواجهات وبعض الوجوه . فمنذ قرن واحـــد بالضبط ، ٣١ أيار ١٨٥٠ ، تم الاحتيال على عمال الموانىء بمرسوم مماثل . لم يلغ الانتخاب العـــام ، كلا : بل اشترط فقط ان يكون الناخب مقيماً في دائرته منذ ثلاثـة أعوام . ولما كان العمال قد تنقلوا كثيراً ، بحثاً عن عمل، في أعوام أزمة ١٨٤٧-١٨٤٩ ، فقد كانت نتيجة هذا التدبير حرمان البروليتاريا الصناعية من حقها الانتخابي . وبجرة قلم تم الغاء ٢،٦٠٠،٠٠٠ ناخب . وأسلوب ١٩٥١ أكثر تطوراً بكثير : فقد تم إلغـــاء ٢،٥٠٠،٠٠٠ ناخب لأن انتخاب ١٠٣ نواب يتطلب ٥ ملايين صوت شيوعي . وكل ما هنالك انه ما من أحـد يعرف من الذين ستعتبر ورقتهم بيضاء من بين هؤلاء الملايين الخمسة . ومن بين كل ناخبين شيوعيين ، يسقط دوماً صوت أحدهما ، لكن لا يدرى أيهما . ثم ان البروليتاريا غير مسماة بصورة جلفة عن طريق صفات خارجية : ان الحزب الشيوعي يسمي نفسه بنفسه على أنـــه حزب الأشرار إذ يرفض ان يتحالف، والناخب يسمي نفسه بنفسه بروليتارياً إذ يصوت للشيوعيين .

لكن عامل المرفأ يحتفظ بشيء من الأمل . فالحزب الشيوعي بعد كل شيء هو حزب فرنسـا الأول . ولعل نوابه المئة والثلاثة سيؤدون عملاً طيباً . يقيناً ، انهم لن يدخلوا ابداً في ائتلاف حكومي . لكن للمعارضة دوراً تلعبه : انهـا تنتقد ، تحث على الاعتدال او تحرض ، انها تؤثر . ولعلها ستشجع الحكومة على ان تقول لا لواشنطن احياناً . والمؤسف ان حال المعارضة كحال اعضاء الحزب الشيوعي : ففي البرلمان معارضتان، احداهما لها حسابها والأخرى لا حساب لها. ان « تجمع الشعب الفرنسي » يؤثر عن بعـد – على السياسة في الهند الصينية على سبيل المثـال – والحزب الشيوعي لا يؤثر . واصوات نوابه مجمدة عملياً : ان الحكومة تدخلها كمدد سالب ثابت في حـساب غالبيتها . انها تعتقد بعض الشيء اللعبة البرلمانية ، ولا بد من اخذ الاحتياطات قبل طرح المسألة الثقة ، لكن هذا

كل شيء : فبدلاً من أن يلعب ابطالنا البليار الكلاسيكي يلعبون البليار الحديث المسمى بالمتزاقت. وهكذا فحين يلوم السيد برون ديكلو على لجوئه الى التحريض بدلاً من أن يعرض رأيه في البرلمان، وحين يعلن السيد برني جهاراً في «الأوروره» إن كل مواطن فرنسي له الحق في إقناع الآخرين، اعتقد انهما انما يريدان ان يضحكا. وإلا فليقولا لي مع من يستطيع جاك ديكلو ان يتناقش في الجمعية الوطنية! تصوروا ان وحياً عبقرياً جعله يرتقي المنبر. انه يخطب، يتحمس، يهاجم، يسيل دموع المنابر. ثم ماذا؟ انه سيجني تصفيق انصاره الرتيب وشتائم خصومه الأكثر رتابة ايضاً. ألم يمس اذن اوتار قلوب النواب؟ كلا، ولا واحد: فهم لا يصغون. لقد حدث في التاريخ البرلماني ان أسقط خطاب احد المعارضين وزيراً. لكن هذا لأن الاعتقاد كان ما يزال سائداً بأن المعارض يمكن ان ينطق بالحق. اما اليوم فمعروف أن المعارض كذاب: طالما انه شيوعي، لا اكثر! إن اكبر حزب في فرنسا مفصول عن سائر الاحزاب بحاجز غير منظور. ونواب البروليتاريا لا يتخلفون ابداً عن الادلاء برأيهم بصدد المسألة المبحوثة، لكن المسألة لا تعدو ان تكون اكثر من مسألة طقس محض. وعلى هذا فإن احد عاملي المرفأ اللذين يتنزهان معاً على أرصفة الهافر لا حق له في التصويت، والآخر قد صوّت على لا شيء. فهل تعتقدون ان الحزب الشيوعي كان بعيداً عن التعبير عن رأي ناخبيه عندما اعلن بصورة إضمارية، غداة الانتخابات، عن مظاهرة ٢٨ أيار بقوله: «على الحزب ان يلجأ الى اشكال اخرى في العمل لا مفر من اللجوء اليها للنضال ضد غالبية رجعية شرسة». وقد قررت الغالبية، لتعاقب نواب الدرجة الثانية هؤلاء، ان تحرمهم من حصانتهم النيابية.

لكن صاحبنا عامل المرفأ لم ينته بعد. فقبل خمسة عشر عاماً، كان ما يزال يرسمه ان يأمل بأن حكومته، بفعل التفاضة استقلال او كبرياء مفاجئة، ستكف عن السير في ركاب الانكليز. اما اليوم فهو يعرف بصورة قاطعة ان «استمرارية سياستنا» هي استمرارية العبودية الوادعة. ونحن لا نظهر الحزم

إلا مع المدغشقريين والتونسيين . فهل نحن مباعون ؟ كلا ، ولا حتى هـذا : فالأمر أدهى وأنكى . لقد تمكن منا الأميركان واشترونا مقابل لا شيء . فإذا ما تذكر عامل المرنا في هذه الآونة عبـارة لينين : « في الدولة البورجوازية الأكثر ديموقراطية تصطدم الجماهير المضطهَدة في كل مرة بتناقض صارخ بين المساواة الشكلية التي تنـادي بها « ديموقراطية » الرأسمـاليين ، وبين آلاف التضييقات والحدود المصطنعة الواقعية التي تجعـل من البرليتاريين أرقاء مأجورين » ، وإذا ما قـال في نفسه عند ذاك : « ان لينين ، مرة أخرى ، على حق » ، فعلى من ستقع مسؤولية الغلطة ، يا أسرة بينش وبيدو ولاسي وبيناي وأنسبائهم الكبيرة ؟ وذات يوم سيأخذه الملل والضجر ، وكذلك رفيقه . وبدلاً من ان يفرغا الرشاشات الاميركية ، سيقذفان بها إلى الماء . وسوف يقول لهـم رجال الشرطة الذين سيعتقلونهم : « يا عصابة الأنـذال ! إذا كنتم ضد الحلف الاطلسي ، فلماذا لم تقولوا ذلك ، بدلاً من ان تتلفوا العتاد ؟ ان الناس جميعاً احرار ، في بلدنا . وللناس جميعاً حق الانتخاب » .

د ـ « الحزب الشيوعي يجر العمال الى طريق اللاشرعية والعنف » .

كانت مظاهرة ٢٨ أيار مظاهرة غير مشروعة عن سبق تعمد وبكل وقاحة: بأي تعالٍ أبوا ان يطلبوا الاذن بها ! ففي يوم الاربعاء ٢٧ أيار أرسلت مديرية الشرطة الى الصحف بالبيان التالي : « لما لم يقدَّم اي طلب سماح ، فإن كل تجمع في الطرق العامة يظل ممنوعاً » . وفي الوقت نفسه كان الحزب الشيوعي يدعو بكل اطمئنان الباريسيين ، عن طريق اعلانات الجدران ، الى « ان يلبوا جماعياً نداء مجلس السلم » .

أأقول ان هذا الازدراء الصريح بالقانون لا يثير قلقي البتة تقريباً ؟ ان هذا الاقرار اذا مـا قرأه بعض المفكرين المحترمين في الولايات المتحدة ، ثارت له اعصابهـم . « ضعف الوعي الديموقراطي لدى المثقفين الأوروبيين » : هكذا سيشخصونه . بيد انهم سيواجهون بعض الحرج اذا ما طلبوا من المثقفين الفرنسيين ان يدهشوا لتصرفات الحزب الشيوعي غير المشروعة ، في الوقت الذي طالبت

فيه الاممية الثالثة ، منذ عام ١٩٢٠، في « بيان ٢٦ تموز الموجه الى اعضاء الحزب الاشتراكي الفرنسي » ، بأن « تمارس الدعاية بصفة غير مشروعة حيثما تواجهها المصاعب نتيجة قوانين استثنائية » . ويضيف النص : « ورفض ذلك سيكون بمثابة خيانة للواجب الثوري » . والاشتراكيون آنذاك لم تخفهم لا الكلمة ولا المضمون . ولقد قام ليون بلوم بتمييز مثير للفضول في هذا الموضوع في مؤتمر تور : « بقيناً ، ليس هناك اشتراكي واحد يقبل بأن يحبس نفسه في الشرعية... لكن اللاشرعية شيء والعمل السري شيء آخر[1] » . وحتى الآن لا ارى من مشكلة : حزب من الاحزاب يصرح بأنه سيلجأ الى اللاشرعية اذا لزم الأمر . وتغفر له الديموقراطية ذلك باسم حرية الفكر . وينظم هذا الحزب مظاهرة ممنوعة : فيمارضها البوليس بالقوة ويوقف المتظاهرين الذين يقاومونه . هذا كله شيء طبيعي ، والسيد كاشان لم يكن قد ولد بعد حين وقع أول صدام بين المتظاهرين وبين شرطة الجمهورية الثانية . وبالمقابل سوف يصعب عليهم ان يدفعوا بي الى إعلان اسفي بكل طيب نية على لاشرعية التظاهرة الشيوعية من غير ان أفضح في الوقت نفسه اعتباطية القمع التي لا تقل استرعاء للانظار عن هذه اللاشرعية . فما الذي يبرر اعتقال ديكلو ؟ أجرمه المشهود بتآمره على أمن الدولة ؟ ان هذا شيء لا وجود له . وعلى فرض انه معقول ، فكيف يمكن ان يكون هناك جرم مشهود بعد ساعتين من المظاهرة ؟ أحمل أسلحة محظورة اذن ؟ يا له من اعتراف : نائب يحمل في سيارته مقمعة ومسدساً ، ولهذه الجنحة توقفونه بالرغم من حصانته النيابية وترمون به في السجن وتبقونه فيه حتى من غير أن تفكروا بإطلاق سراحه مؤقتاً ؟ كفى ، دعوكم من هذه الأضاليل ! لقد اوقفتم السيد ديكلو لأنه كان يقوم بمهام الامين العام للحزب ولأن الحزب نظم المظاهرة : لقد تخلت الحكومة عن جميع الاحتياطات التي اتخذتها منذ قرن

١ — من سوء الحظ ان اللاشرعية لا يمكن ان تقوم لها قائمة اذا لم تتخذ القرارات في السر ، وعلى كل الاحوال ، وفي الحالة التي نبحثها هنا ، لم تقم اللاشرعية على السرية : بل كانت على العكس علنية ، متعمدة .

ونصف قرن القضاة ورجال القدون ليضفوا صفة عقلانية على الثأر العام ، ورجعت الى أخشن وأغلظ مفهوم عن المسؤولية . واهتمامها القليل بتبرير أفعالها يبعث على القلق أكثر أيضاً . كلا ، ليس هو المثقف الغربي الذي تقلد تعلقه بالجمهورية ، بل هو المجتمع بأسره . وأن يؤكد الحزب الشيوعي منذ ثلاثين عاماً ازدراءه بالشرعية البورجوازية وأن يفعل ذلك من غير ما عقاب ، فهذا ما يبرهن على قوة مؤسساتنا . ومباح لكم ، حسبما يحلو لكم ، ان تجدوا في ذلك فرصة لإبداء اعجابكم بعظمة الديموقراطية أو لفضح تناقضاتها . وأن يلعب السيد بيناي بشيء من الفظاظة بالمؤسسات الجمهورية وان يجازف بإتلافها، فليس في هذا ضرر عظيم : فهذا السيد ليس بشخص ذي اهمية ، ولم تمض على اشتهاره اسابيع قليلة ، وسوف يرمم الجهاز الحكومي بعد ان يرجع ، كما كان ، مغموراً. لكن أن تكون فرنسا قد فاجأت رئيس وزارتها في الجرم المشهود وهو ينتهك القانون ولم تتنحنح مع ذلك ، فهذا دليل على ان الجمهورية متدهورة الصحة الى درجة خطيرة . ويا للحجج التي تختلق لتبرير ذلك الاعتقال ! انظروا الى السيدين روبينه وبريسون[1] : لقد شرح السيد دوفرجيه[2] بكل هدوء في صحيفة « لوموند » انه قد لا يكون هناك من داع للإسراع في حل الحزب الشيوعي . وعلى إثر ذلك ، تقدم هذين السيدين وانقضا عليه بعنفانه : « مؤامرة ! أي مؤامرة ؟ إن الحزب الشيوعي بأسره مؤامرة ! وهو يتباهى بذلك منذ ثلاثين عاماً ! فما تريد أكثر من ذلك ؟! » . قد تقولون : لكن هاتين الشخصيتين الكبيرتين مطالبتان بانتهاج سياسة معادية للسوفييت ، هجومية . ليكن . لكن السيد دوفرجيه ، كما أعلمنا في مقال جديد ، قد تلقى عدداً كبيراً جداً من الأجوبة يثبت ان الرأي العام لدى قراء « لوموند » الوادعين معاد كلياً للديموقراطية . « مم تشكو ؟ لا تمنع الحكومة من تنفيذ سياستها : فهي تخلصنا من دبكلو » أو : « يجب ان

١ - بيير بريسون : رئيس تحرير صحيفة لفيغارو . [illegible]
٢ - موريس دوفرجيه : من كبار الحقوقيين الفرنسيين ، وسطي الاتجاه . [illegible]

يدفع الزعماء الثمن كما تدفع جماهيرهم » . او أيضاً : « لقد كان بيناي على حق طالما ان الشيوعيين لم يتحركوا » . أو : « ليس هناك لا شرعية تجاه الخارجين على القانون » . والحق ان السيد دوفرجيه لا يذكر الأجوبة بهذه الألفاظ : إنما أنا الذي حررها ، لأنها وجهت إليّ ولأنني تعرّفتها في مقاله عابراً . إنها تحذير صارم للحزب الشيوعي : فهذا كله يثبت أنه بث الذعر في قلب البورجوازية الصغيرة والطبقات المتوسطة . وبالفعل ، ان التفكير السائد لدى هذه الطبقات هو ان أرباب الصناعة لا يبالون بالحريات الديموقراطية : ماذا تريدون أن يفعلوا بحرية الفكر ؟ إنهم لا يتمتعون بها ، حين تتوفر لهم ، أكثر مما تتمتع بها منضدة صفائح في مصفاة : بل هم يستأجرون مهرجين ليتمتعوا بها بدلاً منهم . ان الحرية التي يطلبونها ، الحرية الوحيدة ، هي حرية توجيه معارك الانتاج حسبما يحلو لهم : إنها تدعى الليبيرالية . وميزة بيناي على ديغول في نظرهم هو انه يوسع الحريات من غير ان يمس الليبيرالية بأذى ، في حين ان الديغوليين ، إذا ما صدقنا السيد فالون ، يفكرون « باستبدال الاقتصاد الأعمى باقتصاد واع » . وبين البورجوازية الكبيرة التي تطالب بالقدرة المبيبة على التصرف والتملك والربح ، والبروليتاريا التي تطالب قبل كل شيء بالحق في الحياة ، تقف البورجوازية الصغيرة وحدها لتدافع عادة عن حريات ديموقراطياتنا الشكلية : يقيناً ، إن هذه الحريات سلبية وتحديدية ، تفصل البشر أكثر مما توحد بينهم ، لكنها لهذا السبب على وجه التحديد تحمي النظام القائم وتسمح ببعض التنبؤ ، وتوجد نوعاً من التفاوت داخل مجتمع يزداد اندماجاً يوماً بعد يوم . انها البورجوازية الصغيرة التي عجلت بتقرير مبدأ الانتخاب العام ، وهي التي اعطت ، في غالبيتها ، الجمهورية الثانية إطارات المعارضة ، وأعطت الحزب الراديكالي والراديكالي — الاشتراكي جهازهما بعد عام ١٨٨٠ . لقد صنعت هذه الطبقة الجمهورية ، وها هي المؤسسات الجمهورية تغتصب على سمع وبصر منها ، ومع ذلك تلزم الصمت . فهل هي خائفة الى هذا الحد ؟ سوف نعود الى هذا الموضوع . لكن ما يبدو

واضحاً ، على كل حال ، هو ان النظام الديموقراطي لم يعد اليوم سوى واجهة : ان جميع المعارك الحقيقية تدور خارجاً عنه . ودوفرجيه ، في مقاله الاخير ، يحسن طرح المسألة : بلغة الاحصائيات . فهو يقول لنا ان الحزب الشيوعي عندما يحصل على خمس أو ربع الهيئة الناخبة ، يظل في وسع خصومه ألا يلجؤوا الى الفاشية ، بالرغم من أن الحياة في ظل الجمهورية تصبح حياة تقتير . لكنه إذا ما جمع من ٥٠ الى ٥١٪ من الاصوات ، « لا مجال للابقاء على الديموقراطية وتصبح المسألة مسألة اختيار للأنظمة التي ستتلوها » . والحزب الشيوعي في فرنسا يتمتع بغالبية الأصوات العمالية : اذن فطبيعة النظام السياسي تتعلق فقط بالأهمية التي تستطيع منظمات البروليتاريا ان تأخذها في حياة الأمة . انها لعبة بريدج ذات «مناطق خطرة» : اذا ما تجاوز حد معين كانت الرجعية والفاشية . لكن اذا ما تم اجتياز « المنطقة الخطرة » بسرعة ، استلمت الأحزاب العمالية السلطة وشكلت « ديموقراطية شعبية » . ان مأخذ اللاشرعية ، كما نرى ، لا يمس جوهر المشكلة . وكل ما هنالك اننا نقف عند عتبة المنطقة الخطرة ، وهذه المناوشات حول الشرعية القديمة هي في الوقت نفسه اولى بشائر شرعية جديدة سواء أقامت على سيادة الجماهير ام الأعيان ام الحزب .

والواقع المستتر تحت تلك الاستنكارات هو صراع الطبقات . ولو كنتم فهتم ذلك ، فلربما وجدتم بعض الحرج في تأنيب الحزب الشيوعي على عنفه ولا شرعية تصرفاته : ان كل عنف يأتي اليوم ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، من البروليتاريا التي ترجع الينا ما اعطيناها اياه . ان جميع الحقوق العمالية ، بما فيها الحقوق « الممنوحة بحرية » ، قد توجب على البروليتاريا ان تنتزعها انتزاعاً بفضل نضال شاق . وهذه الحقوق تبدو وكأنها حديثة نعمة وسط الحقوق الخاصة بالنخبة البورجوازي ، كما ان الحجر يفرض عليها ، والحقوقيون يتكلمون بحذر عن حق الاضراب بالرغم من ان دستور ١٩٤٦ يقره بصراحة . علامَ تريدون ان تقيموه؟ أعلى سمو الطبيعة البشرية ؟ في مثل هذه الحال سيكون حشواً لا طائل تحته . أعلى الحرية ؟ لكن الضرب يمارس إكراهاً . أعلى المساواة اذن ؟ لكنه ، على

العكس ، اعتراف ضمني باللامساواة . « إن من حق الاضراب، من حيث تعريفه بالذات ، ان يؤذي . انه سلاح اكثر منه حلاً » . أفتنعطون انتم بعض الناس الحق في ايذاء غيرهم ؟ « انه حق الدفاع المشروع مطبقاً على جماعة » . المقد اذن عدوان ؟ إن مجتمعنا لا يستطيع ان يبرر الاضراب قبل أن يعترف اولاً وجهاراً بأنه مجتمع اضطهادي . « منذ نصف قرن من الزمن ومسألة حق الاضراب مطروح باستمرار على بساط البحث بمناسبة كل موجة جديدة من النزاعات الاجتماعية » . يا للحذاقة ! انهم يعترفون بهذه الممارسة حتى يمكنهم تقنينها وتحديدها بصورة افضل . وفي النهاية يعترف احد الحقوقيين متنهداً بأن «واقعة الاضراب ظاهرة من نوع الانفجارات البركانية ... عصية بطبيعتها على أخذ مكانها في نظام قواعد الحق » . ! فما من وظيفة غريبة يؤديها العامل : انه منتج غير مشروع للشرعية . في ايار ١٩٣٦ صرح بلوم : « انني لا اعتبر احتلال المصانع شيئاً مشروعاً ... فهو لا يتفق مع قواعد ومبادىء القانون المدني الفرنسي » . والواقع انه مساس بحق الملكية . وهذا ما رد عليه نوريز بقول سديد : « يقولون : لاشرعية ! كلا ! انما هي شرعية جديدة تتكون » . بيد أنه يمكن الاعتراض بأن هذه الشرعية الجديدة ليست قابلة للتصور في اي نظام : انها تنقض المبدأ الاساسي للمجتمع البورجوازي ، وفي المجتمع الاشتراكي لن يكون لها من مبرر للوجود . إن هذه الشرعية « اللاعقلانية » المصادقة بعجلة على الممارسة العمالية ، لا معنى لها إلا في عالمنا الانتقالي والمتناقض. انها صورة العامل بالذات ، تنفي ذاته والمجتمع ، ووظيفتها الواقعية ان تهدم النظام القائم الذي يسحقه بهدمها شرط وجوده الخاص كبروليتاري . لكن العامل ، حين لا يفكر بالتوقف عن العمل ، يعرف انه يستطيع ان يعلن الاضراب ويعرف ان هذا التهديد الدائم يؤثر على الاجور بصفة عنصر معدل ومنظم . انه هو نفسه هذا التهديد وهو يشعر بعنفه : ففي مجتمع قائم على الاضطهاد ثمة ظلم فانى يريد ان يكون العنف من صنع المضطهَد اولاً ؟ . ولسكم سيكون كل شيء واضحاً لو كان في الامكان الاعتماد على عدالة المضطهدين الخاصة في محاربة اضطهادهم . لكن

المضطهد هادىء وقوي ، ويضع قوته في خدمة القانون . واذا ما قتل ، فعل ذلك شرعياً . والقوانين هو الذي يسنها . ثم ان البورجوازية ، كما بيّن ذلك انجلز ، قد « خلقت البروليتاريا ، دونما تدخل سحري من جانب العنف، بطرق اقتصادية خالصة » . ويضيف : « حتى لو افترضنا بأن كل ملكية فردية تقوم في أصلها على عمل شخصي للمالك وبأنه لم يجر من تبادل قط ، خلال التطور اللاحق لجرى الأمور ، إلا بين قيم متعادلة ، غير ان هــذا لا يمنع ان التطور التدرجي للانتاج والتبادل يقودنا بالضرورة الى النمط الراهن من الانتاج الرأسمالي ، والى حكر وسائل الانتاج واسباب المعيشة بين يدي طبقة قليلة العدد ، والى النزول بمستوى الطبقة الاخرى، التي تشكل الغالبية الساحقة، الى مستوى البروليتاريين المجردين من الملكية » . وباختصار ، ان العامل مهدد بأن يقع ضحية الخداع . انه مضطهّد ، ومرهق بالعمل . ومع ذلك ، اذا ما عاد بفكره الى تسلسل الاسباب ، لم يجد لا سرقة ولا إكراهاً : فقد تم كل شيء برفق وخلسة . بل اكثر من ذلك : لقد قبل من تلقاء نفسه بشرطه ، وعلى الأقل لفترة من الزمن : « طالما ان نمطاً معيناً من الانتاج ما يزال في مرحلة صعود وتطور ، فإن من يتضررون بنمط التوزيع المقابل له هم انفسهم الذين يطالبون به . وهــذا هو تاريخ العمال الانكليز في ايام ولادة الصناعة الكبيرة» . وحين تأتي الازمة ويبدو نمط التوزيع ظالماً على حين فجأة، فمن يكون المسؤول ؟ إن العامل ، مهما أوغل في تأمل ماضيه ، يجد نفسه منخرطاً من البدء في مجتمع له قانونه وفقهه ، وله حكومته ومفهومه عن العدل والظلم ، والأخطر من ذلك ايضاً انــه يشاطره ايديولوجيته عفوياً[1] . انهم يفرضون عليه مصيراً وحدوياً ، ويحملونه بمهام جزئية ونصف آلية يفلت منه معناها وقانونها ، وبأمراض مهنية . وهم يثبطون همته ، بالتعب والبؤس وبإرغامه على ان يكرر ألف مرة في اليوم حركة واحدة، عن ممارسة صفاته الانسانية ، ويحبسونه في عالم التكرار التفه العديم المعنى .

١ – « للتطور العفوي لحركة العمالية يؤدي بسرعة الى إلحاقها بالايديولوجية البورجوازية » (لينين : « ما العمل ؟ » – المؤلفات – طبعة موسكو – ١٩٤٨ – المجلد ١ – ص ٢٠٦) .

ورويداً رويداً يصبح شيئاً . لكنه حين يفتش عن المسؤولين ، لا يجد احداً : كل شيء عدل ، وحقه مستوفى . لقد رفض كثير من العمال الاميركان عام ١٩٣٠ الاكتتاب في صناديق البطالة التي تم ارتجالها بسرعة : فقد كانوا خجلين من بطالتهم ويظنون انهم مذنبون . اما العامل الاوروبي ، الاكثر يقظة ، فيعيش في الالتباس هذا الوضع الذي لا يطاق ، وهو بالتأكيد يرفضه بكل ما في طاقته من قوة ، لكنه يقبل به رغماً عنه لأنه ولد فيه وبقدر ما يكون هدفه تحسينه ليس إلا . ان العامل نصف المختص يجهد نفسه ليكسب مثل ما يكسبه العامل المختص ، اي ليموضح بالتالي عن التفاوت المهني وليشعر بأنه انسان ، لكنه لا يتوصل الى ذلك إلا اذا انشط في تشيئه . ولعله سيفضل العمل الجزأ ، وسيضن بدعمه على الشعبة النقابية التي قد تحاول تحديد ايقاع العمل او تنظيمه . وحين يجد نفسه وجهاً لوجه مع عمله ، منهك القوى ، خاضعاً لقوانين آتية من الخارج ، يصطدم رفضه العفوي ، غير المعبر عنه لكن الدائم المستمر ، لأن يكون مجرد قطعة في آلة ، يصطدم رفضه هذا بإرادته الحفاظ على نمط في الانتاج يدر عليه قدراً اكبر من الدخل . والخلاصة انه لا يعرف في البداية إن كان مسؤولاً عن هذا المجتمع الذي ولد فيه والذي يخلو من المؤسسات التي تحميه والذي يفتقر الى الكلمة القادرة على تسمية الضرر الذي ألحقه به . وتتحمل الطبقات الأخرى بشجاعة بؤسه وتشرح له ان هذا البؤس ضروري للتوازن الجماعي . وهو موضع رعاية الدولة التي تقدم له أجراً إضافياً وتعويضات . لكنه لا يستطيع مع ذلك ان يقتنع بأنه متضامن كلياً مع مجتمع يصدر يومياً ، سراً ، أحكاماً بالموت لدوافع اقتصادية ، ويترك اثنين من اولاد الفقير يموتان في سبيل ولد واحد من اولاد الغني [١] . انه

---

١ - : نسبة وفيات الاطفال في عام ١٩٣٩ :

نسبة الوفيات بين ١٠٠٠ طفل ولدوا احياء ولم يبلغوا عاماً واحداً من العمر :

أ - البورجوازية الكبيرة ، كبار الموظفين ، الحكام . ٢٦٫٠٨٪

ب - المزارعون ، المستخدمون ، الموظفون ٤٤٫٠٤٪ =

يريد»، هو نصف المتواطئ ونصف الضحية ، هو المتضامن والشهيد ، ما لا يريده، ويرفض بكل جسمه ما يقبل به بكل ما فيه من ارادة الحياة . انه يمقت ذلك المسخ الذي حولته اليه المكننة، لكنه يعرف مع ذلك انه لا يستطيع ان يكون غير ما هو عليه اذا لم يغير العالم . والتناقض لا يكمن فيه هو وحده ، انما هو يفرض عليه فرضاً ، والانتاج الكثيف يتطلب ان يكون متناقضاً . انسان وميكانيكي معاً : لهذا فإنهم لا يلجأون الى خدماته إلا عندما يكون بناء آلة موجهة اوتوماتيكياً امراً بالغ الصعوبة او كبير الكلفة . كما ان تقدم الآلاتية [1] سيغني عن الحاجة اليه. وهكذا يطالبونه بإضافة نوع من التيقظ المبهم الى توازنه الفكري ، وبأن يكون حاضراً وغائباً معاً . انسان الى حد معين فقط : ذلك ان الصناعيين لن يجدوا حرجاً في ان يقولوا لكم ان التعليم العام يضر بمردوده العامل نصف المختص ومع ذلك لا يمكن بعد استبدال عينية البشرتين بخلايا فوتو – كهربائية. وعلى هذا، ليس العنف الأول هو الاضطهاد لأن هذا الاضطهاد يختلط بالفعل مع العدالة والنظام . انه الاضطهاد المستبطن ، الاضطهاد المعايش كصراع داخلي ، كإكراه يمارسه نصف ذاته على النصف الآخر . العنف الأول هو العنف الذي يمارسه العامل على ذاته وبقدر ما يجعل من نفسه عاملاً . ان جوع العاطل عن العمل وقلقه لا يكونان في البداية عنفاً مكابداً منه . وربما يصبحان كذلك حين يأخذهما على عاتقه ريتواطأ معهما ليرغم نفسه على القبول بعمل أجوره دون التعرفة النقابية . لنفترض ان رب عمل بحاجة الى ضاربة على الآلة الكاتبة ، وأن البلاد تمر بأزمة : فتتقدم ثلاثون فتاة على نفس الدرجة من الكفاءة وهن يحملن نفس الشهادات. ويستدعيهن جميعاً معاً ويسألهن أن يذكرن

= المتوسطون ، صغار التجار

ج – الصناع ، العمال المختصون ٤٤٠٤٪

د – العمال انصاف المختصين ٥١٠٤٪

هـ – العمال غير المختصين ٦٠٠١٪

١ – نقترح هذا المصطلح كمقابل للفظة (Cybernetique) وهو علم حديث يدرس علاقة الانسان بالآلة ، وآليات الاتصال والرقابة لدى الكائنات الحية وفي الآلات . ج . ط . ط .

التعويض الذي يرغبن فيه . وآنذاك تبدأ مناقصات رهيبة : ان رب العمل — في الظاهر — لم يفعل من شيء سوى انه ترك قانون العرض والطلب يباشر عمله . لكن كل ضاربة آلة كاتبة ، بطلبها أقل الأجور ارتفاعاً ، تمارس العنف على الاخريات وعلى ذاتهـا ، وتساهم ، في جو من المهانة ، في تخفيض مستوى حياة الطبقة العاملة اكثر ايضاً . واخيراً سيتم استخدام تلك التي ستطلب ، نظراً إلى انها تتمتع بدخل آخر طفيف (نفقة أرملة — او فتاة تعيش مع أسرتها) تعويضاً هو دون الحد الأدنى الحيوي ، اي تلك التي ستمارس على ذاتها وعلى الأخريات العمل الهدام الذي ما كان ليتوانى عن ممارسته بنفسه . أن يكون الانسان عاملاً ، فهذا معناه ان يرغم نفسه على ان يكون كذلك بجعله الشرط العملي شرطاً تزداد قسوة الحياة فيه أكثر فأكثر بالنسبة إلى ذاته وبالنسبة إلى الجميع . والبعض يتظاهر بالاعتقاد بأن العنف يولد على حين غرة لحظة العصيان او الاضراب . لكن هذا غير صحيح . وكل ما هنالك انه يبرز الى الخارج في فترات الأزمة . وينعكس التناقض : كان العامل يرفض في ذاته الانساني يوم كان مستسلماً للوداعة ، اما الآن ، وقد تمرد ، فإنه يرفض اللاانساني . وهذا الرفض هو في حد ذاته مذهب انساني ، وينطوي على تطلب عدالة جديدة . لكن طالما ان الاضطهاد ليس جريمة منظورة ، وطالما ان ايديولوجية الطبقة السائدة تحدد العدل والظلم ، وطالما انه لن يمكنه الحصول على شيء ما لم يحطم بالقوة النظام المقدس، فإن توكيد العامل لواقعه الانساني يتبدى لعينيه كتظاهرة عنف . وبالأصل ما يكاد يرفع أصبعه ، حتى يجند المجتمع قواه البوليسية ، ويغير الديكور من حوله ، ويهيء له عنفه ، ويضطره الى ان يدفع بهذا العنف الى أقصى مدى له . ان على استيائه ان يتحول إلى إضراب ، واضرابه إلى مشاجرة ، والمشاجرة إلى جناية قتل . وبعد ان يكون قد وقع في الفخ ، وعندما سيتساءل بذهول كيف قادته المطالبة السياسية بحذرقه كإنسان الى ان يضرب ويقتل اناساً آخرين ، يبدأ الامع . ولن تكون العودة إلى الهدوء سكينة بل عودة إلى العنف الأولي . ويمارد التناقض الاصلي الظهور لكن بعد ان يكون تعمق

واحد : فقد ذاق المضروب عنف المجتمع المضاد ، وهو ما يزال يؤثر فيه ، فيرد عليه بشعورين متناقضين ، الخوف والحقد . ولقد اكتشف في الوقت نفسه ذاته وهو يعرف الآن ان العنف هو قانون عمله . بيد ان البورجوازية تتأمل بتخوف وتقزز هذا الانفجار المباغت الذي يعكس لها، بكلمة واحدة ، الاضطهاد الذي تمارسه . ويخيل لهذه الطبقة السياسية للغاية والمتدينة للغاية ان العنف ينبع من المضطهَد بالذات وأن سببه يكمن في همجيته . ويصبح العامل في نظرها العنف الذي لا يُسبر له غور والذي تحول إلى موضوع. والعامل لا يجهل ذلك، ويعرف انه يخيف البورجوازيين ، وبدافع من رد فعل جديد على «الشخصية الاسقاطية» التي تنسب اليه يطالب باعتزاز بهذا العنف الذي يؤخذ عليه . لقد كان هدف هذه الملاحظات أن تظهر التباس الشرط العمالي : ذلك ان البروليتاريا خاضعة لحكم حتمي تاريخي غير موجود بعد رقد لا يوجد أبداً . وعنفها ، إذا ما نظرنا اليه من وجهة نظر مجتمع قادم سيرى النور بفضل جهودها ، هو مذهب انساني ايجابي [1] . اما إذا نظرنا اليه من زاوية مجتمعنا الراهن ، فهو جزئياً حق (الضراب) وجزئياً جريمة . والواقع ان المذهب الانساني والعنف مظهران غير قابلين للفصل من مظاهر مجهوده لتجاوز شرطه كمضطهَد .

* * *

ان الجرذان الدبقة ذات طبيعة رقيقة حيية، والعنف يثير اشمئزازها: وهل في هذا ما يدهش طالما انها بورجوازية ؟ والمشكل هو ان فيها ميلاً ملحوظاً الى الطبقة العاملة . وحتى تخرج من المأزق ، اخترعت أسطورة الألم العمالي : لقد ظهر العنف في العالم مع ظهور الأممية الثالثة . يا له من تزوير غريب : ذلك ان الشيء البديهي والمسلم بـه في النهاية هو أن العنف العمالي يشكل قوام الحزب الشيوعي وقوته بالذات . فقد التقط الحزب هذا العنف ، وهو يتغذى به ، وإذا

---

١ ـ وليس وسيلة لبلوغ المذهب الانساني . ولا حتى شرطاً لازماً . لكنه هذا المذهب الانساني نفسه من حيث انه يؤكد نفسه ضد « التشيؤ » .

كان القادة مفهومين من قبل العمال فهذا لأنهم يتكلمون لغتهم . يقيناً ، ان هذا العنف يقلد ، مع الحزب ، صمته كقورة مباشرة : انه يصبح « متوسطاً » ، واعياً ، ويتحدد بتصوره لذاته . والحزب الشيوعي إنما هو الإرادة المعلن عنها ، المؤقنمة[1] . وليس في هذا من خطورة : فحتى لو وجد شيء من التفاوت بين إعلان العنف وبين العنف الأصلي الذي ينبثق منه هذا الاعلان ، فإن هذا لن يمنع مع ذلك الطبقة العاملة من أن تتعرف نفسها في اختبارات القوة التي يجريها الحزب باسمها .

* * *

ماذا أردت ان أثبت ؟ ان تظاهرة ٢٨ أيار كانت بارعة ، ناجحة جديرة بالثناء ؟ بالمرة . بل أردت فقط ان أثبت انها تحتل مكانها في إطار التظاهرات الشعبية . تقولون : « لو أنهم حلوا الحزب الشيوعي ، لكنا وضعنا « يساراً حقيقياً » مكانه ، يساراً أثيناً ، عاملاً ، مستعداً للتمييز وللتحفظات الناعمة ، يحارب الرأسمالية وينصف الأشخاص الذين لا يرفضون العنف لكنهم لا يستخدمونه إلا كوسيلة أخيرة ، ويؤجج في الوقت نفسه حماسة البروليتاريين الكريمة ويحميهم عند اللزوم من شططهم . إنه ، وايم الحق ، برنامج جدير بالاعجاب ؛ كل ما هنالك ان هذا اليسار إذا ما خلقته لكم ضربة عصا سحرية (فأنا لا أتصور كيف يمكنكم الحصول عليه بغير هذه الطريقة) ، لا أعطيه أنا سوى ثمانية أيام لينفجر : وآنذاك ستجدون بعضاً من أعضائه في كتلة البرلمان الاشتراكية أو في أسرة تحرير « فرانس – تيرور » بينما سيتظاهر الباقون في الشوارع ضد ريدوي .

ستقولون : « إن محاججتك جميلة للغاية . لكن فيها نقطة ضعف واحدة باعتبار ان الطبقة العاملة لم ترجع نفسها في ٢٨ أيار وان التظاهرة الجماهيرية جرت بدون جماهير » . وتضحك الجرذان الدبقة : حسناً . فلنرجع إلى الوراء والبرّ .

---

١ – من الاقنوم . والأقنمة تجريد ينظر إليه خطأ على أنه واقع . « م » .

٢ – اضراب ٤ حزيران

لقد نظم الحزب الشيوعي تظاهرتين في ٢٨ أيار و ٤ حزيران . فماذا كان يلتظر منها ؟ وما كانت دلالتها الحقيقية ؟ وإذا كان صحيحاً أنها فشلتا فشلا ذريعاً ، فما الذي أفشلها ؟ وأي معنى ينبغي أن نعطيه لهذه الهزيمة المزدوجة ؟ وما ستكون نتائجها ؟ وإذا تبين ان هذه النتائج شؤم على الطبقة العاملة ، على المجتمع الفرنسي بأسره وعلى السلم ، فهل هناك من وسيلة لتلافي ذلك ؟ هذه الأسئلة المتشابكة هي التي أود لو أحاول ان أفصل بينها وأجد الجواب لها .

ماذا كان في وسع الحزب الشيوعي ان ينتظر من ٢٨ ايار ؟ وحتى يكون رجال الشرطة متجمهرين بأعداد كبيرة،فهم يمكن للجموع ان تعلن اللهم إلا عن هواها[1] بكل معاني هذه الكلمة ؟ وطالما ان السلطة تحظر التظاهر ، فكيف السبيل الى ان تتظاهر الجماهير اللهم إلا اذا استولت على السلطة ؟ لقد حدث أن دفع السخط بالباريسيين الى الشوارع ، فكانوا يسيرون ويستولون على أحد المباني اثناء مرورهم ، ولقد وضعت ثورة شباط[2] الحكم بين يدي بورجوازية أطاش الخوف بصوابها . اما اليوم فقد اتخذت التدابير لتجنب التطورات غير المتوقعة : لقد بلغت الحياة السياسية درجة من الجدية لم يعد يستطيع معها حزب من الأحزاب ان يسمح لنفسه بأن تحمله الاحداث الى السلطة رغماً عنه . إن اقصى ما يمكن لمظاهرة شوارع في عام ١٩٥٢ ان تعطيه هو علامة تمرد – بشرط ان يكون هناك اتفاق مسبق على ذلك – لا أن تنفجر من حيث لا يدري أحد. إن هذه المسيرات المتقطعة ، الواقفة دوماً في منتصف الطريق بين الفتنة والاحتفال ، بين الاستشهاد والتحدي ، تستدعي العنف لكن لتتحمله وتعاني منه . انها مسالك فاشلة، حركات تريد نفسها غير مجدية ، وعدم جدواها بالذات

١ – Passion . ومن معانيها اذوى والعاطفة الشديدة والحماسة والغضب . الخ . ه.م.ع .

٢ – هي ثورة شباط ١٨٤٨ التي اطاحت بملكية لوي – فيليب وأدت الى قيام الجمهورية الثانية . د.م.ع .

شهادة . انها تظهر للجماهير طاقاتها الهائلة وعجزها المؤقت . وهـذه الحفلات الصاخبة إذ تريحها من عمل التنظيم الصابر تجعلها تدرك ضرورته . وباختصار ، « مسرح الشارع » الذي كان يتمناه آرتو[1] : إن دور السكان الباريسيين يؤديه عادة السكان الباريسيون انفسهم الذين يأخذون على عاتقهم ان يستعرضوا امام انظارهم مصيرهم الماجد وبخاصة عفويته الضائعة . إن كل شيء معد كيما يتوهموا انهم ما يزالون تلك الجموع السحيقة القدم التي سارت وتماوجت في ساحاتنا طوال القرن الماضي . وإنهم لكذلك بالفعل فيما عدا أن المتظاهرين مدعوون سلفاً ومنظمون ومسيّرون ، وانه محظور عليهم ان يمسوا زجاج الواجهات وان يستولوا على أي شيء حتى ولو كان الباستيل .

انه لمن الضروري ان تنتهي المظاهرة المحظورة بفشل : لكن هذا لا يعني انه يتوجب عليها أيضاً ان تبدأ من هنا . والحال ان المنظمين كانوا يتوقعون هزيمة مريعة لا هزيمة رمزية على الاطلاق : كانوا يعرفون ان الجماهير لن تجشم نفسها عناء ولن تتحرك . كانوا يعرفون ذلك : فالصحافة ، من صحف ومجلات منظمات اليمين الكبرى الى جرائد المعارضة العمالية ، تنوه وتعلق ، منذ عامين، على « فتور همة العمال » . فكيف يمكن للمكتب السياسي ان يكون هو الوحيد الذي لم يلتفه الى ذلك ؟ تصفحوا دفتر جاك ديكلو[2] : انه ، بالطبع ، غير واضح العبارات ، لكنكم سترون كلمة « اشرحوا» تتكرر مئة مرة : اشرحوا لعمال مرفأ مرسيليا ... اشرحوا للشغيلة ... لم تشرحوا بما فيه الكفاية ... وستشعرون بتعاظم القلق والرغبة في « تأجيج المعركة » ضد بعض ترددات الرأي العام العمالي ولاحظوا كيف انهم يرجعون دوماً الى نفس الاهتمامات والى نفس المواضيع : إن هؤلاء الناس واعون تماماً لمصاعبهم . ستقولون : لمَ اذن يدعون الباريسيين في هذه الظروف وفي هذا الوقت الى تظاهرة سياسية ؟

---

١ – انطونين آرتو : ممثل وشاعر وكاتب فرنسي معاصر . د.م.م.

٢ – عندما اعتقل ديكلو صودرت منه أوراقه الخاصة ونشرت باعتبارها « وثائق من المؤامرة » . د.م.م.

وساجيكم : لأنهم كانوا مرغمين على ذلـك . لنفترض ان لجنة احتفالات أعلنت عن موكب قبل زمن طويل من موعده : انها ولا شك ستجد مشقة وحرجاً في الاعلان عن إلغائه حتى ولو قـد الطقس . والحال ان المظاهرة ضد ريدوي قد جرى الاعلان عنها من شهور طويلة : وعلى وجه التحديد منذ يوم المظاهرة ضد ايزنهاور . فيوم احتج الحزب على هذا الجنرال ، تعهد ضمنياً بأن يحتج على جميع خلفائه . إن حزباً جماهيرياً لا يستطيع ان يكتفي باستشارة الرأي العام : بل عليه ان يعمق ميوله المترددة وان يوضحها وان يبرزها للنور . وعليه أخيراً ان يعكسها للجمهور : وهل هناك من جهاز إرنان خير من الجماهير نفسها ؟ انـه سيجرها الى ان تكوّن بنفسها تصوراً موضوعياً عن ارادانها ، والى ان تضعها جميعها في اعمال تتجاوزها وتسوقها الى أبعد أبضاً . وإذا كان السكان الباريسيون ضد الحلف الاطلسي ، فلا بد ان يعوا هذا العداء : والحال ان عملاً عنيفاً فيه مخاطرة هو وحده الذي يستطيع ان يجعلهم يعونه . الباريسيون ليسوا عـلى قدر كبير من الحماسة في هذه الآونـة ؟ اذن فهذا سبب إضافي لتقرير المظاهرة الشعبية . إن صلة حزب من الاحزاب بالجماهير ، شأنها شأن كل علاقة واقعية ، صلة ملتبسة : فهو من جهة أولى يقتدي بها ويقتفي أثرها ، ومن جهة ثانيـة « ينظمها » ويحاول « تربيتها » . ولما لم يكن المطلوب تغييرها بل مساعدتها على ان تصبح ما هي عليه ، فإنه يكون تعبيرها ومثالها في آن واحـد . وحـين يتوجه اليها في بياناته ، يستخدم تارة صيغة الأمر ، وطوراً صيغة المستقبل ، وطوراً آخر صيغة الحاضر ليشير الى الواقع نفسه ، الى الحركة التي هي واقعـة وقيمة معاً : « سيتذكر الشغيلة الفرنسيون ... الجماهير الكادحة لن تخدع بهذه المناورة المفضوحة ... ايها العمال ، طالبوا بتحرير ، الخ . إن ما يمثله لأنظارها انما هي مطامحها ، ميولها ، اراداتها ، لكن بعـد ان يكون قد حمّاها ، أي رفعها الى أعـلى مستوى من الفاعلية . وتارة تتبعه وطوراً تجره ، لكن من الممكن أيضاً ان تظل في المؤخرة . لكن لا اهمية لهذا : فهو اذا كان واثقاً من انه يتكلم باسمها ، واذا كان يرى ان حادثاً عرضياً ما هو وحده الذي يمنعها من

ان تلبعه ، فإنه ينفذ السير الى الأمام : انه يعمل من أجلها وإسمها . ان الجماهير عمل وهوى معاً : صحيح انها ستغير العالم في النهاية ، لكن العـــالم يسحقها في الوقت الراهن . ان اندفاعها يمكن ان يكون غير قابل للمقاومة أحياناً ، لكن البرد والجوع والقمع البوليسي قد يتمكن منها لبعض الوقت : اما الحزب فهو عمل محض . عليه ان يتقدم أو يختفي . انه قوة العمال الذين اشرفوا على الإنهاك وأمل الذين استولى عليهم اليأس . ولقد كان التراجع عن مظاهرة ٢٨ أيار يعني « خطوة الى وراء » : ما كان يستطيع ان يأخذ بعين الاعتبار تعب العمال بدون ان يجازف بزيادته ويدفعهم الى الاستسلام. ولعل المكتب السياسي فهم من تلك اللحظة ان عليه ان يغـــير تكتيكه : لكن هـــذا لم يكن ممكناً ، في جميع الاحوال ، إلا بعد المظاهرة . إن الجماهير لن تعرف تعبها : بـل هي ستتظاهر عـــن طريق اشخاص وسطاء . وسوف تتم تغطية تخاذلها بعنف المشاجرات ، وسوف يظهر لها عملها كما كان يجب ان يكون . وسوف يُعهد الى فرق متخصصة بأن تنفذ امامها حركات العنف ، ولسوف ترى هي عنفها الذاتي حياً ومنفصلاً عنها ، ولسوف تشهد من ضواحيها قتال المتظاهرين ضد الشرطة كرمز سهـــل لصراع الطبقات .

والخلاصة : ماذا كان يريـــد الحزب حين أرسل مناضليه ليحاصروا ساحة الجمهوريـــة ؟ الاستيلاء على السلطة ؟ اختطاف ريدوي ؟ إسقاط الوزارة ؟ لا شيء من هذا كله : كان يريد ان يسجل موقفاً ليس إلا . وبمَ كان يجازف ؟ إذا جرت الأمور كما هو معتاد ، فسوف تعلق الصحافة البورجوازية على الأحداث دونما حماسة وسوف يعود كل شيء الى نظامه السابق .

ان السيد بيناي[1] لا يفهم المسألة على هذا النحو . أهو يؤمن إذن بالمؤامرة ؟ أتتصوررون ! كل ما هنالك أنه يحذو حذو أولئك الوزراء الكبار الذين أقلقوا الأمة بلا مبرر حتى يحيطوا أنفسهم بلا مشقة بهـــالة المجد نظراً الى أنهم أعادوا

---

١ ـ انطوان بيناي : رئيس الوزارة الفرنسية عام ١٩٥٢ . م.م.

الطمأنينة إليها . فحتى تزوج الحكومــــة لـ « القرض[1] » ، تلجــأ الى وسيلة كلاسيكية : انها تحرف لصالحها دعاية المنافس . أنظروا كيف تؤجج المناقشة وكيف ترد بمعجرفة على المجادلات بثمنها مسرحية فايان بلا مبرر . وهذا الجو من المنف قـــد خلقه أشخاص غامضون راحوا يتبادلون مع الممثلين الضربات على الطريقة الأميركية . وسرعان ما يدور الهمس بأن الوزير قـــد استلم لضغط السفارة الأميركية : أسلوب اعلاني ممتــاز . فزبائن « القرض » القادمون يحبون ان يجدوا اصبع الله في كل شيء وحتى في التفاصيل : إذا كانت الولايات المتحدة قد تنازلت ، في مثل هذه الظروف التافهة ، لتحمينا من تساعنا الجرم ، فماذا ستفعل إذن في الظروف الجلية ؟ وكان الانفعال قد أخذ يسكن روعه حـــين جاءت زيارة ريدوي لتقدم موضوع الحملة الاعلانية الثانيـــة . وقد بدئت هذه الحملة باعتقال أندريه ستيل . والمكر في الموضوع هو ان اعتقاله كان اعتباطياً بصورة لا تدع مجالاً للشك : ان البورجوازية الفرنسية الكبيرة تمقت الجمهوريـة وترتاب في الفاشية ، لكنها مولعة بالتعسف الاعتباطي الذي يبدو لها ارستقراطياً والذي يقدم لها في آن واحد صورة الفوضى التي تتمتع بهـــا وصورة الهيبة التي تحلم في ان تكون لها في نظر الآخرين . إنها ترفع رأسها وتتساءل بتروّ إن لم تكن قد وضعت يدها على ذلك الطائر النادر : شخص ليبرالي حديدي القبضة . ويأتي يوم المظاهرة . وينظم السيد بايلو والحكومة الرعب : فذاك يؤكد أن الجماهير لن تتحرك ، وهذه تؤكد أنها على طريق مؤامرة تدعونا الى قياس مدى أهميتها بعدد رجال الشرطة المكلفين بقمعها . وهدف المتآمرين ؟ كيف تريدون ان يعرف طالما ان تيقظ الوزارة قـــد أحبط مشاريعهم ؟ ويبتسم الحظ للسيد بيناي . فكل شيء يخدمه ، بما في ذلك الدم المسفوك . فرجال الشرطة قـــد أطلقوا النار ، كما هو معروف ، في الهواء . وقـــد اصطدمت رصاصة في السماء وسقطت من جديد بين الجموع : هـــل ستصيب فرنسياً ؟ كلا : ان اصبع الله ستحولهـــا في اللحظة المناسبة إلى جزائري . وأنتم تعرفون كيف استقل

١ – مشروع اكتتاب مالي طرحته حكومة بيناي . « م.م »

الموضوع : كان هناك إذن عرب قذرون في صفوف الانفصاليين ! ومـــاذا كانوا يفعلون هناك ؟ لو استخدموا في كتائب افريقية لقمع المدغشقريين ، فلا تثريب: إنهم وطنيون ضد وطنيين . لكن لا بـــد ان يكون المرء عدواً لفرنسا حتى يدخل عرباً في منازعات بين فرنسيين . وباختصار ، حين أسدل الماء ستاره ، كانت قوات الأمن قد ربحت الجولة . جولة صغيرة للغاية ، انتصار صغير للغاية: جثـــة واحدة وكاهنان مثخنان بالجراح ، وهـــذا شيء لا يكفي أبداً للترويج لمشروع القرض .

انتهت المظاهرة . وعاد الناس الى بيوتهم ، غاضبين ، متعبين ، خائبي الامل على نحو مبهم . وفي الاحيـــاء العمالية ، كانت الانباء قـــد وصلت سلفاً : قتل آخر . ويرين الصمت ، وتختفي المرارة والحزن تحت قناع المزاج المتعكر . وهذه هي اللحظة التي اختارها السيد بيناي ليعمل على اختطاف زعيم شيوعي من قلب أحد الشوارع . ونحن نعرف الخرافة الورعة التي نشرتها الصحف في اليوم التالي: لقد قبض على ديكلو في الجرم المشهود ، ولقد تردد رجـــال الشرطة في البداية أمام نتائج اعتقاله غير المحسوبة ، ثم قرروا أن يقبضوا عليـــه بدافع الغيرة على الوطن وحب الشرعية المتجرد المنزه . لقد كان من الممكن تصديق هذه الخرافة لو كانت هنـــاك قوانين تتطلب الحماية ، لكن لم يكن هناك وجود لمثل هـــذه القوانين : إنمـــا كان هناك مواطن عائد الى بيته في سيارة ، وكانت الظروف تحرم شرعياً المساس بـــه . يا له من حب غريب للقانون ، حب يعرّضه لأقسى إهانة بحجة ان حرمته قد انتهكت . سيقال لي همساً : أنت لا تفهم : انها حالة اضطرارية ، وقد أرسلت الشرعية في إجازة لأن الجمهورية في خطر . مؤامرة ! أتتصورون كم هو يؤمن بالمؤامرة ، السيد بيناي ! والسيد بليفن والصحافـــة اليمينية ! اطرحوا عليهم السؤال ، اسألوهم عـــن طبيعة المؤامرة ، ألحوا حتى تحصلوا على أدلة او على بعض معلومات على الأقل : انهم سيجيبونكم بتعال ان الحزب الشيوعي مؤامرة دائمة وانه كان من الواجب حله غداة مؤتمر تور . كلا ، ان رائحة المناورة النتنة تجرح الأنف : فقـــد استخدمت الحكومة ، بعكس

ليوتي[١] قوتها حتى تستطيع ان تظهرها . ولمن أظهرتها ؟ رأي الخلق : لزوانتها القادمين .

اذا نظرتم الى عملية بيناي بدون حكم مسبق ، رأيتموها عجيبة : أما انها عمل عنف سيسيء في النهاية الى اللعبة التي يزعم انه ينقذها فهذا ما لا يشك فيه أحد : فالبورجوازية توجه كل دعايتها الى الحركات الشكلية ، واذا ما ندمت هذه الحركات بيديها فمن سيزعم انها تدافع ؟ لكن اذا أمعنا النظر في تفصيل ظروف الاعتقال ، تشوش كل شيء . فلكأننا امام سيناريو كتبه بالتعاون مؤلفان ، أحدهما خبيث والثاني أبله . فإذا كانت الحكومة قد أرادت ان تظهر قوتها ، فلما منعها من اطلاق سراح دبكلو فور فشل «الاضراب» ؟ أكان حقاً من الضروري ان تسمع اوروبا كلها ولين الصفعات التي انهال بها القضاء على ضرورة الوزارة ؟ ولمَ تكذب بصدد ساعة التوقيف ؟ وبصدد جهاز الراديو ؟ ولمَ تلك السذاجات حول الحمام الزاجل ؟ ولمَ اللجوء الى ذلك اللغو الموقر عن المؤامرة البالغ من العمر مئة وعشرة أعوام ؟ ولا يبدو ان الصحافة الليبرالية قد نحت هذه التناقضات : فقد كانت ما تزال تحسب السيد بيناي آنذاك بارسيفال[٢] . لكنكم اذا كنتم لا تتبنون هذا الرأي ، فربما شعرتم بأن قرار الوزراء قد أوحى به اليهم ماكيافيلي ما ، وانهم وجدوا انفسهم في النهاية امام نتائج تتجاوز طاقتهم . أما عن ماكيافيلي فأنا ، بالطبع ، لا أخمن وجوده : ففي هذه العملية البارعة والطائشة جاء الطيش من الوزراء وجاءت البراعة من مصدر آخر . لكن قد لا تكون المسألة سوى مسألة ظروف .

كان السيد بيناي يتابع فكرته ، وكانت فكرته « الترحي » . وبعد بضعة ايام من الحادثة ذكرت احدى الصحف هذه العبارة الصادرة من اعماق القلب :

---

١ - ماريشال فرنسي ، وزير الحربية بين ١٩٢٦ و ١٩٢٧ ، عضو في الأكاديمية الفرنسية (١٨٥٤ - ١٩٣٤) . (ن.م.)

٢ - بطل اوبرا مشهورة لفاغنر . مثال الصبي المستعد للتضحية بكل شيء. (ن.م.)

« لقد انتهت المظاهرة بالقتل والدلائل تبشر بنجاح القرض : ففي اي جانب يقف الفرنسيون الصالحون ؟ » . انــه كلام واضح : ان الفرنسيين الصالحين يكتتبون في القروض ولا يلسكمون في الشوارع : والسيد بينـاي لا ينتظر مكافأته من الشارع ، بل من الدكان والمصارف والجمعية الوطنية. وما كان يمد له العدة بإصرار كبير لم يكن حل الحزب الشيوعي بـل خلخلة صفوف وتجمع الشعب الفرنسي » . واذا كان حاول ضرب المعارضة اليسارية ، فذلك ليكم فم المعارضة اليمينية ، واذا كان أبقى أسيره المسبب للإحراج في السجن ، فهـذا بكل بساطة ليضغط على زملائه : ولقد رأينا ذلك حين فرض الثقة على الجمعية الوطنية لتي لم لسانهـا الرعب : « ان مكاني لكم . لكن الذي سيأخذه ، سيتوجب عليه ان يأخذ معه اسيري » . وفي ذلـك اليوم ، انقذ السيد ديكلو الوزارة .

وباختصار ، لقد اوقعوكم في فخ الخطر الاحمر : وهذه خدعة لا يعود تاريخها الى الأمس بل هي ما تزال محافظة على قيمتها الى اليوم . كل ما هنالك ان السيد بيناي لم يعطها شكلها الكلاسيكي ، بل لقد كانت مرطلة من جانبه ان يلجأ اليها في هذه الظروف على حسب قول الخبراء: فهم يرون ان نجاح هذه الخدعة يقتضي عـادة الا يكون هناك خطر أحمر . خذوا الاميركان : لا شك في أن حسهم الفطري بالدعاية كان كبيراً جداً ومعرفتهم بأهواء القلب البشري عميقة للغاية حتى امكنتهم ان يرفعوا الى مستوى الكذل تلك الطريقة الخشنة بعض الشيء التي جاءتهم من اوروبا. وهل تعتقدون انه كان في وسعهم ان يتخذوا منها أداة دعائية مدهشة ، اداة عداء الشيوعية ، لو كان هنـاك شيوعيون في الولايات المتحدة الاميركية ؟ فلو كنتم تلتقون بمناضلين من الحزب الشيوعي يومياً او حتى شهرياً ، فكيف يمكنكم ان تؤمنوا بأنهم يأكلون الاطفال ؟ لكن اذا لم يسبق لكم قط ان رأيتم مناضلين شيوعيين ، فكيف تستطيعون ان تبرهنوا على انهم لا يأكلون الاطفال ؟ ثم لا ننسى ما يتبع ذلك من التضاد في الجهاز : اذا لم يكن احـد « ستالينيـا » ، يكون كل انسان مشتبهاً في انـه كذلـك . ويؤدي

الـ Average man[1] كلا الدورين : انه واش مع الجميع ، وموشى به عندما يكون بمفرده . والضحايا بالطبع لن يبرهنوا ابداً على براءتهم طالما ان الاتهام لا يعرف ما يأخذه عليهم . والسيد بيناي ، بتطبيقه المبدأ دونما تمييز ، مهدد بأن يتبين على حسابه الخاص بأن هناك شيوعيين في فرنسا .

لكن لا : لقد جرى كل شيء كما لو انه لم يكن هناك شيوعيون . فهل ينبغي ان نؤمن فعلاً بأن ثمة ماكيافيلي ما يسدي النصح إلى الحكومة ؟ ان هذا التفسير مقبول لكنه ليس ضرورياً . فتلك العملية القصيرة المدى قد جاءت في حينها في معركة ناشبة منذ التحرير ، عرفت فيها البورجوازية كيف تأخذ المبادهة وتحافظ عليها . ان الماكيافيلية كامنة في الاشياء : فمهما فعل السيد بيناي ، فإن عمله الذي تدعمه وتخدمه وترعاه وتحوطه مناورات اخرى أخفى عن الانظار واعمق ، لا بد ان يعكس ذكاء مستعاراً . ان الحرب عندما تبلغ لحظة معينة ، وعندما يكون احد الخصمين متفوقاً على الآخر ، فإن كل شيء يخدمه ، وحتى عامل الصدفة يتدخل لصالحه . لقد اوقف السيد بيناي طيش ديكلو في الوقت الذي اصبح توقيفه فيه مناسباً وبارعاً . إن لأحداث ٢٨ أيار معنى موضوعيا قد لا يكون تبدى لأي طرف من الاطراف التي ساهمت في صنعها ، لكنه يعمي العيون بعدما انقضت تلك الأحداث : انه يصبح رمزاً لستراتيجية سأحاول تحديدها في الفصل التالي .

ان توقيف ديكلو ، اذا ما نظرنا اليه من هذه الزاوية ، غير شرعي على وجه التحديد لأنه كان يتحتم ان يكون كذلك . فلو كان شرعياً ، لاحتفظ الحزب بمخرج : كان في وسعه ان يحتج عن طريق صحافته، وبإقامته المهرجانات الخطابية ، ضد النية معلناً في الوقت نفسه رضوخه امام شرعية الفعل الشكلية . لكن الوزير ، باختطافه ديكلو، قد سد جميع المنافذ : انه يوجه تحدياً علنياً الى الشيوعيين ، ويهاجمهم على فشل المظاهرة، وحين يضطرون الى التقهقر يرغمهم على القبول بامتحان قوة في المكان والزمان اللذين اختارهما ، على مرأى ومشهد

---

١ - الرجل المتوسط او العادي . « م . م »

من العالم اجمع . الاحتجاج ؟ مواجهة الحكومة بالدستور ؟ هذا شيء يمكن ان يُفعل وقد فُعل : فقد قدم ديكلو شكوى ضد لاشرعية اعتقاله . وبالطبع اخذت صحفنا موقف السخرية : « اذا كانت قوانيننا موضوعة ضدكم ، فلمَ تحتجون عندما تنتهك ؟ وانتم الذين تخرقونها يومياً ، بأي حق تصرخون عندما يكون تحريفها صادراً عنا ؟ انكم مع الجمهورية او ضدها حسب مصلحتكم الآنية وأنتم لا تعلنون خضوعكم لدساتيرنا إلا لتقيدونا بقوانين أنتم أنفسكم لا تراعونها » . إن هذه الحجة لاغية ، وسوف تتاح لنا الفرصة لنعود فنتكلم عن علاقات الحزب الشيوعي بالديموقراطية . لكن حتى عندما لا يكون له من هدف سوى تدمير هذه الديموقراطية ، يبقى هناك ان البورجوازية هي نفسها التي طرحت شمولية القانون ضد خصوصيات النظام القديم : فلماذا سيحرم الشيوعيون أنفسهم من اتهام الخصم باسم مبادئه بالذات ؟ ستقولون : إذن فأنت تدافع عن مورا[1] ؟ على الاطلاق : فلقد كان مورا بورجوازياً يستمد جميع مصادره من المجتمع البورجوازي ، وكان له من الثقافة وطلاقة اللسان ما يعطي الحريات الشكلية مضموناً حقيقياً ، وكان يخون طبقته لصالح أقلية صغيرة من البورجوازيين . أما الشيوعيون فيتكلمون باسم البروليتاريا التي تسهم في حياة البلد الاقتصادية من غير ان يكون لها نصيبها في الحياة الاجتماعية : فإذا ما حدث للعامل واستفاد بعض الفائدة من القوانين البورجوازية ، إلا أنها ليست قوانينه : ذلك أنها بجانب الذين يستغلونه . بيد ان الحزب ما كان يستطيع ان يقتصر على عمل شرعي : ذلك ان الحكومة بانتهاكها القانون ذهبت تبحث عن الجماهير في ميدانها الخاص الذي هو ميدان اللاشرعية . ولقد تحدت هذه الجماهير إذ وجهت إهانة علنية الى حزبها : « أترون ماذا افعل بزعيمكم : وإذا كان هذا لا يعجبكم ، فلن يتبدل في الأمر شيء » . ينبغي إذن أن ترد الجماهير على هذا التحدي في هذا الميدان بالذات ، ففي حالة هنري مارتان يمكن للحزب أن يجد دائماً الملاحقة

---

١ ـ شارل مورا : كاتب فرنسي معاصر (١٨٦٨ - ١٩٥٢) ، تعاون مع المحتل النازي وحكم بالسجن المؤبد .

لاغياً والحكم الصادر جائراً ، لكنه لا يستطيع ان ينقض حق توقيف ومعاقبة جندي أو بحار ضبط وهو يوزع منشورات : انه سيقتصر إذن على المطالبة ، عن طريق صحافته او المهرجانات الخطابيـــة أو العرائض ، بإعادة النظر في المحاكمة . وعلى العكس ، إذا ما اعتقلت حكومة ذات ميول فاشية ممثل حزب بورجوازي ، فإن هذا الحزب يستطيع اللجوء الى القضاء : ذلك أنه سيرغب في ان يثبت ان القوانين الديموقراطية كافية لحمايتنا من الدكتاتورية . لكن إذا ما مورس العنف على حزب عنف ، فإن الجواب الوحيد هو العنف .

ان الحكومة والهيئات التمثيلية في مجتمعاتنـا تستمد سلطتها من المؤسسات على الاقل بقدر ما تستمدها من ارادة الشعب ، لأن المؤسسات اولاً هي التي تحدد الناخب ، وثانياً وعلى الأخص لأن السلطة يمكن ان تظل شرعية بعد ان تكف عن ان تكون معبرة عن ارادة الغالبية بشرط ان تكون فقط مضمونة من القانون . فبعد انتخابات ١٩٤٧ البلدية ، أمكن لحكومة تبرأت منهـا البلاد نصف تبرؤ ان تحتفظ بالسلطة ، وان تنتظر انحسار الحركة الديغولية وتختلق قانوناً انتخابياً يضمن عودة الغالبية ذاتها الى البرلمان القادم .

ان الحزب الشيوعي يتمتع بهيبة تشبه هيبة حكومة . لكنه لما كان بـلا مؤسسات ، فإن سيادته تأتيه من الجماهير نفسها . تقولون لي انه عميل لموسكو؟ انه لا وجود للديموقراطية داخـل الحركة ؟ هذا محتمل جداً : بيد ان هذا لا يمنع انه سيخسر كل شيء اذا امتنعت الجماهير بغتة عن السير وراءه . فهو يشبه ، مهما تكن قوته ، آنطيوس [1] الذي كان لا تعود اليه قواه إلا عندما يلمس الأرض . ان الملايين الخمسة او الستة من الأصوات التي تنصب على الحزب كل أربع سنوات تكرس اهميته الانتخابية من غير ان تضفي صفة شرعية على عمله الثوري: فالناخبون لا يستهجنون لا المظاهرات ولا الاضرابات السياسية ، لكن ورقتهم الانتخابية لا تسمح بمعرفة ما إذا كانوا يساهمون فيها ، وانما في الشارع يقيس

١ – مارد خرافي ، ابن نبتون والأرض ، خنقه هرقـل بين ذراعيه . لكنه لم يتمكن من ذلك الا بعد ان رفعه عن الارض بعد أن لاحظ ان قواه تعود اليه كلما مسها . «ع . م»

الحزب الشيوعي مقـدار سلطانه ، واتساع التظاهرات الشعبية هو الذي يضفي صفة شرعية على هيبته . وهـــذه التظاهرات هي ، في وجه نظام الانتخاب المجرد والبالغ الحكمة ، بمثابة تفويض بالسلطات ، عام ، مبهم ، خطر ، قـابل للنقض ، لكنه يرجعنا إلى منابع السيادة بالذات . لكن شأن هذه الاستفتاءات الشعبية شأن الخلق الالهي لدى ديكارت : انها قيّمة في ساعتها ، لكن لا بد من تجديدها باستمرار . فحتى لو اضربت فرنسا بأسرها بالأمس ، فـلا شيء يسمح بالتأكيد بأنها ستعاود ذلك في الغد. إذ انه لا وجود لمؤســة لتوسع نطاق نتيجة هذه الاستشارات الشعبية وتمد في أجلها الى مـــا وراء اليوم الذي جرت فيه : وهذا مفهوم طالما ان سيل المتظاهرين يعبر ، بمنفه بالذات ، عن نوع من ارادة تأسيـسية تبطل مفعول القوانين المرعية الاجراء . والبورجوازي لم ينخدع قط بالأمر : ان دسائـسه تستطيع ان تعدل الوزارات لكن الجماهير هي التي تعطي السلطة الحقيقية . وما يخشاه ويقلقه في « العامة » انمـــا هو السيادة الوحشية . لكن طالما ان علاقة الجموع بزعمائها متبدلة باستمرار ، فهو لا يتردد في اخــــذ الشيوعيين على كلامهم وإرغامهم على طرح انفسهم للاستفتاء الشعبي حين تكون الظروف في غير صالحهم . وإذا جاءت النتيجة معاكسة لهم ، تشرت . وعبثاً سيشرحون ان المسألة لا تعدو ان تكون أكثر من انخـــذال مؤقت عارض : فالحزب الانتخـــابي يستطيع ان يبقى على قيد الحياة رغم هزائمه لكن الحزب الثوري لا يتميز عن اندفاعة قواه الثورية . ويرد الوزير على الشيوعيين حجتهم : انهم يحاكمون البورجوازية باسم مبادئها بالذات ، وباسم مبـادئهم هم سيرغمهم على كشف اوراقهم . ان السيد بيناي متأفف من سيادة الشعب الوحشية ، لكن بينه وبين نفسه : فهو يعلم حق العلم ان غالبية البلد ليست وراءه ، لكن الغالبية لا يحق لها سوى ان تلزم الصمت طالما انها غير محددة بقانون انتخابي . بيد انــه يعلم حق العلم ايضاً بالمقابل ان الحزب الثـوري لا يحق له ان يتراجع ويطأطىء الرأس : فهو يختطف السيد دبكلو وينتظر ، فالتحدي لا بد ان يلقى جواباً . والواقع أن المكتب السياسي قد رأى الفخ (ولو لم يره لكانت مقاومات ومماطلات

الاتحاد العام للشغل كفيلة بإنارة الطريق امامه) لكنه سيسير اليه محني الرأس : فأن تترك للمناضل ذكرى هزيمة خير من ان تسترك له ذكرى تهرُّب وتخاذل . وهكذا أعطي أمر الاضراب ، والحكومة على أتم استعداد لمواجهته : اذا مـا تحركت الجماهير سحقتها ، لكن يخيل إليها انها لن تتحرك . وفي ٤ حزيران كما في ٢٨ أيار كان التطابق بين توقعات المكتب السياسي وتوقعات الوزارة تاماً.

وخلاصة القول انه لم يكن هناك شيء منتظر ، ولم يحدث شيء ، وعلى هذا اللاشيء بنى السيد بينناي مجده . ان يوم ٤ حزيران تاريخي من حيث انه يشبه سائر الايام . ولقد قرأنا في صحف اليوم التالي ان الشوارع حافظت على مظهرها المعتاد ، وان المترو كان يسير كالمعتاد . لقد كان ذلك اليوم واحداً من تلك الايام المكرسة للعمل التي تحولها نعمة فريدة من نوعها الى اعياد صاخبة في نظر اصدقاء النظام .

كنت في بلاد الغربة ، وكانت علاقاتي بالشيوعيين طيبة لكن غير مستطابة البتة : كانوا قد كفوا عن اتهامي بأنني أجمل من الانسان حيواناً، لكنهم كانوا ما يزالون يتهمونني بأنني عملت جاسوساً على المقاومة لحساب البوراجوازية الناشئة. وأخيراً فإن مظاهرة ٢٨ أيار لم تبد لي انها جاءت في وقتها ، وكنت اخشى من وقوع مشاجرات جديدة وقتلى بلا جدوى . وكانت هذه وغيرها اسباباً كافية لتجعلني أتلقى نبأ فشل الاضراب بلا مبالاة إن لم اقل بارتياح . والحال ان النبأ كان له علي وقع معاكس : فاحتجاج الصحف المحترمة لم يتمكن من تغطية صمت فرنسا الغريب ، ولقد أحسست بأنني تلقيت نبأ هزيمة صغيرة للانسان . لم أكن أعرف آنذاك ان هناك عدداً كبيراً من الناس ينظرون الى الاشياء مثلي . ولقد كتبت الصحافة البورجوازية فيما بعد اننا كنا خائفين . لمَ لا ، بعد كل شيء ؟ ان الخوف هو احدى الكلمات النادرة التي تستطيع صحفنا ان تفهمها . لكن ممّ الخوف ؟ من النظام البوليسي الذي تــلوح في الأفق نذره ؟ من الهيمنة الاميركية ؟ من مطاردة الساحرات [١] ؟ من الحرب المهددة بالاندلاع ؟ هــذه

---

١ - كناية عن المكارثية .   د . م .

مواضيع باعثة على القلق اراها معقولة جداً . لكن يبدو أنني لم افهـم : فنحن خائنون لأن الطبقة العاملة قد تـبرأت من الحزب الشيوعي . اذا لم يكن الأمر غير هذا فكفانا كم عناء وهماً . ذلك اننا مطمئنون كل الاطمئنان : فالحزب لن يختفي وشيكاً وليس صحيحاً ان الطبقة العـاملة قد اعلنت براءتها منه : ففي ٤ حزيران لم يُعلن عن شيء ولم تكن هناك طبقة عاملة . هذا هو على وجـه التحديد ما اخافنا اذا كنتم تريدون ان تعرفوا ذلك . وانا اكتب هذا المقال لأحاول ان افهم لماذا تصمت فرنسا .

* * *

يبدو انها غير صامتة، وأنها تصيح بازدرائها في وجه السيد بيناي . وخلاصة القول ان الحزب الشيوعي ، على ما يقال ، سينتفض فشل الاضراب « المزعوم »، فنكون قد خفنا بلا داعٍ . ولقد كان يتوجب علي ان أفرح، لكني لم افعل شيئاً سوى انني استبدلت هماً بهم : انه صممي الذي يسبب لي التم الآن . انني ألمح السيد كابوا يبتسم ، ويقول في نفسه : هذا هـو مآل من يتلهى بالدفاع عـن الشيوعيين من خارج مبادئهم. هل يعتقد سارتر انه ينال إعجابهم إذ يئن بصوت عال بصدد هزيمة لا يقرون بهـا ؟ - كلا ، لا اعتقد ذلك . ومن ذا الذي سيبلغ به الجنون حداً يريد معه ان ينـال اعجاب المناضلين ، سواء أكانوا شيوعيين أم غير شيوعيين ؟ وما الداعي الى ان يـسعى الى ذلـك ؟ وأي فائدة سأجني اذا حملت نفسي هذه المشقة ؟ مصافحة مختلسة مع رجل مطارد ؟ ابتسامة شاحبة على شفتي مناضل متسـاهل ؟ ان قلبي لا يخفق لأشياء كهذه . كلا : إن الحزب الجماهيري إما ان يكافحه المرء، وإما ان ينتسب اليه، وإما ان يتفاهم من الخارج مع ممثليه حول أهداف مشتركة . ولا بأس إن كان العمل هو الذي يحدد المواطف : فقد كان المذهب الفردي البورجوازي يرجعها الى تقلبات المزاج ، ولا علينا إذا نحن أحببنـا الإنسـان بكامله أو مقتناه من خلال أعماله . إن هـدف هـذا المقال ، هذا صحيح ، ان اعلن اتفاقي مع الشيوعيين حـول مواضيع محددة

ومحدودة ، انطلاقاً من مبادئي لا من مبادئهم . وسوف أبيّن السبب . ولقد حدث مئة مرة منذ مؤتمر تور ان اعلن افراد أو جماعات « يسارية » اتفاقهم العملي مع الحزب الشيوعي منوهين في الوقت نفسه باختلافاتهم المبدئية . وعندما كانت مساعدتهم تبدو للحزب مرجوة ، كان يقبل بهذا التحالف بالرغم من الاختلافات . ويخيل إلي اليوم ان الموقف قد تبدل ، بالنسبة اليه كما بالنسبة الينا ، بحيث بات واجباً عليه ان يتمنى مثل هذه التحالفات بسبب الاختلافات جزئياً .

اما الواقعة نفسها ، فهل يمكننا ان نقول ان الحزب الشيوعي ينقضها ؟ نعم ولا . انه يقر بأن الاضراب لم ينجح لكن همه الأول على ما يبدو هو ان يبرىء الطبقة العاملة من المسؤولية ، وهو لا يتردد ، في سبيل ذلك ، في ان يأخذ الخطأ كله على عاتقه . تهور ، نقل سيء للأوامر ، فقدان التنسيق ، الشطط في اللهجة . ان ما يلوم عليه نفسه معروف لدينا . والحق ان في هذا نوعاً من التهرب . ان الخصم يفسر أحداث ٤ حزيران بالجوهر : انها طبيعة الحزب الشيوعي الخبيثة التي كان لا بد ان تثير في النهاية اشمئزاز الطبقة العاملة . والحزب الشيوعي يعترف بالوقائع لكنه يفسرها بالعرض . لقد احتفظت الطبقة العاملة بطاقتها النضالية ، وكل ما هنالك ان بعض الافراد اخطأوا ولم يعرفوا كيف يدعونها في الوقت المناسب . واليكم ما قاله السيد ديكلو في الجلسة الأخيرة للجنة المركزية : « لقد كانت الطبقة العاملة العنصر الحاسم في النصر . ولقد كانت في غالبيتها الساحقة مع حزبنا ضد المتآمرين . لكن هذا لا يعني ان هذا الموقف قد تترجم دوماً وفي كل مكان في اضرابات أو تظاهرات أو عرائض . وخطأ الحكومة وعملائها هو بالضبط اعتقادهم بأنه حينا لا يكون هناك اضراب أو تظاهر تكون الطبقة العاملة لامبالية . لقد فهم العمال ان المؤامرة المناهضة للشيوعيين هي تمهيد لهجوم عنيف على شروط وجودهم ، على حقوقهم المكتسبة ، على الحريات الديموقراطية وعلى السلم . ولا مجال للشك في ان عمل الطبقة العاملة كان مدعواً الى تحقيق تطورات جدية للغاية لو لم توجه الحركة الشعبية ، مع

التحرير الذي تم في أول تموز، ضربة أولى صارمة الى المتآمرين[1] ».

إنني متفق مع الحزب الشيوعي حول نقطة واحدة، ألا هي استحالة اعتبار صمت الجماهير قبولاً بالقمع. سيقال لي: « ليكن. لكنك لا تستطيع، للأسباب نفسها، ان تعتبره استهجاناً ». أنا لست متأكداً من ذلك الى هذا الحد: يقيناً، انه لمن الصعب فك لغز إشارة سالبة. لكن من الصعب أيضاً أن نعتقد بأن عنفاً موجهاً ضد زعيم حزب عمالي، على إثر مظاهرة — وإن تكن غير شعبية — يمكن ان يقابل من الجماهير بلا مبالاة. ان العمال يعيشون تحت التهديد الدائم للآفات الثلاث التي تسمى ارتفاع الأسعار والبطالة والقمع. ومهما يكن المستقبل البعيد الأمد الذي يحلمون به أو يعدّون العدة له، فإن مستقبلهم القصير الأمد قاتم دوماً: إنهم يعرفون عداء الطبقات الحاكمة، ويعلمون ان هذه الطبقات مندفعة في «تركيبات» نتائجها شؤم في غالب الأحيان على البروليتاريا، لكنهم يجهلون تفاصيل المناورات فتصيبهم نتائجها في غالب الأحيان من غير ان يكونوا قد أحسوا بأسبابها. وفي هذه العتمة غير المأمونة الجانب التي يسير فيها كل ما يعانونه من تلقاء نفسه الى الأسوأ، تكون التغيرات المباغتة مشؤومة الطابع. هل تتذكرون سنوات الانعطاف تلك التي كنا نتكهن فيها بأن ألمانيا تستعد للحرب، من غير ان نستطيع ان نقيس مدى مجهودات تسلحها؟ هل تتذكرون قلقنا الدائم والمذاق الكئيب لتلك الأيام: كان هتلر يتحرك من حين الى آخر ويلقي خطاباً فنشعر بأن الحرب قد اقتربت أكثر قليلاً أيضاً عن ذي قبل. يقيناً، ليست المقارنة دليلاً وحجة: لكنني حين أريد، أنا البورجوازي المحمي نسبياً من الأزمات، أن أفهم مناخ الضواحي العمالية، ذلك الجو الثقيل وذلك المستقبل المسدود، فإنما ألجأ الى تلك الحقبة من تاريخنا. ان البورجوازيين، باعتقالهم دوكلو، قد بلغوا البروليتاريا أنباءهم، ولقد كانت هذه الأنباء مكدرة. ومما لم ننس حقد العمال المتأصل على الشرطة، ومصاعب حياتهم اليومية، وعدم استقرار ميزانياتهم وجراحاتهم القديمة الباقية أبداً ندوباً،

1 — « النقد الجديد » — العدد ٣٩ — ايلول، تشرين الأول ١٩٥٩ — ص ٣٨.

فكيف يمكننا ان ننفي أنهم لم يروا في الإجراء القضائي الذي اتخذ ضد الحزب الشيوعي نذير اضطهادات جديدة ؟

والآن هل ينبغي ان نشبه ذلك القلق الأصم بحركة ؟ وذلك المزيج من التشاؤم والحقد ، هل يمكن ان يعتبر عملاً ؟ لا أظن ذلك . ان السيد ديكلو يرى ان الحكومة أخطأت إذ أساءت تقدير مقاومة الجماهير . وأنا أتابعه على افتراضه هذا . لكن إذا لم يكن السيد بيناي قد عرف كيف يرى غضبها ، فعلى من إذن أمكن لهذه المقاومة الباطلة والخرساء ان تؤثر ؟ وكيف السبيل الى اعتبار إطلاقات السراح التي تمت في الأول من تموز انتصاراً شعبياً ؟ لو كنت شيوعياً لحفظت الجميل لمونتسكيو أكثر منه للبروليتاريا : ذلك ان إجراء الوزير القمعي قد عرقله ليضعة أشهر مبدأ فصل السلطات البورجوازي . ان قضاء موسوس الضمير وفخوراً بمزاياه قد رفض بكل بساطة التخلي للسلطة التنفيذية عن الاستقلال الذي هو مبرر وجوده وعن الحصة التي ترجع إليه من السيادة . يقال ان الحركة الشعبية قد تمكنت من إحياء ضمير القضاة ؟ لكن من أين جاء هذا الافتراض ؟ وطالما أنها لم تعبر عن نفسها « لا في اضرابات ولا في تظاهرات ولا في عرائض » ، فكيف أمكن لأولئك القضاة البورجوازيين ان يتعرفوها ؟ الواقع ان فرنسا لزمت السكون والسكوت ، وإنما في جو يخيم عليه صمت كبير اتخذ القضاء قراره . وذنب الحكومة في رأيي ليس في كونها أساءت تقدير الاستنكار الشعبي ، بل في كونها لم تتوقع قراراً متوقعاً كهذا : فالقضاء لم يخضع لأوامر أحد منذ الجمهورية الثالثة[1] . فما الداعي لأن يقبل بسادة له ، ولا سيما إذا كان هؤلاء السادة يدعون بإيلو وبيناي ؟

اذن فمن غير الصحيح ان الجماهير قد ضغطت على الوزراء ، لا انه من غير الصحيح انها وقفت موقف اللامبالاة . والواقع انها استنكرت لكنها لم تسجل استنكارها . وهذا ما يبدو باعثاً على الشبهة : لماذا لم يصح استياؤها الواقعي جداً الى التعبير عن نفسه ؟

---

١ - كتب هذا المقال عام ١٩٥٢ .

، ولأن كراهيتها كانت جارفة ، ولأنها كانت تدين السياسة الشيوعية ولأن الفرصة أتيحت لها لتظهر ذلك ». عن طريق هذا القلب البارع حوّلت الصحافة البورجوازية غياب رد الفعل الى رغبة في عـدم الرد. لنقبل بذلك : لكن عم تتكلم هذه الصحافة ؟ أعن ٢٨ أيار أم عن ٤ حزيران ؟ يقال لي انـــه لا فرق بينهما ، وان الفشل الثاني ليس إلا توكيداً وتفاقمـــاً للأول . واذ لست مقتنعاً بذلك البتة : فاليومان في نظري يختلفان اختلافاً عميقاً .

وبكلمة واحدة اقول ان تظاهرة ٢٨ أيار لا يهمني أمرهـا : انها لا تخرج ، سواء أنجحت أم فشلت ، عن الروتين و « المسائل الجارية » . كما ان لهـــا على الأخص طابعاً سياسياً . لقد درس القـادة الشيوعيون الموقف الدولي ، وقيّموا القوى الموجودة ، وارتأوا بأن عمليـة محدودة النطاق يمكن ان تساهم ، ولو في أبسط الحدود ، في تعديل ميزان هـذه القوى . وما فعلوه هم ، يستطيع غيرهم ان يريد فعله لحسابه الخاص : إن كل انسان يستطيع ان يقيّم سياسياً عملاً سياسياً مـا . واذا لم يكن في وسعي ان اعتقد – سأشرح السبب فيما بعد – بأن الطبقة العاملة قد تظاهرت ضد المظاهرة ، إلا انني اقبـل عن طواعية – لمَ لا ؟ – بأن عدداً لا بأس به من العمال قـد استنكف عن المشاركة فيها بنوع من احتداد هو بمثابة استهجان : « ما الفائدة منها ؟ اننا لن نحصل على شيء بهـــذه الطريقة ، الخ ». بل من الممكن ان يكون قد وجد بعض افراد أرادوا ان يظهروا بغيابهم انهم يدينون سياسة الحظوة والنفوذ تلك . امـــا بالنسبة الى الغالبية ، فإن الموضوع أبسط بكثير : والمناضلون يعلمون حق العلم ان المظاهرات ضد الحرب تكون سيئة المردود في غالب الأحيان . ان فشل اليوم الأحمر ، في حزيران ١٩٢٩ ، يشبه من عدة نواحٍ – سطحياً على الأقل – يوم ٢٨ أيار : النداء نفسه للجماهير « أظهروا انكم مصممون على منع الحملة المعادية للشيوعيين » ، والغياب نفسه « الملحوظ جداً » من قبل الطبقة العاملة ، مع فرق واحد : توريز هو الذي اعتقل آنذاك . ان الحزب يعرف المشكلة تمام المعرفة : انه يعلم حق العلم انه لا بد في كل حالة من الحـالات من دعم المواقف السياسية بمطاليب اقتصادية ، وهو

يتمنى ان يكون قادراً على تحليل الوضع المحلي واستخلاص اسبابه العامة وإظهار روابط المصلحة المباشرة مع المصالح الطبقية . لكننا سنرى ان هذا ليس سهلاً دوماً : إذ يحدث ان تكون احدى حلقات السلسلة مفقودة او أن يقترف القادة اخطاء : وفي مثل هذه الحال يلف العمل السياسي وحيداً بلا حماية ، ولا ينجح دوماً في جر الجماهير . وهــذا الطبع لا يرجع الى ان العمال يعتبرون العمل السياسي خارجاً عن دائرتهم او الى انهم يحرمون على انفسهم استخدام اسلحتهم المادية في فضح الاستعمار او الامبريالية : انما يرجع بكل بساطة الى ان الهدف يصور لهم تحت شكل مجرد وبعيد اكثر مما ينبغي . انهم يناضلون من كل اقدامهم اذا ما بُين لهم ، على سبيل المثال ، انهم بدفاعهم عن اجورهم يحرجون موقف سياسة إعادة التسلح ، وبالتالي وبصورة غير مباشرة ، الحلف الأطلسي . آلأنهم يدافعون عن مصالحهم الخــاصة ؟ كلا : بل لأن سيطرتهم على الأحداث تظل مباشرة ، لأنهم يرون النتائـــج التفصيلية للعمل ، لأن كل « تربيتهم السياسية » تستند الى فكرة ان الاحداث العالمية تتبدى ، على مستوى الامم والمدن ، تحت مظهر تبدلات محلية وعينية يستطيع عمل محلي وعيني ان يعدل مجراها .

بيد أن اضراب « حزيران » ، على كل الاحوال ، لم يكن سياسياً . ام ينبغي ان نسمي تلك الغضبة التي حركت العمال الايطاليين حــين علموا بأن مجهولاً اطلق النار على توليائي ، بأنهــا سياسية ؟ لقد استبقوا أوامر الاضراب ، وزحفوا على المصانع ، واحتلوهــا ، وحبسوا ارباب العمل في مكاتبهم : كان الجميع متفقين : الشيوعيين واللاشيوعيين واعداء الشيوعيين ، وكان مداً هائجاً عاصفاً . وطوال يومين خيل للحكومة انها فقدت السيطرة على الموقف . وما كانت أهداف هذه المظاهرة – أسياسية كانت ام لم تكن ؟ الاحتجاج ؟ ضد من ؟ ضد مجنون ؟ ذلك انه ما كان أحد ليعتقد – آنذاك – إن الحكومة او احزاب اليمين غبية الى حد تقدم معه على اغتيال زعيم شيوعي في وقت كان فيه الحزب الشيوعي يسيطر على ثلث ونيف من البلاد . أما « ضغط » الجماهير ، فإلى من كان يمكن ان يوجه اللهم إلا الى الإله الأب ؟ بيد ان الحدث كان له صدى كبير : فقد اكدت الطبقة ذاتها

حليا ، وباندفاع مهووس ، تجاه الأمة ، تجاه أوروبا . فقبل محاولة الاغتيال كانت الظواهر تدل على أنــه ليس هنـاك سوى تجمعات مبعثرة تتجاذب أو تتنابذ ، تتحاذى أو تتداخـل ، من أسر وروابط ومؤسـسات وأبرشيات الخ . وبعدها عن الفور تطايرت الحواجز وظهرت البروليتاريا . وهــذه الانتفاضة المنيفة ، لا شيء آخر ، هي ما كان ينتظره الشيوعيون من العامل الفرنسي . لم يكن المطلوب كما في السابق بلوغ أهداف بعيدة إن قليلاً وإن كثيراً وبطرق ملتوية إن قليلاً وان كثيراً : إنما كان الهجوم موجهاً الى الطبقة العاملة في واقعها اليومي المباشر وعلى حقوقها الأساسية ، وعلى مرأى منها تم اعتقال القادة الذين اختارتهم لنفسها ، فطلب منها المكتب السياسي - بلا أمل ، قلت ذلك - ردة فعل مباشراً وحاسماً . لم يطلب منها أحد ان تحطم زجاج مبنى رئاسة الوزراء ولا ان تضرم النار في قصر الاليزه : إنما كان جل المنى ان تظهر نفسها لا أكثر . ولم تظهر نفسها .

يجيب عدو الشيوعية : « هذا يثبت أنها تريد أن تهز نير الحزب الشيوعي . تقولون إن هذه التظاهرات رسامات همجية وانـه في الشارع تجدد البروليتاريا ثقتها في زعمائها . النتيجة واضحة إذن : حــين تكون الشوارع مقفرة ، فهذا معناه ان البيعة قد سقطت عن الزعماء » .

لا داعي الى مثل هذه السرعة في الاستنتاج . منذ عـام ١٩٥١ بدرت عن الجماهير علامات الانهاك والنصحة ، ومع ذلك صوّت ٥ ملايين ناخب للشيوعيين . وقد جرت بعد ٤ حزيران انتخابات فرعية لم تدل على تراجع يذكر عـن نسبة تعاطف نسبي . وغداة الاضراب المحبط حققت « القوة العمالية » في مصانع رينو نجاحاً طبلت له وزمرت الصحف المحترمة . وهذا الكسب الذي لا مجال للنقاش فيه يشهد على الأقل على تعكر المزاج العمالي ، لكن مـا لم يشر إليـه اليمين إلا نادراً ، وما يبدو لي أبلغ دلالة ، هو ان الاتحاد العام للشغل كان ما يزال يحتفظ بـ ٦٠٪ من الأصوات بعــد خمسة عشر يوماً او أقل من فشله . إذن هنـاك في مصانع رينو غالبية من العمال مـا تزال تمحضه ثقتها مع احتفاظها لنفسها بحق

عصيان أوامره . كان في البلاد أربعة أو خمسة ملايين ناخب يصوتون للنواب الشيوعيين من غير ان يحركوا اصبعاً للدفاع عنهم حين تنتهك حرمة حصانتهم النيابية . صحيح ان الحزب الشيوعي في سبيله الى خسران ذلك النوع من السيادة الذي يولد من العمل ، وهذه الملاحظات تبدو وكأنها تشير ، للوهلة الأولى ، الى أزمة تعاني منها سلطته الثورية. لكنه أيضاً حزب كلاسيكي وبرلماني . وطالما أنه يسيطر عملياً على الاتحاد العام للشغل فهو منظمة نقابية : انه يحافظ ، تحت هذين المظهرين ، على حظوته ونفوذه ، و ٦٠ الى ٧٠٪ من العمال يقبلون بأن يدافع عن مصالحهم المادية ، و ٢٥ إلى ٣٠٪ من الناخبين يقبلون بأن يمثلهم في الجمعية الوطنية . وبعد هذا تأتون تقولوا لي ان الطبقة العاملة تتبرأ من ديكلو : بودي ذلك . لكن يبدو لي واضحاً أنها لا تستطيع ان تتبرأ منه من غير ان تتبرأ من نفسها . على رسلكم ، انني أقبل بكل ما تريدون : ان العمال قد سئموا الوصاية الشيوعية وبيروقراطية الحزب وخنوعه لموسكو . وهم يأخذون عليه ألف مأخذ ويملون استنكارهم يومياً للاتحاد العام للشغل . ثم ماذا ؟ ليس المطلوب منهم ان يقدموا برهاناً تاماً على حبهم للمكتب السياسي ، بل ان يردوا على تحد وعلى إهانة وعلى تهديد . إن الحكومة ، بالأمس ، باعتقالها ديكلو ، قد ألغت نتيجة قلم انتخابهم . وهي اليوم ، باعتقالها لولياب ، تمزق بطاقاتهم الانتخابية . التبرؤ من ديكلو في مثل هذا الوقت ؟ وإذا ما فعلوا ذلك فلماذا لا يتوجهون ايضاً بالشكر الى السيد بيناي الطيب الذي خلصهم من طاغية ؟ أم تعتقدون صادقين ان بروليتاريا تاريخها مئة وخمسون سنة من النضال ، وتعي تقاليدها وعظمتها ، ستأتي لتعلن أمامنا والابتسامة تلمع على شفتيها : « انني لست راضية كثيراً على القادة الذين اخترتهم لنفسي ، ولهذا لست أرى في اعتقالهم سوءاً ، ومع احتفاظي بثقتي فيهم حول بعض النقاط لا أرفض أن تنتهك حرمة القانون بعض الشيء ، إذا كان هذا ضرورياً ، لتخليصي منهم » ؟ وان يحسب معلقو الفيغارو الطبقة العاملة عذراء مجنونة ، فهذا شيء طبيعي ونظامي . لكنكم ، أنتم الماركسيين « المناوئين للستالينية » ، أنتم الذين تعتمدون

على سداد بصيرتها لتخلصوها من قادتها الحاليين ، كيف يمكنكم ان تقبلوا بأن تكون قد فتحت الباب بكل اطمئنان للقمع البوليسي ؟ لقد قلتم ورددتم ذلك بعد ماركس ، وبعـــد لينين : البورجوازية فرضت على نفسها قوانين تحققها ، ومصلحة البروليتاريا هي ان ترغمها على احترامها . كنت تقولون : علينا ان نثور عـلى كل مظاهر سوء استعمال السلطة . فهل ستخيفون اليوم ، إلا عندما يكون الستالينيون هم الذين يدفعون الثمـن ؟ أعرف : أنكم تستطيعون ان تسمحوا لأنفسكم بكل شيء لأن مواقفكم لا تؤثر على الجماهير . وقد عقدتم مع الوقائع معاهدة عـدم تدخل : فهي تحدث من غير ان تزعجكم ، ومن غير أن تزعجكم ، ومن غير ان تؤكد صحة نظرياتكم او بطلانها . وبالمقابل تعهدتم بعـدم التدخل البتة لتعديل مسارها . لكن ردود فعل « القوة العمالية » و « الاتحـاد الفرنسي للعمال المسيحيين » تبدو أكثر مدعاة للقلق . فالمنظمات النقابية ، سواء أكانت اصلاحيه أم ثورية ، مستقلة أم موجهة ، تشترك جميعها في كونها قـد تطورت في إطار الديمقراطية البورجوازية وفي كونها تستخدم جميع الأسلحة التي تمنحها اياهـــا الشرعية . وإذا مـــا انتهكت الحكومة القانون او بدلته ، انعكسـت نتائج ذلك عليها جميعاً : فحق تنق الطبقة العاملة في قوتهـا ، ينبغي ان تراها في وضح النهار . واذا حدثت اضرابات ١٩٣٦ على سبيل المثـــال في رواق مرايا . تصوروا عودة مباغتة للعمل السري . ان عمل الانصار في مثل هذه الحال هو الذي سيظل ممكناً ، لا عمل الجماهير : وبذلك تكون قـد فقئت عينا شمشون . تقولون ان الأمور لم تصل بنا الى هـذا الحد بعد ؟ هذا حتماً صحيح . لكن لم تمض فترة طويلة بعد على خروجنا من السرية ، ولدينـا جميعنا ذكريات يفترض فيها أنها تجعلنا حساسين بموضوع الاعتقالات التعسفية . ستقولون لي : « بلى ! لكنك تتكلم عن ذلك على هواك : قـــد تكون شتمت وافتري عليك لكنك لم تضطهد . أما مناضل « القوة العمالية » فهو واقع ضحية اضطهاد منظم متواصل : فهو يُشتم ، ويُحجر عليه ، ويخرب عليه عمله ، ومن حـين الى آخر يهاجم ويضرب. وحين يحدثه أحدهم عن الشيوعيين ، فهل تعتقد أنه يفكر

بالنزعة الانفصالية ، بالمعسكرات ، بالبيروقراطية ، بالتيتوية ؟ هبا دعك من هذا ! فهو إنما يفكر : « لكم أذاقوني ، أولئك الأنذال ! انتظروا قليلاً حتى يتغير الوضع وسوف أذيقهم بدوري من مثل ما أذاقوني » . وعلى كل ، ما كان أسهل الأمر لو لم يكن على الحزب الشيوعي إلا أن يطلب الهدنة حتى يسرع ضحاياه جميعاً الى نجدته » .

هذا صحيح : إن انقسامات الطبقة العاملة قد جعلت الحياة مستحيلة ولا بد بالنسبة الى الكثيرين من العمال . أما عن الاحقاد فهي موجودة : هذه حقيقة واقعة . لكن ما كان المطلوب منهم؟ ان يتناسوها ؟ ان يعيدوا الوحدة النقابية؟ ان يمدوا ايديهم الى الحزب الشيوعي ؟ بالمرة : انما كان المطلوب منهم أن يشتركوا في اضراب محدود المدة ورمزي المفعول للدفاع عن الطبقة العاملة وعن منظماتهم بالذات . وكان من السهل عليهم ان يبدوا تحفظاتهم وان يعلنوا على سبيل المثال: « نحن لم ننس خلافاتنا لكننا نضعها جانباً ولو لمرة واحدة . ومهما تكن عميقة فلن نسمح ابداً بأن تتعدى اطار الطبقة ، ونحن نرفض مرة واحدة ونهائية المساعدة اللطيفة التي ابدتها الحكومة وأرباب العمل مهما كان الشكل الذي جاءت به : وحتى اذا بدا تدخلهم في البداية وكأنه يعلي من شأننا على حساب خصمنا ، فنحن نعرف ان نتيجته ستكون في النهاية وبالاً علينا جميعاً . إن اي انسان يمارس عنفاً ضد اي ممثل كان للعمال ، انما يمارسه ضدنا جميعاً ، وسترتفع وحدة البروليتاريا في وجهه » .

ولم يحدث شيء من هذا . فلو كانت الحركة « عفوية » وجارفة ، لشارك فيها قادة « القوة العمالية » بلا ريب حتى لا تضيع عليهم ثمارها . لكنهم تمنوا ، لتوقعهم فشل الاضراب ، ان يكون تجربة حاسمة بالنسبة الى الجماهير وان تكشف لها بصورة ساطعة عن عدم اتفاقها مع الحزب . فهل كان هذا حساباً سليماً ؟ لقد وقع الفشل ، فمن استفاد منه ؟ بورجوازيونا ووزراؤهم .

ان احد المحررين « الملهمين » في مجلة « أدلة » يتهمني بأنني أثير مشاكل كثيرة بسبب مسألة تافهة : فهذه الأحداث من التاريخ القديم وأنا الوحيد في قرننا الذي

ما يزال يتذكرها . انني اجيب بأننا على الأقل اثنـان ما يزالان يهتمان بالقضية : إن ما يعيدها الى ذاكرتي باستمرار هو ان السيد بيناي يبرهن يومياً على انه لم ينسها . فلو كان الاضراب نجح ، لأوقفه للحال : كانت وزارته انتهت وما كان لولياب سيدخل السجن (لن أذهب الى حد القول انه كان سيحدث العكس) . أما وقد فشل ، فقد علمه ، الى أي حد يستطيع ان يذهب الى أبعد مما ينبغي». ولهذا السبب وحده ، وهو سبب واضح ، اقول ان اضراب ٤ حزيران مـا كان يخدم المصالح الشيوعية فحسب بل مصالح البروليتاريا والأمة بأسرها . من أين خطر لكم ان البروليتاريا قد وجهت لوماً الى قادتهـا الشيوعيين ؟ وحين تتواطأ نقابة عمالية ضمنياً مع العدو الطبقي لإقصاء نقابة مزاحمة لها ، فإنني اقول ان البروليتاريا تكون قد غادرت المسرح .

– اذن فمن الذي رفض القيـام بالاضراب ؟ – حسناً ، انهم افراد وإن كان عددهم كبيراً جداً ، ولنقل اذا شئتم غالبية العمال العظمى – أليس هذا ما يسمى بالبروليتاريا ؟ – كلا : ليس هـذا . لقد نشرت الصحافة اللاشيوعية ، بعـد الاضراب ، شهادات عن الحالة المعنوية التي كانت وراء الفشل ، فلماذا لا نرجع اليها ؟ أنا اعتقدها صحيحة – جزئياً على الأقل – لأنه امكنني اولاً ان اتحقق من صحة بعضها ، ولأن الوقائع المروية ثانياً تظل متماثلة تقريباً عبر تباين الآراء ، وثالثاً وأخيراً لأنها تعاكس مصالح الذين يروونها ولأنها تظهر عكس ما يراد لها ان تثبته . إنه ما من سبب من هذه الأسباب يقنع وحده ، لكن اذا ما اخذناها جميعها معاً ، فإننا لا نستطيع أن ننكر ان لها اهميتها . ان هـذه الشهادات تسترعي الانتباه اولاً بما فيها من نقص. واذا بحثتم فيها عن رفض قاطع لدوافعه السياسية ، فسوف يخيب املكم . ان اول سكير يأتي الى الحانة ، في الاحيـاء البورجوازية الصغيرة ، يحسب نفسه الهيئة الناخبة ، الأمة . ويتخذ موقفاً ضد الحلف الأطلسي او معه ، ويشرح ما يتوجب على حكومة « جديرة بهذا الاسم» أن تفعله في تونس : ان احكامه ذا قوة القانون» وهو يتكلم باسم الجميع ويطالب الجميع بالمصادقة على رأيه . لكنكم لن تجدوا ، في الموضوع الذي ندرسه هنـا ،

شيئاً مشابهاً لهذه الثقة الخبيثة التي يشعر بها الناخب القوي بحقوقه : فالعامل يقتصر على رفض المشاركة الشخصية ، وهو لا يصدر حكماً ، كما انه بعيد عن ان يريد ، شأن كانت وسكيري الجمهورية الرابعة ، « إنزال مبدأ عمله منزلة القانون الشمولي » ، بل هو يبذل جهده على العكس ليحتفظ له بطابع خاص. وبالطبع، اذا ما لامه رفاقه وعاملوه كما لو انه «اصفر[1]» ، وباختصار اذا كانوا هم السباقين الى محاولة وضعه من جديد في الظروف التاريخية ، فسوف يدافع عن نفسه في الميدان الذي اختاروه ، وسوف يحاول ان يثبت لهم انه على صواب سياسياً وانه كان عليهم ان يتصرفوا كما تصرّف . لكن على العكس ، اذا ما تردد أترابه واذا ما شعر بأن قراره يمكن ان يوجد حركة استنكاف عامة ، فإن الخوف يستولي عليه ، ويروح يؤكد ان ثمة مواقف اخرى ممكنة ، وان موقفه لا يلزم احداً غيره : انه انما يلح بخاصة على المظهر المتفرد لحالته . ترى أهو رافض في صميمه؟ انه سيقول بالأحرى ، على ما يبدو ، انه لا يستطيع ان يطيع : « انت (الذي لا يواجه اعباء عائلية كأعبائي او الواثق من احتفاظه بعمله ، الخ) انت حر في ان تفعل ما يحلو لك . أما انا فوضعي مختلف ... » . ان يقرر ألا يقوم بالاضراب ؟ ألاّ يتأرجح بين هذين الموقفين . انه لا يعلم اذا كان يرغب حقاً في ان يُحتذى مثاله في فرنسا قاطبة او في ان يمر غيابه من غير ان ينتبه اليه احد . انه يخشى في آن واحد مظاهرة ستقوم بدونه واستنكافاً جماعياً يمكن ان تكون له نتائج خطيرة . اجل ، إن الشعور المسيطر هو الشعور بالعجز . إن الاوامر النقابية تفرض نفسها عادة كواجبات ، والمندوبون يبذلون جهدهم لإقناعه بأنها قابلة للتنفيذ : يجب عليك اذن فأنت تستطيع . اما اليوم فهو يجيبهم: لا يجب علي لأنني ما عدت استطيع . « انتم تعرفون جيداً اننا لن نتوصل الى شيء ، واننا ستفقد أجرنا مقابل لا شيء » . أو « القوة العمالية لن تتحرك : اذن سنكون وحيدين » . أو : « أتثيرون مشاكل ولم يبق على موعد اجازاتنا المدفوعة سوى شهر واحد ؟ ليس في هذا ذكاء » . أو ايضاً : « لا استطيع لأن عندي ثلاثة

---

١ ـ لقب يطلق على العامل المناصر لآراء ارباب العمل . « م . ع »

أطفال ولأن زوجتي قد وقع لها حادث ، ، الخ . فأي هذه الحجج يمس المصالح الطبقية ؟ اننا نلمح من خلال هذه الاجوبة المتشابهة عودة الى تلك النزعة القدرية التي لا تني تهدد المضطهَدين ، والتي تسعى الطبقات السائدة الى تنميتها باستمرار والتي لم يكف الثوريون قط عن محاربتها . ان فتور الهمة هذا يولد من الوحدة والعزلة ويولدهما بدوره : فالطبقة العاملة لم تؤكد ذاتها إلا عندما حطمت الحلقة وتفاؤل المناضلين الشيوعيين القسري بمعض الشيء يعبر عن رغبتهم في انقاذ رأي البروليتاريا ، الأمل . واولئك الذين يقولون انهم لن يسيروا لأن «القوة العمالية» ترفض ان تسير ، كيف يمكنهم ان يعلنوا بوضوح أكبر ان الطبقة العاملة منقسمة على نفسها ؟ ومع ذلك فإن المنظمات غير الشيوعية لا تضم الا خمس العمال المنتمين الى النقابات على اقصى تقدير . وما اهمية نسبة ٢٠٪ من المعارضين في قلب منظمة وحيدة واحدة ؟ انها بدون أهمية تقريباً : المارقون الى سلة المهملات ، والغالبية ستتجاوزهم وتعلن عن نفسها بأنها الإجماع . واذا ما تنظم هؤلاء « النفايات » فيما بينهم ، فإن كل شيء يتبدل عندئذ ، فلا يعود ذلك الاجماع المعجب بنفسه الذي كان يحسب ذاته الطبقة العاملة بكاملها الا نقابة لها الغالبية . وبالأمس أيضاً كان الاجماع يعتبر نفسه معصوماً عن الخطأ وكانت قراراته هي الوحيدة الممكنة . ولم تكن البروليتاريا في كل لحظة سوى ما يمكنها وما يتوجب عليها ان تكونه. « كان هدفها وعملها التاريخي مرسومين لها بصورة نهائية وجلية في ظروف حياتها بالذات » . وكان كل رد فعل من ردود افعالها يعبر عنها بتمامها . اما اليوم فان قرارات « الاتحاد العام للشغل » تظل عارضة : ألم يثبت ان هناك قرارات أخرى ممكنة ، واحياناً خيراً منها ؟ وليست البروليتاريا التي نظمت هذا الاضراب وأمرت به بلسان زعمائها : انما هو طريقة معينة في الرد على تحدي الوزير . وبكلمة واحدة ، ان قرار القادة لم يعد يلزم أحداً غيرهم . يمكنهم ان يكونوا زعماء صالحين لكن هذا بالذات يعني انه يمكن ان يكونوا طالحين : وسوف تميل الجماهير الى اعتبارهم سلاطين مستنيرين يفكرون بالنيابة عنها ، من غير أن يكونوا ارتكبوا خطأ ومن غير ان يكونوا تبدلوا . ومفهوم انني لا

اعرّض هنا ، وفي الوقت الراهن ، بـ « الاستبدادية » و « البيروقراطية » اللتين تؤخذان على الحزب الشيوعي : انما اذكّر فقط بنتائج الانشقاق النقابي مهما يكن هذا الانشقاق . إن الخلافات العمالية تـؤدي الى ظهور نوع من الاستقالة لدى الجماهير التي تجد نفسها منقادة الى الاختيار بين عدة سياسيات ذات طابع احتمالي بدلاً من ان تؤكد ذاتها في رد فعل إجماعي . إن أعضاء « الاتحاد العام للشغل » المنخرطين في عمل يتبرأ منه رفاقهم ، يشعرون وكأنهم يقاتلون وجانبهم مكشوف . وآنذاك لا تكون نتيجة العملية هي وحدها غير المؤكدة ، بل العملية بالذات : فهي لا تعكس ، بعد ان باتت فقيرة ، تخمينية ، محدودة ، غير آراء بعض الاختصاصيين . واذا كان هناك اختصاصيون في « المصلحة العامة » فكيف تدهش اذا مال العامل الى الاهتمام أولاً بـ « مصلحته الخاصة » ؟

ذلك أنه هل بيننا أخيراً من يعتقد بأن مضربي ١٩٢٠ و١٩٣٦ و١٩٤٧ كانوا جميعهم عازبين وبلا أولاد ، وأنهم يتمتعون بتأمين عجائبي ضد البطالة ، وأنهم مزودون بدفتر اشتراك في صندوق الادخار ؟ ام هل هناك ، على العكس ، من يعتقد بأن عامل اليوم قد فقد حظ ذكرى مصالح الطبقة العاملة ؟ هل يبدو له الاستغلال الرأسمالي اكثر عدلاً وانسانية ؟ وهل يقبل بقلب مفتوح بالاستعمار والحروب الامبريالية والقمع البوليسي ؟ وهل سيضحي بزعمائه كيما يقترب من أرباب عمله ؟ قوموا بالتجربة بأنفسكم : اتصلوا بواحد من الذين رفضوا المشاركة في الاضراب ، وكلموه بظاهر من صراحة وعدم كلفة ودسوا خلسة في كلامكم بعض أسهم مسمومة ضد السياسة الشيوعية : من يدري ، فربما كان من رأيكم ، إلا أن هذا لن يمنعه من قطع المحادثة على الفور إذا تعرف العدو الطبقي تحت الابتسامات . وخلاصة القول ان العمال ، اليوم كما في امس الأول ، يعيشون الاهتمامات نفسها والاهداف نفسها والرثاء نفسه . ومع ذلك نجد بينهم من كان يجازف بالموت عام ١٩٤٢ ، ثم لم يعد ، بعد عشرة أعوام ، يجازف حتى بأجره عن يوم واحد . فما الذي تغير ؟ الدوافع ؟ الميول ؟ كلا : انما الذي تغير علاقاتها ونظام التقييم . وما الذي افضى الى هذه التغيرات إن لم يكن مجرى العالم ، اي التاريخ الذي

يصنع كل يوم بيومه ؟ ان المجموع التاريخي يبت في كل لحظة في قدراتنا ويضع حدوداً لحقل عملنا ولمستقبلنا الواقعي . انه يشرط موقفنا ازاء الممكن والمستحيل ، الواقعي والخيالي ، الكينونة ووجوب الكينونة ، الزمان والمكان. وبدءاً من هنا نبتّ بدورنا في علاقاتنا مع الآخرين ، اي في معنى حياتنا وقيمة موتنا : وانما في هذا الاطار تظهر أخيراً « أنانا » ، اي تلك العلاقة العملية والمتقلبة بين هنا وهناك ، وبين الآن ودوماً ، بين الأمس والغد ، بين هذا والكون ، وذلك القرار القابل للرد باستقرار حول الأهمية والنسبية لما يسمى اصطلاحاً بـ « المصلحة الخاصة » و « المصلحة العامة » . وإذا ما أخذنا الحالات القصوى وجدنا ان أعضاء مجتمع من المجتمعات يلتجئون الى الحاضر المباشر او يلقون آمالهم على مستقبل يمتد إلى ما وراء موتهم ، يلتنجون على القليل يملكون او يجازفون بكل شيء من اجل قضية لم يروا انتصارها بأعينهم ، ينظمون مشاريعهم على أساس حاجاتهم او يقررون حاجاتهم تبعاً للمشروع ، وذلك حسبما اذا كان المجتمع المذكور ينفعل بمجرى العالم او يساهم في فعله . والتاريخ هو الذي يظهر الخارج لأولئك ويجعل هؤلاء يتمترون امام أبواب مسدودة . ان العامل ، شأنه اليوم كما في عام ١٨٥٠ ، لا يملك أدوات عمله : اذن فالطبيعة العميقة لمطالباته لم تتبدل . لكن تنظيم المجتمع الرأسمالي لم يكف عن التطور كما لم يكف وضع العامل عن التبدل : فنحن نجده ، حسب الازمان، « يلتصق » بعمله السياسي إن كثيراً وان قليلاً او ينكمش على حياته المهنية ان كثيراً وان قليلاً . وصلاته بالمنظمات الطبقية تترتق او تترلخى ، والاهداف الكبيرة المقترحة عليه – اصلاحات او ثورة ، لا يهم – تبدو له واقعية واحياناً في متناول يده او بعيدة واحياناً خيالية . واذا ما فقد الأمل ، يستطيع اي خطاب ان يعيده اليه : لكن يكفي ان يأخذه العمل حتى يؤمن : فالعمل هو بحد ذاته ثقة . ولِمَ يأخذه؟ لأنه ممكن: انه لا يقرر ان يعمل، بل يعمل، فهو عمل، ذات التاريخ . انه يرى الهدف النهائي ، ويلمسه لمساً : ان المجتمع اللاطبقي سيتحقق في حياته . وما الواقع المباشر إلا المستقبل . وما المصالح الخاصة ، إذا

ما تنظر اليها من المستقبل ، إلا ظلال مجردة . والموت نفسه لا يخيف : انما هو حدث معين شخصي جـداً لا بد ان يقع له وسط ذلك المستقبل الذي يملكه بالمشارك مع الجميع .

ومراراً عدة انتهى العمل بكارثة : وآنذاك تحـول العمال الذين كانوا ذات التاريخ الجماعية الى مواضيع إفرادية له . ويغير العامل جلده ويرى العالم بعين مغايرة : فقد انطفأت بديهيات الأمس ، واضاءت بديهيـات اخرى ، اقرب ويومية وكريهة : النضال طالما انه لن يتغير شيء ؟ اذا كان المرء يأمل في أن يكسب ، وإذا لم يكن لديه شيء يخشى ان يفقـده ، فإنه سيقاتل . لكن اذا بقي لديه شيء يخشى ان يفقده – ولو كان أجراً بائساً – واذا ما تخـلى عن كل أمل في الكسب ، فإنه يلزم جانب الدعة والسكون . وأولئـك الذين كانوا يجازفون بحياتهم حتى من غير ان يفكروا بذلك، يخافون الآن الجماعة ويقولون: « لا نريد ان نفطس جوعاً » . حين كان كوستلر قد اسقطت اللانهاية دعواه ولم يختر بعد ان يكون صفراً [1] ، روى لنـا قصة ذلك الراعي الاسباني الذي كان يحارب من اجل ان يتعلم القراءة : انه لشيء معقول جـداً ان يجازف الانسان بجلده من اجل ان يتثقف ، لكن بشرط ان يكون له حظ في الفوز . وحـين ضاع شيء ، وحـين قرر المنتصرون ان يعمموا الأمية وأن يشيدوا حكمهم على الجهل، اصبح الجوع حليفاً متواطئاً معهم : طالما انه كانت ما تزال هناك فرصة، فقد كان راعينا يأكل اذا أمكنه ذلك ، يأكل ليقاتل . وحتى يقاتل فإنه يقبل بألا يأكل . لكن عندما انتهى كل شيء ، امسى يأكل ليعيش ويعيش ليأكل . بيد ان الحاجات قد تولد ارادة الحاد ، وليس الجـوع دوماً ولا حتى في غالب الاحيان مساعد السلطات : فحتى يخدمها ، لا بد ان يكون هناك ثقب بالوعـة لصافي . ان الجوع سيرتد الى محض انقباضات حشوية اذا ما سد المستقبل بعناية: فالمستقبل يولد من العمل ويرتد عليه ليعطيه معنى ، واذا ما أرجع العامل الى

---

١ – آرثر كوستلر : كاتب مجري معاصر ، بدأ يساريا وانتهى يمينيا ، ولكن كتابه « الصفر واللانهاية » نقطة تحول .

م . ٥ .

الحاضر المباشر وحده كفّ عن ان يفهم تاريخه. لقد كان يفعله، وهو الآن ينظر اليه وكأنه انفعل به دوماً، ولا يرى فيه سوى عصيان وحيد، معاود دوماً ومسحوق دوماً. الاتحـــاد؟ مع من؟ انه محكوم عليه، منذ الهزيمة، بتلك العزلة الغريبة الدوارة التي يرفضها كل انسان ويعاني منها باعتبارها عاقبة عزلة الآخرين: «انا على استعداد للسير، لكن الآخرين لن يسيروا». ولما كان قد ارجع الى جسمه المهترىء، إلى الوعي اليـــومي الكئيب لإنهاكه، فإن الموت يزداد في نظره عبثاً كلما تضاءلت حيـــاته معنى، ويوحي إليه بخوف أكبر كلما ازداد تعباً من الحياة: ولا يعود ثمة شيء يخشاه ارباب العمل - لا تمرد ولا ازمة يد عاملة - طالما ان العامل لم يبق لديه من سبب للحياة سوى الخوف من الموت. واذا اراد ان يحول نظره عن نفسه ويتطلع إلى الخارج، وجد كل شيء معــداً لينعكس له عجزه: انه يجتاز وسط جموع مراقبة شوارع شقت بصورة تقاوم معها العصيان، ومنـــظر المصانع والضواحي المزور يقدم له صورة نظام صارم ولا انساني. وبذلك يكون قد نصب حـــوله ديكور الاستسلام القتم. الحس السليم وحسابات الاحتمالات العاقل، كل شيء يهمس به بأن دعك وخل النضال ضد اعداء معهم السلاح والجيش والمـــال والآلات والعلم. ان مصيره لم يتحسن وكذلك سادته: انما هم الأقوى، هذا كل شيء. وهزيمته لا تخطئه: انمـــا تثبت فقط ان العالم شرير. يقيناً لقد وجدت آمـــال اخرى، حقيقة اخرى: فقد تحولت الأوراق المالية على حين غرة الى اوراق ميتة ورفضت القوات ان تطلق النار على الجموع. لكن هذه الحقـــائق لم تكن حية وعينية إلا من خلال النضال: فالعمـــل هو الذي كشف عنها، وحين يصبح العمل مستحيلاً لا تبقى منهـــا سوى ذكريات مجردة. ان المقهورين يعيشون على بديهية خاصة: الانسان غلطة.

وواضح ان فشل حزيران يتفسر بفتور الهمة: لقد ارادت الصحف الماقلة ان تصور لنا البروليتاريا ثائرة على زعمائها، ولقد شعرنا على العكس بأننا نشهد انهيارها الباطني. إن العامل، برفضه تقدير المدى السياسي للإضراب، قـــد

وضع نفسه بإرادته ضمن نطاق مصالح طبقته ، وزاد من عزلته بالدوافع التي تذرع بها ليبرر نفسه ، وقطع صلاته الجماعية ، وفقد الاتصال مع قادته : اذا كان الاضراب لم يتم، فليس ذلك لأنه أدين باندفاع اجماعي بل لأنه ايقظ ملايين من الاشمئزازات ارادت ان تبقى فردية . إن الغايات الجماعية والقيم والمثل العليا لم تمس : لكنها تناءت ووقفت بعيداً عن المتناول . والنضال مرفوض لأن الهزيمة مؤكدة : لقد فقد العامل الثقة في قدرات الطبقة العاملة ، ويخيل اليه انها فقدت سيطرتها على الاحداث وان التاريخ يصنع بدونها . الحرب ؟ انه ضدها بالطبع : « لكن اذا كان الاميركان يريدون ان يشنوها فليس العامل الفرنسي هو الذي سيستطيع ان يمنعهم » . العمل السياسي ؟ يقيناً ، انه لمن العدل ان يمكن للعامل أن يفرض رأيه : « ولكن علامَ حصلنا منذ خمسة اعوام؟ لقد تظاهرنا مئة مرة ضد حرب الهند الصينية وضد الحلف الأطلسي وضد اعادة تسليح المانيا : فما كانت النتيجة ؟ اننا لعاجزون حتى عن تحقيق مطالبنا الاقتصادية : فالأسعار ترتفع والأجور ، بالرغم من جهودنا ، لا تلحق بها ابداً» . الثورة ؟ إن ميشيل كولينه يزعم ان الاجيال الجديدة تجهل معنى هذه الكلمة . هذا شيء غير قابل للتصديق كثيراً ، ولا سيما بالنسبة الى قرائنه ما دام يلح بقوة ، من جهة أخرى ، على اتساع نطاق الدعاية الشيوعية . وما يبدو اقرب الى الحقيقة هو ان موقف العمال الفرنسيين قد تغير تغيراً عميقاً خلال نصف القرن هذا . كان كثيرون من العمال ، قبل الحرب العالمية الأولى ، يعتقدون بأنهم قريبون من الهدف : كانوا على ثقة من انهم سيرون « الاضراب العام » . وقد خيبت الحرب وسياسة القادة الاشتراكيين آمال الجماهير ، لكن ايام اوكتوبر اعادت اليها الثقة : لقد تكونت الاممية الثالثة في جو من رؤيا يوحنا[1] : إن الثورة ستبدأ في المانيا وستمتد الى أوروبا قاطبة . واليوم يقال لعامل ١٩٥٢ ويكرر على مسامعه ، بإلحاح شبه مشبوه ، انه سيرى مجيء الاشتراكية : « ليس أولادنا

١ ـ الكتاب الأخير من « العهد الجديد » مؤلف من سبع رؤى ، وفيه يتنبأ القديس يوحنا بانتصار المسيحية بعد اندحار اعداء المسيح . « م »

م وحدهم الذين سيتمتعون بالاشتراكية انما سنتمتع بها نحن انفسنا[1] » . لكنه على وجه التحديد ما عاد يؤمن بذلك : انه يعلم ان دكتاتورية البروليتاريا لن تقوم غداً . هل هذا معناه انه انتقل الى الاصلاحية؟ على الاطلاق. ان الادوات يتقادم بها العهد ، وارباب العمل باقون على مالتوسيتهم ، وصناعتنا متخلفة ، واعادة التسليح والحروب الاستعمارية تضر بالاقتصاد القومي[2] . وتكفي هزة صغيرة حتى تنهار الآلة المرممة مئة مرة : وفي مثل هذه الشروط – وحين لا يكون المطلوب سوى تحسين وضع العامل فورياً – كيف يمكنه ان يثق بعمل بطيء ، معتدل ، تدريجي ، وبتسويات ؟ انه اذا كان يريد ان يحقق أبسط اصلاح فلا بد ان يقلب كل شيء رأساً على عقب ، بدءاً من السياسة الخارجية الى المفاهيم الاقتصادية : ذلك ان كل شيء يكمن في هذه الحزمة السيئة الربط . انه يعرف ذلك ويتعلمه يومياً ، فهل نطلق صفة « الثورية » على هذه القناعة – وإن المبهمة – بأنه ينبغي الانطلاق من الكل الى الاجزاء ومن التغيرات في البنية الى الاصلاحات في التفاصيل ؟ قد لا نسميها كذلك : فهي تثير الحماسة في العمل لكنها تثبط الهمم في فترات التوقف . وعلى كل حال ، فانها مذهب جذري . وتنضاف الى هذا بالنسبة الى البروليتاريا الفرنسية دوافع حقد خاصة جداً : فلقد وثقت مرة واحدة في تاريخها ، مرة واحدة لا غير ، في ارباب عملها ، وبالطبع خدعها هؤلاء . كان ذلك في الوقت الذي حاول فيه ارباب العمل ان يخلقوا في فرنسا مناخاً ملائماً « للثورة الصناعية الثانية » : فقد جردوا المقاومة النقابية من سلاحها إذ وعدوا باستخدام التقنيات الجديدة لزيادة الانتاج . وقبل العمال أنصاف الاختصاصيين بتعب اضافي بأمل رفع مستوى حياتهم. من يدري؟ لو لم ينكث ارباب العمل بوعدهم ، لولدت وازدهرت نزعة اصلاحية جديدة . إعياء في المصنع ورفاه في البيت : لقد كان هـذا النظام ، في الولايات المتحدة

---

١ – خطاب لركور حول المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفياتي ، في ٢٩ تشرين الاول ١٩٥٢ .

٢ – كتب هذا المقال عام ١٩٥٢ .

الاميركية ، خير مساعد لأرباب العمل . اما ارباب العمل الفرنسيون فقد فضلوا ان ينقصوا تكاليفهم ويحافظوا على مستوى أسعارهم : ومن أجل ان يستتب النظام يلتجئون الى الطرق القديمة الصالحة ، أي الى طلقات البنادق . انهم يحملون اليوم برقاحة متناهية ، كما يحمل التلميذ الكسلان طرطوره ، والزوج المخدوع قرنيه ، اللقب الذي اطلقه عليهم الاميركان و الرأسماليون الأكثر تخلفاً في العالم » . اما العامل فان عمله لا يقل شظفاً عن عمل رفيقه الاميركي ، لكن اجرته الواقعية اقل من اجرته عام ١٩٣٨ ، ولا تكاد تزيد على اجرته عام ١٩٢٠ . انه لوضع ملتبس: فهو ينهك نفسه في اداء مهمته لكنه يرى الاضطهاد. وليست المسألة في نظره مسألة فضل قيمة وعمل مجهد الخ فحسب ، فهذه بالأصل مفاهيم صعبة لا تعني شيئاً بالنسبة اليه دوماً : لكنه يعرف ان شروط العمل التي تفرض عليه توازي في مجتمعات رأسمالية أخرى ، مثل البلدان الاسكندنافية والولايات المتحدة الاميركية ، قدرة شرائية أعلى من قدرته هو : وعلى هذا فانه مسروق مرتين . ولهذا السبب يجدر ألا يحدثه أحد عن تعاون الطبقات وتفاهمها وتضامن الرأسمال والعمل . ولا شك في ان ديكلو عبر بقوة عن رأي تأخيه العمال عندما قال ان مثل هذا الاتحاد سيكون « اتحاد القادرين والمقدورين » . وبالأصل ، كانت نتيجة هذا « التقنين » ، بزيادته عدد غير المحترفين وبتصفيته آخر بنى البروليتاريا الداخلية[١] ، تكويم الجماهير وإبعادها عن تأثير « النخبة » العمالية وتحويلها الى مادة عديمة الشكل نسبياً ومتجانسة كل التجانس . وهذه طريقة موثوقة لدفعها نحو الجذرية : فقد كفت عن ان تكون موجهة من قبل « ارستقراطية » معتدلة نسبياً ، وهي الآن تشهر وجهة نظرها الخاصة ، أي المطالب المستهجنة أكثر من أي مطالب أخرى ، المطالب التي لا تتفق البتة مع استمرار نظامنا الاجتماعي .

ولهذه الاسباب كلها – ولأسباب اخرى ايضاً – حافظ العامل الفرنسي على

---

١ – على سبيل المثال تلك الألوف المؤلفة من الانظمة الشخصية : عمال مبارمون يدورون حول عامل مختص .

تصلب شبه استثنائي . لعله لا يعرف ما هي الثورة: لكن كيف ستسمون ذلك العنف الجامح ، وذلك الازدراء بالانتهازية ، وتلك التقاليد اليعقوبية ، وذلك المذهب المأساوي الذي يضع أمله في انقلاب اكثر مما يضعه في تقدم غير محدود ؟ انني أرى في هذا ، من جهتي ، الملامح الرئيسية لموقف ثوري .

لكن على وجه التحديد : مـا الموقف ؟ عمل ما تكاد ترتسم ملامحه الاولى حتى يتوقف . واذا لم يعبر عن نفسه في افعال ، واذا لم يندمج بممارسة جماعية ، واذا لم ينحفر في الاشياء ، فما يتبقى منه ؟ لا شيء : مجرد استعداد سلبي . والمستقبل اليوم مسدود بسور دام . والعامل مقيم على وفائه لمعتقداته ولتقاليده لكنه ثوري بلا ثورة . انه لا يزعم ان هـذه الثورة لن تحدث ابداً ولا انهـا اسطورة ، شأن «الاضراب العام» في نظر سوريل[1] . كما انه لا يجعل منها قيمة او فضيلة . لكنـه لا يتوصل الى ان يرى فيها النهاية الضرورية (« ما قبـل التاريخ ») ولا واقع البروليتاريا بوجه خاص : انهـا في نظره حدث عارض جزئياً لا بد ان يقع في تاريخ غير معلوم لكن حتماً بعد موتـه . ولسوف يقوم بها آخرون يعاودون الانطلاق من نقطة الصفر: وعامل ١٩٥٢ فقد حتى الشعور بأنه يمهد لهم الطريق . إن في التاريخ ، بين حين وآخر ، انقطاعات في التيار ، فيتوقف كل شيء ولا تلتجاي نتيجة عما نفعله طالما ان التيار لم يوصل من جديد: لقد ولد عاملنا ولا بد اثناء العطب . واذا ما حدث له ان قال في نفسه وهـو ينظر الى بعض الاطفال : « هم سيرونها — وليس انا » ، فهذه على الاخص طريقة في التفكير بموته ، شأن صاحب الدكان الذي يحلم : « لن نذهب الى القمر لكن اطفالنا سيذهبون » . وفي اللحظات الحاسمة من التاريخ العمالي لم تكن الثورة لا حدثاً مستقبلاً ولا معتقداً ، بل كانت حركة البروليتاريا بالذات ، الممارسة اليومية للمجموع وللفرد . لا نهاية تكهنية لمغامرة ما ، بل كانت محض القدرة على صنع التاريخ . لا لحظة مستقبلة ، بـل كانت الاكتشاف الباعث لمستقبل بالنسبة الى

---

١ – جورج سوريل : عالم اجتماع فرنسي ، مؤلف « تأملات في العنف » ، كان من الممهدين للاشتراكية الفاشية (١٨٤٧ – ١٩٢٢) . « م . ع »

اولئك الرجال المنفيين في حاضر غير قابل لان يعيش فيه الانسان . لقد كانت الثورة مهمة ، « مهمة البروليتاريا اللامتناهية » ، وكانت تبرير المطالب الفردية والبعد الشمولي لكل سلوك خاص ، وباختصار كانت صلة مستمرة بين الفرد والطبقة ، بين الخاص والعام . وكانت لكل مرحلة من مراحل النضال دلالة مزدوجة، تكتيكية وستراتيجية، وكانت ترجع الى نظام مزدوج من الإحالات: فمبر الهدف المباشر كان يُلمح الهدف البعيد . اما بالنسبة الى العامل المعاصر فإن الرابطة بين هاتين الدلالتين هي التي انقطعت : انه ما يزال يستطيع ان يدافع عن مصالحه ، وان يطالب ، وأن يحصل على زيادة في أجرته ، لكنه لا يقيم اي علاقة بين هذا الانتصار اليومي الصغير وبين مصير البروليتاريا، ولا يدرك والمدى الثوري » لمطالباته : انما يخيل اليه ، على العكس ، انه فقد المبادهة وانه يدافع عن نفسه شبراً فشبراً ضد الرجعية . وبالمقابل ، وسواء ألبى ام لم يلبّ الاوامر السياسية ، وقام ام لم يقم بالاضراب ضد حرب فيتنام او ضد الحلف الاطلسي ، فإن هذه المظاهرات لها في نظره نوع من اللاواقعية . ان السلام في الهند الصينية سيخدم مصالح البروليتاريا ، إنه متأكد من ذلك . بل لعله يرى صلة ما بين السلم العالمي ومجيء الاشتراكية . لكن اعماله تبدو له ملطخة باللافعالية : لقد فقد سيطرته على التاريخ وهو لا يستطيع ان يغير مجراه .

أما الدوافع التي كان يتذرع بها قبل اضراب ٤ حزيران ليبرر رفضه الاشتراك فيه ، فقد قلت انه لم تكن بينها دوافع عامة . وهذا غير صحيح تماماً . فبين حين وآخر يصدر تصريح يمكن ان يعتبر تقييماً عاماً للموقف: إن العامل يعترف بأنه ضاق ذرعاً وملّ . لكن مم ؟ أمن الحزب الشيوعي ؟ أمن الاتحاد العام للشغل ؟ أمن موسكو؟ كلا : من السياسة. وليست هي سياسة الحزب الشيوعي التي تقرفه بل كل نوع من انواع السياسة. اننا نسمع اليوم عمالاً يقولون: «السياسة وجع رأس » او نساء يقلن لأزواجهن : « خير لك ألا تهتم بالسياسة : لما الفائدة منها ؟» . ما الفائدة منها، طالما انه لن يتغير شيء ؟ وليس هو النشاط السياسي بشكل عام الذي يوجه اليه اللوم : فقد يكون معقولاً في بلدان اخرى او في

آونة أخرى او بالنسبة الى رجال آخرين . اما عمال ١٩٥٢ الفرنسيون فمحرّم عليهم : « السياسة لم تخلق للصغار » . ومثل هذه الافكار لا تجدونها في الوقت الراهن إلا على ألسنة النساء – وبعض الرجال . لكن هذا لا يمنع انها علامة . فإضراب حزيران كان يجب ان يكون اولاً تظاهرة تضامن لا مناورة : كان على الطبقة العاملة ان تتجمع حول قادتها المهددين . وفي اليوم الذي سيطلق فيه العمال اسم « السياسة » على كل ما يتجاوز اطارات مصلحتهم المباشرة ، ستكون نهاية البروليتاريا . ان الطبقة العاملة ، في الاوقات التي تعي فيها قوتها ، لا يخطر لها ان تضع حدوداً لعملها . بل على العكس : إن أبسط الشعارات وأضيقها نطاقاً يأخذ من تلقاء نفسه طابعاً جذرياً ، والعمل المحلي يعيد خلق الحركة في مجموعها . لكن حين يقتصر العمال على الدفاع عن الاجور كل يوم بيومه ، يتركون المبادهة لأرباب العمل ، ويتخذون موقفاً دفاعياً صرفاً ، ويتخلون عن فكرة الربح حتى لا يجازفوا بالخسارة ، ونظراً الى انهم لا يؤثرون على جميع عوامل الحياة الاجتماعية مجتمعة ، فإنهم قد يمنعون انخفاض الاجور الاسمية ، لكنهم لا يمنعون ارتفاع الاسعار . ولهذا فإن الحد الحقيقي ، الحد الوحيد الذي يعترف به العامل لأفعاله هو حد فعاليتها : فهو اذا كان يحبس نفسه اليوم في مصلحته الشخصية فهذا لأنهم يمنعونه من الخروج منها ، واذا كان قد أمسى لا يريد ان « يشتغل » في السياسة ، فليس ذلك طاعة منه لتصور نظري عن النقابية : انما بكل بساطة لانه ما عاد يريد ان يشتغل فيها . وأن تنتصر البورجوازية فهذا شيء طبيعي . لكني أتوجه مرة اخرى الى جميع اولئك الذين يزعمون انهم ماركسيون ومعادون للشيوعية معاً والذين انشرحت صدورهم اليوم لأن الطبقة العاملة « في سبيلها الى الافتراق عن الحزب الشيوعي » ، واذكرهم بعبارة ماركس التي قرأوها واعادوا قراءتها وشرحوها مئة مرة : « ان البروليتاريا لا تستطيع أن تتصرف كطبقة إلا إذا كونت نفسها في حزب سياسي متميز » ، وأسألهم ان يستخلصوا منها النتائج : فمهما يكن تفكيرهم بـ « الستالينيين » ، وحتى لو كانوا يرون ان الجماهير مخطئة او مخدوعة ، فما الذي يبقى على انسجامها ،

وما الذي يضمن فعالية عملها إن لم يكن الحزب الشيوعي عينه؟ و « البروليتاريا المكونـة نفسها في حزب سياسي متميز »، ما هي ، في فرنسا اليوم ، إن لم تكن بجموع الشغيلة المنظمين من قبـل الحزب الشيوعي ؟ إذا كانت الطبقة العاملة تريد ان تفترق عن الحزب ، فإنها لا تملك سوى وسيلة واحدة : ان تتبدد هباء .

ولسيد روبيته لم يحي انتصار البروليتاريا ، لتتبعه فيا بعد الصحافة كلها ، إلا ليخفي عن الجماهير هذه الحقيقة المقلقة . انـــه احتياط جدير بالاعجاب : فالعامل ، بشرائه « باري بريس » او « فرانس سوار » في حزيران ، يطلع على رأي الطبقة العاملة : لقد قدرت هـــذه الطبقة ان الاضراب معاكس لمصالحها الطبقية وتبرأت من قادتها. ويضع الصحيفة جانباً وهو متحير، ويتساءل اذا كان قد فكر بهذا كله يوم ٤ حزيران : انه يتذكر مع ذلك انـه لم يرفض الاضراب حقاً ولم يصدر حكماً على سياسة الحزب الشيوعي ، وانـه آثر مصلحته الخاصة لأنه لم يستطع ان يتعرف ويؤثر مصالح طبقته ، وأنه عـاد الى بيته متردداً ، لا فخوراً كثيراً ولا سعيداً كثيراً . والحال ها هي ذي الاجترارات تتحول ، وقد تضاعفت ، وتصبح حكماً مقدساً أصدرته البروليتاريا . ألا مـــا أغرب فضيلة الاحصائيات : ان استنكاف العمال البيكارديين والبروفانسيين يكشف له عـــن دلالة استنكافه المتوحد الصغير . لقد كان يعتقد بكل بساطة انه تهرّب ، وكان موضوعياً يشارك في استفتاء . انه يتأمل بدهشة في هذا الرأي الذي علم بـــه لتوه ، والذي هو رأيه ورأي الجميع في آن واحد . ولعله قـــد أخذ يفكر بالموقف الواجب اتخاذه ازاء « حزب تتبرأ منه الطبقة العاملة » . لكن لا : انه لن يسير . لقد بدأ يشك في أنهم يريدونه ان يحسب القناديل الخافتـة مصابيح ساطعة وكتلة اللامضربين غير المنظمة تلك الجماعية المنظمة التي ينبغي ان تكونها البروليتاريا .

إننا نضع اصبعنا هذه المرة على لب المشكلة : إذا كان يتوجب على الطبقـة ان تستطيع التبرؤ من الحزب ، ينبغي ان تستطيع إعادة بنـاء وحدتها خارجاً عنه وضده . فهل هـــذا ممكن ؟ حسب الجواب الذي سنعطيه لهذا السؤال ،

سيكون الحزب الشيوعي قابلاً للاستبدال بغيره او غير قابل لذلك ، وستكون سلطته مشروعة او مغتصبة . ان الوقائع لم تسمح باكتشاف حضور واقع جماعي في قضية ٤ حزيران . بل أكثر من ذلك : فنحن لم نرَ الطبقة تنتصب في وجه الحزب فحسب ، بل نستطيع أيضاً ان نبين ان مثل هذه المعارضة غير قابلة حتى للتصور . إنه ما من أحد قد عاد يؤمن بالبروليتاريا – الصنم ، ذلك الكيان الميتافيزيقي الذي هو بمثابة استلاب للعمال . ان هناك بشراً ، وحيوانات ، وأشياء . والبشر كائنات واقعية وفريدة تشكل جزءاً من مجموعات تاريخية ، وغير قابلة للتشبيه لا بذرات ولا بخلايا عضوية ما. أهم متحدون ؟ منفصلون ؟ الشيئان معاً . فلا وجود لانفصال لا يكون نمطاً من انماط الحضور ولا لرابطة مهما تكن حميمية لا تنطوي على غياب سري . وإذا كانت الطبقة موجودة ، فوجودها أشبه بتجاوز جديد بين الفرد والمجموع ، بنمط حضور يتحقق من خلال القوى الانفصالية وضدها : انها ستخلق وحدة العمال وسفسطة مذهب عداء الشيوعية تكمن في انه يلجأ الى طريقتين متناقضتين : فحتى يجرد الشيوعيين من فضل توحيد الجماهير يبدأ بتحويل الطبقة الى نوع من وحدة سلبية ، ثم ينسب الى هذه الطبقة عفوية غامضة مريبة حتى يعرضها عليهم . أعتقد إذن أنه من الضروري ان أذكر ببعض الحقائق التي كانت معروفة من الجميع والتي تبدو وكأنها منسية بما فيه الكفاية . وثقوا بأنني لا أطمح الى وضع او إعادة وضع نظرية عن البروليتاريا : إنما أريد فقط ان أبين ان الوحدة الطبقية لا يمكن لا ان تكتسب سلبياً ولا ان تولد عفوياً .

١ – لا يمكن ان تكتسب سلبيا .

ان وحدة العمال لا يمكن ان تولد ميكانيكياً بفعل تشابه المصالح أو الشروط .

والمسألة بديهية بالنسبة الى المصالح : فتشابهها يولد المناقشة والمنازعات . اما بالنسبة الى الشروط فالمسألة تختلف . ولما كنت لا اضع هنا نظريات ، فقد

اخذت هذه الكلمة لأشير بها بصورة عـامة الى نمط العمل وتعويضه ، وإلى نوع الحياة ومستواها ، وإلى العلاقات الاجتماعية . ان هذه المعايير كافية في الممارسة اليومية : انني قادر على تحديد وضع هذا النقادم الجديد اذا ما قيل لي كم يكسب وماذا يفعل . لكن هل هذا كاف اذا كان المطلوب تحديد انتمائه الطبقي ؟

ان عـالم الاجتماع يكتفي بذلك . انه لا يريد إلا الوقائـع . ثم انه لا يقبل بها جميعاً . فقـد كانت ايام حزيران ١٩٤٨ ، والكومونة ، واضراب ديكازيفيل وقائع : لكنه لن يأخذها بعين الاعتبار . أوقع فيها قتلى ؟ ثم ماذا ؟ هل الموت من اجل الطبقة دليـل على وجودها ؟ اذا كانت البروليتاريا موجودة فلا بد ان يكون لوجودها موضوعية علمية كاملة، ولا بد ان توجد كموضوع . . . ينظر اليه العـالم من الخارج . واذا كنتم تستطيعون ان تقيموا البرهان على ان بعض العوامل الموضوعية تحـدد شرط العمال اليدويين ، وإذا كان هذا الشرط واحـداً بالنسبة الى الجميع ، وإذا كان كل فرد يتصرف فيه تصرفات متشابهة ، تكونون قد أقمتم الدليل على واقعية للبروليتاريا . العوامل نفسها ، الاوضاع نفسها ، ردود الفعل نفسها : هذه هي الطبقة .

ويعد هذا سيثبت البعض ، بالطبع ، ان هناك طبقات (« نظراً الى ... اقمنا الدليل بمناهج صارمة على الصفات النوعية للطبقة العاملة ، فنحن نعترف لها بقيمة الشيء الواقعي ») ، وسيثبت البعض الآخر انه لا وجـود للطبقات (« نظراً الى ان الاستقصاء الجدي الصارم لم يسمح باكتشاف صفات موضوعية خاصة بالطبقة العاملة المزعومة، نخلص إلى القول بأنها وهم »). انني لا اؤيد راي كلا الطرفين: فمجادلاتها الجامدة تخفي تواطؤاً عميقاً: فالبعض يزعم ان البروليتاريا شيء واقعي ، والآخرون يزعمون انها شيء متخيـل ، والطرفان متفقان على « تشييئها » . والمنهج الاكثر مراءاة هو المنهج الذي يعلن عالياً عن وجـودها ليقلصه قـياً بعد إلى وجود كيس من البطاطا . خذوا أخبارهم : لقد تناولوا المشكلة دونما افكار مسبقة ولجأوا الى الاحصائيات ليحددوا تجريبياً الصفات الطبية . اننا سنلاحظ ان البروليتاري، حتى اذا ما استثنينا النشاطات المفروضة

من قبل الانتاج ، وحتى في المجالات التي يبدو وكأنه يتمتع فيها باستقلال نسبي ، يتميز عن سائر البشر بمسالكه . فشرطه يعطيه طبيعة ، اي « عادة اولى » . وبعبارة ماركسية : الانتاج ينتج المنتج . ان الدراسة المقارنة للميزانيات على سبيل المثال تسلط الضوء على بعض ثابتات [1] نوعية في الاستهلاك العمالي . وينتهي الأمر بالقائمين بالاستقصاء، عندما يمدّون ابحاثهم الى نطاق اللغة والتمثيل الايماني والجنس الخ ، الى ان يقرروا بصرامة علمية وضعية ... ما يثب الى العيون وثباً . وليقربوا الآن هذه الثابتات من بعض الثابتات الاجتماعية ، وليقيموا علاقات وظيفية بين هذه وتلك، بل ليذهبوا الى ابعد من ذلك فينتقلوا من السكوني الى الديناميكي ويسلطوا الضوء على انعكاس الصيرورات الاجتماعية التي في سبيلها الى التطور على تصرفات البروليتاري . فهل يكونون قد اكتشفوا اخيراً الطبقة ؟ انهم يقولون ذلك لكني اعتقد بالأحرى انهم يكونون قد حولوا البروليتاريا الى نوع حيواني . واذا كانوا يعاملون اعضاء فئة اجتماعية كما لو انهم نتاجات سالبة قابلة للاستبدال فيما بينها لعوامل عامة ، وإذا بدأوا باستبعاد جميع التأثيرات التي يمكن لهؤلاء الافراد ان يمارسوها على بعضهم البعض ، فماذا يأملون ان يجدوا في النهاية ، غير النوع ، تلك العزلة التي بلا أمل والمكرورة دوماً ؟ كنا نعتقد اننا امام علماء اجتماع . لكننا كنا مخطئين : فما هم إلا علماء حشرات . ولقد سبق ان عرفت بعضاً من علماء الحشرات. ولا سيما واحداً منهم وقف نفسه على سراطين البحر . كان يهمل المتفردات التي لا تهم غير السراطين نفسها ، وكذلك علاقات السرطان بالسرطان . ومن هنا كان يخلص الى القول دونما جهد بالتشابه المطلق بين جميع ممثلي النوع . وبعد ذلك ، كان يصنع أجهزة محكمة ليدرس تأثير التيارات المتناوبة على الآلية النفسية للسرطان الازلي . وكيف تأخذنا الدهشة من ذلك طالما انه حكم على قطعه البالغ عددها ثمانية عشر ألفاً بألا تكون سوى ثمانية عشر ألف نسخة من انموذج واحد ؟

والأمر مقبول ايضاً لو ان المسألة كانت مسألة سراطين بحرية فقط : لكننا

---

١ – الثابتة في الرياضيات كمية لا تتبدل قيمتها .

م ٢ ٤ ٥

ستكون أقل تسامحاً تجاه اولئك الذين يطبقون المنهج نفسه على بشر مسترقين والذين يستبدلون جنود وحدة مقاتلة بنتاجات هامدة لعوامل موضوعية . ولقد بدأت أرتاب في ان علماءنا الاجتماعيين قد ضللونا بعض الشيء : فقد استبدلوا كل تصور بمفهوم – بديل يشبهه ويثبت بدقة عكس ما يزعم هذا التصور انه يقيم الدليل عليه . وباسم الموضوعية استبعدوا جميع البراهين التي تثبت وجود ممارسة عمالية ، ووضعوا محل هذه الممارسة احداثاً كاذبة تسقط هباء اذا ما مسها المرء ، كما ان الوحدة الخادعة لمدلاتهم الوسيطة تحجب عن الانظار التشتت اللامتناهي للحوادث العارضة التي يدخلونها فيها . ان العامل يستعمل كثيراً من اللحم ! ومن نوعية رديئة ! لكن ماذا ؟ قد لا انكر ان نفس القطع الرديئة من اللحم تظهر يومياً على الموائد في فيتري وسان – دوني ، لكن عبثاً ستسعون الى اقناعي بأن هذه الوجبات الألف حدث جماعي : فأنتم لا تفعلون شيئاً سوى انكم تكدسون ردود أفعال متوحدة قد يرجع سببها الى صيرورة موضوعية واحدة ، لكنها تتشتت في غبار الضواحي الصناعية كألف قطرة من غيمة واحدة . انكم تزعمون انكم ترونها وقائع انسانية وتدسون مكانها وقائع فيزيائية . تقولون ان العامل اليدوي ، المحروم من الثقافة ، المنفي من حضن المجتمع المستطاب ، المنكفىء على تبعية للطبيعة بفعل التعب والحالات الأولية ، يميل إلى تفضيل الكمية على النوعية . حسناً ، ماذا تكونون قد فعلتم ؟ لقد عرّفتم بشراً بعلة ثانية وبعمل الحاجة الميكانيكي . فلكأنكم تعطوننا وصفة لصنعهم .

هل سيقال ان التحليل غير جدي ؟ انهم يعددون لنا حشداً من علل لا رابط بينها ، وانهم لا يربطون العامل بنظام الانتاج ؟ هذا صحيح . لكن ليست المسألة مسألة تغيير العوامل : انما ينبغي تغيير الموقف المسبق . انظروا : إليكم تعريفاً لبوخارين وقعت عليه في كتاب السيد غولدمان [1] : « ان الطبقة الاجتماعية جماعية من الاشخاص يلعبون الدور نفسه في الانتاج ويقيمون علاقات انتاج متماثلة مع اشخاص آخرين يساهمون في عملية الانتاج » . ان اللهجة مركزة

---

١ - ل . غولدمان : « العلوم الانسانية والفلسفة » .

هذه المرة على الانتاج،لكن ماذا استفدنا ؟ وزبدة القول ان التعريف غني وليس فيه من الماركسية إلا الشيء القليل : فهو يريد بالفعل ان يعرف الطبقة بتشابه الاشخاص ، فهم يلعبون الدور نفسه ، ويقيمون العلاقات نفسها مع اشخاص آخرين . فهــل يكفي ان نسميهم « جماعية » حتى يشكلوا فيما بينهم طبقة ؟ لكن هذه الجماعية إما ان تكون حشداً ، وآنذاك نكون قد عدنا الى النــوع ، وإما ان تكون كلية ، لكن كان ينبغي في مثل هــذه الحال ان يتضمن التعريف نفسه المبدأ المولد . اجل ، لقد قال ماركس ان الانتاج ينتج المنتج ، لكن حين تحول الصيرورة الانتاجية الى علة وحيدة فــاحشة تنتج مئة ألف تجسيد للماهية العمالية فإن وحدة العملية لن تستطيع ان تضمن وحــدة النتاجات التركيبية . وإذا لم تكن البروليتاريا غــير نهاية التصنيع الجامدة ، فإنها ستنهار وتتبدد غباراً من جزئيــات متماثلة . ان الوحدة الحية لـ « الصيرورة » الرأسمــالية يمكن ان تسم بميسمها العمال الذين تخلقهم : فهي بانكسارها في وسط جامد غير متناسق تتضاعف وتصبح تشابه التنوع الشكلي : إن القمر لا يستطيع ان يوحد الامواج ، وتشتت الامواج هو الذي ينشر الاقمار على البحر كله . وخــلاصة القول انني لم اعض بوخارين ثقي : فتعريفه ميكانيكي النزعة شأنه شأن تعاريف السادة سوروكين وغورفيتش وهالفاكس .

لقد وعدنا جميع هؤلاء العلماء بأن يرونا وحدة طبقة ، فأرونا تشابه قطع مجموعة من المجموعات . والحال ان الوحدة والتشابه مبدآن متضادان يعقد أولهما روابط عينية بين الاشخاص ، ويعقد الثاني روابط مجردة بين الحالات . وهكذا فإن منهجهم ، بزعمه انه يعيد بناء البروليتاريا ، يهدم كل امكانية لعلاقة واقعية بين اعضائها : فتشابه الماهية يتطلب ، حتى يظل غير مشوه ، الانفصال المطلق بين الوجودات . لو كان عامل لانس وعامل اميانس يستطيعان ان يتعارفا ، ولو كان كل منهما يصنع الآخر إذ يصنع نفسه ، وباختصار لو كانا يساهمان في المعركة نفسها ، لكان كل منهما يرتبط ، في واقعه الحي ، بالآخر ولتضاءل التشابه بينهما كلما تلاحما في اتحادهما . وانما في شركة العمل لا في العزلة يصبح كل منهما

شخصاً ولا تبقى امام عالم الاجتماع لا الوسيلة ولا الذريعة ليدرس المسالك الفردية كلاً منها على حدة باعتبار انها ترجع كلها في مثل هذه الحال الى المشروع الجماعي وتتحدد به[1] . واذا كان على العكس قد استبدل وحدة الطبقة بتشابه الشرط، فهذا ليقنعنا بأن العمل الجماعي حلم مستحيل . فإذا كان العمال مصنوعين قبل اتحادهم، فإن الاتحاد لن يعود قادراً على صنعهم . فثمة عوامل خارجية قد اعطتهم طبيعة . ومهما تكن علاقاتهم الانسانية فإنها ستنساب من الآن فصاعداً عليهم من غير أن تترك أثراً فيهم . ولقد كتب هنا بالذات في الشهر الماضي بروليتاري ما يلي عن البروليتاري : « انه قابل لأن يُعرف بين ألف . فكل ما فيه متميز، اللغة، المشية، الحركات، الظل المندثر، طريقة الأكل والشرب والتلهي والحب والكراهية ، . هذا ما يبرر احصائياتكم، لكن مع تحفظ واحد : ان العامل الموصوف لنا يائس نهائياً . وهذا ما اردت ان اصل اليه : ان علم اجتماعكم لا ينطبق على العامل إلا اذا ألقى به البؤس الى احضان اليأس، وهو انما يُرجع اليه استسلامه، سلبيته، هجرانه : وهذا ايضاً ما يريد السيد روبينه، العالم الاجتماعي عن غير علم منه، ان يعكسه للبروليتاريا . فتلك الطبقة المنتصرة التي حياها بيرَقه، انما كانت حشداً من حالات اليأس والعزلة . وما صوره لنا على انه رد فعل جماعي انما كان المعدل الوسطي لحالات فتور الهمة . وما كان مشتركاً لدى جميع هؤلاء البشر المنهكين هو ارادتهم عدم الاتحاد . إن السيد روبينه قد اعطى الطبقة العاملة حق ابداء الرأي حتى يمكنها أن تعلن جهاراً انها غير موجودة .

وبالواقع ماذا يضير الفيغارو ان تعترف للعمال بهذا النوع من الانسجام السلبي الذي يتيحه تشابه الشرط : فالصحافة البورجوازية قد قررت منذ زمن طويل انه ليس هناك وحدة معطاة . إن الهمود غياب روابط، اي قابلية لامتناهية للقسمة : فلا بد من العد، ورسم الخطوط، والسعي باستمرار الى المحافظة على

---

١ ما يجعل الاشياء مشبوهة أكثر أيضاً هو أن علم اجتماع البداليين يوماً بيوم ينجي من هذه المآخذ . فهو انما يدرس مجموعات دالة حقيقية .

اتصال عناصر غير متلاحمة في سبيلها الى الانفصال . وخلاصة القول ان الوحدة ليست إلا الوجه المعكوس للعمل التوحيدي . انظروا اليها عن قرب اكثر، تلك « الطبقة » التي يهنئها السيد روبينه : انها تتفسخ. وماذا تجدون مكانها : دوامات جزئية ، تعدداً من ردود الفعال لامتناهية الصغر تشد من أزر بعضها بعضاً او تتنافى وتحصلتها قوة فيزيائية اكثر منها انسانية . انهـــا الكتلة . الكتلة ، اي بالضبط الطبقة المنفية : فالكتلة خارجية بإعتبار ان المفعولات التي تلتجها تكمن علتها دوماً خارجاً عنها في وفرة متكاثرة من المسالك الصغيرة التافهة ، ولا يمكن أن تكون لها حاجات ولا مشاعر ولا إرادة ولا مسالك : ذلك ان الأفراد ، يحزمهم أمرهم كلا لذاته ، لم يتوقعوا ولم يريدوا النتيجة العامة لإراداتهم الخاصة المئة ألف . انها جزء من الطبيعة باق في حضن مجتمعاتنا. وبالطبع انها لا تعرف غير الهدم : فالبناء يتطلب على الأقـل وحدة المنظمة او المشروع إن لم يتطلب وحدة الشخص . وهي اخيراً تتألف من عناصر غير مسؤولة : والحق ان العمال لا يعرفون ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ما يفعلونه مـــا دامت افعالهم المتفردة تـــذهب لتنتفخ بعيداً ، ولتنضاف الى اعمال مجهولة ، وتعود اليهم في النهاية تحت شكل عواصف حمقاء. الايام الثورية ؟ انها ليست سوى لحظات ذعر شديد : فالجوع او الخوف يطردان الحيوانات من جحورها ، فتحوم في المدينة ، وتحطم ، وتحرق ، وتنهب ، ثم تعود من حيث أتت . الحقـد الطبقي ؟ كيف يمكن لهذا السديم من الجزيئات ان يحب او يكره ؟ كل ما هنالك ان حالتـه الميكانيكية وتفسخه الدائم يهددان بأن يجعلاه نرى عــدواً للانسان حيث لا يكون هناك سوى طبيعة ميكانية في قلب الطبيعة المضادة .

انهم يريدوننا ان نحسب رد الفعل العمالي على اضراب ٤ حزيران إدانة طبقية. لكن السيد روبينه مقتنع ، في اعماق نفسه ، بأن المسألة لا تعدو ان تكون اكثر من ذعر جماهيري . فجميع الصفات المميزة لهذا الذعر ماثلة : فالنتائج في مجموعها لم يتوقعها الأفراد ولم يتمنوها ، وهي ذات طابع سلبي ، ولا تعبر عن اي نية جماعية ، ولم تؤد الى تقارب العمال بـــل زادت على العكس من عزلتهم ومن

المسافات التي تنفصل بينهم . فما معنى هذا ؟ أمعناه ان الطبقة غير موجودة ؟ هذا بالتأكيد ما يراد لنا ان نعتقده . لكننا نعلم حق العلم ان العالم العمالي ليس رقصة ذرات صاخبة : فحتى في ٤ حزيران خاض العمال عملاً مشتركاً بصدد نقاط اخرى كثيرة واهداف اخرى . إن ما تعلمناه هو ان الكتلة حالة قصوى من الوحدة والعزلة والهجران ، قد لا يكون العامل سقط فيها قط ، لكنه يقترب منها في كل مرة يخرج فيها على الانضباط وعلى منظماته . ان الشرط الموضوعي البسيط المنتج يحدد الانسان العيني وحاجاته ومشكلاته الحيوية واتجاه فكره وطبيعة علاقاته مع الغير : لكنه لا يبت في أمر انتمائه الطبقي . ولو انقطع وثاق التضامن لبقي العامل منتجاً ، كادحاً يدوياً ، اجيراً ، لكنه سيكف عن ان يكون بروليتارياً بكل معنى الكلمة ، اي عضواً فعالاً في البروليتاريا . ان الطبقات غير كائنة ، بل هي تُصنع صنعاً .

من يصنعها ؟ يقول البورجوازي : لست انا . وهذا صحيح . ففي ظل العهد القديم كانت الارستقراطية والملكية هما اللتين تحافظان على نظام الطوائف والمراتب ، وكانت الطبقات مؤسسات رسمية لها انظمتها الصارمة . وليس ثمة شيء اوضح من هذا : فصاحب الامتياز يتمسك بتسلسل هرمي يعلي من شأنه ، والمضطهَد يريد ان ينسف الأسوار التي تحبس عليه انفاسه . لكن صاحب الامتياز هو الذي ينفي اليوم، عن طريق انقلاب عجائبي، الطبقات، والمضطهَد هو الذي يتمسك بالاعلان عن وجودها . ان البورجوازية لم تفكر قط بفرض نظام طبقي صارم على العمال : بل عمل حقوقيوها على العكس على تطهير القوانين والدساتير بسرعة من كل ما يمكن ان يشبه لامساواة مبدئية . يقول الليبرالي : « إن المجتمع اللاطبقي الحقيقي هو المجتمع الرأسمالي » . واني لأعتقد ، بالفعل ، ان المثل الأعلى البورجوازي هو مجتمع لاطبقي واضطهادي – اي مجتمع يقبل فيه المضطهَد بالاضطهاد . والعملية التي تتابعها البورجوازية منذ مئتي عام ، معتمدة في ذلك على موارد لامتناهية ، انما هدفها منع العامل من ان يصبح بروليتارياً بتجريده من الوسائل التي تمكنه من ان يكون انساناً : وهي تسعى في

سبيل ذلك الى ابقاء الأفراد في حالة عزلة والجموع العاملة في حالة تسيّب، طالما ان الاضطهاد يميـــل الى ان يصبح برهان نفسه والى ان يجعل من المضطهَدين صنائع ليس لها من وظيفة إلا ان تبرره : ولهـذا يتوجب ان نتهم البورجوازية بمحاولة دائمة دائبة لتحويل العمال الى كتلة متسيبة . وبالمقابل ، انمـــا ضد هذه المحاولة تكوّن الطبقة العامـلة نفسها وتعيد تكوينها باستمرار : انهـــا حركة ، عمل ، ودرجة اندماجها تقاس بشدة النضال الذي تخوضه ضد المناورة البورجوازية . ان الطبقة ، التي هي وحدة واقعية للجموع والجماهير التاريخية ، تتجلى عـــن طريق عملية منطلقة من تاريخ محدد وترجع الى نيـــة . انها غير قابلة البتة للفصل عن الارادة العينية التي تبث فيها الحيـــاة ولا عن الغايات التي تنشدها . ان البروليتاريا تصنع نفسـها بنفسـها بعملها اليومي . فهي دوماً في حالة فعل ، بل هي فعل . ولو توقفت عن العمل لتفسخت .

أنا لا أقول شيئاً جديداً : فما ذكرته موجود لدى ماركس. فقد نوه بوضوح بأن تشابه الحاجات يعارض الافراد بعضهم ببعض : « ان تنظيم البروليتاريين في طبقة ... يحطمه في كل لحظة ... تنافس العمال فيما بينهم » . ومـــا يسمح للعمال بالتغلب على تناحراتهم إنمـا هو النضال ضد أرباب العمل : « إن البروليتاريا تمر بعدة مراحل من التطور ، ونضالها ضد البورجوازية يبدأ مع وجودها بالذات . وفي البدء يخوض النضال عمال منعزلون ... وفي هذه المرحلة يشكل العمال كتلة متناثرة في طول البلاد وعرضها ومنقسمة بسبب التنافس » . فلماذا يستطيـــع ماركس ، في هذا النص ، ان يتكلم دونمـــا تفريق عن البروليتاريا وعن « الكتلة ... المنقسمة ، المتناثرة » ليشير الى موضوع واحد ؟ هذا لأنه يجـــد لدى العمال تجاوزاً للوضع المعين لهم وكفاحية ستفضي بالضرورة الى اتحادهم . ان العامل يجعل من نفسه بروليتارياً بقدر مـــا يرفض حالته . وأولئك الذين يميلون الى الخنوع بفعل الجوع والانهاك والظروف ، يعاملهم ماركس بكلمات بالغة القسوة : فهم « بلداء » و « بشر دون » . لكنه لا يلومهم ولا يدينهم : بل يصدر عليهم حكماً واقعياً . إن العامل انسان دون عندما يقبل بأن يكون،

ما هو كائن عليه – أي عندما يوحد نفسه بذلك النتاج المحض للانتاج . وهذا الإنسان الدون لن يصبح انساناً إلا عندما « يعي انسانيته الدون » . إذن فواقعه الانساني لا يكمن في ما هو كائن عليه بل يكمن في رفضه ان يكون كذلك، أي في « تمرده على الانحطاط » . انه يستطيع ، بلا ريب ، ان يحاول الافلات من شرطه بوسائله الخاصة ، وعبور الخط والاندمـــاج بالبورجوازية . وبذلك يصبح من زمرة الخائنين لطبقتهم . ووجود أمثال هؤلاء الخونة هو الذي يقود ماركس الى أن يحدد بأن التمرد يجب ان يشتمل على مبدأ اتحاد: فما البروليتاري إلا العامل الذي يريد الحصول على تغيير لنفسه كما لجميع أقرانه على حد سواء . وإنما آنئذ فقط « ستكون مهمته الواقعية قلب شروط وجوده » . وبدءاً من هنا تختلط مراحل النضال بفترات التوحيد . فالبروليتاريا « في حالة حركة دائمة بفعل نتائج أعمالها » . والحركة هي التي تحافظ على ترابط العناصر المنفصلة . وما الطبقة إلا نظام متحرك : إذا توقفت ارتد الافراد الى عطالتهم وعزلتهم. وهذه الحركة الموجهة والقصدية والعملية تتطلب تنظيماً . ولهذا أمكن لماركس ان يتكلم عن « تنظيم طبقي » ، وهي صيغة تقودنا بعيداً عن تعريف بوخارين . فالطبقة هي أولاً شيء ينظم . لا لتتمتع بنفسها بـل لتبلغ أهدافاً عملية . ان التعريف الذي يعطيه ماركس عـــن الشيوعية يمكن أن ينطبق أيضاً على البروليتاريا : « انها ليست حالة مستقرة ، ليست مثالاً أعلى يتوجب على الواقع ان يتلاءم معه ... بل هي الحركة الواقعية التي تلغي حـالة الأشياء الراهنة » . ويمكننا بدءاً من هنا أن نفهم لماذا يحدد ماركس على حين غرة الطبقة بممارستها: « البروليتاريا ستكون ثورية او لن تكون » ، ولماذا يرفض في النهاية ان يميز بين العمل وكلية العوامل والجهاز الذي يجمع بينهـا : « لا تستطيع البروليتاريا ان تتصرف كطبقة إلا إذا كونت نفسها في حزب سياسي متميز » يقيناً ، ان نظـــام الانتاج هو الشرط اللازم لوجود الطبقـــة . والتطور التاريخي بأكمله وصيرورة الرأسمال ودور العـــامل في المجتمع البورجوازي هي التي ستمنــــع

البروليتاريا من ان تكون حشداً اعتباطياً من الأفراد . لكن هـذا الشرط غير كاف : إذ لا بد من الممارسة . ومن غير المهم ان تولد هذه الممارسة ديالكتيكياً او بصورة ديالكتيكية من الشرط البروليتاري : فخاصة الديالكتيك ان فتراته تتجاوز وتحتفظ في نفسها الفترات السابقة . والعامل ، بإنجازه مهمته الواقعية ، يظهر البروليتاريا ويجعل من نفسه بروليتارياً : وانه لما يسترعي الانتباه أن ماركس حين يقدم نوعاً من وصف فينومينولوجي للعامل المكافح يجد له خصائص جديدة كلياً تولد على وجـــه التحديد من النضال : فالبروليتاريون « يجعلون من نشاطهم الثوري أعظم أفراح حياتهم » ، وعالم الاقتصاد يخطىء خطأ فادحـــاً إذا مـــا ظن أن العامل يحسب حساب كلفة الاضراب : « (يكون بذلك قد تجاهل) ان قلوب العمال سخية ... » . وهذا يعني انهم يضعون واقعهم الانساني في الممارسة الجماعية أكثر مما يضعونه في حاجاتهم الشخصية . « حين يجتمع العمال الشيوعيون فإن هدفهم الأول المذهب والدعاية الخ . لكنهم يخلقون لأنفسهم من هنا بالذات حاجة جديدة ، حاجة الاجتماع ، وما كان يبدو وسيلة أصبح هدفاً » . والعامل بانتقاله من الكتلة الى الطبقة يبدل جلده : فإذا ما قاده ضغط الظروف او الهزيمة او الانهاك الى أن يولي مصالحه من جديـــد الأهمية الأولى ، سقط من جديد خارج الطبقة وعاد مـــا سبق ان كانه . تقولون ان الطبقة العاملة أظهرت للحزب الشيوعي استهجانها . فمن أي طبقة تتحدثون ؟ عن تلك البروليتاريا التي عرفها ماركس لتوه ، بإطاراتها وجهازها وتنظيماتها وحزبها ؟ لو كان هـذا صحيحـاً لكان توجب ان تؤكد وحدتها ضد الشيوعيين ، وان تتكشف كطبقة من خلال تبرؤها من الحزب الشيوعي . لكن من أنى لهـــا القادة والمنشورات والشعارات ؟ ومن أين تستمد ذلك الانضباط وتلك القوة اللذين يميزان طبقـــة مكافحة ؟ وهل يتصور أحـــد الطاقة التي ستحتاجها منظمات سرية حتى تحسن اداء هذه المهمة وحتى تحرض جميع الشغيلة ، من ليل الى مانتون ، على قادتهم ؟ إن جر « الجمـــاهير » الى التبرؤ الجماعي من الحزب الشيوعي عمليـــة ضخمة لا

يستطيع ان يقوم بها غير الحزب الشيوعي نفسه[١] .

٣ - وحدة الفعال لا تولد عفوياً

« بالتأكيد . لو جاء هذا التبرؤ نتيجة تحريض ، لتضاءل سرورنا به . فما حاجتنا الى تظاهرات موجهة وموحى بهـا ؟ اننا لا نتمنى ان نضع على رأس الجماهير طغاة جدداً ، انما نتمنى ان نعيد اليها الحرية : إن رد فعل ٤ حزيران ليست له في نظرنا تلك الأهمية الكبيرة إلا لأنه كان عفوياً » .

ثمة شائعة تقول ان عدو الشيوعية ادرك هدفه : فمنذ دموع روسو والعفوية تحظى بتأييد مسبق : فالحركة الأولى هي الصالحة ، والانطباع الأول هـو الانطباع الذي يظل سائداً . وبأي كبرياء صبيانية طائشة نظهر أكثر حقائقنا سرية لأنظار جميع الناس : « أجل انني انا ، وهذا من فعلي أنا ، هذا انا ، انني هكذا » . وفي هذا المزيج من الطبيعة والحرية تخضع الحريـة للطبيعة : فالمرء يبتكر نفسه على ما هو كائن عليه ، والاندفاعة العفوية ، المقطوعة الصلة بالعادات والاصول ، والمتلائمة مع الظروف من غير ان تكون محددة بها ، هي بداية ، هي بداية ، لقطة ، لكنها تعكس لنا ما هيتنا المتفردة . وهذا معناه ربط العمل بالكينونة ، الفعل بالعاطفة ، المنظور باللامنظور . وانسان « القفزة الأولى » يفلت من تلك الضرورة القاسية التي تحتم عليه ان يوحد باستمرار ما يفكر به وما يحبه ومـا يفعله : فوحدة شخصه سابقة الوجود ، وهي تتفتح كوردة في الدياجير ، والمؤرخون سيكتشفون في أفعاله وحدة اتجاه سرية . وبـدلاً من ان يصنع نفسه ، ينزع عنها أوراقهـا ويلتقطها . وهذا يكفي : فالذات قد أوحت بأدب بالغ الاهميـة ، والرجوع اليه قد يثير الاشمئزاز لكنه مثمر .

---

١ - في تشرين الثاني - كانون الأول ١٩٤٧ ، عند الاستفتاء المتعلق بالاضراب العـام ، حدثت مقاومات ، لكنها لم تكن فعالة وناجعة إلا في المصانع التي لا يوجد فيها تنظيم تابع للاتحاد العام للشغل (النقابات المسيحية ، الخ) .

والجديد – ليس جديداً للغاية : قرن واحد – هو ان العفوية تستخدم لأغراض سياسية . ولقد تم ذلك تلقائياً . فقد كانت الوقائع الاجتماعية تعامل كأشياء ، فأصبحت تعامل كأناس : فإذا بالجماهير تصبح من ذوات القفزة الأولى ! ان عفوية الجماهير، الخيّرة ، العادلة ، الأصيلة ، تنال عطف جميع الناس ، وحكمها لا استئناف فيه كحكم الكلاب والاطفال . والحكومة التي ستعارضها هي حكومة مجنونة وشريرة حقاً . انظروا : لو ثبت في تونس ، هذا اذا لم نشأ ان نأتي بمثال من بلد ابعد ، لو ثبت ان السكان يتمنون عفوياً رحيلنا، فما من شك في ان رأيكم سيكون الرحيل فوراً . لكن الحقيقة المحزنة هي ان الاضطرابات قد افتعلت . ولنقم المحاكمة العقلية : إن التنظيم يخنق اندفاعات القلب الحرة ، اذن فالعفوية الحقيقية لا تتحمل ان تكون منظمة . اذن فالعصيان لا يمكن ان يكون عفوياً : على وجه التحديد لأنه لا وجود لعصيان بلا رئيس . تسألون ما العفوي ؟ انه واضح : القبول الحر بالاضطهاد . وإياكم والاعتقاد ، بالأصل ، ان الاحزاب الجماهيرية تفكر على غير هذا النحو : فما تفضله ، في هذا النظام من الافكار ، هو العفوية الموجهة . وهي لا تتردد في ان تصور المظاهرات المعدة ، المؤطرة ، الخالية من المفاجآت وكأنها سيل هائج . لكن ما تبغضه ، على سبيل المثال ، هو اللامتوقع وجميع تلك الفورات الغبية التي تتجاوز الزعماء وتفرقهم : ان مثل هذه الفورات انما يفتعلها الخصم . وإلى اليوم أيضاً ما يزال الناس يعيدون بمرح قراءة صحف تموز ١٩٣٦ : كانت الجماهير ما تزال تحتفل بانتصار الجبهة الشعبية ، فخطر لها ان تحتل المصانع . وتظر كل الى نفسه وتساءل : من الذي يشد الخيوط ؟ وقال ارباب العمل : انهم الشيوعيون . وقال عامل شيوعي لسيمون ريل[1] : انهم أرباب العمل . ولقد تحدث الناس أيضاً عن هتلر والطابور الخامس . كان المجرم في نظر صحيفة « لو تان » توريز ، وفي نظر توريز تروتسكي . لكن ما كان ليخطر ببال أحد

---

١ – كاتبة فرنسية كرست حياتها وكتابتها للعدالة الاجتماعية (١٩٠٩ – ١٩٤٣) . « م . »

آنذاك ان ينسب الحركة الى عفوية الجماهير : تصوروا اذن ! حركة تولد من تلقاء نفسها ، ولا زعماء لها ؟ لا بد أن في الأمر شيئاً .

اما يوم ٤ حزيران فهو ، على العكس ، مطمئن تماماً : فالجماهير لم يصدر عنها اي رد فعل البتة . لكن : هذه هي العفوية الممتازة الهامدة حقاً . ولقد هللت الصحافة المعادية للشيوعيين : « صمت بليغ : لقد تكلم الشعب » . وعبثاً يعترض المرء عليها بالقول ان الارادة الجماعية لا ترجع إلى مجموع العفويات الفردية. ٩٨٪ من الاستنكافات، أهذا لا يعني في نظركم شيئاً ؟ ألا تحسون بنوعية هذا السكوت ؟ ألا تشعرون بأنه صرخة ممزقة ، وقد تكون اكثر الصرخات التي سمعتها الآذان البشرية يأساً ؟ ان الوعي العمالي يمر بفترة تخشب وتصلب . فأين يسكن هذا الوعي التوتري ؟ في اللاشعور ، بالطبع . فهو انما ههنا ينتصب منتفخاً وغير منظور في البداية ليتشكل فيما بعد في ألف رفض وألف .

اذا اردت ان تصنع طبقة من غير أن تغادر حجرتك ، فالوصفة سهلة : خذ الكتلة — التي هي المدد الخالص — واجعل منها جمهوراً — وهو عضوية بدائية . واجعل من الجمهور شخصاً ، وعلى سبيل المثال متـولة ملهمة . فلا يبقى عليك إلا ان تحمل لغز وحيها . واذا لزمت الصمت ؟ لا تخف : فهناك وسائل كفيلة بحملها على الكلام . وفي الحالة التي ندرسها هنا ، يبدو عليها وكأنها تريد ان تلزم الصمت : لم تكن لدى اي عامل من العمال الذين رفضوا الاضراب نية صريحة في استنكار موقف الحزب الشيوعي . لكن لا اهمية لهذا : فاليسار المعادي للشيوعية يذكرنا بالمناسبة بفكرة لماركس : ليس المهم ما يعتقد البروليتاري ان يفعله ، انما المهم ما هو مكره على فعله . وبديهي انه يمكننا ان نعطي هذه الصيغة معنى ذا نزعة موضوعية خالصة ، وهذا بالذات ما يبدو ان ماركس فعله : فالأفكار التي نكونها عن أفعالنا لا تعدل لا منطقها الباطن ولا بنيتها الموضوعية ولا نتائجها التاريخية . لكن هذا تفسير خطر : لأننا لو أخذنا به لوجدنا انفسنا منقادين إلى الاستنتاج بأن بعض العوامل الموضوعية قد أبقت على العمال ، يوم ٤ حزيران ، في حالة تشتت ، وزادت من درجة تحوفهم الى

كتلة . ولو كان علينا الا نأخذ بعين الاعتبار سوى افعال الوعي ومضامينه ، فالامَ سيؤول الدفاع البروليتاريا الثوري ؟ وما المصير الذي ستنتهي اليه كفاحيتها ؟ هل رأينا قط من بروليتاريا بلا كفاحية ؟ ألم يكن ماركس يقول انها اما ان تكون ثورية او لا تكون ؟ والحال انها كائنة ، وواجب علينا ان تكون ، والا فقد الماركسيون المادون للشيوعية أملهم ومبرر وجودهم . إذن فلا بد ان يوجد فيها اندفاع ما ، وإن كان مخدوعاً ومضللاً ومزيفاً من قبل الاشرار . أليس ثمة أثر من هذا الاندفاع ؟ هذا لأنه ليس بمتناول حواسنا مباشرة . ويكفي أن نوجه صيغة ماركس نحو التحليل النفسي : ان الوعي كذب ، وأكاذيب هي أسباب العمل التي يعطيها لنفسه : فتحليل الأفعال ودلالتها الذاتية يرجع الى العفوية العميقة التي هي مصدرها . وإذا لم تقبلوا بهذه العفوية ، استنتجتم بكل بساطة ان استنكاف العمال وترددهم وشكوكهم تعبير عن حالة إنهاكهم الموضوعية . لكن اذا ما بدأتم بالتفكير بأن البروليتاري يجب ان يكون في كل زمان ومكان ثورياً واذا ما فهمتم موقفه على ضوء رسالته التاريخية ، فعندها لا يمكن للفتور العمة والخمول اللذين برهن عليهما ان يكونا سوى المظهر السطحي والكاذب لاندفاع عميق . فطالما انه فعال بالضرورة ، فإن سلبيته هي شكل العمل الذي اختاره لأنها متلائمة مع الظروف ، وفي لغة العفوية يصبح الاستنكاف لوماً . وفي نظر الماركسي المادي للستالينية لا يمكن لممارسة الجماهير الثورية ان تختلط بالمناورات التي تنفذها تحت قيادة الحزب الشيوعي ؛ ولما كانت الجماهير لا تنفذ من عمل غير هذه المناورات فإن ممارستها الحقيقية تتجلى عن طريق ما لا تفعله . ولقد رأينا لتونا الحرية تختلط بالطبيعة : كذلك يتمازج هنا الموضوعي والذاتي ويظهر في النهاية واقع غريب هو في آن واحد وحدة الجماهير الموضوعية التي لا تقع تحت الحواس باعتبار انها تستنتج من تشتتها ، واندفاعها الذاتي اللامنظور باعتبار انه يستخلص من سكونها المؤقت . وهذا المفهوم الملتبس المتناقض يقترح علينا فيما بعد باسم الطبقة : فكل شيء يجري كما لو انهم يطلقون اسم طبقة على عفوية الجماهير الذاتية المفهومة من الخارج

على أنها وحدتها الموضوعية . ولما كانت العفوية تقف خلف الوجدانات الفردية فإن الوحدة الموضوعية ستقف خلف تشكلت هذه الوجدانات . والتجربة بالطبع تتابع بلا كلل تقديم الغبار نفسه الينا . لكن لا أهمية لهذا : فالطبقة باعتبارها صفة تصورية ، واختياراً سابقاً على التجربة ، ومطلقاً متمدداً ، ووحدة بالقوة والحق للتعدد ، ومبدأ ذرياً يخترق المادة الجامدة ، هي التي تنتج وليس البشر الذين ينتجونها . وبذلك يكون الهدف قد أدرك .

ذلك ان هذا ما كانه الهدف . فمنذ مدة من الزمن كتب السيد لورا[1] بتلك السذاجة التي يرجدها الحمقد احياناً : « اذا ما عزلنا القادة الشيوعيين عن الناس الشرفاء ، وإذا ما قطعنا صلتهم عن جسل الأمة والطبقة العاملة ، نكون قد استطلنا في يدهم بسرعة وحكمنا عليهم بالعجز ». وابتسم أعداء الشيوعية بمرارة: « قطع الصلة» هذا تسرع في القول : اعطونا اولاً السكين ». والحال ها هم الناس الشرفاء يبتعدون عن الحزب بفعل هزات صغيرة : ان تسلطه على الأرواح يأتيه من موافقتها، ويكفي ان ترسم اشارة الصليب حتى يضطر الى الهرب الى الجحيم من جديد .

على رسلكم . لكن حذار من ان تبرهنوا بالعبث على ضرورة الحزب الشيوعي . تصوروا هذا : إن الطبقة العاملة فيها مس من الشيطان الرجيم ، فتُطرد الروح الشريرة ، وفي اللحظة التي يطير فيها شيطانها تفتح عينيها وتتحطم شر تحطيم ! فهل تتخيلوننا بلا بروليتاريا ؟ الحق ان هذا الاحتمال لا يخيف الجناح اليميني من اعداء الشيوعية الذي لا ينفي عن الترداد بأن العامل مجنون يحسب نفسه بروليتارياً ، لكن الجناح اليساري لا يستطيع حتى ان يتحمل فكرة ذلك : فالماركسي غير الستاليني ، مع اختفاء سيدته الجميلة العذبة الشفقة ، يفقد كل شيء وأولاً شرفه في ان يظل وفياً بلا أمل . ورغماً لاستعماله الخاص وضع هذا المفهوم التخييري : الطبقة — الاندفاع . فلو نظرتم الى العالم من هذا المنظار ، لرأيتم الطبقة في كل مكان وحتى لو كانت البروليتاريا

---

(١) - لورا : « من الكومنترن الى الكومنفورم » .

متفتتة شر تفتيت . وطالما ان المطلوب تجريد الحزب من فضل تحقيق وحـــدة العمل العمالي ، فسوف يتم وضع المبدأ السحري لهذا التوحيد في مكان ما بـــين نظام الانتاج الموضوعي وذاتية المنتج ، كما توضع العفوية الفردية بين الكينونة والفعل ، والليبيدو الفرويدي بين الجسد والوعي الصاحي . وهذه البرولیتاريا المطاطية ، القوية بمرونتها ، تستطيع ان تتطاول من غير ان تنقطع أو ان تتكوم من غير ان تنهار : انها تتمدد وترق ، وتنساب عـــبر فرجات قفصها ، وتتجمع في الخارج او تنضغط وتتحرر وتخترق قضبان الجهاز وتذهب لتستعيد حجمها الطبيعي بعيداً ، بين اصدقائها الحقيقيين .

ان هذا اللغو يرضي التفاؤل الاشتراكي كما كانت البهلوانيات حول « الطبيعة الطيبة » ترضي التفاؤل البورجوازي : وهذا سبب آخر من الأسباب التي تدعونا الى الشك فيه ، ذلك ان التفاؤل والتشاؤم وجهان لتضليل واحد . فحين ترتفع نسبة الموت الاختياري ، فهل نرثي لما اصاب « ارادة الانتحار القوميـــة » من تصلب ؟ وحين تنخفض ، فهل ينبغي ان نهنىء انفسنا على تصلب غريزة الحياة القوميـــة ؟ لا تقولوا لي ان الطبقة موجودة وأن الأمـــة ليست إلا تصوراً من تصورات العقل ، لأن هذا هو على وجه التحديد المطلوب اقامة البرهان عليه . ذلك انكم تعتمدون على تماثل الطبقة (أي على تماثـــل الشروط) لتبرهنوا على عفويتها ، وعلى عفويتها لتقيموا الدليل على وحدتها . لكن دعونا من هـــذا ، ولنقبل بأن استنكافات ٤ حزيران تعبر عـــن تبرؤ جماعي ، ولننظر أين يقودنا هذا .

افتح صحيفة تروتسكية تعلق على الاحداث الأخيرة[1] . ان اصل الاستياء العمالي ، في نظر أحد محرريها وهو السيد جيرهان ، يعود الى عام ١٩٤٤ : فبين التحرير ونهاية عام ١٩٤٥ اتيحت للجماهير عدة فرص لاستلام السلطة ، لكنها ارغمت على اضاعة فرصتها . وعلى هذا فإن قادة الحزب الشيوعي قد مارسوا « العنف على غريزة ملايين المناضلين وديناميكيتهم الثورية » . ترى هل كانت

١ - « حقيقة العمال » - تشرين الأول ١٩٥٢ .

ديغول سيسحق الطبقة العاملة لا بالمرة : هـذا ما يجيب به السيد جيرمان الذي يذكرنا بـ « شلل البورجوازية التام » يوم التحرير . وبالأصل لم يكن المطلوب اقامة دكتاتورية البروليتاريا . انما كان المطلوب سبر غـور « القدرة الشعبية على التعبير ... وخلق وتطوير بذور سلطة جديدة شكلتها الجماهير بالأصل من تلقاء نفسها (لجان التحرير ، لجان المصانع الـخ) » . ولم يستطع المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي ان يقطف الثمار حين جاءت، ساعته لأن ستالين ضحى بعمال أوروبا على حساب رغبته في التعاون مع الرأسمالية الأميركية[1] .

ان هذا التفسير يساوي اي تفسير آخر . لكن لنلاحظ على كل حال انه ليس فيه من الماركسية شيء . والحق ان التروتسكية تعـاني بالرغم عنها من المصير المشترك لجميع المعارضات : ان الحزب الحاكم واقعي المذهب باعتبار انـه يؤكد ويزعم انه يثبت ان الواقعي هو وحده الممكن ، وان السياسة الوحيدة الممكن اتباعها هي السياسة التي ينتهجها . اما المعارض فيصرح انـه كانت هناك سياسة اخرى واحدة على الأقل وانها على وجه التحديد هي الأحسن، وهذا ما يكرهه، رغماً عن كل شيء ، على اتخاذ موقف مصبوغ بالمثاليـة ان كثيراً وان قليلاً : فهناك ممكنات لا تتحقق ، والصيرورة الواقعية تكف عن ان تكون نبـراس الانسـان ، باعتبار انما هو غير كائن أقرب الى الصحة وأنجع واكثر تلاؤماً مع المصالح العامة مما هو كائن ، والتحليل المنهجي للوقائع يقود الى اللاكينونة (ما لم يحدث) وفي النهاية يرتد تفسير التاريخ باستمرار الى فرص ضائعة ليس لها من وجود إلا لأنها مفكر بها. وهذا ينطبق على الحالة التي ندرسها هنا كل الانطباق. فحين يكتب السيد ديكنو : «الحزب الشيوعي ... يعي انه لم يترك اي امكانية

---

١ . توبيخ كلاسيكي : ففي نهاية الحرب الأولى اتخت الاقلية في الاتحاد العام للشغل باللائمة على الاكثرية لأنها ضحت بمصالح الطبقة العاملة على حساب مصالح الأمة . وكتب غريفيوله : « كانت البورجوازية تعتقد بأنها ملزمة بالقبول بتضحيات تتية لصالح البروليتاريا ... لكنها سرعان ما تمالكت نفسها وانصرفت » (شباط ١٩٢٠) . وكتب مونتوسو في نيسان ١٩٢٠ : « ان الطبقة العامـة مهنا ، ترتعش ... لكن عفواً ! ايلا والخروج على مبدأ التعاون ، فالأمـة في خطر ... » .

تاريخية تفلت منه ... ولو سار .... في غير الطريق الذي سار فيـــه ، لأمكن للفاشي ديغول ان يأخذ من ذلك ذريعة ليسحق ، بمساعدة الاميركان ، الطبقـة العاملة[1] ... » ، يسهل على السيد جيرمان أن يسخر منه : ذريعة ؟ مـا معنى ذلك ؟ « ان الطبقات الاجتماعية في نظر الماركسي لا تبني سلوكها على ذرائع ، بل تبعاً لمصالحها وعلاقات القوة التي تسمح ببلوغ هذه المصالح » . ومع ذلك فان ديكلو يظل اكثر وفاء لروح الماركسية من جيرمـان : فماركس بعيد عن نفي وجود الممكن ، لكنه يقصد به لحظات العمل المستقبل كما تتجلى لنا اثناء الإعداد له . وواجب على القادة والمناضلين معاً ان يتمكنوا من القول زمن يلتفتون نحو الماضي : « لقد فعلنا كل ما كان ممكناً (اي لقد امتد عملنا الى اقصى ما سمحت له بـــه الظروف) – ولم يكن من شيء ممكن غير مـــا فعلناه (فالحلول التي استبعدناها اثبت الحدث انها لم تكن عملية) » . ان هذا الموقف يتجه الى توحيد الواقع والعمل . فكل ما هو واقعي ممارسة ، وكل ما هو ممارسة واقعي . وهذه هي ، بلا ادنى ريب ، المبادىء التي تستلهمها ايضاً التروتسكية . لكن السيد جيرمان ، بصفته معارضاً ، يتطلع الى تثبيت الحقائق التي تنقضها : ١ – كانت امام الجماهير في فرنسا امكانية مباشرة لاستلام السلطة : وهـذه الامكانية كانت اكثر الامكانيات انسجاماً مع مصالحها واقصر الطرق الى الثورة العالمية ، وباختصار كانت الامكانية التي تلخص في ذاتها اكبر قدرة من الواقعية والفعالية ، ولهـذا فإنها الامكانية التي لم تتحقق . ٢ – لو استولت الجماهير على السلطة لما كانت البورجوازية تحركت . إن موقف السيد جيرمان وسط بين موقف المناضل الذي يحلل الوضع الراهن ونصب عينيه القرار الواجب اتخاذه ، وبين موقف النظري الذي يستخلص دلالة الاحداث الماضية . وصحيح انه يحق للأول ان يقوم بجرد الامكانيات ، لكن تحليله خاضع لضغط اللحظة ، مهتد بضوء الأحداث ، معدل بـ « الصيرورة التاريخية » ، مقوّم باستمرار من قبل التجربة ، وهو اخيراً يختبر صحته في الممارسة نفسها . وبالمقابل يستطيع النظري ان يزعم انه يسلمنا حقيقة

---

١ - خطاب تاتكيا ، ٢٨ ايلول .

موقوفة بشرط الاقتصار على ما هو كائن وعدم التطلع الى ما كان يمكن ان يكون[1] . ان السيد جيرمان يبني رأيه على واقع ميت . وهو لا يستطيع ان يزعم انه لا ينطلق إلا باليقين في الوقت الذي يحاول فيه ان يبين النتائج الممكنة لما لم يكن . اما هدف بحثه، الذي لم يتمتع بوجود فعلي ، فانه سيكون موضوعاً مجرداً لفكرة من الافكار . وبكلمة واحدة : انه سيكون لأنه مفكر به . وهكذا يتخلى السيد جيرمان عن الخطط الماركسي الصرف لحساب نزعة مثالية لجيالية المذهب تستند استدلالاتها في غالب الأحيان الى محض تعميات جريئة . وبالأصل ماذا ينبغي ان نفهم من هذه الكلمة الملتبسة «الممكن» ؟ كان في امكان الطبقة العاملة ان تنتصر : ليكن ! لكن بأي شروط ؟ كانت علاقات القوة في صالحها ، وكانت مصالحها تدفع بها الى استلام السلطة لكن زعماءها منعوها . لنقبل بذلك : لكن هل كان في امكانهم ألا يفعلوا ذلك ؟ ما الذي منعهم على ما هم كائنون عليه ؟ أخضوعهم للمكتب السياسي ؟ لكنكم تفضحون هذا الخضوع منذ سنوات كثيرات . بل ان هذا الارتباط بموسكو هو الذي يميز في رأيكم الحزب الشيوعي الفرنسي . فهل كان في امكانه ان يبدل بنيته الاساسية عام ١٩٤٤ ؟ وما معنى هذا ؟ اعرف انكم تميزون - لا اقول انكم على خطأ - تياراً يسارياً في الحزب وانكم تقولون بتلك النظرية المائلة عن وجود حزب شيوعي نزري : لكن كيف كان في مقدور التيار ان يفرض نفسه غداة التحرير ، يوم كان كل شيء ينتظر من الاتحاد السوفياتي ، ويوم كانت البورجوازية تبدو وكأن الامر أسقط في يدها ، ويوم كان الكثيرون ما يزالون يؤمنون بالنزعة السلمية الاميركية ، اذا كان صحيحاً ، كما تقولون ، ان قيادة الحزب ما تزال تنجح الى اليوم ، حتى وهي في ذروة تقهقرها ، في فرض الصمت على تذمرات القاعدة ؟ سياسة الاتحاد السوفياتي اذن ؟ هل ستقولون ان الذنب يقع عليها ؟ ربما : لكن في اي الاوقات كان تغييرها ممكناً ؟ أليست هي انعكاساً لمجتمع محدد ،

1 - اتكلم عن المؤرخ الماركسي لا عن المؤرخ البورجوازي التي تولق تصوراته المتغيرة بين التلازم والعدي القدم ، بين الحرية والحتمية على حد سواء .

بناه الاقتصادية والسياسية ، بمثاله الاجتماعية وتوتراته الداخلية ؟ هل ينبغي ان نرجع القهقرى الى تاريخ موت لينين ؟ ان البعض يفعل ذلك : فاللعبة في رأيه قد تمت واصبحت بحكم الخاسرة منذ ١٩٢٣ – ١٩٢٤ : ففي خريف ١٩٢٤ ، بعد هزيمة البروليتاريا الالمانية ، تكلم ستالين للمرة الاولى عن « الاشتراكية في بلد واحد »[1] . وفي ذلك اليوم بكت الملائكة . فلكأننا عدنا الى الخطيئة الاصلية والى مناقشات لايبنز مع آرنو الاكبر[2] حول المفردية : ان ستالين يصبح آدم الاب صغير العصر الذري . وهذه النظرية مفهومة : إذ من الممكن ان نقبل بان الظروف التاريخية تتوافق احياناً لكن بصورة نادرة للغاية بحيث تسمح بعمل انساني فعال يقرر مصير الاتجاه التاريخي . واذا كانت الفرص غير متوفرة ، فمن الممكن انتظار عشرين عاماً ، بل ربما نصف قرن ، حتى تعود هذه الفرص . وعلى هذا ستكون التروتسكية فن انتظار . لكن إلامَ تؤول آنئذ « امكانية » ١٩٢٤ ؟ كانت اللعبة قد تمت يومذاك واصبح مستحيلاً على الارادة ان تتدخل . واذا امكن لبعض المتحمسين ان يعتقدوا بأنهم سيقودون الطبقة العاملة الى النصر ، فهذا لأنهم رأوا تفاصيل الموقف من غير ان ينظروا اليه في مجموعه .

ويزعم آخرون على العكس – ولعل السيد جيرمان منهم – انه من الممكن، حتى لو كانت الفترة فترة ثورة مناهضة ، ممارسة تأثير متواصل على مجرى العالم بشرط أن يظل المرء مستعداً للاستفادة من جميع تناقضاته . وهم في موقفهم هذا يلقون الدعم من ماركس وانجلز اللذين كلاهما يقبلان بإحتمالية التفاصيل[3] ومن لينين الذي كان يرفض ان يطبق على دراسة التاريخ اليومي المبادىء والمناهج

---

١ – معروف ان المأخذ الاكبر للتروتسكيين على الستالينية هو قولها بنظرية « الاشتراكية في بلد واحد » ويطرحون كبديل لهذه النظرية مبدأ « الثورة الدائمة » . (هـ. م)

٢ – لاهوتي فرنسي دافع عن الجانسينيين ضد اليسوعيين (١٦١٢ – ١٦٦٤). (هـ. م)

٣ – اي تعيين صارم لكن ظرفي للواقعة الخاصة . وليس من المهم ان تكتفي هذه الوقائع الخاصة بأن تبدو وان تستعيد مجرى التاريخ . التي أشير اليها حرف علة – الجامعة العام . لكن يظل واضحاً بأن للعنصر الخاص بخاص. وليس لكم الحق في ان تعيدوا الواقعة الى مكانها في التاريخ العام ما لم تفكروا القوانين متكاملة من خلال خصوصيتها .

التي كانت تخدمه في حل ألغاز المجموعات الكبرى من التاريخ العالمي . ومسموح لهم ان يعتقدوا ان دياجير التـــاريخ الصغير وتأرجحاته ستتلاشى امام نظرة المؤرخ المقبل . ولعلنـــا سنتمكن ذات يوم من رؤية مكان ودور الاحـــداث الراهنة . ولعلنا سندرك آنذاك انها كانت الوحيدة الممكنة . لكن طالما ان التاريخ لم يكتمل ، وطالما اننا نرى الخاص من خـــلال منظور خاص ، فإننا لا نستطيع ان نفسر تفاصيل سياسة من السياسات بالرجـــوع دونما توسطات إلى الاعتبارات العامة . واذا كان العالم صيرورة ديالكتيكية كل حركة من حركاتها المحلية على صواب في حركة المجموع، فسيستطيع التروتسكيون ان يفهموا سياسة ستالين ، لكن كيف سيفعلون حتى يدينوها ؟ فهي ستكون على أساس هـــذا الفرض في كل زمان وفي كل ظرف ما كان عليها وما كانت تستطيع ان تكونه ، لا أكثر ولا أقل . ولعله سيتوجب آنذاك ان نلاحظ ان ورق اللعب جرى توزيعه بصورة تجعل الاشتراكية مستحيلة من البداية ، او على العكس ، كما يقول ميرلوبونتي : « ان الطريق الذي يبدو لنا متعرجاً قد يظهر بعد ان تدور عجلة الزمان وبعد ان يتكشف التاريخ الشامل على حقيقته انه كان الوحيد الممكن بـــل أيضاً أقصر طريق ممكن » . وعلى كل الأحـــوال يقف الحزب الشيوعي الفرنسي بعيداً عن قفص الاتهام . ولا وجود ولا يمكن ان يكون هناك وجـــود لممكنات غير متحققة حتى على صعيد ذلك التـــاريخ المتأرجح الذي تـأتي فيه الأحداث دوماً متأخرة او متقدمة على الموعد ، وتظل ألغازها غير قابلة للفك جزئياً ، والذي يمكن فيه لنزاع من النزاعات أن يظل ، إذا لم تتوفر له عـــلة موجبة ، دفيناً مطموراً مدة طويلة من الزمن كقنبلة تأخر انفجارها ، مهما يكن عمق اسبابه . والنزاع ، في الحالة المدروسة هنا ، موجود : انه صراع الطبقات . وميزان القوى محدد : ففي عام ١٩٤٤ كانت امـــكانية عملية لاستلام السلطة متاحة للطبقة العاملة . فما الناقص اذن ! العلة الموجبة : اتجـــاه آخر للسياسة الشيوعية .

كل ما هنالك ان المعـــارض الماركسي يقف متوزع النفس بين اطروحتين :

فحتى يبرهن لـ « الستالينيين » عن اخطائهم او اكاذيبهم يريد ان يأتي بدليل لا يدحض : لهذا فهو سيستخدم مناهج واعتبارات التاريخ الديالكتيكي العريض ، وحتى يثبت على العكس انه كانت هناك امكانية لعمل آخر في هذا الظرف أو ذاك يلجأ الى الاستدلالات الاحتمالية المذهب . فحين يرفض السيد ديكلو ان « يقدم ذريعة » للقمع ، يبتسم السيد جيرمان : ذريعة ؟ « منذ متى ينتظر الفاشيون ذرائع ليضربوا الحركة العاملة ؟ » . وخلاصة القول ان الحزب الشيوعي يبرهن على سذاجته إذ يعتقد انه كان ممكناً لديغول ان يتصرف على غير الصورة التي تصرف بها ، وان هذا العمل لم يتحقق نظراً لأنه لم تتوفر له المناسبة ! ويجيب السيد جيرمان : « عندما تكون علاقات القوة متحددة ، لمن السهل دوماً ايجاد « ذريعة » ، « مناسبة » . انظروا كيف تقوم المشادة : ان ديغول يتضاءل حجماً بشكل شبه ملموس ويفقد ملامحه الخاصة ، وفي البدء يصبح الفاشي – وما الفاشي إلا الاستخدام التام للسلطات التي يملكها لصالح المصالح التي يخدمها . ثم يذوب في طبقته فإذا بنظرنا يعانق البورجوازية نفسها . لم لا تضرب الحركة العاملة ؟ لأنها لا تملك القوة التي تمكنها من ذلك . ان كل قوة تميل ، من تلقاء نفسها ، إلى إظهار اقصى حد من مفعولها اخذاً بعين الاعتبار القوى الأخرى التي تمارس فاعليتها على النقطة نفسها : والحدث ، محصلة القوى المتباينة ، هو دوماً كل ما يمكنه ان يكونه . اما عوامل التاريخ المحلي فقد تبعثرت واستبعدت : أصل وطابع الجهاز الحاكم ، البنية الواقعية للبورجوازية عام ١٩٤٤ ، المصالح الخاصة ، الآراء المسبقة ، المعتقدات ، الايديولوجيات ، ضرورة السياسة اليومية . ان ديغول يعتبر فاشياً عام ١٩٥٢ ، إذن فقد كان فاشياً ايضاً عام ١٩٤٤ . فهل كان في وسع هذا الجنرال ، القليل التأييد بالتأكيد للجمهورية لكن الذي وعد بإعادة توطيدها ، ان يربك نفسه في تلك الفترة بتناقضات شخصية ؟ ان هذا شيء لا تأثير له على مجرى الاشياء . وهل كان في وسع البورجوازية ، غداة احتلال بالغ الضرر ، ان ترى ان من الأفضل لها التواني وعدم اللجوء إلى العنف مع بقائها دوماً على استعداد لاستخدامه ؟ لا اهمية لهذا .

فطالما ان الطبقة البورجوازية قد فعلت ما فعلته ، فهذا معناه انهـــا ما كانت تستطيع ان تفعل غير ما فعلت . حسناً .

انني اطبق هذه المبادىء على الطبقة العاملة : فـأنا لم يصل الى علمي انهـــا استلمت السلطة، لكن يقال لي – واعتقد ذلك – انه كانت لها مصلحة في استلامها وان علاقات القوة كانت في صالحها : اذن فلا بد انها استلمتها من غير ان يعرف أحد بذلك . يقول السيد جيرمان : على الاطلاق ! كان في وسعها ان تستلمها ، لكنهم قادتها الذين منعوها من ذلك . عجباً ! ومن هم هؤلاء القادة ؟ « انهم من بين قادة الحزب الشيوعي الفرنسي اولئك الذين يتمسكون بما نسميه بالامتثالية البيروقراطية ، أي أولئك الذين هم دوماً على استعداد للاتجـــاه يميناً أو يساراً تبعاً لحاجات دبلوماسية الكرملين والذين هم على استعداد للتضحية بمصالـــح الجماهير الجوهرية لحساب هذه الحاجات[1] » . يا للأشرار ! لكن ما السبب في انهم هكذا ؟ لقد فهمت لتوي ان الفاشي هو التعبير الصرف عن طبقته وادانها الثقل . كما انني افهم ان « البيروقراطية » السوفياتية ، عندما اقرأ تروتسكي أو « الحقيقة » انما تعبر عن مصالح بعض الفئات الاجتماعية، وانها مشروطة بالمجتمع المنبثقة عنه بالذات . بـل انني ألاحظ الملاحظة التالية التي وردت في « الثورة المغدورة[2] » : « إن المجتمع السوفياتي الراهـن لا يستطيع ان يستغني عـــن الدولة ولا حتى – الى حد ما – عـن البيروقراطية . وليست هي بقايا الماضي البائسة التي تخلق هذا الوضع بل هي ميول الحاضر القوية » . واليكم ما يطمئنني تماماً بصدد المكتب السياسي : إن شخصية اعضائه او اراداتهم الخاصة ليس لها من اهمية. انما هو الاتحاد السوفياتي ذاته الذي يعطي نفسه بهم ومن خلالهم الجهاز الذي هو بحاجة اليه في المرحلة الراهنة[3] . لكن بيروقراطية الحزب الشيوعي

١ – اقتبست هذا التعريف من مقال السيد فرانك .

٢ – كتاب مشهور لتروتسكي فضح فيه البيروقراطية الستالينية . «م.م» .

٣ – لا يزعم السيد جيرمان – لنكن عادلين – انه كان ينبغي استلام السلطة : « فلي هذا مغامرة » . انما يقول ان الطبقة العاملة كانت تلك القوة والاندفاع اللازمين للاستيلاء عليها. لكنه لو كان قائدها ، فبأي شيء كان سيلجمها بعد ان يكون قد جرها على هذا الطريق ؟

الفرنسي من اين تأتي ؟ انها لا تستند الى الجماهير طالما انكم تتهمون المكتب السياسي « بتضحية مصالحها الجوهرية وبممارسة العنف على غرائزها الثورية » . ولا الى بنية مجتمعنا طالما انه مجتمع بورجوازي والحزب الشيوعي لا يلعب فيه دور حزب حاكم ، ولا الى ميزان القوى طالما ان الميزان كان ، في نظركم ، في صالح العمل ؟ اما عن التبعية للاتحاد السوفياتي ، فواحد من أمرين : إما ان تبينوا انها لازمة اليوم لحزب ثوري – وآنئذ يختفي كل « ممكن » وتكونون قد ربطتم بأيديكم مصير البروليتاريين بمصير الجمهوريات السوفياتية – وإما ان تقولوا، كما فعل بورديه ، انه من الممكن التملص من هذه الهيمنة : وفي مثل هذه الحال يتفسر تحول الحزب الشيوعي بأخطاء فردية وبعدم تفهم للموقف وبعيوب في الطباع (امتثالية ، جبن ، الخ) . وذاك الذي تتحيزون له[1] قد كتب : « ان الثورة لا يمكن ان توجد بمرسوم ، انما يمكن فقط اعطاء قواها الداخلية تعبيراً سياسياً[2] » ، ومع ذلك تقبلون بأنه قد امكن لجم الطبقة العاملة وهي في ذروة اندفاعها بفعل التأثير الفردي لقادتها . وخلاصة القول انكم تنكرون على البورجوازية الاسباب المسببة وتسلمون بها للبروليتاريا . وذلك لسبب وحيد ، ألا وهو ان الإثم هو بالضرورة مسبب (Occasionnelle) فقد كان يتدبر أمره بشكل أو آخر مع قدرية العصور القديمة ، لكنه مرغم ، مع ضرورة المحدثين على الاختفاء : والحال انكم بحاجة الى مذنب[3] .

ومن هذه التسوية الوسطية بين الضرورة والاحتمال ، بين الحتمية واللاتعين ، بين الكينونة ووجوب الكينونة ، ولد تصوركم عن العفوية . و « الغريزة الثورية » التي تقرون بها للجماهير ليس لها سوى وظيفة واحدة : ان تشير في المطلق الى ما

---

١ - يقصد تروتسكي . «م.ع» .

٢ . الثورة الدائمة – ص ٢١٧ .

٣ - ان السيد موزر الرابط الجأش عنده تفسيره الجاهز : انه الاصطفاء (من قبل البيروقراطية الروسية بالطبع) الذي خلق في قرننا « نموذجاً من الانسان يجمع بين صفات الموظف الحذر والسياسي البرلماني الراوغ والخطيب المفوه الشعبي ومحرض الجماهير المحترف » ، وبالطبع إن هذا النموذج يتجسد في القيادي الشيوعي . ألا ما ألذ هذا الكلام !

كان يمكن ان يكون . وانتم على استعداد لأن تقبلوا حتى بوجود قانون صارم سيّر مجرى الاحداث منذ تشرين الاول ١٩١٧ ، ومن يدري ، ربما منذ الخطيئة الاصلية الأولى ، اذا ما سلم لكم الآخرون بأن الغريزة الثورية تظل ، بين هذا القدر الكبير من التقلبات ، ثابتة لا تتزعزع . ان من الواجب ان تظل في اعماق القلوب ، شعوراً ابدياً تلقي الظروف من حوله حجاباً ، لكنها لا تستطيع لا ان تهدمه ولا ان تخلقه ، ذلك لأن هذه الغريزة هي الواقع العميق للبروليتاري ، والحكم الذي تصدره الرأسمالية على نفسها ، وباختصار مطلب لا يرحم يترجم موضوعياً في ضغط يمارس على الحزب والقادة وليس له من موضوع غير الثورة الدائمة . وانتم في الوقت الذي تزودون فيه البروليتاريا بغريزة ثورية ، تنقلون اليها عدوى معارضتكم . وبالفعل اعتبرتم العمل السياسي للحزب الشيوعي غير عادل وغير مناسب ، وزعمتم انه كان من الممكن والواجب انتهاج عمل آخر . لكنكم لم تكتشفوا ، وانتم تنظرون من حولكم ، إلا علاقات قوة ومصالح وأفعال ، أي ، باختصار كينونات ووقائع . ولم تكتشفوا قط وجوب كينونة. والغايات الواجب نشدانها ، أولاً ، من الذي يطرحها ؟ انكم غير مؤهلين ، بصفتكم الفردية ، للوم الحزب الشيوعي على تخليه عن الأهداف الثورية ، إنما ينبغي إدانته باسم الجماهير . لكن ما الذي يثبت أنكم تتكلمون باسمها ، أنتم الذين لا تجدون طريقاً إليها ؟ وهذا على وجه التحديد لأنكم تقتصرون على حل ألغاز رسائل غريزتها الثورية وان كنتم لا تريدون ان تحققوا لها سعادتها بالرغم عنها . ولو كانت هذه الغريزة موجودة ، لكانت المطلب الذي يحدد أهداف ووسيلة الوصول إلى الجماهير : وهي بالفعل لا تتكشف كمطلب إلا إذا تجلت كممارسة . فللجماهير قدرة عفوية على الخلق والتنظيم تتيحها الاسراع بمجيء البروليتاريا : وهكذا أوجدت من تلقاء نفسها عام ١٩٤٤ لجان التحرير ولجان المصنع : وكانت هذه الخطوات الأولى تحدد الطريق ، ولم يكن على الحزب الشيوعي إلا ان يتابع الحركة . وطالما ان هذه الخطوات العفوية كانت تشير الى الاتجاه الواجب السير فيه ، فأنتم تستطيعون ان تدينوا القادة الذين لم يسيروا

فيه ، فالغريزة الشعبية تظهر ما كان يتوجب فعله ، ومــا كان سيُفعل لو توفر قادة آخرون . إن العفوية تولد الممكنات : فالجماهير بتصلبها ونضالبتها وحدة مطالبتها هي التي تخلق امكانية استلام السلطة ، والاستحالة إنما تأتي من القادة . لكن ليس للقادة من أهمية ، إذ يبدو أنه يمكن تغييرهم على الفور . امـا الجماهير فهي كل شيء ، فحاولوا إذن أن تغيروها ! ان عفويتها لهـا صرامة الديالكتيك التي لا تلين لها قناة ، طالمـــا ان الانتاج هو الذي ينتج المنتج . وهي في الوقت نفسه حرة طالما انها تعبر عن الماهية المتحركة للبروليتاريا . انها تمثل للمرة الثانية في التاريخ – في وجه الخطيئة الأصلية التي أورثنا اياها جميعاً – الطبيعة المدعومة بالنعمة . وينبغي ان تقروا أيها التروتسكيون بأن هــذه النعمة تتقدم . فبدونها أراكم واقعين في الارتباك : ماذا يحدث لو كانت « ديناميكية » الجماهير منوطة بعوامل خارجية ؟ افترضوا أنها تتعدل تبعاً لحالة القوى ودرجة إنهاك المكافحين وذكرى النضالات القديمة والمخارج المتوقعة وسياسة القادة[1] . افترضوا أن عمل الجماهير العفوي لا يعدو ان يكون أكثر من عاقبة من عواقب الماضي بدلاً من أن يستهدف المستقبل . افترضوا ان مطالبها هشة سريعة العطب كالحلم بـدلاً من أن تكون قياس قوتها . افترضوا ان هذه المطالب تتعلق بتعبهــا وبأمل كاذب : السلام عندئذ على التنبؤ الجماعي المتواضع ، السلام على العفويــة . وسوف يظل في وسعكم أن تعارضوا ستالين بماركس ، لكن لن تستطيعوا استدعاء البروليتاريا الى المحكمة لتشهد ضد قادتها : فسياسة القادة ومزاج الجمهور تابعـان كلاهما ، في هذه الفرضية ، لظروف خارجية . وأخيراً فإن كلاً منهما يؤثر على الآخر ويعدله ويتلاءم معه ، وفي النهاية يتحقق التوازن والتطابق المتبادل وتطير المكنات : فعلى شبه القـــادة يكون الجمهور ، وعلى شبه الجمهور يكون القادة . مصير البروليتاريا ؟ لعل المنهج الماركسي سيسمح لكم بالتكهن بـه ، لكن لا بصنعه :

---

١ – يرد الحزب الشيوعي بصواب كبير ان الجماهير كانت تتجاذبها تيارات قومية قوية تغلغلها وتوجهها أسطورة « ديغول زعيم المقاومة » . وانه كان من الواجب في البداية القيام بحملة واسعة لإبطال سحر التضليل .

ستكونون عرافين . وعلى كل الأحوال تكونون قد سقطت عنكم كل أهميـــة .
ستقولون : « لكن هذا التصور ليس ديالكتيكياً » . لمَ لا ؟ انه على كل حـال تصور لنجلز : « التاريخ يتم بصورة تكون معها النتيجة النهائية منوطـة بالنزاع بين العديد من الارادات الفردية التي تتحدد كل منهـا بكمية معينة من الشروط الخاصة : إذن فهنـاك قوى عديدة تتصالب ، ومجموعة لامتناهية من متوازيات الأضلاع ، والمحصلة ، أي الواقعة التاريخية ، يمكن أن تعتبر نتاج قوة تعمل ، في مجموعها ، بلا وعي ولا إرادة . ومـا يريده كل فرد يُقاوَم من قبل الآخرين ، فتكون النتيجة شيئاً لم يرده أحد » . ومن خلال هذا المنظور تبدو لنـا « القوة اللاواعية واللاإرادية » رهماً مناسباً ، اما العفوية فما من أثر لها .

انظروا : انكم تتوجهون اليـوم الى الحزب الشيوعي وتبلغونه أمر اقتراح وحدة العمل على القادة الاشتراكيين. ان هذه النصيحة السياسية هي – في الوقت الراهن – معقولة تماماً ولاغية تمامـاً . معقولة : لأنه من المؤكد انها لو اتبعت لتغيرت فرنسا واوروبا ولتباعدت الحرب . ولاغية : لأنكم تعرفون ان الحزب الشيوعي لن يقوم بهذه الخطوة (خطاب لوكور يشهد على الانتصار المؤقت للذين يريدون أن يبقوه معزولاً) ، وحتى لو ارادها لرفض الاشتراكيون رفضاً قاطعاً. تقولون : لكن فشل هذه المحاولة سيفتح عيون مناضلي الحزب الاشتراكي : وانتم بهذا تدللون على سوء معرفتكم بهم وعلى سوء تقديركم للحقد الذي يكنونه للحزب الشيوعي : انهم لن يتركوا حزبهم ، وسوف يهنئون القادة على إحباطهم المناورة. ولو وضعتم نصب أعينكم ما يمكن ان يحدث حقاً ، لبـدت لكم نصيحتكم امنية ورعة لا اهمية لها وبلا اساس من الصحة . لكنكم تلحون على العكس : ان هذه « الجبهة المشتركة... ليست لا طوبائية ولا متهورة» . لماذا ؟ « لأن هناك ملايين العمال والموظفين والصناع وصغار التجار وصغار الفلاحين ممن يريدون ان يتبدل وضع الأشياء هذا[1] » . وبكلمة واحدة اقول ان المحاكمة العقلية التروتسكية

---

١ – هذا صحيح : انهم يريدون هذا التغيير لكنكم تسيئون تقدير الاضرار التي الحقتها نزعة عداء الشيوعية في بلدهم .

تجد ضمانتها الموضوعية في ارادة الجماهير . ان كل فكرة حقيقية يجب ان تكون « في نظر الماركسي » عملية طالما ان الحقيقة عمل . والفكرة التروتسكية تظل تجريداً صرفاً لا تدب فيه حياة، واحتمالاً لا متوقعاً مثالياً – لأنها لا تنتج مفعولها من تلقاء نفسها ، لأنها تشير الى طريق تعرف هي انه لن يُنتهج – اذا لم تتكفل الجماهير « بعملها ومطالبها » بإعطاء هذه المفاهيم الذاتية الخالصة بداية تحقيق. وليس ذلك لأن الفكرة تؤثر عليها : إذ ان هناك انسجاماً مسبقاً . ان التروتسكي يقرر ان خطابه هو التعبير اللفظي عن العفوية الجماعية . انه يقف في جهة ، والبروليتاريا في الجهة المقابلة : انهما لا يتبادلان الكلام مطلقاً ، لكن بين نظام الاول الفكري والاندفاع الذي يجر الثانية الى تجاوز شرطها البائس ، يقوم اتفاق عميق وضمني بصورة افتراضية من وراء ظهر المناضل الشيوعي الذي يكتفي ، هو ، بمخاطبة العمال حقاً وبتوجيه حركتهم فعلياً . إن غليان الجماهير الحيوي وغير القابل للرقابة هو ضمانة تشخيص عاجز ، او ان التروتسكية اذا شئنا تشيد مذهب معارضة عقلانياً مجرداً على مذهب ذرائعي غير عقلاني. وواضح بالطبع ان الصبوات العفوية للجماهير الكادحة لا تمجد هنا إلا لتنتهك. وبذلك نعود الى المخطط الذي سبق ان وصفناه : ان صفة العفوية تطلق على اللوم السري الذي توجهه فئة ما الى القادة الذين اختارتهم لنفسها ، وعلى التواطؤ الصامت لمجتمع مندمج مع المعارضين الذين تقاوم .

لنعد الى ٤ حزيران: هل هي العفوية العمالية التي تبرأت من الحزب الشيوعي؟ اشك في ذلك غاية الشك . فلا ماركس ولا لينين اولاً آمنا بدوام « الغريزة الثورية » لدى الجماهير . اما تروتسكي[1] فهو يلح على العكس على « نزعتها المحافظة العميقة » التي تبدو له عاملاً من « عوامل الاستقرار الاجتماعي » . و « لتحرير المستائين من ضيق الفكر المحافظ وجر الجماهير الى التمرد » لا بد من توفر ظروف استثنائية . وفي هذه الحال تكون عاطفة الجماهير سلبية صرفاً :

---

١ – الذي ضرب لكم على كل حال مثالاً والذي اعاد بناء الثورة الروسية نظرياً ليظهر حركة الجماهير العفوية كعامل اساسي في التاريخ. لكن تصوره يظل اقنى واعمق بما لا يقاس من تصوركم.

فالقادة لديهم خطط وبرامج ، لكن الجماهير تشعر فقط بأنها « ما عادت تطيق نير النظام القديم » . وانمـــا عندما يجرها الحدث فقط تقوم بتجربتها الثورية « مهتدية بنهج التقريبات المتتابعة » ومتجهة نحو اليسـار اكثر فأكثر دومـــاً . وعندما يتحطم اندفاعها على صخرة « عقبات موضوعية » يبـــدأ الجزر الذي يفضي الى الرجعية : « إن الهزائم الكبيرة مثبطة للهمم لمدة طويلة من الزمن . وتفقد العناصر سلطتها على الجمهور . وتعاود الصعود الى سطح وعي هذا الجمهور آراء مسبقة وخرافات لم تجر تصفيتها جذرياً . وأثناء ذلك يغرق القادمون الجدد من الأرياف ، وهم كتلة جاهلة، الصفوف العمالية » . وبكلمة واحدة : ان الجماهير تكون ثورية حين تكون شروط الثورة متوفرة . ومن الواجب تقييم اندفـاعها وطاقاتها على اساس شروط الموقف العينية ، بدلاً من تقرير هذه الامكانيات على اساس قوة « الديناميكية » الثورية . واذا كانت « غريزتها » المزعومة ، بوجه خاص ، هي من نتاج الظروف ، فإن عنفها ليس دليلاً على ان طاعتها واجبـة . وتروتسكي هو الذي يكتب ايضاً : « ان الجمـاهير تتدخل في الاحداث لا تبعاً لتعليمات المذهبيين بل وفقاً لقوانـين تطورها السيـاسي الذاتي . لقد كانت القيادة البولشفية ... تدرك بوضوح انه يتوجب عليها ان تعطي القوى الاحتياطيـــة الضخمة الوقت اللازم لاستخلاص نتائجها من المغامرة ... لكن الفئات المتقدمة كانت ترحف نحو الشارع ... والحال ان التجربة كان يمكن ان تتحول ، بغض النظر عن ارادة الجماهير ، الى معركة حاسمة ، وبالتالي الى هزيمة حاسمة . وأمام هذا الموقف كان الحزب يفضل أن يبقى خارج المعركة ... ولقـد كان ، يقيناً ، على حزب الجماهير هذا ان يتبع الجماهير الى الأرض التي وقفت عليها حتى يبذل لها المساعدة ، لكن من غير أن يشاطرها في اي حال من الأحوال اوهامهـا » . وتروتسكي نفسه يطالب للحزب بحـــق تقييم « الديناميكية » الشعبية على ضوء الموقف العام ، وهو لا يتردد ، في بعض الحالات ، في اطلاق اسم « اوهام » على دوافع هذا الهيجان والانفلات المباغت – والسيد جيرمـان ، التروتـكي ، يلوم الحزب الشيوعي على عدم ثقته بغريزة الشعب . انـه سيقول : هذا لأن الموقف

كان مختلفاً . هذا صحيح: لكن اذا رفضنا الايمان بمعصومية الجماهير ، فما يتبقى؟ تصوّران مذهبيان ـ تصور الحزب الشيوعي الايطالي وتصور الحزب الشيوعي الفرنسي ـ وطريقتان في التفكير وتفسيران « علميان » للموقف.

ولنفترض ان تبرؤ ٤ حزيران ، هذا الذي يتخذون منه تارة وثيقة وطوراً شهادة ، لنفترض انه موجود وانه يختفي وراء تعب العمال وهمتهم المثبطة ، فهل نكون قد تقدمنا ؟ وما الذي جرى التبرؤ منه ؟ أمبادهة ٢٨ ايار التعبية ؟ أماسية الحزب الشيوعي الفرنسي منذ عام ١٩٤٨ ؟ منذ ١٩٤٤ ؟ منذ مؤتمر تور ؟ ام البيروقراطية ؟ التبعية لموسكو ؟ السياسة السوفياتية ؟ ولم لا نقول الماركسية بالذات ؟ من الذي سيقرر ذلك ؟ تقولون ان هذا كله وارد : فحين يكون اللوم منصباً بصراحة على جانب تفصيلي ليس إلا ، يكون التسلسل صارماً بشكل يطرح معه كل شيء على بساط البحث . لكن هذا غير صحيح : فنحن امام مسألة تتعلق بالتاريخ المحلي واليومي ، القتم ، الاحتمالي جزئياً ، والصلة بين الحدود ليست وثيقة الى درجة يستحيل معها تنويع بعضها ضمن نطاق معين من دون ان يطرأ بالضرورة تعديل على سائر الحدود . لقد كنت اقرأ ، بالأمس القريب ، ان البروليتاري ضاق ذرعاً بتدخل الحكام السوفييت في شؤونه الداخلية . وكان المقال يقول : ليس ذلك لأنه يدين مباشرة هذا التدخل : فهو في الواقع لا يشعر به ولا يأبه له ، لكنه ما عاد يطيق « بيروقراطية » الحزب الشيوعي التي هي النتيجة الواضحة لهذا التدخل الذي يستهجنه البروليتاري . لكني لبثت متشككاً : فحتى أقتنع ، كان ينبغي ان يثبت لي أولاً انه لا تمكن مكافحة هذه البيروقراطية إلا اذا قطعت الصلة أولاً بالاتحاد السوفياتي ، وان يثبت لي ثانياً ، وبالمقابل ، ان الحزب الثوري غير التابع للاتحاد السوفياتي غير مهدد اليوم بأن تجره ظروف النضال الى مهالك البيروقراطية. ونظراً الى عدم توّفر هذه الايضاحات ، لست ادري كيف أحدّ مدى هذا اللوم المفترض . انني مدرك ان الحزب الشيوعي يعترف بأنه اقترف غلطة ومدرك أيضاً انه يحصرها في اللحظات التي سبقت الاضراب مباشرة :

هذا لأنه يريد ان يخرج منها بأقـــل خسارة ممكنة . كما انني ارى برجوازيين مقتنعين بأن الجماهير قد ادانت ماركس : هذا لأنهم معادون للماركسية .

اذن فأنا اجهل دافع الادانة . لكن ، وكما لو ان هذا لا يكفي ، فأنـــذا لا اعرف أيضاً القاضي الذي إصدرها . ذلك انني اتخيل نوعـــين من اللوم : اللوم الذي توجهه طبقة ثورية باسم الثورة الى القادة الذين يريدون ان يوقفوها ، واللوم الذي توجهه طبقة منهزمة ، محطمة ، خانعة ، باسم ايديولوجية الطبقة المنتصرة ، الى الثوريين الذين يريدون ان يجرّوها في مغامرات جديدة . في الحالة الأولى ، انما هي ذات التاريخ التي تدين خائناً والادانة تلسجل في التاريخ الذي تصنعه . وفي الحالة الثانية ، انما هي طبقة تشعر بأنها تعود كما كانت كتلة ، وبأنها ترجع ، مع اغلالها القديمة ، الى « آرائها المسبقة والى خرافاتهـــا التي لم تجر تصفيتهـــا جذرياً » ، وتستخدم هذه الآراء والخرافات لتدين عبدها الذاتي . فأمام أي من القاضيين اقف ؟ التروتسكيون يؤكدون انه الثوري :

« لقد جرت التضحية ... بالطبقة العاملة الفرنسية ... وبالرغم من جميع التبريرات تقفز هذه الغلطة المجرمة الى عيون الجميع . وفي المناسبة المقبلة لـــن يكررها أي عامل » .

كيف اصدقهم ، اللهم إلا اذا محضت ثقتي عفوية العامل غير القابلة للقمع . ثم انني ، بكلمة واحدة ، اجد ردود افعال هذا الثوري هزيلة بعض الشيء : فلقد جرت تضحية طبقته ، وهو يعرف ذلك ، ومع هذا كان ثأره الوحيد انه قاطع إضراباً جاء في غير حينه ؟ إن نظر الانسان لا بد ان يكون حديـــداً ثاقباً حتى يرى ديناميكيته ، ولا بد ان يكون اقوى ايضاً حتى يكتشف ضغطاً مارسته الجماهير في أحداث ٤ حزيران .

اما في نظر الصحف المحترمة ، فلم يعد ، على العكس ، ثمة وجود للثوريين . بل أهم وُجدوا قط ؟ ان التاريخ لم يفعل شيئاً سوى انه قام بالفرز الذي كانت يفرض نفسه : فوضع اللصوص الى يساره والناس الصالحين الى يمينه . واستنكاف العامل انما ينبغي نسبه الى حكمته ، اي الى قدرة المبـادىء الصالحة على التغلغل

والاقناع : لقد شبع من اعمــــال العنف اللاعجدية تلك ، وهو لا يطلب إلا ان يعمل في سلام ، ولا يرى الحياة سهلة جداً بالأصل حتى يبذر المال في حماقــات. وزبدة الكلام انها البورجوازية التي تتبرأ ، من خلاله ، من الحزب. واترك لـكم ان تحكموا بأنفسكم إن كان ارباب العمل راضين مسرورين : فصديقهم العــامل الطيب قد شفي أخيراً ، وكل شيء يدل على انه قد تم نهائياً توقيف العمل المتكرر الذي كان يمزق مجتمعاتنا الحديثة. الطبقات ؟ لم تكن إلا كابوساً : لو منح لقب البورجوازي، كما يقضي المنطق، إلى كل فرد يشكل جزءاً من مجتمع بورجوازي، لما عاد هناك غـير بورجوايين في الغرب ، بعضهم يائس والبعض الآخر غـــير مستاء كثيراً.

لو كان هذا صحيحاً ، لأمكننا التكهن بـأن الحزب الشيوعي الفرنسـي ستأخـذه دهشة عميقة من لامبالاة الجماهير. لكن حيثيات تبرؤها ستتركه في مثل هذه الحال بارداً.

* * *

ان عدو الشيوعية يلتظر ني عند المنعطف : « إذن فالجمـاهير لا تستطيع أن تحكم على الجهاز ؟ » . وأنا أجيب بأنه يحدث لها ، عندما تكون ثائرة ، ان تدفع بقادتها أمامها [1]. لكنه يعاود السؤال : « لكنها في غير تلك الاحيان لا تستطيع ان تحكم عليه ؟ ». آه يا سقراط ، انني مدرك اين تجرني. على رسلك، انني أقر : انها تحكم على قادتها حين يتبعونها لكن ليس عندما لا تتبعهم. وينتصر سقراط : « انت مدين للبورجوازية بحرية الكتابة، وتستخدمها مع ذلك لتمنع عن الشعب حرية التفكير ». وهكذا يكون الحكم قد صدر : ازدراء الشعب ؟ مزاج سفسطائي ، تعلق مخزٍ بأشكال الحكم الاوتوقراطية. وعلاوة على ذلك

---

١ – تذكروا على سبيل المثال اضراب ايار ١٩٤٧ في شركة رينو : لقد هتف العـمال ضد المسؤولين عن نقابة المعادن التابعة للاتحاد العام للشغل لأنهـم وقفوا في وجه العمل للطالب. وسرعان ما فهم الحزب الشيوعي الدرس.

اعطي الحزب الشيوعي، من قبيل الشطط في المهانة والدناءة، اكثر بكثير مما طلب على مر الزمن: انه يزعم انه يهتدي برأي الجماهير، ولا يبالي بتبرير الهيمنة المطلقة التي فرضها عليها: بل يخفيها.

حين أشتم، أتمنى من قبيل الشطط في المازوخية ان يكون ذلك لأسباب معقولة. اذن فسوف اقول لماذا اجد اسباب عدو الشيوعية رديئة.

اما اولاً لا اهتم بما يمكن ان يكون مرجواً ولا بالعلاقات المثلى التي يقيمهـا الحزب – في – ذاته مع البروليتاريا الخالدة. انني أسعى إلى فهم ما يجري في فرنسا، اليوم على مرأى منا. لقد اراد أصدقاء طيبون أن يلفتوا انتباهي إلى وجود نقابات انكلو – ساكسونية وسكندنافية: وفي زعمهم ان هذه الأجهزة هي «من اكثر من زاوية» اكثر تلاؤماً من اتحادنا العام للشغل مع الأشكال المتقدمة للرأسمالية [1].

جانز: لكن ماذا يثبت هذا؟أوجوب الأسف على اننا لم نخلق سويديين؟انني

---

١ – عل كل ماذا تعني هذه الامثلة المعزولة؟ هل ثبت ان ازدهار البلدان «المتقدمة» لا يقوم على بؤس الآخرين؟ وهل هذه الجنات صورة مـا سنؤول إليه، ام هي تستفيد من اللامساواة الراهنة؟ تريدون أن تقنعوني بهدوء بالفرضية الأولى لكنكم لا تبرهنون عليها؛ وعلى كل حتى لو كانت صحيحة فليس ثمة ما يدعو الى انشراحكم: فلو وعت النقابات الاميركية واجباتها السياسية، لحاولت ان تضع العراقيل في وجه سباق الحرب بدلاً من ان ترسل إلى الارض الجواسيس ومحترفي الدعاية. واذا ما حدث واطلق التاريخ ذات يوم على الحكومة الاميركية لقب «مجرم حرب» الذي نكتفي حتى الآن باطلاقه على الآخرين، فانني اخشى أن يعتبر العمال الاميركيون، المضللون من قبل نقاباتهم «المتقدمة»، متواطئين معها عن غير ارادة منهم كما كانت البروليتاريا الالمانية – المخدوعة او المسحوقة – متواطئة مع الامبراطور عام ١٩١٤، ومع النازيين عام ١٩٣٩.

نحن هل استطيع ان اذكركم – فالتهذيب يجب ان يقابل بتهذيب مماثل – بأن البشرية الحالية تعيش في حالة سوء تغذية؟ واذا كان ضرورياً – من قبيل الصدفة – ان يطلى عامل الشد او وربما فاغر الفم حتى يستطيع الصناعي الاميركي ان يحافظ على مستوى أجوره المرتفعة، فإن حقيقة وضعنا الراهن لن تكون مصانع فورد او كايزر بل الجوع الذي يجتاح العالم. وفي هذه الحال ليست حقيقة المارسة اللعب الاصلاحي العائل لعمال حسني التغذية لكن «مبادين»، بسبب العمل المنهك وبفعل دعاية لا تكل ولا تني: بل ستكون النشاط الثوري.

أرجع إلى بلدي الذي لم يشتهر بأنه من بين أكثر الديموقراطيات البورجوازية « تقدماً » . وأجد ان ارباب العمل الفرنسيين قد اصبحوا اضحوكة العالم : لو طبقنا منطقكم حتى النهاية ، لرأينا أن لدينا الصراع الطبقي الذي نستأهله .

اذن فالشروط المفروضة على العامل في فرنسا ، اليوم طالما ان الدقة واجبة، تحظر عليه استخدام الحقوق الشكلية المسلم له بها. وانتم تعلمون ذلك ، انتم الذين عملوا على ألا يكون في مقدوره استخدامها في إطار مؤسساتنا : فلمّ يثور غيظكم حين يتخلى عن هذه الأسربة ليناضل ؟ وانتم الذين تنادون بالويل والثبور حين يُروى لكم ان أحد الانتخابات النقابية قد تمّ برفع الأصابع ، قد زورتم القانون لتحكموا بالصمت على تلك الهيئة الناخبة . تتهمون الحزب الشيوعي بأنه يدافع ويهاجم بالتناوب الحريات الديموقراطية حسب مصلحته الآنية ، لكن هل تفعلون أنتم شيئاً آخر ؟ حين يكون القصد انتقاد الشيوعيين تطالبون للعامل بالحريات كاملة ، اما حين يستهدف انتقادكم فتجردونه منها .

ليس هذا لب المشكلة : فلو أمعنّا النظر في المسألة لرأينا ان حرياتنا قد جرى تصورها من قبل بورجوازيين ولبورجوازيين ، وان العامل لا يمكنه ان يتمتع بها إلا إذا أصبح بورجوازياً بدوره . ان هذه الحريات لا معنى لها إلا في نظام يقوم على الملكية الفردية ، ولا تعدو أن تكون أكثر من احتياطات يتخذها مالك الثروات ضد تعسف الجماعة. إذن فهي تفترض ان الجماعة موجودة سلفاً . والواقع ان البورجوازية تلهينا منذ مئتي عام بروبنسنة[1] تسميها « المذهب الذري الاجتماعي » . لكن هذا إنما لتضلل الطبقات الفقيرة : فالبورجوازية تشكل في حد ذاتها جماعية قوية الاندماج تستغل تلك الطبقات . يقال أننا نولد أحراراً ومتوحدين ؟ واننا نكوّن المجتمع بارتباطنا تعاقداً ؟ واننا نهب حريتنا كي تعاد إلينا منة ضعف من غير ان نتخلى كل التخلي عن وحدتنا المبدئية ؟ فلننظر الى أنفسنا بالأحرى : أنحن متوحدون ؟ متى نكتنه

---

١ - نسبة الى روبنسن كروزو ، نموذج الفرد البورجوازي الذي هو أشبه بذرة تدور في مدارها من غير ارتباط بالذوات الأخرى . « ه.م »

الى الوحدة إن لم يكن ذلك اثناء وجودنا بصحبة الغير ؟ أأحرار ؟ أجـــل : أحرار في ان نمارس بعض النشاطات المعينة للغايـة التي تستمد منبعها ، بصورة عامـــة ، من قدرتنا الاقتصادية او من وظائفنا الاجتماعية . حرٌ هو الصناعي الذي يستطيع أن يسرّح دونما مبرر ربع جهازه. حرٌ هو الجنرال الذي يستطيع ان يقرر شن هجوم مميت . وحرٌ هو الحاكم الذي يستطيع ان يختار الرأفـة أو القـوة . ان الحرية البورجوازية الحقيقية ، الحريـــة الإيجابية ، هي قدرة الانسان على الانسان . والمجتمع يبت في أمرها قبل ولادتنا : إنـه يحدد مسبقاً طاقاتنا والتزاماتنا ، وباختصار يحدد مكاننا ووضعنا. وبذلك يربطنا بالآخرين : فأتفه حركاتنا وأبسط سمات طبعنـا هي في الواقع أفعـــال تركيبية تحتق في ظروف خاصة وحـــدة الطبقة البورجوازية . وكل مسلك من مسالكنا يظهر انتماءنا الى هـذه الفصيلة او تلك من الفصائل العائلية أو المهنيـــة ، ويساهم في اندماجنا فيها أكثر فأكثر[1] .

إلامَ تؤدي بعد هـــذا تلك الحقوق السالبة الثمينـة التي تزعم الديموقراطية البورجوازية انها تحيطها بأكبر رعاية ؟ إذا كانت لا تغنينا تقريباً ، فهي لا تهدد بأن تفقرنا . إنها تمثل فقط كفالة قدراتنا المعينة . فهي تقيم بين كل واحد منـا وبين الجماعية مسافة طفيفة ، وتحول بيننا وبين ان نموت اختناقاً . لكن واضح ان الواقع البورجوازي يسقط خارجاً عنها . فصناعيُنا لا يفكر بأن يحدد نفسه بالحقوق التي يتقاسمها مع الجميع ، إنمـا يريد ان يحدد نفسه بالقوة التي لا يمارسها

١ ـــ تقولون ان هذا الصناعي مستبد . لكن ما الاستبداد ؟ أهو سمة من سمـــات الطباع ؟ كلا . أو ليس مباشرة على الأقل . انه أولاً حق عيني : فالصناعي يملك معملاً ، ويشغل مئـــة عامل ، ويستطيع بلم عقد لعمال ان يطلب منهم بعض المسالك . وبممارسة هذا الحق على : انه يأمر ، « يسيّر » المصنع . والعمل المتكرر يصبح كفاءة : « انه الرجل الذي تحتاجه : قبضته حديدية » . وأخيراً يتوحد هذا كله في قسم يقسمه لنفسه : « ساكون رئيساً » . وهـــذا كله أيضاً يعني ان يقتني لحسابه الخـــاص وان يوجد بالفعل علاقـــة الرأسمال والعمل المجردة ، أي استغلال الانسان من قبل الانسان . ان استبداده لا يقيم في فص من فصوص دماغه ، إنما هو في الخارج ، في الأشياء ، وكل ما هنالك انه يكتفي باستبطانه .

أحد غيره . الـ Habeas Corpus ؟ انه لا يبالي به تقريباً : فما من أحد يفكر باعتقاله ، وحريته الحقيقية تعبر البحر : انهـا الآلة التي اشتراها من الولايات المتحدة الأميركية . السياسية ؟ انـه يستطيع أن يسلي نفسه بالتصويت للراديكاليين ، ثم يهجرهم الى « الحركة الجمهوريـة الشعبية » ، ثم يرجع إليهم : إنه لن يشوه ماهية شخصه . وشخصه إنما هو مصنعه ؟ أسرته ، مشاريعه . إن الرابط السياسي في مجتمعاتنا – في الأيام الهادئة – أوهى الروابط وأكثرهـا هشاشة : فهو ينقطع عند أبسط هزة . وليس مـا يدهش إذا انتقدنا الأحزاب بحرية : فالانتقاد تراجع ، وقوف خـارج الجماعة او النظام ، والنظر إليها كأشياء . والحال إننا حتى لو كنا أعضاء في تشكيلة سياسية فإننا لا نكون في داخلها أبداً . لكن رب عملكم ، مديركم ، رئيس مكتبكم ، هـل انتقدتموه قط مواجهة وجهاراً ؟ ولا غرو فأنتم تشكلون جزءاً من المشروع ، ومندمجون به : إذا طردتم منه ، نفدتم وسائل عيشكم وسلطاتكم وهدف حياتكم في آن واحد . ولا بأس إن عبر الإنسـان عن رأيه في السياسة بحرية لانها تبدو وكأنها ترجع الى نشاط شكلي خالص . والحكومة الليبرالية تشبه ، سطحياً ، مبدأ الهويـة : انها تسمح لكل فرد بان يكون ما هو كائن ، وبأن يملك ما هو مالكه . لكن عندمـا تكون المسألة مسألة شغل ، مسألة ممارسة ، وباختصار مسألة نشاط تركيبي تمارسه جماعة مندمجة ، فالسلام على حرية التفكير . والحال ان السياسة البورجوازية هي أيضاً عمل تركيبي ، عمل طبقي . وفي أوقات الازمـة ، حين تكون البورجوازية مهددة من قبل الشعب ، تسفر هذه السياسة عن وجههـا الحقيقي : فـ « ثرثرات » النواب لم يكن لهـا من هدف غير تسلية الجمهور ، وانقساماتهم المزعومة إنما كانت تخفي وراءهـا حزباً أوحد ، حزباً طبقياً ، لا يقل استبداداً وصرامة عـن الحزب الشيوعي ، أجهزته هي البوليس والادارة والجيش ، ووظيفته سحق مقاومـة الفقراء . وفي مثل هـذه الحالات لا يقر للبورجوازي قرار حتى يلقي الى البالوعة بحرية تفكيره . إذ ما حاجته إليها ؟ انها ساعة نسيان الانقسامات ، ومصيره الهلاك إذا لم يفكر كسائر الناس .

الانتقاد ؟ انه ليس مجنوناً الى هـــذا الحد : فالنقد يهدد بتشتيت وحــدة الصف ، وبإحراج عمل الحكومي . وهكذا يتخلى عـــن حقوقـه لفريق من المنظفين يضمنون له بالمقابل سلطاته الحقيقية وأملاكه .

لكن السياسة لا يمكن ان تكون ، بالنسبة الى العامل ، نشاطاً مترفاً : انها دفاعه الوحيد والوسيلة الوحيدةالتي يملكها للاندماج بمجتمع ما . إن البورجوازي مندمج أولاً ، وعزلته ليست إلا نوعاً من الظرافة والدلال . اما العامل فوحيد أولاً ، والسياسة هي حاجته . الأول إنسان يدعم حزباً ليمارس حقه كمواطن ، والثاني « إنسان دون » يدخل الى حزب ليصبح إنساناً. الأول يرى باللمح واقع السياسة ، أي صراع الطبقات ، والثاني ينفعل أولاً بصراع الطبقات ، ويعـاني منه كموضوع له، ويخامره الشعور أحياناً بأن في مقدوره ان يمارس العمل بدوره. بالنسبة الى البورجوازي ، كل شيء موجود خارج السياسة . امـــا بالنسبة الى العامل ، فلا وجود لشيء خارجها ، لا شيء سوى تلك « الكآبة العمالية » التي يقول نافيل ان العمل هو السبيل الوحيد للخروج منها . الكآبة ، أي الوحدة . لكن لا نستنتج ان هذه الوحدة طبيعية : وحتى يقنعنا البورجوازيون بذلـك ابتكروا «مذهبهم الذري الاجتماعي». لكن يكفي، حتى نفهم معنى كل هذه الفلسفة ، ان نرجع الى الاسباب الموجبة لقانون لوشابولييه عـن « مصالح العمال المشتركة المزعومة » . كلا : إن وحدة العامل لا تأتي من الطبيعة. انما هي منتجة انتاجاً . إن العمل والتعب والبؤس ورعاية البورجوازية الصالحة قــد خلقت للعمال ، اذا جرؤت على القول ، « حالة طبيعية » اصطناعية . وهي مـا يسمى بالكتلة . وسأفصل فيما بعد طرائق التحويل الى كتلة . والمهم هنا هو ان هـذه الطرائق تهدف جميعاً الى فرض الوحدة –لا الاختفاء الكامل للعلاقات الاجتماعية بل تحولها الى علاقات ميكانيكية . وللحقوق الديموقراطية ، في هـذه العملية ، دور اساسي : فلقد رأينا انها لا تمثل إلا فوائد ومزايا بالنسبة الى بورجوازيـة مندمجة ، اما بالنسبة الى المتوحدين ، المضطهدين باستمرار بقوى الانحـــلال ، فالحريات الشكلية اغلال وقيود . انظروا الى العقد الحر ، وهو قطعة اساسية في

هذه الميكانيكا : لكم هو موفق في الجمع بين تهديد الموت وحرية العمل ! فالعامل إنسان يوقع بحرية تحت طائلة الموت . وفي هذه اللقمة من الضرورة والاستقلال، تمنع الضرورة العامل الأجير من المجادلة في أجره ، وتجعله الحرية مسؤولاً عن الاجر المفروض عليه . فبأي حق يشكو : كان في وسعه ان يرفض . والعقد الحر ، بصورة عامة ، يرغم العامل على ان يتبنى لحسابه المصير الذي يُصنع له . ان يرتضي مصيره ويسلم به : أهو رب العمل الذي سعى اليه ؟ ألم يسع بنفسه الى التعاقد ؟ ألم يقبل بمهام اضافية ، ألا يحاول ان يحسن مردود انتاجه ؟ ألا يزيد بإرادته من اخطار المرض أو الحوادث المؤسفة ؟ أليس هو الذي أنقص مطالبه ، بصورة مجرمة ، حتى يسرق مكان جاره ؟ وبعد هذا ، من يجرؤ على الكلام عن التضامن : انما هو قانون الغاب . صراع طبقات ؟ بالمرة : انما صراع من أجل الحياة. وزبدة الكلام انه هو الذي فعل كل شيء ، هو المذنب المسؤول عن كل شيء ، هو الذي يطالب بالبؤس والوحدة والعمل القسري . قبل التعاقد كان ضحية ليس إلا ، وبعد التوقيع اصبح متواطئاً . وعبثاً بالاصل يقيد نفسه بالاغلال : فما من أحد مدين له بشيء . وبعد ان ينجز العمل ويتم الدفع ، يعود المتعاقدان حرّين كما كانا . كانا يجهلان بعضهما بعضاً بالأمس ، ولن يعرف احدهما الآخر في الغد . ويكفي أن يسجل انخفاض في وول ستريت[1] او تحدث هزة صغيرة حتى يسرح الجهاز . إن العقد الحر يحول العامل الى جزئية قابلة دوماً للفصل . وحين خطر للبرلمان الانكليزي ، في أواسط القرن التاسع عشر ، ان يقترع على أول القوانين العمالية ، تعالت في كل مكان صيحة واحدة : احموا النساء والاطفال ، اذا كنتم تصرّون على ذلك ، لكن ليس الرجال ! فهم راشدون ، عاقلون ، احرار : في وسعهم ان يحموا انفسهم بمفردهم . هذه هي الكلمة المهمة : بمفردهم . ان حرية العامل هي وحدته . وما من أحد يستطيع ان يتدخل لصالحه من غير ان يجازف باسترقاقه ، والحكومة ستكفل حرية العمل بصورة أحسن كلما عملت على حماية العمال من كل حماية ، ولو كانت حماية

---

١ . شارع المال في نيويورك . (م.ع.)

نقاباتهم الخاصة .

ويـأتي حتى الانتخاب لينهي المسألة : ان العامل لا يجد في عمليات الجمـــع الميكانيكية تلك التي تسمى بالانتخابات اي أثر من التضامن الذي ينشده . انمـا المطلوب منه ان يصوّت ، على حدة ، على برنامج ليس هو واضعه ، اطلع عليه في العزلة : والغلبة انما هي للعدد الاكبر من العزلات ، تحت اسم الغالبية . لكن الفكرة الفائزة لا توحد البتة : انهـا متشابهة في كل فرد ولدى الجميع . وتشابه الرأي لا يقرب بين الناس . فهل سيتركهم يقنعونه بأن السياسة كلها ترتد الىهذه اللعبة الجماعية ؟ إن البورجوازية، بحجة فتح سبيل الثقافة اليه، ستدمغه بالمذهب الفردي، ومع حرية الفكر والتعبير ستجرعه مذهب الاحتمال والتسامح والريبية والموضوعية : ان جميع الآراء أهل للاحترام ، وكلها تتماثل في القيمة . فلم يختار هذا بدلاً من ذلك ؟ وهكذا يجري تضبيبه . والحريات الديموقراطية تضفي صفة شرعية علىعملية التحويل الى كتلة وتعطي العامل حالة كتلوية حقوقية . وهكذا يصبح الانعزال الواقعي عزلة بالحق[١]

حرية النقد والشك والانتخاب والموت جوعاً : أتصدقون ان هذا مـــا ينشده ؟ لو كان هذا صحيحاً ، لكان مجنوناً حقاً ؟ ان يغوص في العزلة في الوقت الذي لا يريد فيـه شيئاً غير الاندماج ؟ ان ينفصل عن الرفاق ، ويتراجع لينقد افعالهم في الوقت الذي لا يريد فيه سوى ان يتحد معهم في جو من الثقة ؟ وما حاجته الى الريبية التي تشوش الافكار وتبيد دلالاتالعالم في الوقت الذي يشكو فيه على وجه التحديد من عبث الواقع اليومي وفي الوقت الذي يتمنى فيـــه بحرارة ان يكون للحياة والموت معنى ما ؟ ان الشك واللايقين هما ، على مـــا يبدو ، صفتان فكريتان، لكن عليه ان يناضل ليغير شرطه، وهاتان الموهبتان

---

١ ـ فيا بعد ، ويعد ان يندمج بالطبقة ، سيطالب بنفس هذه الحريات ليؤدي عمله الطبقي، لكن هذا بالضبط في الوقت الذي ستريد فيه البورجوازية ان تلغيها . واذا كان يطالب بهـا ، بالأصل ، فإنما لحساب المناضل آل اليه ، لحساب عضو الحزب العمالي، لا لحساب الانسان المعزول الذي كانه .

المثليتان لا يمكن إلا ان تشلا العمل: اسألوه ان يطرح على بساط البحث من جديد القضية التي يخدمها ، او أن يموت من أجلها ، لكن لا تسألوه كلا الشيئين في آن واحد معاً. ان عملاً له بعض الاهمية يتطلب قيادة موحدة. وهو بالضبط بحاجة الى الايمان بأن هناك حقيقة. لكن لما كان لا يستطيع ان يقررها بمفرده ، فلا بد أن يكون في وسعه الوثوق بما فيه الكفاية من العمق بقادته الطبقيين حتى يرضى بتلقيها منهم. وخلاصة القول انه سيطيح ، عند اول مناسبة ، بهذه الحريات التي تخنقه : وليس ذلك لأنه لا يريد قوة الطبقة العامة واستقلالها ، لكنه يضع هذه القوة وهذا الاستقلال في الجماعة. انه لا يفكر بممارستها إلا بصفته بروليتارياً.

لكن ماذا يستطيع ؟ لا شيء : لا يستطيع حتى ان يتصور تلك الجامعة الكفاحية التي يُفترض انه سيأخذ مكانه فيها. اين يمكنه ان يجد ، هو المسحوق من قبل القوى البورجوازية ، المرهق بشعوره بعجزه ، المضنى ، بـذرة تلك العذرية التي كنتم تنسبونها اليه لتروّكم ؟ ان العمل يستطيع أن يأخذه ، أن يقلبه رأساً على عقب ، أن يغير عالمه ، لكن من اين سيولد العمل ؟ ان المسألة ليست بالنسبة اليه مسألة انتقال تدريجي من القليل الى الكثير ، فالمرء لا يصبح ثورياً إلا عن طريق ثورة باطنية ، وهو لن يصبح انساناً آخر إلا عن طريق نوع من انقلاب. وهذا الظهور المفاجيء لعالم آخر ولأنا اخرى ، ذات التاريخ ، لا يمكن ان يشعر به طالما انــه مسحوق على صخرته : كيف يمكن للسلبية ان تتخيل الايجابية؟ ليس من الصعب ان يكون المرء بورجوازياً: يكفي أن يحسن اختيار رحم الأم حتى يوصله هـذا الى أمنيته. وليس اصعب بالمقابل من ان يكون بروليتارياً : لأنه لا يؤكد نفسه إلا بعمل جاحـد وشاق ، متجاوزاً التعب والجوع ، مزهقاً حياته ليولد من جديد. وحتى يكون العمل ممكناً في كل لحظة، فلابد ان توجد الممارسة في اعماق الجماهير بالذات كنداء ، كنوع من التصور لما يمكن ان يكون. وباختصار، لا بد من تنظيم يكون تجسيداً خالصاً للممارسة. ستقولون : حسناً ، لِمَ لا يكون هذا التنظيم النقابـة ؟ سوف أبيّن السبب في القسم الثالث من هــذه الدراسة. لكن المهم الآن ان المنظمة التي ترسم الخطط

وتنفذ وتجمع وتوزع المهام – سواء أكانت نقابة ام لم تكن ، وسواء أكانت نقابة ثورية ام حزباً ام الاثنين معـــاً – لا تستطيع ان تمقل نفسها ، بفعل ضرورة الموقف بالذات ، إلا كسلطة . انها بعيدة عن ان تكون النتاج اللذيذ للعفويـــة العمالية ، بل هي تفرض نفسها على كل فرد كآمر . انها بمثابة تنظيم يفرض النظام ويصدر الأوامر . اما « الكرم » والحماسة فيأتيان فيما بعد ، هذا إن أتيا: لكن الحزب يمثل اولاً بالنسبة الى كل فرد الاخلاق الاكثر ترمتاً : لانه وسيلة المرء الى حياة جديدة بعـد ان يتجرد من شخصيته الراهنة . واذا كان متعباً ، أمر بأن يتعب اكـــثر ايضاً . واذا كان عاجزاً ، أمر بأن يلقي بنفسه مطـــاطيء الرأس عـــلى سور صخري . وطالمـــا انه في الخارج ، فإن الممارسة ، اي المدخل إلى الطبقة ، تتمثل له تحت شكل واجب . لكن اذا كان لا بـــد من تبرير وجود جهاز آمر وكثير المطالب دومـــاً ، فإنني سأرجع الى ضرورتـــه أكثر مني إلى أصله ومنشأه : فلو انه كان عفوياً لما كان له هذا القدر من السلطة والهيبة،ثم من يثبت لنا ان خير الاندفاعات هي أوائلها ؟ وبالمقابل فإن الحزب، مهما يكن منشؤه ، يستمد شرعيته من كونه يلبي أولاً حاجة . فبدونه لا وحدة ولا عمل ولا طبقة . يقيناً ، إن الغالبية الكبرى من العمال لا تدخل اليه : هـل النضال ممكن بعـــد عشر ساعات من العمل في المصنع ؟ لكنهم يولدون الطبقة عندما يطيعون جميعهم أوامر القادة . ومقابل الانضباط الذي يتقيدون بـــه ، يحق لهم ألا تبلبلهم بعد اليوم « الثرثرات » . اتحادان نقابيان ، حزبان عماليـان أو ثلاثة: وكل منها يضعف الآخر.وحين لا يكون العامل منتسباً إلى أي منها ، فكيف يحزم أمره ؟ وبالتالي يبقى في الخارج . تزعمون ان الجماهير لا تتطلب الحزب الأوحد ؟ معكم حق : فالجماهير لا تتطلب شيئاً البتـة لأنها ليست سوى تشتت. انما الحزب هو الذي يتطلب من الجماهير ان تتجمع في طبقة تحت قيادته. وشعار « الحزب الأوحد » لم يطلقه الحزب الشيوعي الفرنسي ولا حتى لينين . بل طرح من قبل بلانكيين – خارج نطاق الماركسية بالذات – من امثال فايان. وكان المؤتمر القومي الأول للحركات الاشتراكية قد حدد لنفسه هدفاً ، عـام

١٨٩٩ ، هو تحقيق « التنظيم السياسي والاقتصادي للبروليتاريا في حزب طبقي للاستيلاء على السلطة » .

وإذا لم تكن الطبقة لا مجموع المستقلين ولا الاندفاع البرغوني الذي يحركهم ، فمن اين تريدون ان تنبع إن لم يكن من العمل الذي يمارسه البشر على انفسهم ؟ ان وحدة البروليتاريا انما هي صلتها بسائر طبقات المجتمع ، وبكلمة واحدة نضالها . لكن هذا النضال لا معنى له ، بالمقابل ، إلا بالوحدة . فكل عامل يدافع عن نفسه ، من خلال الطبقة ، ضد المجتمع كله الذي يسحقه . وبالمقابل تظهر الطبقة الى الوجود عن طريق هذا النضال . ان وحدة الطبقة العاملة اذن هي صلتها التاريخية والمتحركة بالجماعية من حيث أن هذه الصلة تتحقق بفعل توحيد تركيبي يتميز بالضرورة عن الكتلة تميز العمل الصرف عن الهوى . وعندما لا تكون المسألة سوى مسألة تحويل التعارض والمزاحمة الى جامعة من المصالح المشتركة فإن هذا يتطلب ، اللهم الا اذا افترضنا ان النعمة متحل على جميع الشغيلة معاً ، وجود مبدأ رابط يمارس عمله في عدة نقاط في آن واحد ويضمن للفرد صدق المجموع . وهذا لا يعني بالطبع ان المناضل لا يخرج من الكتلة : لكنه اذا ما خرج منها تميز عنها . وهذا من حيث ان انسان الكتلة ما يزال مثقلاً بمصالحه الخاصة ، ولا بد من فصله عنها ، ولا بد لجهاز الربط من ان يكون عملاً صرفاً . ولو احتفظ هذا الجهاز بأبسط بذور الانقسام ، ولو ظل مشتملاً على شيء من السلبية ـ تثاقل ، مصالح ، آراء متباينة ـ فمن سيوحد آنئذ الجهاز الموحد ؟ والمثل الأعلى هو ان يكون هذا الجهاز علاقة خالصة ، رابطة تنبجس اينما اجتمع عاملان معاً [1] . وبكلمة واحدة ، ان الحزب هو الحركة التي توحد العمال إذ تجرهم الى استلام السلطة . فكيف تريدون اذن ان تتبرأ الطبقة العاملة من الحزب الشيوعي ؟ صحيح انه ليس شيئاً خارجياً

---

١ ـ اقول المثل الاعلى . والواقع ان هناك بذور انقسام في الحزب كما في كل مكان بالأصل ، ونحن نعرف النضال الشاق الذي يخوضه باستمرار ضد العمل « الانقسامي » . وسوف نرجع فيما بعد الى كل هذا التحليل .

عنها ، لكنه إذا ما اختفى تساقطت هباء .

هل ينبغي ان نفهم ان العامل سلبي ؟ الأمر بالعكس تماماً . انه يتحول إلى عمل عندما يدخل في الطبقة ولا يستطيع ان يؤكد حريته إلا في العمل . لكن هذه الحرية قدرة عملية وإيجابية : القدرة على الابتكار ، على الايغال الى ما هو ابعد ، على المبادهة ، على اقتراح حلول . وهذه الحرية لا تستطيع ان تغنيه إلا بتجاوزها الموقف باتجاه حركة المجموع . اما حرية النقد ، على العكس ، فإنها لا تجمل قائد الخلية او المندوب النقابي وحدهما يقطبان الحواجب : فكل واحد يخاف منها لدى الآخرين ، وهي تذكر بالعزلة السابقة والشقاق . ولنفهم على كل حال ان الانتقادات ، حين يكون مسموحاً بهـا ، لا تصدر عن عفوية او « غريزة » ثورية : فالعامل ، الذي حوّله التنظيم الى ذات ، يجد واقعه العملي بدءاً من تحوله . ومهما فكر او فعل ، فإنما يفعل ذلك بدءاً من انقلابه . وهذا الانقلاب يحدث بدوره في الاطارات الحالية لسياسة الحزب . ان حريته ، التي هي محض قدرته على تجاوز المعطى – وبعبارة أخرى ، قدرته على العمل – تتجلى اذن في قلب ذلك الواقع المعطى الذي هو التنظيم . فهو يكوّن أفكاره بصدد المشاكل التي يطرحها الحزب عليه وانطلاقاً من المبادىء التي يعطيه إياها الحزب . وخلاصة القول انه لا يحكم على الحزب باسم سياسة يقال إن مبادئها منقوشة في لا شعوره ، وناتجة عن رد فعله العفوي او عن تناقض المجتمع البورجوازي : ان حريته ، هو الذي درّبه الحزب وكوّنه ورفعه فوق ذاته ، ليست إلا قدرته على ان يتجاوز بالافعال ، داخل التنظيم بالذات وباتجاه الهدف المشترك ، كل موقف خاص . ولكأن الحزب ، بكلمة واحدة ، حريته . ان العامل لا يستطيع ، في قرننا اليوم ، أن يعبر عن نفسه ويحقق ذاته إلا في عمل طبقي موجـه من الحزب الشيوعي . والمحاكمات العقلية للحزب الشيوعي وايديولوجيته ومبادئه هي التي تكوّنه . ولو أراد ان يقبلها ضد السياسة الشيوعية ، لراحت من تلقاء نفسها تبررها . وإذا اقترف خطأ فادحاً او تمرّدى الى هزيمة قاسية ، فإنه لا يملك من ادوات ليفهم معناها ولا محسات ليتكهن به .

وكل ما هنالك انه يرخي الزمام ، ويتحطم بجهوده ، ويعاود السقوط في حقل الجاذبية البورجوازية . وبذلك تتفتت الطبقة . لكن عندما يسقط ، فإنه لا يسقط إلا ليجد من جديد ، تحت تأثير القوى المعدوة ، يأسه وجهله وشعوره بالعجز . اما الحزب فيكون قد تكوّن بمبدأ عنه ، وبات عصي المنال ، كآمر لا يحاكم ، اذا يشعر المرء ببساطة انه اقسى من اللازم ولا انساني ، بالمعنى الذي يمكن به ان يقال عن اخلاق « كانت » انها لا انسانية . وهذا يعدل القول بأن كل عمل طبقي قد أصبح مستحيلا .

يقول عدو الشيوعية : « باختصار ، قلنا إن الطبقة العاملة تبرأت من الحزب . اما انت فتقول انه أسلم العمال إلى اليأس . وليس عندنا مزاج لمتابعة هذه المناقشات البيزنطية ونحن نصرح انك سلّمت لنا بكل ما كنا نطلبه » .

انني لا أسلّم بشيء . إنما ألاحظ ، كسائر الناس ، فتور همة الجماهير ، لكنني لست أدري بعد ان كانت سياسة الحزب الشيوعي هي المسؤولة عن ذلك . ثم انني أرى بين تحليلينا هوة . واذا كنتم لم تجدوا بينهما سوى اختلاف لفظي ، فهذا لأنكم تسخرون من الطبقة العاملة . فلو ان بروليتاريا سليمة معافاة كالعين ، غضة طرية ، تبرأت من الحزب الشيوعي وشكلت على الفور حزباً جديداً (انتم تعلمون ، فأنا أقصد ذلك الحزب الشيوعي المشهور الفرنسي حقاً الذي سيتميز عن الحزب الشيوعي الفرنسي باستقلاله والذي سيعلن عن طابعه القومي ببعثه الاممية الحقيقية) ، ولو ان مثل هذه البروليتاريا كانت موجودة ، فلا بد من أن تؤخذ اراداتها بعين الاعتبار : هل هناك أحد غيرها في مثل هذه الحال يستطيع ان يقرر ؟ ولو أن البروليتاريا عادت الى الدرجة الطبيعية من النزعة الذرية ، وإن ظلت تغلي وعلى استعداد دائم لإعادة تكوين نفسها ولاستئناف النضال ، فتستطيعون ، بحصر الأمر ، أن تأملوا في بيعها بضاعتكم الرديئة ، بل ان تقدموا لها ، من يدري ، حزباً بديلا . لكنكم تعلمون حق العلم ان البروليتاريا تنهار ، انها تقيس مدى عجزها ، وانها تجازف بأن تسلم رجالها الملايين بدون حماية الى مطارق البورجوازية . وتعرفون ان كل شيء سيستخدم في الشهور القادمة لزيادة

العزلة والاستسلام والمسافات بين البشر لتحويل البروليتاريا الى ارخبيل. وعندما يكون العمال قد وصلوا الى الدرك الاسفل من المرارة والاشمئزاز، فهل تعتقدون حقاً انه سيمكنكم ان تجملوهم يأخذون بشعوذاتكم ؟ لقد قلت لكم : اذا زالت ثقتهم بالحزب الشيوعي، فإنهم سيرتابون في كل سياسة وسيرتابون في طبقتهم، وسيصبح العالم كله بورجوازياً . واذا كنتم تأملون في ان يصعدوا المنحدر من جديد، فاعلموا ان الحزب الشيوعي هو وحده الذي يستطيع ان يساعدهم على ذلك . واذا ما استعادوا الحادهم ، فإنما ليتجمعوا حول الحزب الشيوعي . واذا ما استرجعوا كفاحيتهم ، فإنما ليطيعوا أوامره . وهأنذا اسمع من الآن همسكم : « أأنت مجنون؟ أتتمنى يساراً مستقلاً ومرتبطاً بالحزب ؟ أتريد اذن ان يسترجع نفوذه على الجماهير ؟ دع الامور على ما هي عليه ، دع التفسخ يتابع عمله : وذات يوم سينفجر الحزب ويتطاير » . ان الامور لم تصل الى هذا الحد لحسن الحظ : لكن حتى عندما ستتدهور وتنحط الى الدرك الاسفل وتكونون انتم الخصم الصلب للحزب ، فإنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من احتقار اولئك الذين ينتظرون التفسخ الشيوعي من يأس العامل . يقال لي إن العامل سيمالك نفسه ، وانني أجهل قدرة البروليتاريا القوية على الانتفاض . إن وجهها ، وايم الحق ، سيكون بسيكولوجياً : فهي قد عرفت بسباتها الشتوي المتبوع بيقظات مباغتة. انظر بالاحرى الى ١٨٤٨ ، ١٨٧٠ ، ١٩٣٦ ، ١٩٤٨ . انني أنظر : لكني لا اكتشف في هذه المعارك اعمال عنف ناجمة عن مزاج انفجاري بقدر ما اكتشف تأثير عوامل محددة . وفي « السبات » الذي تلاها ارى تأثير الهزيمة والارهاب. فالقوة العمالية قد أبيدت في كل مرة ، واقتضى الأمر منها سنوات طويلة حتى تعيد تكوين نفسها . ولو صدقناكم لما كان علينا ان نقلق تقريباً . ففي مدى عشرين عاماً ، في مدى خمسين عاماً ، سنشهد من جديد ظهور بروليتاريا جميلة طرية العود . وما علينا إلا ان نصبر : فالحياة بعد كل شيء ليست سيئة للغاية ونزعة عداء الشيوعية نزعة رابحة .

على رسلكم . سننتظر اذن . عشرين عاماً ، اذا شئتم . اللهم الا اذا اندلعت

الحرب العالمية الثالثة في مدى ستة أشهر . واذا مـا وقع هذا فإننا لجازف بالا نرى احداً عند الموعد : لا انتم ولا انا ، ولا البروليتاريا الناجية ، ولا فرنسا .

٣ – الاسباب

لقد بينت ان فتور همة العمال لا يمكن ان يعتبر ادانـــة ولو ضمنية للسياسة الشيوعية . يبقى ان نعرف السبب . وهــذا هو الهدف الذي آخذه على عاتقي اليوم[٢] .

من الممكن ان نعالج المسألة بطريقتين تعتمدان كلتاهما على السفسطة نفسها . فعدو الشيوعية « اليساري » لا يريد حتى ان يسمع اي كلام عن تعب العمال وسأمهم : فهو يظهر لنـــا بروليتاريا فولاذية غارقـــة حتى رأسها في الجيفة البورجوازية . اما عدو الشيوعية « اليميني » فيرينا البورجوازية تحت إهـاب ماردة فتية تحمل بين ذراعيها بروليتاريا محتضرة . والقصد ، في كلتـا الحالتين ، التغاضي عما يمكن ان يشبه عمليـــة شرط متبادل ، أي باختصار نفي الصراع الطبقي .

ان عدو الشيوعية « اليساري » يتردد على البورجوازيـين الفرنسيين . وهو يقر عن طواعيـة بأن سماتهم القومية قد انتجتها الظروف . امــا البروليتاريا الفرنسية بالمقابل ، فإنه ينفي بكل بساطة وجودها: انما الموجود فقط بروليتاريا

---

١ – هل سيقال ان فتور الهمة هذا عارض؟ اني على استعداد للموافقة على ذلك عن طواعية. اما اذا اردتم ان تضيفوا ان اضرابات آب ١٩٥٣ لتبشر بيقظة الطبقة العاملة ، فاسمحوا لي بأنني لست راغباً بذلك مثلكم. ان اضرابات الموظفين تلك تسترعي الانتباه باتساعها ، وما اضفى عليها اهمية بالغة هو انها كانت مناسبة لتقارب المضربين على صعيد القاعدة. لكنها لم تمس الصناعة الكبيرة الخاصة ، أو تقريباً . ثم ان قادة « الاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين » و « القوة العمالية » قد لجموها واحبطوها حتى لا يرغموا على تحقيق وحدة العمل مع الاتحاد العام للشغل . انني اسألكم صبراً والا تتهموني بالتفاؤل والتوقف عند استنتاجات سلبية. فانا لا انوي ان احرر محضر عجز؛ بل انطلع الى ان اثبت ان الجبهة الشعبية هي وحدها القادرة على اعادة الحركة العمالية الى سابق قوتها .

في ذاتها تعلمن عن نفسها في جميع الامم الرأسمالية في آن واحد . كيف يمكن تمثل هذه البروليتاريا ان تتعب ؟ واي علاقة تريد ان تكون لها ، هي النتاج التصوري للرأسمالية في ذاتها ، مع بورجوازيتنا التي هي من الأسف البالغ تجريبية ؟ لقد تكونت البورجوازية رويداً رويداً تحت تأثير عوامل عارضة وبالتالي قابلة للاهمال (ومنها على سبيل المثال ثورة ١٧٨٩) . أما تاريخ البروليتاريا المتحدد بتناقضات الرأسمالية لا غير ، فيكتفي بعكس التحولات المتتابعة التي تطرأ على الصناعة الكبيرة . إن بورجوازيتنا تذعر وبطيش صوابها ثم تسترد شجاعتها ، تخطىء ثم تصحح اخطاءها ، تسير اعمالها بصورة حسنة او رديئة . أما البروليتاريا فلا تربح المعركة أبداً ولا تخسرها ، لا تقترف اخطاء أبداً ولا تكتشف ابداً حقيقة خاصة . انها في حالة نضج دائم ، عديم الشفقة ، هي التي لا تقاوم ، لا تقبل الضغط ، لا تهتدي . انها ألد اعداء الرأسمالية - في - ذاتها . أما الضرر الذي يمكن ان تلحقه بالبورجوازية الفرنسية فلا وجود له : انهما لن تلتقي ابداً .

كان يمكن لهذا التصور ان يغني عن تفسير تاريخي - ويغني عن كل تفسير - لو لم يضع أنصاره في رؤوسهم فكرة فضح جرائم الحزب الشيوعي علاوة على ذلك . فلولا الحزب الشيوعي لما عرفت البروليتاريا الفرنسية تاريخاً تجريبياً : لكن الحزب أقام في الطبقة العاملة كما أقامت حبة الرمل في مثانة كرومويل . ما الأمر إذن ؟ أمرض اصاب البروليتاريا - في - ذاتها ؟ سوف يجيبونك بأن البروليتاريا - في - ذاتها خالية من المرض : فهي لا تستطيع لا أن تعرقل ولا تسرّع الحركة - في - ذاتها التي تبعث فيها الحياة . كلا : ان مصائبها تأتيها من تخاذل تاريخي عرض لقادتها . فلو ان قلب ستالين كان أكثر حناناً ، لكان تغير وجه العالم . ولا تسألوا كيف يمكن لمناضلي الحزب الشيوعي التجريبيين أن يحطموا دواليب البروليتاريا التصورية : فعدو الشيوعية مرغم ، ما دام قد ... بطرد التاريخ ، على إعادة إدخاله في النهاية تحت أشد أشكاله ... ، كسلسلة من الصدف ، ليفسر التباين الذي يفصل الواقع عن حساباته .

أما أنا فأعتبر أن تطور الرأسمال ، المنظور إليه في عموميته ، يفسر المظاهر المشتركة بين الحركات العمالية كافـــة . لكن هذه الاعتبارات المبدئية لن تفسر أبداً وحدها السمات الخاصة للصراع الطبقي في فرنسا او في انكلترا في هـــذا التاريخ او ذاك . ان كل واقعــة عينية دبي ، على طريقتها ، التعبير المتفرد عن العلاقات العامة . لكن لا يمكن أن تفسر في تفردهـــا إلا بأسباب متفردة : والإنســان يضيع وقته وجهده اذا أراد ان يستنبطها من معرفة مطلقة لكن فارغة او من مبدأ تطور شكلي . فالحقيقة ان هناك دبالكتيكات ، وهي كامنة في الوقائع ، وعلينا نحن ان نكتشفها لا ان نضعها فيها . لقد تكلمت عن فتور الهمـــة : فإذا أردتم ان تبرهنوا على أنني مخطىء ، يجب ان تقيموا الدليل بالشهادات على ان العمال قد احتفظوا بـ « كفاحيتهم » . وحتى لو أثبتم ذلك ستظل هذه الشجاعة المحفوظة آنية خاصة وستتطلب تفسيراً خاصاً شأنها شأن فتور الهمة . ان البروليتاريا الفرنسية واقـــع تاريخي تجلّى تفرده ، في الأعوام الأخيرة ، عبر موقف معين : وليس علي ان أبحث عن مفتاح هـــذا الموقف في حركة المجتمعات العامة ، بل في حركة المجتمع الفرنسي ، أي في تاريخ فرنسا .

ويصل أعداء الشيوعية « اليمينيون » الى النتائج نفسها عن طريق محاكمة عقلية معكوسة : فهم يعارضون العمال الذين من لحم وعظم بفرنسا الخالدة ، أنتم تعرفونها ، تلك التي اشتهرت بانتفاضاتها الرائعة الجمال ، تلك التي ينقذها دوماً في اللحظة الأخيرة رجل أرسلته العنايـــة الإلهية . فرنسا الفاتنة ، الحيـــة ، الرشيقة ، النشيطة دومـــاً ، الساعية دوماً ، الشبيهة بالمادلون[1] . ففرسان الصناعة[2] والتجار والبيروقراطيون والريفيون وجميع الناس يفتنون ، وجميعهم يشاركون في التصحيح . تقل واحد ميت : البروليتاريا . وتتلفت فرنسا قلقة : « من ذا الذي يمنع عمالي من السير ورائي ؟ » . ومن تريدون ان يكون ألهم إلا

---

١ – أغنية شعبية كان ينشدها الجنود الفرنسيون في الحرب العالمية الأولى . « م.ع.م »

٢ – فرسان الصناعة كناية ، في الفرنسية ، عن الأفاقين والمحتالين. وواضح مقصد سارتر من هذا التلاعب اللفظي . « م.ع.م »

الحزب الشيوعي ؟ فطالما انه يعد المدة لهلاكنا ، فلا تندهشوا إن كان قد شرع في تبليد العامل الفرنسي . ويقيناً ، ان هذا العامل لم يقع ضحية الخداع نهائياً : فهو بين الفينة والفينة يسترد حس آبائه السليم ويفهم أن مصالحه متضامنة مع مصالح أرباب العمل . والحقيقة انه ما كان ليطلب سوى ان يعمل ليأخذ حصته العادلة من الدخل القومي . لكن الشيوعيين شوّشوا أفكاره : وإذا كانوا يخفقون في إثارته على سادته الصالحين ، إلا انهم أقوياء بما فيه الكفاية ليحولوا بينه وبين الانضمام إليهم . وهكذا يجمد عنده نوع من الكزاز[1] لتوزعه بين الريبة التي يوحي بها إليه رب عمله . ألا أي تقدم كنا سنحققه ، وفي أي نعيم كنا سنعيش لولا ان جرثومة الستالينية الراشحة قد سرت الى طبقتنا البروليتارية !

ايتها الجرذان الجبلية ، هل تأملون في ان تجعلونا نصدق ان فرنسا خالدة ؟ هل تعتقدون انكم ستكتمون عنا مدة طويلة من الزمن كونها تحتضر ؟ إن الداء الذي يشل البروليتاريا قد بدأ بالسريان الى المجتمع قاطبة . وانتم ، يا من تهذرون ، هل انتم أحياء الى هذا الحد ؟ إن ذنبكم ما يزال يتحرك عندما تذكر امامكم كلمة « الشيوعية » ، لكن جسمكم رخو وخامد الحركة . وهو يزداد همودا يوما بعد يوم . والآخرون ؟ جميع الآخرين ؟ اين آمالنا الكبار ، أين مطامحنا العظام ، أين مشاريعنا الضخام ؟ إن الفلاح ينبش الارض بيديه ، والصناعي في سبيله الى الاتتان ، والمصارف تتحول الى صناديق ادخار . اننا نحيا حياة رديئة ، رديئة للغاية : فنصف الفرنسيين لا يتجاوز اجرهم الحد الادنى الحيوي ، والشبيبة تختنق أو تهاجر زاعمة انه ليس في فرنسا ما يفعل . والحكومة ؟ هل تحكم ؟ تنمية الشقاق بالأكاذيب ، تزوير القانون الانتخابي ، حبس المعارضين ، منع ابنائهم من دخول المدارس العالية ، اشادة دكتاتورية الضعف المرائية ذات الوجهين على الانقسامات ، بذل الوعود لعمال الدولة والموظفين ثم الحنث بها ، سحق البلاد تحت وطأة نظام ضرائبي متهافت سخيف : أيمكن ان يعتبر هذا كله سياسة داخلية ؟ خطف الزعماء المدغشقريين بالطائرة لإلقائهم من السماء على اسلحة

---

١ - مرض تصلب العضلات . « ن . م »

قرام ، احراق الفيتناميين بالنابالم وتخريب الفيتنام ، خوزقة التونسيين على زجاجات ، اطلاق النار على العمال المغاربة : أيمكن ان يعتبر هذا كله سياسة كولونيالية؟تبذير المليارات في حرب معروف سلفاً انها خاسرة ، حرب تتابع لعدم توفر الجرأة على وضع حد لها ، وعدواها تسري من وزارة الى وزارة كالجدري ، والمتاجرة بالسيادة الفرنسية ، والقبول بسيطرة الولايات المتحدة على نصف العالم وبالهيمنة الالمانية في أوروبا ، أيمكن ان يعتبر هذا سياسة خارجية؟ أم رجال دولة أولئك الكاثوليكيون الذي تشبه اعصابهم اعصاب النساء والذين يغمى عليهم فرق المنبر ، ويتدحرجون تحت طاولات المآدب ، ويحسبون انفسهم ريشيليو لأن ايديهم ملطخة بالدم ، واولئك الاشتراكيون الذين يأمرون باطلاق النار على عمال المناجم المضربين ؟ واولئك الوطنيون الكبار الذين لا يتورعون عن بيع الوطن بقرش واحد ؟ وتلك الوفرة من الخدم الجهلة المنتفخين المستعدين دوماً للحس الاحذية أو للكشف عن مؤخراتهم بشرط ان يقبضوا الثمن ؟ اذا كان هؤلاء الناس ما يزالون في سدة الحكم فهذا لأنه ما من احد في فرنسا البورجوازية يبالي اليوم بالسياسة : تذكروا كيف ان الصحف عام ١٩٥٢ راحت تهلل بالنصر لأنه لم يحص في الانتخابات سوى خمسة ملايين مستنكف. انكم تتحدثون عن القرف حين يقاطع العمال مظاهرة : فماذا ستقولون عندما يقاطع الناخبون الصناديق ؟ إن الطبقة العاملة هي وحدها التي تملك اليوم في فرنسا مذهباً ، هي وحدها التي تنسجم ، خصوصيتها ، تمام الانسجام مع مصالح الأمة . وثمة حزب كبير يمثلها وهو وحده الذي ادرج في برنامجه مبدأ الحفاظ على المؤسسات الديموقراطية واعادة توطيد السيادة القومية والدفاع عن السلم ، وهو وحده الذي يهتم بالانبعاث الاقتصادي وبزيادة القدرة الشرائية ، وهو وحده أخيراً الذي يحيا ، الذي تنبض عروقه بالحياة بينا تنبض عروق الآخرين بالديدان : ثم تتساءلون عن المعجزة التي تدفع بالعمال الى السير وراء معظم شعاراته ؟ اما انا فأطرح السؤال المعاكس ، واتساءل عما يمنعهم من السير وراءها دوماً . ولا مجال للشك في الجواب : اذا كانت تصدر عن البروليتاريا

أمارات الانهاك فهذا لأن عدوى فقر الدم قد انتقلت اليها من الأمة . وللنضال ضد الداء الفرنسي - ذلك الداء الذي يضعفه اويتاً كلنا جميعاً - لا يكفي ان نقف بجانب الطبقة العاملة : انما ينبغي أن نعرف المرض من اسبابه . وانا اترك قرنسا الخالدة المشتبكة في صراع مع البروليتاريا - في ذاتها ، واتطلع الى تفسير بعض الاحداث المحددة تحديداً صارماً في الزمان والمكان ببنية اقتصادنا المتفردة المحددة بدورها ببعض احداث تاريخنا المحلي .

* * *

انا نعيش عيشة ضنك لأننا ننتج قليلاً وبأسعار مرتفعة . تسألون : الغلطة غلطة من ؟ على رسلكم ، انها غلطة الألماني الذي اعلن علينا حربين مدمرتين ، غلطة الروسي الذي يعرقل من موسكو اعادة البناء، غلطة المستقيلين من الولادة الذين يحرموننا من زبائنهم القادمين بإبائهم الولادة ، غلطة الفلاحين المتأخرين الذين لا يجزمون أمرهم على الاختفاء ، واخيراً غلطة باطن الأرض الذي خان فرنسا إذ خار تحت اقدامها . وباختصار ، ان جميع الناس مذنبون باستثناء الطبقة الحاكمة .

وهذا بالضبط ما يزعجني : خونة كثيرون ! ومثل هذا القدر من العلل التي لم تربط فيما بينها ربطاً حسناً انما يسمى اتفاق صدف . فهل تحتضر فرنسا من قبيل الصدفة ؟ اننا سنعود إلى العامل الموسكوفي لندرس حالتها بتمن وتمل . لكن كيف نتصور ان الحرب العالميتين تحملان مسؤولية جمودنا ؟ فبين ١٩١٣ و ١٩٢٩ ، وبالرغم من اثنين وخمسين شهراً من الاجتياح والتخريب ، ازداد الانتاج الفرنسي ٣٠٪ . ثم جمد حتى يومنا هذا ، اي طوال ربع قرن من الزمن: وفي تلك الفترة نفسها زادت انكلترا انتاجها بنسبة ٥٠٪[١] . يقال لنا اننا نراوح في مكاننا منذ عام ١٩٢٩ : لكن مهما تكن الأدواء التي ترهقنا ، أفليس من اللغو الباطل البحث عن سببها في آفة سابقة بعشرة اعوام على أول تظاهرات

- على وجه التحديد من عام ١٩٢٩ الى ١٩٥٢ .

أعراضها ؟ ان مثل هذا التدهور المتواصل لا بد ان يكون منشؤه راجعاً إلى عيب في البنية .

أهو باطن الأرض اذن ؟ فلندعه لمائه وحيواناته المتغير . انحوا باللائمة على الفحم، انحوا باللائمة على البترول، انحوا باللائمة على المعادن غير الحديدية لأنها لاذت بكنف البلدان الاجنبية راضية بمصيرها كروس اموال مبتذلة في حين ان استحقاقاتنا كانت توجب عليها ان تندفن تحت مواطىء اقدامنا : فلن تكونوا قد تقدمتم . الطبيعة تخوننا ؟ هذا مؤسف . لكنها تخون في الوقت نفسه اوروبا قاطبة ومع ذلك انظروا : بالرغم من التساري في الخيانة يعيش البلجيكيون والسويسريون والسكندنافيون خيراً منا . اما الانكليز ، فمنذ نهاية الحرب الاولى انبحت لهم فرصة جميلة ليصيحوا : اقبضوا على الخائن ! إذ بينا كانوا يديرون ظهورهم هجرهم زبائنهم الجاحدون الناكرون للجميل ، وراحوا يشترون الفحم الاميركي والقطن الياباني والفولاذ الألماني . ولو فعلت انكلترا آنذاك ما تفعله اليوم ، لظلت قابعة في مزبلتها لتشهد خرابها الذاتي ولتتنبأ به لكن من غير ان ترفع اصبعها لتلافيه . كانت لها جميع الأعذار : كانت صناعتها القديمة الماجدة تبدو وكأنها هيكل الأمة العظمي ، فهل يمكن للمرء ان يغير عظامه ؟ ومع ذلك حطمتها : فطالما أن الأسس القديمة لتفوقها الصناعي قد خربت ، فهي تريد ان تتغير لتبقى هي هي وان تحافظ على توازنها بقلبها انتاجها رأساً على عقب . وهكذا رأيناها تبدل في مدى عشرين عاماً تشريحها وفيزيولوجيتها، وتقلب التيارات الديموغرافية، وتعيد تصنيف وتوزيع يدها العاملة، وتهجر آبار مناجمها لتصنع المنتجات العالية الاختصاص . فهل تختلف معضلتنا عنها اختلافاً كبيراً ؟ كان علينا ، نحن أيضاً ، ان نلف حول صعوبة ما كان في مقدورنا ان نواجهها من الأمام ، وان نزيد انتاجنا عن طريق تقويم اقتصادنا . لكن ثمة دعاية ملهمة تقنعنا بأن تكويننا غير قابل للتبديل لتجعلنا نعدل سلفاً عن محاولة تغييره : فعظام فرنسا رخوة ومصابة بمرض بوت [1] ، وعليها يوجه

١ - جراح انكليزي اشتهر بأبحاثه عن مرض العمود الفقري ، فعرف باسمه . « م.م »

خاص ان تظل راقدة : فعند اقل جهد يبذله المريض تتحطم فقراته. وباختصار يراد لنا ان نظن الحبة قبة والطبيعة قدراً . لكن لا تصدقوا شيئاً من هذا : فالطبيعة تخلط الورق وتوزعه ، لكنها لا تحدد طريقة اللعب به . انها تطرح الاسئلة لكنها تجهل الأجوبة . توجه الاقتصاد لكنها لا تسوسه . بل اكثر من ذلك : ان الاقتصاد هو الذي يصنع الطبيعة بقدر ما تصنع الطبيعة الاقتصاد . ويمكن للتصنيع ان يأخذ اشكالا شتى ، وندرة الموارد الطبيعية لا تستبعدها جميعها قبلياً : فقد كان معروفاً سلفاً ان فرنسا ، بخلاف انكلترا المنتصرة ، لا تستطيع حتى ان تحاول بجرد محاولة إلحاق إنتاجها بكامله بصناعاتها الاستخراجية ، فهل كان محظراً عليها ان تشجع صناعتها التحويلية ؟ أما كان في وسعها ان تتخصص ؟ وأن تنمي معاً وبالتفاعل استيراد الموارد الخام وتصدير المنتجات المصنوعة ؟ لقد تم الاعلان بسرعة عن ان المشكلة لا حل لها ، لكن ماذا نعرف عنها طالما اننا لم نكشف النقاب عنها حتى الآونة الأخيرة ؟ اننا نستطيع ان نبرىء ساحة عالم الجماد : فهم بشر الذين صنعوا الاقتصاد الفرنسي ويصنعونه يومياً . وانحطاطنا الراهن، شأن عظمتنا الماضية ، مغامرة انسانية ، ونحن في آن واحد ضحاياها وصانعوها .

ماذا لو ألقينا بكل شيء على كاهل المستهلك ؟ ماذا لو زعمنا أن ضيق سوقنا الداخلية يحبس الانتاج ضمن نطاق معين لا يعود بعده تصريف المنتجات مضموناً ؟ فكرة جيدة ! وميزتها الرئيسية انها ترجعنا الى الملكوت البشري . ثم إن الفلاح يستهلك قليلا ، هذه حقيقة واقعة : على الأقل في النصف الجنوبي من البلاد . لكن كل ما هنالك هو انني لا ارى كيف يمكننا ان نعتبر ضيق أسواقنا علة اولى اللهم إلا اذا آمنا بفرنسا الخالدة وبخلود « الصفة » الفرنسية . أنكون امة شحيحة ؟ انتم ولا شك تهزلون . واذا كان المزارعون لا يؤدون « واجبهم الاجتماعي كمشترين » على الوجه المرام ، أفليس السبب بالاحرى كونهم يعيشون من منتجات أراضيهم ؟ وما يرغمهم على ذلك ؟ انه ، وايم الحق ، الانخفاض المستمر لقدرتهم الشرائية . وهذا الافتقار التدريجي ، أتريدون ان تعرفوا

مصدره بدوره ؟ ان مصدره ، بكل بساطة ، هو ان اعمال الحقل مـــا عادت تدر . وهكذا نكون قد رجعنا من الاستهلاك الى الانتاج . هل ستقولون انها غلطتهم وانهم يتشبثون بروتينهم بدلاً من ان يشتروا جرارات ؟ هــذا صحيح . لكن عمليات الشرط في المجتمعات ، كما في نظام الآلات الاوتكاسية ، تكون معلولاً وعلة معاً او عـــلة هي في الوقت نفسه معلول معاليلها . ولنفكر باتجاه عقارب الساعة : مبيع الجرارات قليل، إذن فانتاجها قليل ، ولما كانت الأسواق ضيقة لا تغطي نفقات إعادة التجهيز فإن مصانع الآلات الزراعية لا مصلحة لها في تجديد نفسها . والنتيجة: الجرارات تباع بسعر مرتفع لأن الفلاحين يقاطعون المكننة . إن هذه المحاكمة العقلية صحيحة ، وكفيلة علاوة على ذلك بتشجيـــع الجمود والعطالة الى حد معجب : اذا اخترتم مرة واحدة ونهائية المزارع كمتحول مستقل تكونون قد جردتم انفسكم فرضاً من كل وسيلة للتـــأثير عليه . ولنمضِ عابرين هـــذا المثال الجميل من التشاؤم الرجعي : الشح والروتين هما من الطبيعة الفلاحية بالذات ، اذن فاقتصادنا لن يتغير ابداً .

ولنفكر الآن بالاتجاه المعاكس : طالما ان نسبة الأسعار الصناعية ستظل أعلى من نسبة الاسعار الزراعية، فلن تتوفر للمستثمرين الريفيين الصغار وسائل تجديد استثماراتهم وتحديثها . واذا كانوا يقاطعون المكننة ، فهذا لانهـــا هي نفسها تقاطعهم ، ولا أمل في قهر روتينهم قبل ان توضع الآلات في متناولهم . وهـــذه النتيجة الثانية ، التي لا تقل مشروعية وتبريراً عن الاولى ، تتميز علاوة على ذلك بكونها عملية : انهـــا تفتح المخرج الذي سدته الاولى . لكنكم ستقولون : ألا يتضايق الفلاح نفسه من اختناق السوق الزراعية ؟ بلى ، بالتأكيد . لكننا نلتقي من جديد ، على هذا الصعيد ، بتداخل المعاليل والعلل نفسه . ففي اتجاه عقارب الساعة يقال : لا يمكن تصريف الغلال ، اذن ففرنســا تنتج من القمح كميات اكثر من اللازم . وفي الاتجاه المعاكس يقـــال : الفرنسيون على مستوى منخفض من التغذية ، اذن فهي لا تنتج ما فيه الكفاية من القمح . اذن فطالما ان الدورات واجب ، فلندر . لكن من أين نبدأ ؟ هل الاولوية للعرض ام للطلب ؟ هـــذه

مسألة تتعلق بما نعنيه بكلمة « مستهلك » . هل يفكر منتجونا بزبون الأمس ام زبون الغد ؟ ومن هم اولئك الشراة المزعجون الذين يتهربون من واجبهم: أأغنياء يقترون ام فقراء لا يقدرون على الدفع ؟ في القرن الماضي كان صاحب المعمل يباهي بأنه يخلق الحاجات ليلبيها ، وكان يقول : « في نظام المزاحمة ، يزاد الانتاج لإنقاص التكاليف . وضيق الأسواق ليس إلا حدثاً عارضاً : فالسوق تفتح او تخلق . وطالما إن هناك ٤٠ مليوناً من الفرنسيين ، إذن فلدينا ٤٠ مليون زبون . صحيح إن معظمهم مستهلكون عن غير علم منهم ، لكن لا أهمية لهذا : اننا سنجعل منهم شراة علنيين . وسنذهب عند الحاجة للبحث عنهم في منازلهم ، ومهما كانت قدرتهم على الدفع زهيدة ، فسنطلب منهم اقل أيضاً » . وباختصار ، يخيل الينا اذ نسمعه ان الانتاج كان منوطاً بالآلات وكان يشرط الاستهلاك ، وكان الطلب يتبدل تبعاً للعرض . وانما على اغتناء الأمة المتواصل كانت الرأسمالية تقيم تبريرها الوحيد ، اسطورة التقدم الكبيرة . وفي البلدان الاخرى وجدت حركة الاقتصاد التراجعي نهايتها المنطقية في الانتاج المتسلسل الذي يستهدف عامة الزبائن والذي تختلط السوق بالنسبة اليه ، نظرياً ، بمجموع الأمة[١] .

حسناً . لكن ماذا يقولون اليوم ؟ إن الطلب في فرنسا ١٩٥٤ يشرط العرض ؟ كان هذا صحيحاً أيام الحملات الصليبية : فقد كان هناك مجتمع طبقي متحجر تهيمن على اقتصاده الزراعة ، يقدم زبائن ثابتين ودائمين لصناع كانوا يعملون وفق طرائق متوارثة . فهل تريدون ان تقولوا اننا قد عدنا من جديد الى ذلك العهد ؟ وهل سبب ذلك أن أرباب العمل عندنا ما عادوا يؤمنون بالتقدم ؟ وفي مثل هذه الحال ، ما سبيلهم الى تبرير امتيازاتهم في نظر أنفسهم ؟ إنهم يشكون سنوياً ، ومنذ خمسة وعشرين عاماً ، من ان الاستهلاك ثابت جامد.

---

١ - صحيح انه يولد من تلقاء نفسه حدوده : فالحد الادنى من الانتاج لا ينطابق مع الحد الاعلى من الربح . والمزاحمة تمحي امام التفاهمات . لكن هذه المالتوسية ، مهما تكن ضارة ، لا تشبه في شيء مالتوسيتنا .

ما أجمله من عذر : إننا نعيش على ما هو موجود ! لكن يوم سيعضنا الجوع بنابه جميعاً ، فكيف سيمكننا ان نأكل أكثر طالما ان كمية الطعام لا تزداد ؟ صحيح ان الأطفال لن يغادروا الجحور التي سكنها الآباء . لكن أين تريدون ان يذهبوا طالما ان البناء متوقف ؟ ليس القدر ولا الطبيعة الإنسانية بمسؤولين عن اختناق السوق . والانتاج ، مهما يُقل عنه ، لا يكف عن تنظيم الاستهلاك : لكنه بدلاً من ان يدفع به الى امام عندنا يضع في وجهه العراقيل . لقد سمع الجميع عن تلك الملاهي الليلية التي تكلف فيها الشمبانيا بؤبؤ العين لأن الإدارة تريد ان « تصطفي زبائنها » . وحالة فرنسا اليوم شبيهة بهذه الملاهي : فالنخبة هي التي تستهلك والأسعار مدروسة بإمعان حتى لا يندس بيننا غريب . لا مسكن لمن لا مسكن لهم ، ولا طعام لمن يتضورون جوعاً ، ولا أحذية للحفاة . وقريب هو اليوم الذي ستعلق فيه هذه اللافتة على واجهات المخابز : اللباس اللائق ضروري لشراء الخبز . هذه هي الحقيقة : حتى عندما سينقلب الاستهلاك ، نصف المختنق ، على الإنتاج ليخنقه بدوره ، فإن الانتاج هو الذي بدأ أولاً . وإنما فيه يكمن العيب التكويني لاقتصادنا .

* * *

إن هذا العيب يفقأ العيون ، لكن بشرط أن نبحث عنه حيث هو موجود : انه يدعى التشتت . ففي الولايات المتحدة كانت المعامل التي يعمل فيها أكثر من ٢٦٠ عاملاً تمثل ، منذ عام ١٩٣٠ ، ٤٠٪ من مجموع المصانع وتستوعب أكثر من نصف اليد العاملة . أما عندنا فإن الاستثمارات التي تعطي العمل لأكثر من ١٠٠٠ عامل لا تستوعب سوى ٤٦٪ من اليد العاملة ولا تمثل إلا واحداً بالمئة من الصناعة الفرنسية . وحول عدد زهيد من المصانع الضخمة تزيل المصانع اللامتناهية الصغر : ففي باريس ، وفي صناعة المعادن التحويلية وحدها ، يوجد ١٨٠٠٠ مشروع تضم ٤٠٠٠٠٠ عامل . وفي التجارة يستفحل التشتت : فالمؤسسات التي تستخدم أكثر من ١٠٠ عامل تستوعب ١٢٪ من الجهاز وتمثل ١و٠٪ من

المجموع . وهذه الوقائع معروفة من الجميع . ومنها يستنتج ان فرنسا قطعة من متحف ، معاصرة لأيام الاضاءة بالغاز : وهذه الميكانيكا المتشابكة الدواليب ستبقي على قيد الحياة بفضل نزوة من نزوات التاريخ وستستمر في امتثالها لقوانين القرن الماضي . وفي هذا الصدد يقرر البعض اننا سنعاني من مصير أثينا ، والبعض الآخر ان الله فرنسي . وجميعهم مخطئون : فاقتصادنا ابن عمره والقرن التاسع عشر عاجز عن انتاج اقتصاد شبيه به . والوسائل القوية التي نملكها اليوم هي وحدها القادرة على إعطائه غضونه وسيماءه البالية . يقيناً ، وللوهلة الأولى ، تذكرنا المشاريع الفرنسية البالغ عددها ٥٠٠٫٠٠٠ مع عمالها الذين يتراوح عددهم بين ٨ و ١٠ ملايين ، بعصر الليبرالية الجميل . لكن هذه لا تعدو أن تكون أكثر من صورة خادعة . فالاقتصاد الليبرالي يتحدد بنظام المزاحمة الذي يفضي عادة الى التمركز أكثر بكثير مما يتحدد بتشتته . إذن فحتى نحافظ على التشتت البالي لمخازننا ومصانعنا ، كان لا بد ان نلغي المزاحمة : فالاستثمارات الصغيرة لا يمكن ان تظل على قيد الحياة إلا إذا امتنعت الصناعة الكبيرة والتجارة الكبيرة عن ابتلاعها . وخلاصة القول ان الكبار قبلوا بأن يبيعوا بأسعار لا تقل ارتفاعاً عن أسعار الصغار . وخطر التنافس في الوقت نفسه على الصغار : فقد فرضت عليهم هدنة غير محددة الأجل كما فرض عليهم التجاوز والتعايش السلمي . ومن دنكرك إلى مانتون تخضع الأسعار لرقابة روابط متفاوتة السرية تجمع عدداً كبيراً من صغار التجار وصغار الكسبة حول بعض المؤسسات الضخمة . ولو أراد أرباب العمل أن يدفعوا بمنافسيهم الصغار الى الافلاس ، لما احتاجوا الى أكثر من زيادة الانتاج قليلاً . لكنهم يمتنعون عن ذلك ، وإذا كانوا يقبلون أحياناً بتجديد آلاتهم ، فليس ذلك ليزيدوا الانتاج وليبيعوا بأسعار ارخص ، بل ليزيدوا ارباحهم بتخفيضهم سعر الكلفة .

ومهما تكن الرعاية التي يبذلونها ليرفقوا بجيرانهم ، فإنهم لا يكونون قد فعلوا شيئاً اذا لم يحموهم بصورة ناجعة من الازمات : لأنهم عند أول نفحة سينهارون . اذن فسوف يلقمونهم كما تلقم الطير صغارها ، وعلى حساب المستهلك:

ففي ليون على سبيل المثـــال لا مجال للشك في ان « المعمل » لن يخفض بشكل محسوس تكاليفه بعهده بأشغال النسج والغزل الآلي الى الورشات التابعة له ، بل هو يفضل ان يعهـد بها الى معامل متناثرة مشتتة غير قـــادرة على الاستمرار بالأصل بدونه . وهـذا لا يكفي ايضاً : انما ينبغي ان تسأم الدولة في هـــذه الاعمال الخيرية ، وان تخفض اعباء الضرائب وتزيد في الاعتمادات وتعزز الرقابة الجمركية . الدولة ، اي المكلف ، وبكلمة واحـــدة فرنسا قاطبة . ان المهمة الرئيسية للنظام الضرائبي هي اعادة توزيع المداخيل : لكن اعادة التوزيـــع هذه تخدم عندنا مصالح المشاريع التي استبعدتها المزاحمة وحركتها الحرة . ان الفرنسي يدفع الضرائب ليستطيع أن يشتري بأبهظ الأسعار منتجاته القومية . وعلى المال الذي يتبقى له – هذا اذا ما تبقى لديه مال بعد كل هذه الاقتطاعات والضرائب – تسهر عناية الهيئة خاصة . وكما كان ملاك كلوديل يبعد بـلا كلل بروديز الشابة عن رودريغ الشاب [1] ليضعها في فراش رجل مسن ، كذلك لا يكل ملاك المالتوسية عن تحويل مجرى التوظيفات الجديدة نحو اقدم المشاريع واكثرها بلى . حاولوا ، على سبيل التجربة ، ان تمولوا شركة في سبيلها الى التكون ، وسوف يجعلونكم تندمون على عنادكم : « ماذا تزعمون ؟ المساهمة في تطوير القوى المنتجة ؟ لكن من سألكم ذلك ؟ هل تريدون تطوير الانتـــاج في الوقت الذي لا تجرؤ فيه الصناعة الكبيرة على الحركة خوف ان تسحق الصغيرة ؟ من حسن الحظ ان ادوات الانتاج تكلف غالياً جداً : وهذا طبيعي طالما ان تكاليف انتاجها كبيرة . وافضل مـــا يفعل هو ترميم الآلات القديمة : فلقد شهدت ولادتنا وما يزال في امكانها ان تخدم » . وإذا اصررتم تدخلت المصارف: احملوا اليها مدخراتكم ، فتعطيها للدولة التي ستدفنها في « الدين العـــام » . وباختصار ، انهم لا يكتفون بسرقة مال الفقراء ، بل يعقمون أيضاً مال الأغنياء . وبدءاً من هنا يستتب النظام : الادوات بالية ، وتكاليف الانتـــاج مرتفعة ، واسعار الصناعة في صعود دائم ، والزبائن الزراعيون يهجرون السوق . وتكاليف

---

١ – من ابطال مسرحية « حذاء الحرير » لبول كلوديل . « م . م » .

الانتاج عند الريفيين بدورهم مرتفعة نظراً الى استخدامهم أدوات قديمة رثة ، وارتفاع الاسعار الزراعية يحرم الزراعة من زبائن المدن . أرأيتم إلى الحلقة المدهشة وكيف ان المعاليل تعزز العلل : فهذا الفرع من فروع الصناعة يختصر نشاطه الانتاجي ويحرم بعض المشاريع من مجالات تصريفها الطبيعية وبسبب بالتالي انكماش السوق . والمشاريع التي لحق بها الاذى ستنكمش بدورها حتى تتمكن من الاستمرار ، الشيء الذي يؤدي إلى انكماشات جديدة . وهذا الانحطاط الدوار يرتد في النهاية إلى نقطة انطلاقه ، فارضا انكماشات جديدة على المعامل التي كانت السبب فيه . وهكذا يتلاءم الاستهلاك مع الانتاج ، ليتعدل الانتاج من ثم وفقاً للاستهلاك . إذن فالمحرك يدور بشكل دائري ، لكن هناك مشكلا واحداً : انه يتباطأ مع كل دورة وسينتهي به الأمر الى التوقف .

* * *

حين ينال نظام من الأنظمة الاجتماعية مثل هـذا القدر من الرعاية ويتطلب مثل هذا القدر من التضحيات ، فهل يمكن الزعم بأنه ثمرة الصدفـــة ؟ كانت الميكانيكا الثقيلة ستصاب بالخلل منذ زمن طويل لولا ان هناك من يسهر عليهـا ، وكانت اجهزتها الوفيرة المتشابكة المليكة ستتبـط مع الاستعمال لولا ان هناك يداً غير منظورة تتدخل . وبعبارة أخرى ، ان تشلت مشاريعنـا و الموجه ، يفترض وحدة نية ووحدة سياسة ، اي توحيداً خفياً لاقتصادنا . وفي فرنسا كما في الولايات المتحدة تشرف الصناعة الكبيرة على جميع قطاعات الحياة القومية . والفرق ان الاميركان قتلوا ارباب العمل الصغار واننـا نبقي على ارباب عملنا في القيود والاغلال . انهم يعيشون ، لكن كفافا ، ووداعتهم مضمونة لأنهـم أقنعوا بأنهـم بالاصل اموات وبأنهم سينهارون ويتفتتون إذا لم يمدّ في أجـــل اجازتهم الحياتية . ولهـــذا السبب يشبه نظامنا الاقتصادي بعض الشيء نظام الاقطاع . فهناك وفرة متزايدة باستمرار من صغـار التجار وصغار الباعة تبحث عن الحماية ضد المزاحمة التي تزداد قـوة يوماً بعد يوم ، وضد الازمات وضد وحشية

البارونات . وقد انتهى الأمر بهم الى تقديم املاكهم للكبار من ارباب العمل الذين أرجعوها اليهم تحت شكل إخاذات تابعة لهم بعد ان رمموها بيمنهم . واليوم لم يبق لهم غير حق الانتفاع بمخازنهم ومعاملهم . ام ستقولون عنهم انهم ملاك ، هؤلاء النبلاء الذين يحتلون أدنى مراتب النبالة والذين يكدون ويشقون ، ولا يكادون يسدون نفقاتهم ، والذين هم اجراء انفسهم ؟ ماذا يستطيعون ان يفعلوا ؟ ان يكبروا ؟ ان يجددوا تجهيزهم ؟ ان ينتجوا او يبيعوا اكثر ؟ لا شيء من هذا البتة . ومع ذلك فإن هؤلاء الموتى المرجأ تنفيذ حكم الاعدام فيهم هم « ازلام » كبار سادة الصناعة : فمقابل الحماية التي تحول بينهم وبين السقوط بدورهم إلى مرتبة البروليتاريا يُطالبون بأن يقدموا خدمات ذات طبيعة خاصة جداً : ان مهمتهم هي ان ينقذوا مظاهر الرأسمالية التنافسية بتغطيتهم الاحتكارات . ترى هل اقتصادنا اقتصاد بال فات وقته ؟ قولوا بالاحرى انه شاذ : فهذا النظام الذي خلق بشكل مصطنع والمستمر بفضل رعاية رأسمالنا الكبير يهدف الى دمج القوى المنتجة : لكنه يستبدل التمركز التكنيكي بتمركز الاجهزة القيادية الحقي .

* * *

يبقى ان نعرف لمَ يعاند اقطاعيونا الكبار في تدمير قرننا . لاحظوا ان لديهم جواباً جاهزاً فهم يقولون : « ذلك حق لحدّ من مدى الاضرار . افترضوا ان « العمل » غلط وفتح ورشات نسج : انه سيجد مشقة في اغلاقها حين تأتي الأزمة . وبالمقابل من السهولة بمكان التخلي عن الممولين : ان ارباب العمل الصغار هم الضحايا القادمة للدفاع المطاطي » . ان هذا الكلام لا يقدّم ولا يؤخر . هل هناك سذاجة اكبر من هذه السذاجة في الاعتراف بأنهم يلقون بأنفسهم في الماء خوف البلل ؟ ولو اندلعت ازمة حادة لترك التطويق بعض الحرية في المناورة للاستثمارات الكبيرة ، لكن إذا كانت الظروف مناسبة حرم عليها الاستفادة منها . وإذا ما تزايد الطلب في الغد عجزت المشاريع الصغيرة عن تلبيته : وانما

بهذه المشاريع ربطت الصناعة الكبيرة مصيرها. ان سائق السيارة ، حين يواجه منحدراً عمودياً ، يسير محركه بالسرعة الاولى : كذلك فإن منتجينا الألباء يتخذون من آلات الانتاج بالذات اداة لعرقلته خوف جموحه . ان المستقبل في نظرهم حافل بالوعيد لا بالوعد : ستندلع ازمات، وازمات اخرى ، ثم الكارثة، فالطوفان . وإذا كانوا ينكمشون على انفسهم ، فهذا لكيلا لا يتركوا للكارثة مجالاً عريضاً . زيادة الدخل القومي ؟ انهم يهزأون بذلك : انهم لا يفكرون بزيادة دخلهم بالذات بقدر ما يفكرون في الحيلولة بينه وبين الانخفاض . لقد اختاروا سياسة أسوأ الاحتمالات . ومعروف كيف تفسر الماركسية تضخم الانتاج والأزمات الدورية : ففي نظام المزاحمة تتحول الارباح الموظفة إلى وسائل انتاج متنامية بينما يتدهور استهلاك الاجراء . ترى هل قرأ رأسماليونا الكبار « الرأسمال » ؟ فحتى يتجنبوا الازمات ، دقوا عنق المزاحمة ، ونظموا الانتاج الدون، وهم يعيدون توظيف ارباحهم في البلاد الاجنبية. وهكذا جعلوا من اقتصادنا اقتصاداً منحطاً خوف الانحطاط .

والعملية مدينة بنجاحها لمساهمة أرباب العمل الصغار . فهم يخفون عن المستهلك مالتوسية الأوساط العليا . ولما كانوا مرغمين على دفع أجور بخسة وعلى بيع منتجاتهم بأسعار باهظة ، فأمامهم أحد حلّين: اما ان ينطووا وإما ان يقرروا بأنفسهم الأسعار والأجور . ولو زعمت الحكومة انها تنظم السوق ، لكفت جرة قلم من قبل أحد البيروقراطيين حتى تطير المشاريع الخمسة ألف . وعلى كل ، فإن صغار التجار هؤلاء يتمتعون برنات قوية : لو تجرأ وزير على فرض الضرائب عليهم ، لصاحوا بملء افواههم انه قاتل . ولو طالب موظفوهم بزيادة الأجر لأثبتوا بالارقام انه ليس في طاقتهم تلبية هذا المطلب . وهم لا يكذبون في ذلك كلياً طالما انهم دوماً على شفا الافلاس . لا حديث إلا عنهم ، ولا وجود إلا لهم ، فكأن شاغل الأمة الوحيد ان تهتم بهم : إن هؤلاء المحتضرين المثيرين للضجة واللجبة يصفعوننا يومياً بدليلهم عن استحالة تبديل أي شيء كان في فرنسا تحت طائلة انهيار كل شيء . وخلال ذلك يقوم رب العمل الكبير ،

المتعهد بهم ، بتنظيم معامله تنظيماً عقلياً : لو اراد ان يشغل آلاته بكل ما في طاقتها ، لتدهورت الأسعار عن قلور ، لكنه يرى ان من صالحه ان يضمن لنفسه ربحاً لا مجازفة فيه بزيادته الى اقصى حد التباين بين تكاليفه وبين أسعار السوق[1] . ولما كان هذا يتطلب الابقاء على قسم كبير من الصناعة الفرنسية في مستوى منخفض من الانتاجية ، فإن رب العمل الكبير يعترف جهاراً للمستثمرين الصغار بملكيتهم الاسمية لمشاريعهم ، أي انه يحدد عجزهم وقلة مواردهم . وبالمقابل يؤدي صغار الكسبة على الوجه المطلوب مهمتهم التي هي الانتاج القليل بتكاليف كبيرة : اذن هذا الفيض غير المبرر من الربح هو بمثابة خدمة تؤديها الصناعة الكبيرة للصغيرة .

وهكذا تتجهز بورجوازيتنا : انها تؤثر الرفاه والاستقرار على زيادة أرباحها اللامحدودة . واقطاعيوها الكبار هم بكل بساطة اصحاب دخول . لكن لا بد من تفسير هذه النزعة المحافظة . فهل من الممكن ان نرجع ريبتنا بالمستقبل الى الخوف من الازمات المقبلة ؟ لا بد ، بالتأكيد ، من ان نضع تطورنا في الاطار الأوروبي : والحال ان مرحلة الازدهار قد انتهت ، وأوروبا تخسر اسواقها الواحدة تلو الاخرى ، وفي كل مكان يلاحظ الميل الى تحويل الربح الى دخل . لكن لماذا استفحل هذا الانكماش العام الى هذا الحد عندنا ؟ ثم يمكن ان نفسر داء الكلب المالتوسي هذا الذي سنقضي نحبنا به ؟ اعتقد ان تاريخنا سيقدم الجواب .

• • •

إن التاريخ يتقدم وعلى وجهه قناع : وحين يسفر عن وجه يدمغ الممثلين والشهود الى الأبد . اننا لم نتعاف قط من « دفيقتي » الحقيقة « اللتين عرفتها فرنسا

---

١ ـ قد يحدث ان تقبل الصناعة الكبيرة بدفع أجور أعلى قليلاً من الأجور التي تدفعها الصناعة الصغيرة . ومنه ذريعة لإظهار حسن نيتها تجاه العمال ولإظهار قوتها تجاه أرباب العمل الصغار .

في القرن التاسع عشر، وبورجوازيتنا تلعب اليوم لعب من هو واثق من الخسارة، لأنها رأت وجهها الحقيقي في ١٨٤٨ و ١٨٧١ .

في ظل ملكية تمـوز[١]، كان السكان الفرنسيون يتألفون من بورجوازيين ومن حيوانات . كان الملك بورجوازياً وكان البورجوازي ملكاً ، كان البورجوازي إنساناً وكان الإنسان بورجوازياً . وكان الحيوان حيواناً ، وكان يقرن بالآلات . وكان الجوع، في غالب الاحيان ، يطرده عبر الشوارع . وكانت تتم تهدئته بإطلاق الكلاب . ثم تبدّل كل شيء ذات يوم . كان ذلك في حزيران ١٨٤٨، وكانت الحكومة قد سمعت شائعات واطلت برأسها من النافذة : وبدلاً من ان ترى الماشية المألوفة شاهدت جيشاً . فقد اقتحمت البروليتاريا التاريخ الرسمي وشنّت أول معركة نظامية لها. يا لها من هزة: ان تلك الحيوانات تقاتل كالبشر ، ولقد ذهل الجميع بالتلاحم الجـلي لمناوراتها . باختصار اكتشف المالكون الانسان تجاههم في نوع كان غريباً عنهم . وكان هذا مصدر خوفهم الكبير : طالما ان الآخر يزعم انه يصبح انساناً ، فان الانساني قاطبة يصبح آخر ، والبورجوازي يتعرف نفسه في عين الآخر شيئاً آخر غير الانسان . واذا كان البائسون يشكلون جزءاً من النوع الإنساني ، فالبورجوازي لا يتميز عنهم إلا بأعمال العنف التي يجعلهم يكابدون منها . وهكذا أصبح البورجوازي يتحدد على حين غرة برفضه : كان قد رسم لذاته حدود الذاتية عندما ادعى لنفسه الحق في رسم حدود لنوعه ، واذا ما حدث واتخذ المستبعدون بدورهم من انفسهم قياساً للإنسان ، فانه سيتعرف انسانيته لدى الآخرين كقوة عدوة . ونادراً ما طرحت المسألة بمثل هذه الصورة الواضحة : لقد تسرب بشر دون الى النوع الإنساني ، ولا بد من طردهم . فكيف السبيل الى ذلـك ؟ يشنق المحرضين ؟ هذا لا يكفي : فالبورجوازية قد فقدت قناعاتها الراكدة المطمئنة ، ولن تستعيدها الا اذا وجدت نفسها من جديد وحيدة في العالم . ثم اذا مـا بدئت المجزرة فمن الخطر ألا تتابع حتى النهاية : فالجزارون لن يستحصلوا على

---

١ – هي ملكية لوي – فيليب الذي تسنم العرش بعد ثورة تموز ١٨٣٠ . «م».

تبرئة ساحتهم الا اذا بذلوا قصارى جهدهم في ابادة الشهود . وبكلمة واحدة ، كان لا بد من إقصاء الطبقة العاملة عن بكرة ابيها . وكانت البداية تبشر بالخير: فالبورجوازية ، التي طاش صوابها حنقاً وخجلاً ، والتي عُريت وكشفت عورتها ، تريد ان تفقأ جميع عيون البروليتاريا . وتتخذ الحرس الوطني لنفسه واجباً اعدام الجرحى . لكن القمع من نكد الطالع أوقف قبل الاوان . وتجهمت النخبة : فلو سقط عشرة ملايين قتيل لعادت اليها براءتها . أما وأن عدد المعدومين لم يتجاوز ١٥٠٠ ، فانها قد تحولت الى شرذمة من القتلة . وحين انتهى كل شيء ، غلكها خوف عظيم من ان ترى نفسها ومن ان تُرى حتى انها تخلت عن حقوقها السياسية لفريق من المنظفين ضمن لها بالمقابل حقها في الملكية. اما القتلى فقد عزيت اليهم جرائم بشعة تظهر بوضوح حيوانيتهم. واستمر شرط الحيوان مفروضاً على من بقي على قيد الحياة . ووغر صدر جميع المالكين على العاصمة : وحتى يصلحوا من أمرها ، قطعوا أوصالها . وجاء ارتفاع الايجارات لينجز العملية إذ قضى على الفقراء بأن يبقوا خارج الاسوار . واختفى العمال من التاريخ الرسمي . بيد انهم ظلوا احياء يعيشون متكدسين في الشطآن المظلمة التي تحيط بالمدن : وكانت عيونهم من حين إلى آخر تلمع ، فينهال سيل من الرصاص على حشودهم . ولم يكف أن يحظر عليهم الكلام : بل جرت ايضاً محاولة لبتر ذاكرتهم . لكن عبثاً . فقد حافظوا بغيرة على ذكرياتهم ، الأمر الذي منع البورجوازية من التخلص من ذكرياتها : فهي لم تنس في أي لحظة وعيها ، ولا الرؤية الخيفة التي رأتها ولا الدم الذي لطخت نفسها به . ولقد تجلى ذلك واضحاً يوم سقوط الامبراطورية [١] عندما رفض ممثلوها ان يحاصروا باريس فاضحين ذعرهم وتطيرهم . ولقد غاظها التمرد من غير ان يفاجئها : فقد كانت تترقبه . ومحت دقيقة واحدة عشرين عاماً من السلوان . وطرح السؤال المبدئي على بساط البحث من جديد : أهم ام نحن؟ واكتشف الابناء في عيون

---

١ - في ٤ ايلول ١٨٧٠ .   م . ع .

أسراهم – تلك العيون الشاخصة التي كانت الفرساويات[1] الجميلات يتمرن على فقئهــا بطرف مظلاتهن – الحقيقة التي لا تطاق التي جعلت الآباء مستكينين. وتابعوا المذبحة المطلقة : واعلمت البورجوازية الفرنسية العالم،عن طريق العشرين الف معدوم والثلاثة عشر الف أسير الذين مات ثلاثة آلاف منهم في السجن، انها قد حسنت تقنياتها في الابادة.

لكنها، بالرغم من تجليتهــا، عاودت الوقوع في نفس خطأ ١٨٤٨، فللمرة الثانية توقفت ذراعها قبل الأوان : ونظراً الى انها لم تفن الخصم عن بكرة أبيه، فإنها لم تربح سوى معركة وباتت تجازف بخسارة الحرب الضروس المنهكة الطويلة الأمد. بيد ان اوروبا راحت تنظر اليها بذهول : ففيما يتعلق باستغلال الانسان يساوينا ارباب العمل الأجانب أو يتقدمون علينا، لكنهم – من قبيل البراعة أو التسامح ؟ – تجنبوا اللجوء الى السلاح : إن الرأسماليين الانكليز لم يقبلوا قط بأن يقتلوا العامل بأيديهم. انما كانوا يكتفون بتبليده، ويتركون القوانيــن الطبيعية « تؤدي عملها ». واذا ما انتهك العمال حرمتها تركت لله مهمة عقابهم. ولم يغفر هؤلاء الناس لفرنسا كشفها عن طبيعة الرأسمالية وتحويلها الصراع الطبقي الى حرب اهلية. وإزاء ازدرائهم شعرت بورجوازيتنا بأنها وحيدة : فهي تشعر بينها وبين نفسها بالفخر لأنها نفذت في مدى خمسة وعشرين عاماً اجمل مجزرتين في التاريخ المعاصر، لكن طهرانيي المانيا وانكلترا يعاملونها كشاة جرباء. وحين راحت تصيح بهم: «لنوحد فضيلتنا»، ابتعدوا وهم يهزون برؤوسهم. والانكى من ذلك انه كان عليها ان تحيا يومياً بجوار ضحاياها : وكانت الضحايا تتحرر على نحو غريب بفضل المساعي الخيرة التي قام بها امثال كافينياك[2] وغاليفيه[3].

١ - يتحدث ماركز هنا عن ثورة الكومونة عام ١٨٧١، وهي اول ثورة بروليتارية في التاريخ. وبعد سقوطها حدثت مجزرة رهيبة قدر عدد الضحايا بثلاثين الفاً من العمال قام بتذبيحهم الجنود النظاميون التابعون لحكومة تيير في فرساي. «م. ع.»

٢ - لوي يوجين كافينياك : جنرال فرنسي، شغل منصب حاكم الجزائر، ثم رئيس السلطة التنفيذية عام ١٨٤٨ وقمع تمرد حزيران من العام نفسه. «م. ع.»

٣ - غاستون دي غاليفيه : جنرال فرنسي تولى قمع الكومونة بقسوة بالغة. (١٨٣٠ – ١٩٠٩). «م. ع.»

فقبل خمسين عاماً كان العمال يتوسلون الى رب العمل ليرى الى بؤسهم ، لثقتهم من انه يكفي المرء ان يرى اوجاعهم حتى يتمنى لهم البرء منها . وفي عام ١٨٤٨ كانوا ما يزالون يصدقون لامرتين حين كان يحدثهم عن « سوء التفاهم المأساوي الذي يفرق بين الطبقات » . وبعد ١٨٧١ فهموا . وكان ذلك من سوء طالع البورجوازيين . لقد عرف السادة في البلاد الاخرى كيف يبقون خافين عن الانظار ، وكيف يتوارون امام ما يسمونه « الضرورات القاسية للاقتصاد الليبرالي » . ولهذا السبب لم يكرههم العامل حقاً – وهل يمكن كره ما هو مجرد إلا كرهاً مجرداً ؟ – وحتى لو كرههم لاشتملت كراهيته في ذاتها على تجاوزها : انه يعرف انهم يعتبرونه حيواناً يطمح الى دخول الانسانية ويتوجب لجمه دوماً، لكنه يعتبرهم، هو، بشراً يجهلون انفسهم أو يريدون ان يتجاهلوها. ومهما يكن عنف الثورة التي يتطلع اليها ، إلا انه لم يفكر قط بإبادة اعدائه الطبقيين: فتصفية البورجوازية يجب ان تحرر البورجوازيين من جهلهم وتجريدهم البورجوازي لتعيد اليهم انسانيتهم . وليس ما يبغضه فيهم هو الانسان ، انما المفهوم الجرماني عن الانسان ونفي الانسان : طالما ان الصراع محصور في المجال الاقتصادي ، فإن كراهية العامل تبقى ضمن نطاق العمومية[1] .

أما في ١٨٤٨ و ١٨٧١ ، فقد أسفرت البورجوازية الفرنسية عن وجهها ، وضربت بقوة . والرأسمالية بالطبع ، شأنها شأن كل اضطهاد ، تستمر بالعنف : لكنها لم تكن تتطلب لا ذلك العنف ولا تلك الوحشية في القمع : ففي ١٨٤٨ لم يوجه تمرد البؤس تهديداً جدياً الى أرباب العمل ، وفي ١٨٧١ كانت قد بدأت مفاوضات ولم تكن المصالحة مستحيلة : واذا كان الفرساويون قد رفضوا كل شيء ، واذا كانوا اول من بادر الى الهجوم ، فهذا لأنهم كانوا يريدون ان يقتلوا ، وبكلمة واحدة ، أظهروا تفانياً . إن بورجوازيتنا لم تتأخر في ان تتميز برقاعة ضباطها وقسوتهم ، وبفظاظة قلب الملاك وأصحاب المعامل ، وبالارهاب الدنيء

١ – قد يكره بعض ارباب العمل المشهورين بقسوتهم لكن هذا لا يعدو ان يكون اكثر من مظهر عرضي وذاتي من مظاهر الصراع الطبقي .

الذي اظهرته في البداية ، ثم بالتهليل اللئيم الذي اظهرته صحافتها المحترمة ونساؤها الشريفات بعد النصر . ولقد نحتت افعالها وجهها : فتجسدت على حقيقتها . وعلى الفور تجسد الحقد العمالي بدوره : انه لم يعد منصباً على التجريد الرأسمالي ، وبات العمال يبغضون في البورجوازي الفرنسي الانسان ، انسان اللحم والعظم الذي تحقق بمشروعه التاريخي . إن البورجوازي هو نتاج الرأسمال في نظر جميع عمال العالم ، لكنه في نظر عمالنا ابن أعماله ، أي قاتل ، وسيبقى كذلك لمدة طويلة من الزمن . ولقد ترعرع الجيل العمالي الجديد في صمت الامبراطورية الثانية الخانق ، وشهد عاجزاً مذبح الكومونة . وحين أنهى تدربه ، كان الصراع الطبقي قد انتقل إلى الميدان الاقتصادي . لكن هؤلاء القادمين الجدد لن ينسوا أبداً ما رأوه : فهم حين يريدون ان يتوقعوا ردود أفعال أرباب العمل ، يتذكرون تيير وغاليفيه وشنايدر[1] ، ويستندون الى ذكريات غير قابلة للاندثار ليحكموا على أرباب العمل القادرين على كل شيء . انهم يتوقعون يومياً ان يتحول النزاع الاجتماعي الذي بدأ يحتدم الى حرب أهلية ، او ان الحرب الأهلية تبدو لهم بالأحرى حقيقة الصراع الطبقي . وسوف يكون هؤلاء الشبان في نظر البورجوازيين أعداء ألداء : لأنهم أولى الناس بمعرفة ان كل طبقة تنشد موت الأخرى ولأنهم على الأخص قد تعرضوا للأذى . وبالأصل ان الطبقة العاملة تجوّع في كل مكان ، إلا في فرنسا حيث تسفك دماؤها . ان بروليتاري ١٨٨٦ يبيع قوة عمله للناس الذين قتلوا أباه او أخاه البكر . ومن هنا كان موقفه منهم مزيجاً غريباً جداً من الحقد المكبوت والصلابة الباردة والازدراء والخوف والعنف الانفجاري . وفي غير فرنسا تخلى القادة العماليون بصورة مكشوفة ان كثيراً وان قليلاً عن العمل الثوري ليستغلوا الى أقصى مدى مزايا الانتخاب العام : سيكون للطبقات الكادحة ممثلوها في البرلمان . وهذا معناه انهم اختاروا الاندماج : انهم يقبلون بواقعة الرأسمالية

---

١ – يوجين شنايدر: صناعي وسياسي فرنسي، رئيس الهيئة التشريعية في عهد الامبراطورية الثانية (١٨٠٥ - ١٨٧٥) . د.م.ع .

ويدافعون عن مصالح المجتمع القومي ليتوصلوا بالمقابل الى تحسين القوانين الاجتماعية . ويطور أرباب العمل مشاريعهم وقد عاد الاطمئنان إليهم . وهم لن يقلقوا من التمركز العمالي طالما ان حظهم شاء ان يملكوا بروليتاريا مندمجة . وكانت الأحزاب الاشتراكية – الديموقراطية تؤدي دور الرهينة والوسيط . وكان التباسها بالذات[1] يسمح لها بأن تضمن على الدوام ترابط الرأسمال والعمل. وكان محض وجودها يمنع الانفصال العمالي . وحين يختار المضطهدون مضطهدين ليعبروا عن شكاياتهم ، فإن النظام يكون مستتباً ، والتواصل قائماً ، والوحدة الوطنية موطدة . ثم في اللحظة التي يلجأون فيها الى استخدام اللغة ، فإن اللغة قد تستخدم في تضليلهم . وإنما عندما يلزمون الصمت يصبحون مخيفين .

وفي فرنسا كانوا يلزمون الصمت : فلقد انشقت البروليتاريا . إذ ان هذه الطبقة المهانة المنجوعة بقتلاها انفصلت عن الأمة وشكلت مجتمعاً في قلب المجتمع . فما يهمها الانتخاب العام ! انها تعتقد نفسها أولى الناس بمعرفة ان الأصدقاء الانتخابيين هم في غالب الأحيان أعداء طبقيون . وهي التي أعطت ، بعد كل شيء ، الضاربين بسيفها قوتهم . ان الدولة – سواء أكانت ديموقراطية أم لم تكن – هي « الخلاصة المكثفة لأرباب العمل ، وقد رفعت الى اقصى درجات قوتها ». ولهذا السبب وحده لن تستطيع البروليتاريا ان تقبل بالمشاركة في تسيير الشؤون العامة حتى لو توفرت لها الفرصة للتأثير على مجرى المناقشات . إرسال ممثلين الى البرلمان ؟ ومن يمكنه أن يمثلها ؟ انها تنظر الى اليمين واليسار نظرة ازدراء واحدة . وجميع الساسة في نظرها بورجوازيون : أيمكن لبورجوازي ، مهما تكن اللافتة التي يرفعها ، أن يدافع عن مصالح العمال ضد مصالح سائر البورجوازيين ؟ لقد كانت فرنسا ، في نهاية القرن الماضي ، البلد الوحيد الذي تفتقر فيه الاشتراكية – الديموقراطية الى اسس عمالية . ان العامل يصوّت ، هذا صحيح ، لكن برخاوة ومن قبيل تبرئة الذمة ، ومن غير ان يربط

---

١ – النواب الاشتراكيون بورجوازيون ومتأصلة جذورهم في الشعب . وهم يرون في الدولة البورجوازية جهاز اضطهاد ومع ذلك يساهمون في تسيير الشؤون العامة .

بين وظائفه كناخب وبين نشاطه المطالب : انه يؤدي الاولى بصفته فرداً منفكاً ، مواطناً مجرداً ضائعاً بين جموع سائر المواطنين المجردة ، ويمارس الثاني بصفته عضواً عضوياً في جماعية منغلقة . وخلاصة القول ان الطبقة العاملة ، المحبوسة بين اسوار عزلتها المتوحشة ، ما عادت تعتمد على غير نفسها : انها تنكر الميورانية[1] وتدين القوانين الاجتماعية حين يكون البرلمانيون هم أصحاب المبادهة في طرحها للتصويت . وقادتها لا يفوّتون فرصة لتوكيد استقلال الحركة العاملة ولفضح التناحر بين النقابات والحزب . وعبثاً يكثر الحزب الاشتراكي الفرنسي من العروض . فكل ما يفيده منها هو اتهامه « بخرق حرمة الاستقلال النقابي » . وازاء هذه « الثرثرات » وهذه « الروتينيات » تخترع البروليتاريا ، من غير ما تجربة سوى تجربتها ، طريقها الخاص ، وتنقل الصراع الى الميدان الوحيد المتوفر لها : ميدان العمل . والنقابية الثورية إن هي الا البروليتاريا نفسها وقد انفشت بعزلتها واعتزت بهجرانها : طالما ان الفلاحين خانوها ، والبورجوازيين الصغار خانوها مرتين ، فقد قررت ان تخرج كل شيء – حتى القيم الاخلاقية – من كيسها الخاص . وهكذا عاش العمال لحظة خاصة للغاية من تاريخهم : لحظة الانفصال . ففي ١٨٧١ لفظهم المجتمع القومي : فتبنوا منفاهم وحولوا السلبية الى ايجابية . وما سمي احياناً بالامبريالية النقابية او التوتاليتارية العمالية ان هو إلا الانقلاب المدهش لطائفة من المنبوذين : ما كانوا يتمنون الا ان يكونوا شيئاً ما، لكن طالما انه يقضي عليهم بألا يكونوا شيئاً، فسوف يطالبون بأن يكونوا كل شيء »[2] .

---

١ – نسبة الى ميوران ، الاشتراكي – الديموقراطي الفرنسي ، الذي شغل وزارة الحربية عام ١٩١٤ ثم رئاسة الجمهورية (١٨٥٩ – ١٩٤٣) . « م . م »

٢ – ان تكون البروليتاريا حاملة لقيم انسانية ، فهذا أمر لا مجال للشك فيه : لما نطالب به لنفسها لا بد ان نطالب به للجميع . وان تكون الحاملة الوحيدة لهذه القيم ، فهذا ايضاً مقبول. لكننا نأخذ على سوريل خلطه واقع ان الطبقة العاملة هي وحدها الرفيقة للإنساني مع فكرة ان هذه الطبقة حاملة لرسالة فريدة وغير قابلة للايصال.فهو بذلك قد حول المذهب الانساني الجذري=

ان بورجوازيينا يبولون تحتهم من الخوف : فطالما ان البروليتاريا تتبرأ من عاميها المزعومين ، فالجسور كافة قد قطعت ، وقامت ارض منزوعة السلاح معمورة بالجثث لتفصل العمال عن ارباب العمل . ولم يعد في وسع البورجوازية حتى ان تعتبر هذه الجموع الصامتة قطيعاً من الحيوانات : فطالما ان البروليتاريين ألحقوا الهزيمة بالقوات النظامية ، فهم اذن بشر . لكن ليس تماماً : إذا كانت البورجوازية لا تريد أن يصبحوا قضاة ، فمن الواجب ألا يكتفوا عن أن يكونوا حيوانات . اذن كان البروليتاري ، الانسان والنملة معاً ، يبدو شفافاً وقتيماً في آن واحد : كان يضع الذكاء والطاقة والشجاعة في خدمة طبيعية حيوانية غامضة وغرائز مستغلقة على الفهم . وكان أرباب العمل يسحرون بهذه الكتلة المبهمة ولا يكتشفون فيها سوى انعكاس عنفهم هم . وما كانوا على خطأ على كل الاحوال : فسر الطبقة العاملة هو انها تعتبر البورجوازية الفرنسية عصابة اشقياء ومجرمين . ولما ارادت نخبتنا ان ترد صلاحية هؤلاء القضاة البكم ، اكدت الحكم الذي اصدروه : فأهل الفضيلة والامانة ، بمتابعتهم المجازر بعد النصر مدة طويلة من الزمن ، ما كانوا يستطيعون ان يتذرعوا بالدفاع المشروع ، وبالتالي كان عليهم ان يبرهنوا على ان ضحاياهم يستحقون الموت بطبيعتهم ، ولقد بذلوا في اثبات ذلك قصارى جهدهم ، وكانوا يقولون : ليس البروليتاري بإنسان او بحيوان ، فلو كان انساناً لاحترمناه، ولو كان حيواناً لوضعناه في القفص من غير ان نلحق به اذى ، لكنه حيوان انساني ، اي حيوان يهاجم الانسان بوسائل انسانية ، او اذا شئتم انسان تجره القوى التي لا تقاوم الى الشر دوماً . انه حر بما فيه الكفاية حتى يكون لنا الحق في معاقبته ، وعبد لطبيعته بما فيه الكفاية حتى يكون لنا الحق في اليأس من إنقاذه . وباختصار ، يجب ألا يغيب نظرنا عنه وان نكون على استعداد دائم لصرعه بدون انذار . وهكذا اعطت البورجوازية

= لبروليتاري الى مذهب تخصيصي، وارجع البروليتاريا الى ما هي عليه اليوم ورفض ان يأخذ حركتها بعين الاعتبار . ان هذه اللحظة من التوتاليتارية السوريلية تشبه لحظة الزنجية لدى الاسود المستعمر .

لنفسها الحق ، حتى تغسل عنها الجريمة ، في ان تردد ذكر هذه الجريمة بملء ارادتها . وقد يحسب البعض انها رافعت بظاهر من رشد وزعمت ان الحنق والخوف اطاشا بصوابها وانها لم تكن مذنبة إلا بعامل الصدفة . لكن لا : انها تريد ان تبرر غلطتها ، وبتبريرها اياها تتبدل وتصبح مجرمة لنزوع غريزي فيها .

أما رب العمل الشاب الذي حل حوالي عام ١٨٩٠ محل رب العمل القديم ، فيبدو للوهلة الأولى انه لا يمكن ان يلام على شيء : انه ابن قاتل ، هذا أمر لا شك فيه ، لكن سنه الصغيرة لم تكن تؤهله للمشاركة في الاعدامات التي نفذت بالجملة، والدم المسفوح من قبل الأهل لا ينبغي أن تسقط تبعته على كاهل الأولاد. إذن فلديه الخيار، وهو يستطيع ، حسبما يحلو له، ان يتبرأ من أبيه او ان يعاند. ولقد اختار ، كما هو معروف ، العناد . وهذا لأنه ترعرع في الحقد وانشيء على الكره : لقد علموه ان يمقت الضحية حتى يمنعوه من إدانة الجلاد . انه سيرث عن الأهل كل شيء ، ما لهم وما عليهم ، المعامل والجرائم . وبالتالي سيبرىء نفسه من المسؤولية : « عندما دخلت المصنع ، وجدت الحقد ولم أكن قد فعلت شيئاً لأحركه . علامَ ألام ؟ اننا ، نحن أرباب العمل الشبان ، لم نقتل أحداً ، كما انه ما من أحد ، على حد علمي ، قد قتل بعد بين العمال الشبان » . المسألة إذن لا تحتاج الى برهان : طالما ان البورجوازي الشاب لم يبتر بعد رقبة العامل فإن حقد هذا الأخير غير مبرر ، ولا يعدو ان يكون أكثر من موقف قبلي ، علاقة أساسية مسبقة بين العامل ورب عمله . والعامل حقود بطبعه ، والبورجوازي هو الضحية البريئة لبغضه . يا للبورجوازي المسكين ! مهما يفعل ، فإن الآخر هو البادىء دوماً : ألا يقول لنا ان العمال ينشدون موته ! وهذه الحجة ما يزال يستخدمها الى اليوم الصحفيون الرجميون : ان عمرهـا أكثر من ستين عاماً ومع ذلك لم يظهر عليها غضن واحد .

منذ ١٨٩٠ وما من رب عمل صغير لا يوحـد نفسه بالمجتمع البورجوازي . أيطالبونه بزيادة ؟ إذن فهم يريدون أن يقطعوا الرباط القومي . أيندد مؤتمر من

المؤتمرات النقابية بالرأسمالية ؟ إذن فهم يريدون قطع عنقه واغتصاب بناته . وبفضل هذه الشعوذة منحت البورجوازية نفسها ، في أواخر القرن الماضي ، حقاً إضافياً يمكن ان يسمى بحق الدفاع المشروع الدائم . ان هذه الطبقة اللذيذة تتذرع بالدم الذي سفحته لتتخيل انها في حالة حصار ، مطوقة من قبل الوحش البشري ، وان كل عضو من أعضائها مهدد ، من المهد الى اللحد ، بخطر الموت الدائم . وبكلمة واحـــدة ، إن أولاد فرساي يبغضون العمال الفرنسيين من كل قلوبهم ، كما كان البارونات الألمان ، بعد ثلاثين عاماً من حرب الفلاحين ، مـــا يزالون حاقدين على أبناء وأحفاد الأشرار الذين عذبهم آباؤهم. ومن قتل سيُقتل، ويدخل الميدان جيل ثالث من الجزارين ، ويجد فيه غبار الجيلين السابقين وآثار فضائلها . ويعمل هؤلاء الصغار في السن مـا في وسعهم ليعطوا الصراع الطبقي طابع الثأر المتبادل . فهم يظهرون حقدهم حتى يظهر العمال حقـــدهم بدورهم : وهكذا تتعزز كل حميمية بالأخرى . والخلاصة انهم يحـــاولون ان يبقوا التوتر الاجتماعي في أعلى درجاته بحيث يمكن لأبسط حادث ان يشعل شرارة العصيان والقمع الدامي[1] . والأسلحة مشحوذة والتبريرات في متناول اليد : ان هذه الشبيبة الوسيمة تعد لنفسها مستقبلاً رغداً سعيداً . واننا لنتساءل عـن المعجزة التي أنقذت البروليتاريا من مذبحة جديدة مماثلة لمذبحة سان بارتلمي .

---

١ ـ الأسباب الاجتماعية والايديولوجية للفوضوية معروفة بما فيه الكفاية . وينبغي ان نضيف اليها فيما يتعلق بفرنسا عاملاً تاريخياً : أيام ١٨٧١ الدامية . ان للمذهب الارهابي الفوضوي يستمد تبريره البسيكولوجي من المجازر السابقة . ان حركة إضرابات يمكن ان تنشأ عن وضع اقتصادي معين ، لكن لتسبيب جريمة قتل فلا بد من جريمة أخرى ، او على كل حال لا بد من ظروف متفردة مرتبطة بزمن معين ؛ لهذا فإن أمثال رافاشول (فوضوي فرنسي - « ه. م ») يجمعون بين صفة اللص الشريف ورجل العدالة ؛ انهم يقتلون من يقتل . ويمكننا القول إن لكل منهم دوافع عامة وايديولوجية (« المجتمع » هو هذا أو ذاك ، و « الرأسمال » يولد هذا الوضع أو ذاك) وتروعاً عينياً محدداً ؛ الانتقام لضحايا الفرسايين . ونستطيع ان نلاحظ كيف ان الفوضوية الايطالية قد تنبعث عن قرب مذبحـــة العمال الميلانيين وانتقمت بالحكم بالموت على امبرتو الأول وبتنفيذ هذا الحكم فيه . ان هذه الظاهرة لا مقابل لها في المانيا وانكلترا لأن الصراع الطبقي فيها انحصر بصورة عامة ، وبالرغم من شدته ، في الميدان الاقتصادي .

أي معجزة ؟ انها بكل بساطة « الثورة الصناعية الثانية » : فقد ولدت في الولايات المتحدة وامتدت الى اوروبا وفرنسا. إن بورجوازيتنا الكبيرة على عتبة خمسة وعشرين عاماً من البقرات السمان ستضاعف انتاجنا من الحديد الصب ضعفين وانتاجنا من الفولاذ ثلاثة اضعاف . وهذا ما يدعو بالطبع الى الغبطة لكن ليس من دون فكرة مسبقة : فالمشكل مع الرأسمالية هو انها تلد معها حفاري قبرها وها هم حفارو القبور قد بدأوا يتكاثرون . فالطبقة العاملة لا تنمو وتزيد عدداً باستمرار بفضل رفد الريف فحسب ، بل هي ايضاً – في مراكز التجمع المدينية – اكثر الطبقات انجاباً للأولاد . ان احصائيات ١٩٠٦ تظهر الحقيقة المخيفة : إن كل مئة مستخدم متزوج ينجبون ٢٩٩ ولداً ، وكل مئة رب عمل ينجبون ٣٥٨ ولداً ، وكل مئة عامل ينجبون ٣٩٥ ولداً . وينبغي ان نضيف أيضاً ان الدعاية النيومالتوسية التي قام بها النقابيون الفوضويون قد أثرت في « الفئات العليا » من البروليتاريا: فالعمال غير المختصين هم اكثر فئات البروليتاريا إنجاباً . ومنذ ١٨٦٩ لاحظ لوروا بوليو بحزن: «إن العمال الذين يحتلون الدرجات الأخيرة» أولئك الذين يؤدون اغلظ الأعمال وأخشنها واقلها تعويضاً» يستمرون في تكوين الأسر الكبيرة نظراً الى عدم فهمهم مصلحتهم او الى استحالة العفة». والنتيجة إن الطبقة العاملة كانت تمثل ٢٨٪ من السكان في مستهل الامبراطورية الثانية و ٣٥٪ في مستهل القرن العشرين . واذا كان يتوجب ان نعطي اسماً للمعجزة التي انقذت البروليتاريا فوف أسميها تكاثر حفاري القبور . ويتملك الذعر أرباب العمل : فالسياء التقليدية لفرنسا تتمدل ، ففي ١٨٥٠ كان فرنسي من سبعة يقطن في مدينة تعدادها ٥٠٠٠ ساكن واكثر ، وفي ١٩٠٠ بات كل فرنسي من أصل سبعة يقطن مدينة تعدادها اكثر من ١٠٠،٠٠٠ ساكن. والحال إن « الريفيين » هم الذين ساعدوا الفرساويين عام ١٨٧١ في اعمالهم الكبيرة الهادفة الى تصحيح الأوضاع . وكانت البورجوازية ، المعتمدة على الريف، واثقة من قدرتها على أن تسحق ، عند أول شطط ، الاقلية العمالية : فالجندي بعد كل شيء فلاح . لكن ما يحدث لو انعكست العلاقة ؟ من يأتي دوره في التذبيح ؟ إن

الحقد تسري عدواه بسرعة . والقادمون الجدد ، سواء أولدوا ام لم يولدوا من الطبقة العاملة ، يحيون ذكراه ويتبنون لحسابهم آلام الاتحاديين[1] . وأثناء ذلك عادت باريس ، بالتأكيد ، الى سابق صحتها : فالمرء يقطن فيها بصورة بورجوازية ، وينتخب بتهذيب ، ولا تسامح إلا مع الأخيار من الفقراء . لكن حين يرفع سكان «باسي»[2] رؤوسهم ، يخيل اليهم ان وسواسهم المفضل المتسلط عليهم قد تجسد : حشد ضخم يتكدس عند أبواب المدينة ولا يكف عن التضخم : والعاصمة تواجه حالة حصار . ويرتقي سادتنا فوق التحصينات : انها البروليتاريا على مد البصر ، البروليتاريا التي لا نهاية لها والتي تملأ الريف وتدوس بأقدامها غلال الحصاد . وأثناء ذلك ، ومن أرجاء فرنسا الأربعة ، يأخذ البائسون بالتحرك لينضموا الى جيش حفاري القبور . إن الفرساويين لم يقتلوا سوى حفنة من الاشخاص . وعلى حين غرة يكتشف اولادهم ان لهؤلاء القتلى ذرية لا يحصى لها عدد . ولا بد من وضع حد لهذا .

كيف ؟ ان الكلام يدور من الآن عن دمج الطبقة العاملة : لكن في هذا الكلام تسرعاً . فالدمج معناه نزعة أبوية واعدامات ١٨٧١ قد مزقت الابوية شر تمزيق . في الشمال تقوم « الشركة » بالدمج بصورة جماعية وسريعة : لكن هذا لأنها تعمل في دائرة مغلقة . ففي تلك المحافظات المغلقة التي لا يدخل اليها أحد ولا يخرج منها أحد ، لا تنطرح مسألة الإسكان ، وكل شيء في متناول اليد : فالسكان يغيرون المهنة من غير ان يبدلوا تقريباً مكان الاقامة ، واذا غادروا قريتهم فإنما ليقيموا في المدينة العمالية المبنية بحذائها : فهم يجدون فيها اطارات وتقاليد وتسلسلاً اقطاعياً مكانهم فيه محدد سلفاً . وبكلمة واحدة تتم « فبركة » البروليتاريين باقتطاع كميات محسوبة من الريفيين . لكن في ضواحي باريس ؟ في ضواحي ليون ؟ كيف يمكن توجيه تحول الفلاح الى عامل ؟ إن المصانع تنبجس باستمرار من الأرض ويغلق غيرها أبوابه . ومطالب السوق

---

١ ـ جنود الكومونة عام ١٨٧١ . م.ع.د

٢ ـ ضاحية من ضواحي باريس . م.ع.د

تستلزم باستمرار تعديل تقنية الانتـــاج . وتترجم هذه التقلبات في عدم استقرار دائم الوظائف . والعمال غير مرتبطين جغرافياً البتة بمكان عملهم . ففي لوفالوا – بيريه، وفي شارنتون « ينفجر السكان النشيطون كل مساء ويلتئمون . ويحل محلهم آخرون قادمون من انى كان . أفينبغي السعي وراء انصاف البدو هؤلاء ؟ ومن أين يؤتى بهم ؟ وكيف السبيل الى تجميعهم ؟ وأي تأثــير لنبغي ممارسته عليهم ؟ إن المزاحمة تعارض الأوبـــة : فهي التي تعدل باستمرار ميناء الضواحي ، وبسببها تتأرجح هذه الاكداس من البشر باستمرار بفعـــل الحركات التبديلية التي تحقق ميكانيكياً تحول الريفيين الى بروليتاريين . اذن مــا العمل ؟ ألتخفيف التمركز؟ألتجزئة هذه الكتلة الضخمة التي تتعاظم فيها ادنى لجة لتصبح رعداً ؟ إن هذا الحلم ليس بالجديد ولقد كان ينال اعجاب ارباب العمل قبـــل الثورة الفرنسية بمدة طويلة عندما كانوا يعهدون بالعمل الى فلاحــي يعيشون خارج الاسوار حتى يتملصوا من الأنظمة الحرفيــة . تخفيف التمركز وتخفيف المركزية وتخفيف الاحتقان ، واستبدال الكتلة الكبيرة المتمتعة على الرقابـــة بـ « كتل صغيرة » متناثرة في طول البلاد وعرضها ، تسهل الرقابة عليها ! لكن الأوان لبسوء الحظ غير مناسب ، ثم لا بد لذلك من وجود تنظيم وخطة موجهة؛ وهذا ما تضع المزاحمة أيضاً في وجهه العراقيل ببذرها الشقاق بـــين أرباب العمل .

اذن؟ كيف السبيل الى الحيلولة دون صعود البروليتاريا المخيف؟من المستحيل على كل حال اطلاق النار على الاكداس دونمــا تمييز . فسياسة الابادة تناسب فترات البطالة . وفي ١٨٤٨ كانت معقولة وحكيمة : ألم تكن البورجوازية على صواب حين أفنت بالسلاح اناساً يكلفون من غير ان يعملوا؟ وعلى كل حال وقعت على عاتق الاقتصاد الليبرالي، تلك الآلة المدهشة، مهمة اعادة التوازن بمحض وسائله الخاصة . ولم يكن بحاجة إلا الى بعض المساعدة ؛ ولا يستطيــع أحد ان يلوم اولئك الذين اعتبروا العمال ليحولوا بينهم وبين الموت جوعاً إلا اذا كان سيء النية . لكن هذه الاسباب نفسها تمنع، في مرحلة الازدهار ، عرقلة التطور

الحر للقوى الاقتصادية . ومهما يكن نمو السكان العاملين ، فإن عرض اليد العاملة يظل دون مستوى الطلب ؛ واطلاق النار على الإنسان في الوقت الذي يساوي فيه ثمناً غالياً ، إنما هو تبذير . ومن حين الى آخر تستطيع الحكومة ان تسمح لنفسها ، كما في لورمي ، بتطهير على القوى العاملة . لكن لا بد أيضاً من الحذر والاحتراس : فلو غضبت الطبقة العاملة ، لوقعت خسارة تقدر بالملايين . إن تين وريتان ينصحان باللجوء الى قوى المالتوسية الاجتماعية التي تعمل بهدوء والتي لا تظهر نتائجها في البداية كعيان نظراً الى بطئها الشديد . وطالما ان العامل قصير النظر ، كما بيّن ذلك لوروا بوليو ، يجهل مصالحه الحقيقية (التي تأمره بالطبع بأن يتطلع بأسرع ما يمكن ومن دون ان يخلف ذرية) ، فلا بأس ان جرت محاولة لفتح عينيه . وعلى هذا فعلى حكومتنا ان تأخذ على عاتقها مهمتين : تثبيت الفلاح في أرضه وتسهيل عفة الفقير . ولتشن حملة خطابات . وتتردد في جنبات البرلمان ومجلس الشيوخ والاكاديمية صيحة واحدة : « الأرض تموت ، الأرض ماتت ، لتحي الأرض ! » وينوه الخطباء بأي فن قد تمكنت فرنسا حتى اليوم من تحقيق التوازن بين زراعتها وصناعتها : وإنما في هذا التوازن الرائع للقوى المنتجة يجب ان نبحث عن سر سعادتنا وفضائلنا . إنما ومس هذا التوازن ، إنما وتجريد الإله الرحيم من رغبته في ان يكون فرنسياً . وهذا معناه بالطبع : لنبق على التفوق العددي الريفيين على العمال . كتب السيد سوفي : « حين تمارس الطبقة السائدة السلطة المطلقة ، تكون من أنصار نمو السكان ... وحين يحصل المرؤوسون لسبب أو لآخر على حقوق ، وتقع بالتالي على السائدين واجبات ، يتغير مظهر المسألة ... فطالما ان السيطرة لم تعد مطلقة ، فإن تحديد عدد الولادات يصبح مفيداً إن لم يكن لازماً وضرورياً » .

كان الأب يقتل العمال المشاغبين . واليوم يجري إقناع الابن بالحيلولة بينهم وبين التوالد . إنها نصيحة ممتازة ، لكن لا بد من أن تكون هناك امكانية للأخذ بها : ففي فترة الانطلاق الصناعي يخدم تكاثر العمال مصالح الانتاج ، وفي مستهل هذا القرن كان البروليتاريون يبشرون على

الخوف لأن عددهم كان أكبر مما ينبغي . لكن المصدر الحقيقي لسلطتهم الفتية هو أن عددهم لم يكن كافياً بعد . ان تطلب اليد العاملة يعلي من شأنهم ، وبسبب ارتفاع الأجور ، ويحد من الحقوق الواقعية لأرباب العمل : فبين ۱۸۷۱ و ۱۹۱۰ ارتفع العدد السنوي للاضرابات من ٢٦٧ الى ۱۰۷۳ وتأرجحت نسبة نجاحها بين ٥٥ و ٦٠٪ . ان المضطهدين يتمتعون بمزايا العدد والندرة في آن واحد . وإذا كان الفوضويون قد انضموا الى أرباب العمل على صعيد الدعاية لمنع الحمل ، فهذا لأنهم اتخذوا من المالتوسية سلاحاً في الصراع الطبقي.

إن الرأسماليين الفرنسيين يتعرضون للخيانة من قبل رأسماليتهم بالذات: فهذا النظام العبودي يفرض عليهم ان يمارسوا سلطة مطلقة على الجماهير ، لكنه يجعل هذه المهمة مستحيلة عليهم في الوقت نفسه بزيادته باستمرار حاجتهم الى اليد العاملة . ويقف أرباب العمل متوزعين بين متطلبات السيطرة والربح المتناقضة ، يشدون شعورهم : كيف السبيل الى الحفاظ على الأرباح بدون زيادة الانتاج ؟ كيف السبيل الى تعقيم البروليتاريا من غير أن يؤدي ذلك الى ارتفاع الاجور ؟ كيف السبيل الى تحويل فرنسا الى أمة صناعية كبيرة مع الابقاء على طابعها الديموغرافي كبلد زراعي ؟

إن الأجوبة في الأسئلة ، لكن رأسماليينا ، الواقعين بين طرفي كماشة الخوف وإغراء الربح ، يترددون في البحث عنها : ولهذا السبب نجد في فرنسا ١٩١٤ تيارين ، احدهما يؤيد نمو السكان والثاني مالتوسي ، وكل منهما يتجاوب مع احد حدود التناقض . وظاهراً كانت الغلبة في النهاية لمذهب نمو السكان : فقد اتخذت منه الحكومة مذهباً رسمياً لها. لكن المسألة لا تعدو ان تكون اكثر من تضليل ، فلمحاربة فاقة الولادات محاربة حقيقية ، لا بـد من البدء بتخفيض تكاليف الحياة . ولما كان كل العزم ، على العكس ، هو منع هذا التخفيض بكل الوسائل ، فإن والسياسة الديموغرافية ، لوزرائنا لا تعدو ان تكون اكثر من لغط فارغ وتدابير لا حول لها ولا قوة[1] . وبالمقابل يدل كل شيء على ان البورجوازية قد

---

١ - من ذا الذي يؤيد نمو السكان ؟ المستغيرون ؟ المباذلون . فقد وجدوا في المالتوسية ...

اختارت سراً الحل الآخر . وما قد يفاجئنا هو انها اختارته تلقائياً : فتكاثر الضواحي المباغت يبدو وكأنه يسبب داخل الاسوار انهياراً في نسبة الولادات. فلكأن الاغنياء ، لعجزهم عن خصي الفقراء ، قد خصوا أنفسهم : إن العقم البورجوازي يشبه إلى ابعد الحدود سلوك انسان فاشل [1] . واصبحت الماصحة قبر العرق . وفي الوقت نفسه قامت « لجنة معامل الصهر » بإجراء اولى تجارب المالتوسية الاقتصادية مع تباهيها في الآن نفسه بمتابعة « التقدم المنتظم للسنوات السابقة » . ان كل شيء في محله : وفي عام ١٩١٤ . لم يكن قد تبقى من عمل سوى بناء الآلة الجهنمية التي ستربط عن طريق شرط متبادل بين المكائد المجهضة للصناعة والمكائد المجهضة للأسرة البورجوازية . وكانت الزعازع الكبيرة التي شهدتها الحرب وحقبة ما بعد الحرب هي اقل المطلوب لإقناع ارباب العمل وحملهم على حزم . وتبينت النخبة ان الحضارات فانية : « يا لفرنسا المسكينة ، لقد

= الاقتصادية وسيلة لتحقيق التوازن بين عرض اليد العاملة وطلبها . كلا : انهم الملاك العقاريون والعسكريون والكهنة . ان هؤلاء المتأخرين ما يزالون يحسبون انفسهم يعيشون في ظل العهد القديم ، في العصر الذي كان فيه لامور الدبير ينسج الحكام « مضاعفة عدد الرعايا والحيوانات » . ولم يلاحظوا ان البورجوازية تخسر سلطاتها كالة الواحدة تلو الاخرى وانها دخلت في مرحلة السيطرة النسبية . لكن الصناعة الكبيرة تطيب خاطرهم على كل حال : فلعبهم الصاخب القائل
ندرة السكان سيذر الرماد في العيون حول اعمالها السرية وما تحت الأرضية لتقليل السكان
، موقف غريب . فالعائلات البورجوازية (باستثناء تلك التي تنتمي الى اوساط دينية) تمارس عادة تحديد النسل بمختلف اشكاله بما في ذلك الاجهاض . لكن هذه البورجوازية عينها تدعم في الانتخابات حكومة تعاقب بالسجن (واحياناً بالاعدام) التدابير المانعة للحمل . والتناقض سيبدو كبيراً اذا لم ننتبه الى ان النساء البورجوازيات نادراً ما يقلن في اللغو بتهمة الإجهاض، فنحن لا نرى تقريباً في اللغو سوى مستخدمات بسيطات او عاملات . ان كل شيء يجري ظاهراً كما لو ان الطبقة السائدة مالتوسية بالنسبة الى ذاتها ومؤيدة لنمو السكان بالنسبة الى الطبقات المسودة . والحال ان هذا غير صحيح : فقد كان مفروضاً فيها ان تظهر الاهتمام نفسه بوفيات الاطفال . والحال اننا نعلم انها ستذهب للبحث عن الاطفال حتى في بطون الامهات لتتركهم فيما بعد يلطسون كالذباب . ان ارباب العمل لا يتمنون ان يكونوا عمالاً كثيرين .

انما يتمنون فقط ان ينتزعوا من البروليتاريا توجيه نسلها حتى يلازم التوازن بين طلب اليد العاملة وعرضها آلياً ضمن نطاق الآلية الجهنمية التي ركبوها .

سفك دمها . ماذا سيعمل الكون بدونها ؟ ». وما كان الكون ليأبه بها ، كما هو معروف ، لكن تلك المراثي الاكاديمية كانت تخفي رهبة حقيقية : ولم يكن الموضوع موضوع حرب او فحم . فبين ١٩١٧ كان ارباب العمل قد اقتنعوا بأن النصر النهائي سيكون للبروليتاريا . وقد لا يـأتي هذا النصر اليوم أو غداً ، لكنه سيأتي حتماً ، ببطء ، بتصميم ... وعاش ارباب العمل تحت وطأة هـذه البداهة القاسية الفظة : اجـل ، اجل ، ان اولئك الانذال سينتصرون ! ان البورجوازية لم تتعلم شيئاً ولم تنس شيئاً منذ سبعين عاماً ، وجميع عطور الجزيرة العربية لم تتمكن من غسل دم يديها : وهكذا وجدت نفسها من جديد كما كانت عام ١٨٤٨ ، وكما كانت عام ١٨٧١ ، بمواجهة البشر انفسهم ، قتلى الكومونة ، الذين سيتوجب عليها ان تذبحهم المرة الثالثة بلا جدوى . لكن الغلبة ستكون لهم هذه المرة ، ولن يشفق عليها احد لأنها لم تشفق على احـد في ساعة مجدها . ورأى أرباب عملنا انفسهم هالكين ، وبـدأت فرنـا البورجوازية تتكلم عن نفسها بألفـاظ منفعلة مؤثرة . عن نفسها ، أي عن النوع الانساني لأنه لا فرق عندها بين التنبؤ بنهاية العالم او بنهاية الرأسمال : فطالما ان العامل لا يعدو ان يكون اكثر من حيوان ، فإن مصير الانسان بين أرجل النمل ، وحين ستستولي غـاليات الاجنحة المجانبية هذه على السلطة سوف نخسر املاكنا وحيواتنا وكرامتنا وكل تلك النعومـات التي كانت تستأهل بالأمس الموت من أجلها . وسوف يقدمنا السادة الجدد طعاماً للعث ، ويغور ملكوت الانسان في الماضي . ولا نعتمد على التاريخ لينصفنا ولو بعد ان يلحق بنا الحيف : فالنمل سيمسد كتابته . ان مستقبلنا مسرود بتلك الكارثة المريعة التي ستتابع تدميرنا بعد موتنا والتي تجعل منـا سلفاً ، في نظر انفسنا ، امواتاً احياء ، او على احسن الاحوال اخطاء مفسرة ومصححة .

وفي الوقت نفسه ، وفي القارة نفسها ، كان الحنق والخوف يولدان في كل مكان الانظمة الفاشية : كانت هذه الأنظمة ، إذا تجرأت على القول ، رد الفعل « السليم » : اذا كان الايطاليون والالمان قد عاودوا ، مع تأخير قدره قرن

من الزمن ، مذبحة سان بارتلمي ، فهذا دليل على انهم يؤمنون بالنصر والرأسمال.
ووسط هؤلاء الجانبين كانت البورجوازية الفرنسية العجوز ، المثقلة بالسنين والجرائم ، تظهر بمظهر داعية الانهزامية. نابليون الثالث ، الجازر ، معسكرات الموت البطيء : انها تعرف كل شيء ، وتستطيع ان تقول ، في النهاية ، ان هذا لا يجدي فتيلا . إن الرأسمالية تلتج موتها بنفسها . والبروليتاريا تشبه ثعبان ليرن[1] : كلما قطع لها رأس نبت عشرة مكانه . اذن فالأجدر الا تقطع هذه الرؤوس المتكاثرة المفرخة ، والأحسن ان يبحث عن وسيلة لجعلها تموت جميعها نصف ميتة . وحين كان بورجوازيو الجنوب والشرق يصيحون : « الى السلاح » ، كان البورجوازيون الفرنسيون يجيبون : « فلنرجىء » . وحين كان الاجنبي يصرخ: « انهبوا واقتلوا ! اذبحوا ! » كان بورجوازيونا يهتفون : انقصوا الغذاء ! » .
أجل ، انا في ذلك العصر ركبت عندنا الآلة التي تدور على نفسها : فطالما ان تقدم الرأسمالية يقودها الى هلاكها ، فسوف يوقف التقدم . وطالما ان ثروات هذا العالم ستنتقل آجلا أم عاجلا الى ايد أخرى ، فسوف تتدبر بورجوازيتنا امرها لتنتج ما هو ضروري ولتستهلك كل ما تنتجه. وطالما انهم يتنبأون لنا بغرق الإنسان فسوف نطيل في أمد أفوله إذ نخلق له اقتصاداً غسقياً. وطالما ان المزاحمة تحث على زيادة الإنتاج ، فسوف يرتب تطور المزاحمة . وطالما ان الضواحي تأتي ، في ايام الفتنة ، لتحتل شوارع باريس ، فسوف توضع العراقيل في وجه التمركز التكنيكي لإبطاء التمركز الاجتماعي. وزبدة الكلام ان المطلوب هو ايقاف التاريخ . لحظة من الزمن . لحظة صغيرة من الزمن . إن ارباب عملنا يريدون ان يؤخروا الكارثة بضعة عقود حتى يتاح لهم الوقت للموت في سلام . وليس في هذا من صعوبة بشرط ان يقبل المرء بدمار البلاد : ذلك انه ليس المطلوب اكتساب قوى جديدة ، بل ان نعرف كيف نستخدم نقاط ضعفنا ونعزز كلا منها بالأخريات: السوق تميل الى الانكماش ؟ حسنا : سوف يجهزون عليها خنقاً برفع الاسعار . الاسعار تميل الى الارتفاع ؟ اذن فسوف يدعمون هذا الميل بتخفيض الانتاج .

---

١ .. ثعبان خرافي كانت له سبعة رؤوس ، كلما قطع احدها نبت غيره . «م».

المواد الأولية مفقودة ؟ اذن فهذا سبب ممتاز للخضوع لسيطرة الاجنبي . الاطفال نادرون ؟ اذن فسوف يزيدون في ندرتهم بدفعهم بالأهل الى اليأس . والحق ان المالتوسية الاقتصادية تعتمد على المالتوسية الاجتماعية وتعجل بها : فالطفل بحاجة الى ما ينفق عليه قبل ان يصبح قادراً على الكسب ، اذن فهو مشروع جديد يتطلب توظيفات جديدة . وحين تنفر فرنسا بكاملها من تجديد ادواتها ، فلا مبرر للتلهي بتجديد المادة البشرية بلا ضرورة . وأين العجب في هذا بالأصل ؟ فالنهضات الاقتصادية غالباً ما تترافق باضطرابات ديموغرافية : والآباء لا يريدون الابناء إلا لأنهم يساهمون في مشروع جماعي يفترض في هؤلاء الابناء انهم سيرون نتيجته بأم اعينهم . لكننا لا ننتظر سوى الطوفان : فلماذا ننجب اطفالاً سيتعرضون للغرق ؟ فلنقنع العامل بالاحرى بأن فرنسا ستموت ، وبأن مصير الابن سيكون اسوأ من مصير الأب : فهذه احسن وسيلة لتفتح عينيه على مصالحه . وهكذا نظمت بورجوازيتنا ، وسط اللجبة الفاشية ، انتحاراً بطيئاً قد يمتد نصف قرن من الزمن . لقد كان رد فعلها الأول ، في مواجهة التهديد ، سلوك انسان فاشل . ثم عادت الى هذا السلوك وحولته الى استراتيجية دفاعية . كانت تلعب لعبة من هو واثق من الخسارة ، اذن فسوف تلعب على اساس ان من يخسر يربح . واقتصادنا الدوار سيدور بصورة ابطأ أكثر فأكثر ، وذات يوم صبيح سيكف عن الدوران : لكننا سنكون آنذاك في عداد الاموات . واذا ما عنّ ببال الروس يومذاك ان يضعوا يدهم على فرنسا الجميلة ، فلن يجدوا سوى جيفة وسلسري اليهم عدواها . ان المالتوسية الفرنسية هي بالنسبة الى شقيقتها الايطالية — الالمانية ، اقصد الفاشية ، ما هو الدفاع بالنسبة الى الهجوم ، والمقاومة السلبية بالنسبة الى العمل ، والانوثة بالنسبة الى الذكورة ، والتشاؤم بالنسبة الى التفاؤل ، وبكلمة واحدة السلبية بالنسبة الى الايجابية . وفي كلتا الحالتين لا يتطلع الحكام إلا الى فرض السيطرة المطلقة من جديد على المحكومين : لكن النازيين كانوا يريدون ان يقيموا قوتهم على جبروت جهازهم القمعي ، والبورجوازي الفرنسي يستمد سلطته من لا حركية منحطة

تحكم بالعجز على عدوه الطبقي .

لقد رأينا حيرة ارباب العمل واضطرابهم امام النمو العددي للبروليتاريا : « اذا استمرت في النمو أكلتنا . واذا حدث وتناقصت ، فقد تفقد الصناعة ذراعها » . والمالتوسية تجعل هذه المخاوف باطلة : فالانتاج يأسن في الوقت الذي تميل فيه الانتاجية الى النمو ، وشروط البطالة التكنولوجية متوفرة ومجتمعة ، اذن فكبح جماح الطبقة العاملة يبدو مرجواً من مختلف وجهات النظر . والمالتوسية بالاصل هي التي تقدم أيضاً وسائل تحقيق هذا الكبح .

إن البروليتاريا تنمو نمواً مفرطاً لأن العمال ينجبون كثيراً ولأن الريفيين يهجرون الارض بأعداد كبيرة . ومذهب الجمود الاقتصادي سيسمح بتعديل هذا العامل وذاك .

الولادات أولاً : فبدءاً من ١٩٣٥ راح ارباب العمل يكسبون على طول الخط . ولم تكن أي وسيلة قد نجحت قبلاً : فقد كان أولئك الفلاحون الاجلاف يتشبثون في الاحتفاظ بخصب الحيوانات . لكن كفت بضع سنوات من الاقتصاد التراجعي لإنقاص نسبة التوالد العمالي : فهذه المرة فهموا ، وتعففوا شأن البورجوازيين تماماً . ولقد أراد البعض ان يجد سبب هذا اللجوء المباغت الى الطرائق المالتوسية في تطور البروليتاريا الداخلي . وليس هذا خطأ : فلقد أصبحت الطبقة المنتجة أكثر تجانساً وابناء العمال فيها أكثر عدداً من ابناء الفلاحين. لكن اذا كان الاوائل أقل إنجاباً من الاخيرين ، فهذا لأنهم كابدوا من عنة بؤس المدن واليأس زمناً أطول . ونحن سنسلم بالطبع بأن ماهيتهم كنتاج لذلك العالم التكنيكي الذي ينتجونه تتأكد يوماً بعد يوم أكثر فأكثر وبأنهم يتملون شيئاً فشيئاً تقنيات الحياة والموت: كان الآباء خاضعين لحتميات الجسم، اما الابناء فيعرفون كيف يوجهونه . لكن تحديد النسل ليس إلا وسيلة ويمكن ان يخدم غايات متباينة جداً . انه لا يستطيع ان يفسر وحده العقم المفاجىء والعنيد للأجيال الجديدة : إذ لا يكفي ان يعرف الانسان بالطرائق المالتوسية، انما ينبغي أيضاً ان يريد استخدامها . فهل سنبحث عن علة هذا « الاستنكاف »

في المطالب اللاانسانية للانتاج بالجملة ؟ لا مانع اذا شئنا . لكن التغيير ، تحت هذا الشكل ، يظل دافعاً لأن نسبة تناقص الولادات ليست واحدة في بلدان الرأسمالية المتقدمة . ان عمل العامل نصف المختص شاق دوماً . وحتى يصبح منهكا لا يطاق ، فلا بد ان تطبق المعايير الجديدة في اطار اقتصاد تخطاطي . اسألوا بالاحرى العائلات العمالية : لماذا لا تنجب الأولاد . إن الجواب لا يحتمل الشك : « اننا نعرف آلامنا ولا نريد ان نسببها لغيرنا » . انهم لا يتصورون، هم المحكوم عليهم بأن يعيشوا في عالم التكرار ، من مستقبل آخر لأبنائهم غير ماضيهم بالذات . ومن جريمة تتحول برجوازيتنا الى قابلة تمارس الاجهاض ، وتتابع بطرائقها الخاصة عمل آبائها : فبدلاً من ان تذبح ترغم الخصم على ذبح نفسه بنفسه .

ثم الهجرة الريفية : لمن الواجب ابطاؤها او موازنتها او كلا الشيئين معاً . ولا أسهل من ذلك اليوم : لمعروف ان الفلاح لا تجذبه اضواء المدن الفاتنة ، لكنه يندفع اليها ويتهالك عليها من فرط بؤسه . اذن فلنكفل له بؤساً لا شطط فيه . ان هجرات القرن التاسع عشر الكبيرة غنية بالدروس . فالهجرة الأولى التي حدثت حوالي عام ١٨٦٠ ، يرجع سببها الى تمركز الاراضي وما نجم عنه من تحولات في الزراعة : فقد اخترع بعض الصناعيين السوق الفلاحية ، وصنعوا وباعوا عفاريت واحدة كيماوية ، فزاد مردود الارض وثمنها ، وتناقص الطلب على اليد العاملة ، ووجد آلاف وآلاف العمال الزراعيين المياومين انفسهم على قارعة الطريق ، وتبعهم آخرون اقل بؤساً بعد ان تلاشى كل أمل لهم في ان يصبحوا ملاكاً . ولم يضع الدرس هباء : فالمالتوسية تعرقل مكننة التقنيات الزراعية لتبقي على تجزؤ الملكية . ومعروف ان عمليات النقل تشغل اكثر من نصف الوقت المخصص للزراعة . حسناً : اذن فسوف يُشمَل المزارعون بعطف خاص جداً بإبقاء الجرارات بعيداً عن متناولهم وبالحفاظ لهم على ٨٠٠٠٠٠ كيلومتر من الطرق الوعرة . فليذهبوا على اقدامهم ، وليحرثوا القشرة الأرضية بأدواتهم القديمة ، وليزرعوا بأيديهم العارية : فهذه أحسن ضمانة للاستقرار

الاجتماعي . ولما كانت الوقائع الاجتماعية متداخلة ، فإن تجزئة الملكيات هي التي تؤخر أيضاً مكننة التقنيات : فالاستثمارات أصغر حجماً من ان تفيد فردياً افادة كبيرة من المكننة . وهكذا تجمد مالتوسية الصناعة لتبريرها في ندرة الطلب[1]. لكن اذا ما تشارك الفلاحون ، اذا ما خطر لهم ان يشتروا الجرارات بالتشارك ؟ يقول الاختصاصيون : « بدون التشارك لا يمكن فعل شيء في هذا الميدان » . لكن العهد على وجه التحديد لا يريد ان يفعل شيئاً : فلديه كل الدواعي للخوف من التحولات الاجتماعية التي قد تدخلها الآلات على الأرياف . ومن حسن الحظ ان هناك الروتين : ان فلاحينا لم يقتربوا من مرحلة التفاهم . والعهد يرثي لنزعتهم الخصوصية لكنه يرعاها ويحميها من طرف خفي . والدولة تفعل كل ما في وسعها ان تفعله للحفاظ على الجهل الفلاحي الثمين : ففي عام ١٩٤٩ تلقت وزارة الزراعة ٤٧١ مليوناً من اجل التعليم الزراعي مقابل ١٤ ملياراً لوزارة التربية من اجل التعليم الفني والتدريب المهني . والنتيجة هي افتقارنا الى ١٠٠٠٠ مدرس زراعي . وبفضل هذا العجز المدروس بعناية ، لا تتجاوز نسبة المستثمرين الزراعيين الذين يشملهم التوجيه التكنيكي عندنا ٢ او ٣٪ ، بينما ترتفع هذه النسبة في الدانمرك الى ٩٥٪ . ها نحن ذا نرتفع في بحبوحة الاطمئنان : ان المضللين انفسهم هم الذين سيطالبون بالنظام المضلل . وهكذا تدور الآلة على نفسها .

والهجرة الثانية الكبيرة في القرن الماضي - هجرة ١٨٨٠ - كانت نتيجة للمزاحمة الأجنبية . كان اقتصادنا الزراعي نصف مغلق . وجاء تطور المواصلات ليضع اميركا على أبوابنا ، وأغرق العالم الجديد اسواقنا بمنتجاته الغذائية . فتدهورت الاسعار : وإذا بمزارعينا يجدون أنفسهم على قارعة الطريق من جديد . وهجر الارض حوالي مليون انسان . وحتى تقنع الدولة الآخرين بالبقاء

---

[1] - حتى على هذا الأساس (اي على فرض ان عتبة مردودية الجرارات هي ١٥ هكتاراً) ، فإن حاجتنا من الجرارات ستكون حوالي ٥٠٠٠٠٠ . والحال اننا لا نملك سوى ١٢٠٠٠٠ .

في مكانهم ، لجأت بسرعة الى تدابير الحماية . لكن فيا بعد ؟ كيف السبيل إلى تجنب عودة الكارثة ؟ أبزيادة المردود ؟ هذا يتطلب مكننة : لكننا نكون في هذه الحال قد طردنا التقدم بيد لنعيد إدخاله باليد الأخرى . وللمحاولة دون هجرة كهجرة ١٨٨٠ تُعَدّ العدة لهجرة كهجرة ١٨٦٠. إذن؟ هل سنستفيد من المناخ لنتخصص في الزراعة المسترفة كما تخصصت انكلترا في الصناعة الرفيعة النوعية ؟ مستحيل : فالتخصص في الزراعة يعني تثقيف المزارع . كما ان هذا التخصص سيؤدي حتماً الى ما نريد ان نتجنبه : الهجرة. وللوصول الى الاسواق الخارجية ، لا بد من المكننة والتحديث وزيادة المردود وتخفيض اليد العاملة ، وعندها سيترك الفلاحون قراهم . يا للفلاحين اللاعين : فعند ابسط تقدم يعاودون الهجرة ! ومن حسن الحظ ان المالتوسية توفر وسيلة تثبيتهم : فطالما ان التقدم هو الذي يطردهم ، اذن فمن الواجب حمايتهم من التقدم . فليتتبعوا القمح ، والقمح ايضاً ، القمح دوماً ، بأعلى سعر ، وأجهد عمل ، وبأكثر التقنيات تخلفاً : ان الطلب على اليد العاملة سيتعاظم كلما ضعفت انتاجية كل عامل [1] . وضد المزاحمة الخارجية يشاد سور أطلسي ، وتعزل فرنسا عن الاسواق العالمية . اما بالنسبة الى المزاحمة الداخلية فالأمر ابسط ايضاً ، إذ يكفي الهدم والتدمير . وطالما ان مستثمري الشمال والغرب لا يستطيعون عرقلة الانتاج بالسير نفسه الذي يعرقله به الصناعيون ، فإن الحكومة ستساعدهم : فهي ستشتري منهم النتاج الفائض لتحرقه . وباختصار ، ان فرنسا تضرم في غلالها نار الفرح ، وكل فرنسي يدفع مالاً ليتفرج على الدخان وهو خاوي المعدة. ان فرنسا تنفق المليارات في التخطيط لكنها تبلغ هدفها : فالخبز عندنا أغلى

---

١ - زادت انتاجية العامل الزراعي في الولايات المتحدة في الاعوام العشرة الاخيرة ٥٠٠٪ سنوياً . واذا ما حققت فرنسا في الاعوام العشرين القادمة زيادة سنوية بنفس النسبة ، فإن دخل الانتاج الزراعي سيرتفع من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ مليار لكن عدد العمال سيتناقص بنسبة ٣٠٪ تقريباً .

خبز في العالم[1] ، والمزارع عندنا اقل المزارعين دخلاً[2] . وهذا ما كانه الهدف، لا يخامرنا الشك في ذلك : فالمالتوسية بتثبيتها اسعارنا الزراعية فوق الاسعار العالمية واسعارنا الصناعية فوق اسعارنا الزراعية ، تولد وتحفظ في كل لحظة ، عن طريق خلق متواصل ، الفلاح الفرنسي ، ذلك الوحش الأحمق الأليم الذي تريد الدعاية المغرضة ان تصوره حكيماً عاقلاً ، والذي يزهق نفسه في العمل كيلا يربح شيئاً ، والذي يعتقد انه يملك ارضاً لا يتمتع حتى بحق الانتفاع بها ، والذي يدافع عن مصالح الملاك الكبار ويصوت مرة كل خمس سنوات لبؤسه خوف المزيد من البؤس . ان السان الطبيعة هذا يجهل انه نتاج مصطنع وان مصيره يقترن في المدن شأن مصير العمال : لكنهم يحرضونه على المدن بتذكيره بأن مدينيه يقطنون فيها ، ولا سيما على العمال بالايحاء اليه بأن مطالبهم تؤدي إلى ارتفاع الاسعار الصناعية . ولو شرع الفلاح بزيادة الانتاج وبتكاليف أقل ، ولو طالب بعدد متعاظم من الجرارات بأسعار متناقصة ، فلربما ادرك ذات يوم ان مصالحه ومصالح العمال الصناعيين مشتركة : وهذا على وجه التحديد ما هو غير مرغوب فيه . فالاستقرار يقتضي ان تنفصل الطبقات الكادحة عن بعضها بعضاً بحواجز من الكراهية وعدم التفهم : ان ارباب العمل الكبار ، المقتنعين بمبدأ فرق تسد ، يرعون ويمولون على حسابنا جماعة من المتوحشين الطيبين في الارياف تمحض سياستهم دعمها الانتخابي .

لكن عليهم ألا يلحفوا في مطالبهم : فصحيح ان المالتوسية تعرقل هجرة الريفيين المزمنة ، لكنها لا تلغيها . وبين كل ١٠٠٠ شغيل كان هناك في عام ١٩٠٥ ما يقارب ٤٨٠ مزارعاً. وفي عام ١٩٣٠ انخفض عددهم إلى ٣٧٠ مزارعاً. وفي عام ١٩٥٣ الى ٣٢٩ مزارعاً فقط : اذن فالهجرة مستمرة ، لكنها بدلت طبيعتها واتجهت نحو الوظائف الادارية الصغيرة . وهذه أيضاً احدى نتائج

---

١ - في ١٩٥١ - ١٩٥٢ ، تكلف ٢٨٨٠ حريرة ٥٥٠٩٠٠ فرنك في المانيا ، و ٩٦٠٠٠٠ فرنك في فرنسا .

٢ - ان المردود الخام لمسي مزارعينا لا يتجاوز ٣٠٠٠٠٠ فرنك سنوياً .

الاقتصاد الانحطاطي : فالفلاح الغارق في الديون حتى عنقه ، والميت جوعاً في أرض مرهونة ، يريد الأمن لابنه . اذن فسوف يجعل منه موظفاً . ثم ان التقدم التكنيكي على الاخص يولد أو يطور طبقة جديدة سيوازن نموها السريع نمو البروليتاريا ثم يوقفه ويتجاوزه ، وهذه الطبقة هي الطبقة المتوسطة المأجورة . ونحن نعرف ان كولن كلارك أثبت ان هنـاك ترابطاً احصائياً ، بالنسبة الى معظم البلدان الصناعية ، بين الدخل القومي الافرادي وبين نسبة الاجراء غير المنتجين (أو المنتجين بصورة غير مباشرة) في السكان العاملين . واذا أخـذنا بمصطلحاته نقول ان الزمرة الثانية والزمرة الثالثة[1] نمتا معاً وبنسبة واحـدة حتى الحرب العالمية الأولى . وكان ذلك في العصر الذي كونت فيـه الصناعة الرأسمالية اطاراتها وكتلتها من اليد العاملة معاً . وبعد ١٩١٨ تسارع نمو الزمرة الثالثة بينما تباطأ نمو الزمرة الثانية . والتطور العام للمكاتب والادارة يتجاوب مع جهود المشاريع لإعادة تنظيم نفسها تبعاً للتقدم التكنيكي والتمركز الصناعي . وهكذا فرض مبـدأ المركزية على الخدمات ، و « دمجت » مختلف قطاعات الاستثمار ، وأمنت سرعة التنقلات ، وكلفت الاجهزة المختصة بإعـداد المهام وتوزيعها ، وبترصد الظروف وتأويلها ، وتوقع تقلبات السوق وتنظيم التوزيع : وهدف هذا كله زيادة الانتاجية عن طريق مراقبة الانتاج . والحال ان مخطط كلارك ينطبق على فرنسا . مع فرق واحد هو انه يصبح كاريكاتورياً . فالانتاج عندنا قد جمد عند حد معين بدءاً من عام ١٩٢٩ ، ونمو البروليتاريا العددي توقف بغتة عام ١٩٣١ بينما لم يكف تضخم القطاع الثالث عـن التفاقم[2] . وتلكم هي

---

١ ـ لنذكر هنا بأن السكان العاملين يتوزعون في رأي كلارك ، الى ثلاثة قطاعات :
ـ القطاع الأول (صيد ، غابات ، زراعة) .
ـ القطاع الثاني (الصناعات الاستخراجية وصناعات الطاقة والتحويل) .
ـ القطاع الثالث (المراسلات والنقل ، التجارة ، المصارف ، شركات التأمين ، الادارات ، الخدمات الخاصة) .

٢ ـ في عام ١٨٠٦ كانت الصناعة التحويلية تضم ١٠ مستخدمين مقابل كل ٢٤٠ عاملاً . وفي عام ١٩٤٨ اصبحت تضم ١٠ مقابل ٤٧ .

النتيجة المباشرة للمالتوسية : فصاحب المعمل لا يهتم بزيادة عدد العاملين لديه لأنه لا يفكر بزيادة الانتاج . وهو يزيد في عدد موظفيه الاداريين لأنه يريد ان يتقن مشروعه لينتج بتكاليف اقل . والنتيجة : فائض قدره ٨٠٠٫٠٠٠ شخص عامل في القطاع الثالث ونقص حقيقي في الاستخدام . واذا اردنا على العكس ان نلبي اليوم مجموع حاجات الأمة ، فلا بد من رفع الانتاج بنسبة ٤٦ ٪ وبديهي ان هذا مستحيل لكن أولاً بسبب فاقة اليد العاملة . فمن أين يؤتى بالعمال لبناء ملايين المساكن التي نحتاج اليها ؟ وإذا ما اعطينا انفسنا مهلة عشر سنوات أو عشرين سنة ، فكيف نسد الثغرات في القطاع الثاني اللهم إلا على حساب القطاع الأول والثالث ؟ لكن أرباب العمل حريصون على الامتناع عن مثل هذا العمل: انهم يرعون لصف بطالة في « الخدمات » ويبقون على قرنسا في حالة فاقة دم مزمنة ليعرقلوا تطور القوى العمالية . ولم تفشل مساعي المالتوسية : زراعة متأخرة ، وقطاع ثالث متضخم ، وبروليتاريا متناقصة ، والاستقرار الاجتماعي بالتالي مضمون : وارباب العمل بالطبع في مأمن : فالانتاج الدون يؤدي الى الاستهلاك الدون ، أي الى انكماش السوق الذي يبرر بدوره الانتاج الدون . وكل شيء يسير على أحسن ما يرام بشرط ان يترك قسم من السكان يموت برداً في الشتاء وجوعاً طوال ايام السنة .

ولقد رأينا ان الحكومة التي تريد ان تزيد النسبة السنوية للانتاجية يتوجب عليها ان تخفف احتقان وتضخم القطاع الثالث . لكن ارباب العمل مطمئنون تمام الاطمئنان : فذلك شيء لن يتحقق بسرعة ، وهذ القصد ، الممكن نظرياً ، محظر عملياً بسبب المقاومات الاجتماعية التي سيثيرها . ومع ذلك فإن القطاع الثالث يشتمل على عدد من اصحاب الدخل المحدود يعادل أجرهم في احسن الاحوال أجر عامل يدوي : ويحق لنا أن نتوقع ألا يبدي صغار الكسبة ، هؤلاء الذين يقفون عند حدود القطاع الثالث ، مقاومة تذكر اذا ما دعت الحاجة الى انتقالهم الى قطاع آخر . لكن لا : فالاستخدام يكيف المستخدَم كما يكيف الثوب الراهب ، وصحيح ان البائع المتجول يمت بصلة قربى إلى الأجير المنتج

من حيث قدرته الشرائية ، لكنه يتميز عنه لأنه لا ينتج . وعمل ضاربة الآلة الكاتبة بشكل جزءاً لا يتجزأ من نشاطات الادارة ، ومن هنا فإنها تعتبر نفسها مندمجة بالطبقات السائدة . والحق ان وظائفها لا تبعدها عن العامل بالقدر الذي تظن . يقيناً انها لا تنتج ، لكنها هي التي تعطي اخيراً مضموناً مادياً للرموز المرسومة في المكاتب ، فهي بالتالي ، ومن هنا بالذات ، قريبة كل القرب من عامل الطباعة الذي هو شغيل يدوي . واللحظة البيروقراطية في الفكر هي لحظة صياغة المفاهيم : فالفكر ينفي واقع الاشياء وواقعه الذاتي ، واللغة تنفي وجود الموضوع المسمى ، كذلك فإن البيروقراطي يقف عند مستوى الاحصائيات والممكنات والافكار الواضحة ، اي الافكار التي لا تشتمل على تجاوز نفسها بنفسها . والفكر لن يستعيد عمقه إلا اذا استعاد ماديته . ولما كان لا يتجاوز قط غير المواضيع فهو لن يتجاوز نفسه إلا إذا تلقى من الخارج صفة الموضوع . ان ضاربة الآلة الكاتبة حين تضرب بلاغاً ، تحول الفكرة الى شيء ، وتحقق تجاوز الرمز عن طريق ماديته وتجاوز المادة عن طريق رمزها . إذن ففي عملها كما في عمل المستخدمين في المكاتب مظهر من مظاهر الانتاجية. لكن هذا المظهر على وجه التحديد هو الذي يزعم المستخدمون في المحلات التجارية انهم ينفونه : فهم يعتقدون انهم يساهمون في رسم الأوامر والمهام ويغضون عيونهم عن وظيفتهم الحقيقية التي هي تحويل هذه الأوامر والمهام عن طريق تسجيلها في الواقع . ان « الضعاف اقتصادياً » من القطاع الثالث يزعمون ، بمسالكهم ومطامعهم ، انهم يظهرون انتماءهم للطبقات العليا التي تضطهدهم . لكنهم لا يفعلون شيئاً سوى انهم يقلدون ارباب عملهم وما تخفيه مواقفهم هو رفضهم العنيد ان يُشبهوا بالاجراء المنتجين . ان واقعهم الاجتماعي سلبي محض لأنهم ليسوا ما يزعمون انهم كائنوه ولأنهم يرفضون كل تضامن مع اكثر الناس شبهاً بهم . ولقد كفى ان تنتطع بعض الاقتطاعات من القطاعين الأول والثاني حتى ينقسم البؤس على نفسه وتبرز الى الوجود تلك البروليتاريا التي تلبس قناعاً منشاة وتكره البروليتاريين الحقيقيين لأن الشرط العمالي يثير اشمئزازها ونفورها . وفي اطار اقتصاد مزدهر

ما كان الضرر ليكون كبيراً الى هذا الحد : فحتى لو استمرت « الخدمـــات » في مجموعها في النمو ، لنمت الجمـــاهير العمالية هي الأخرى ، ولسائر نمو الدخل القومي وطلب اليد العاملة في اعادة القطاع المنتج الى سابق مكانته وقيمته ولشجعا الانتقال من قطاع الى آخر كما في الولايات المتحدة حيث تتراص كميات واسعة مترجرجة عند طرفي الحدود وتقف دومـــاً على استعداد لتخطيها لتغزو القطاع الثالث أو تصب في القطاع الثاني وذلك حسب الظرف . لكن مـذهب الجمود الاقتصادي يستتبع مذهب الجمود الاجتماعي : فبين كل مئة ابن عامـــل ولدوا منذ ربع قرن من الزمن ، بقي ٥٥ منهم عمـــالاً في الصناعة الكبيرة والمتوسطة ، وعاد ١٠ منهم الى الأرض ليعملوا كعمال زراعيين ، وعـبر الخط ٣٥ انضم ٢١ منهم الى صفوف البروليتاريا ذات القمصان المنشاة . وبعبـــارة أخرى ، كان لأبن العامل الشاب في عام ١٧٣٠ ، ٦٥ حظاً من مئـة في ان يظل عاملاً ، و ٨٦ حظاً من مئة في ألا يغادر صفوف الطبقات المحرومة . واذا اضفنا الى هذا ان الهجرة الريفية تباطأت ، وانه من المستحيل تقريباً على مستخدمي المحلات التجارية الادناء ان يرتقوا الى المراكز البورجوازية ، وأن أرباب العمل الصغار محميون ومثبتون في مواقعهم من قبل الدولة والصناعة الكبيرة ، فلا بـد ان نستنتج ان اقتصادنا الاجهاضي قد فصل بين الفئات الاجتماعية بحواجز ثابتة وجعل من فرنسا مجتمعاً آخذاً بالتحجر إن لم نقل نظامـــاً مقسماً الى طوائف . والفائدة من ذلك واضحة : فالمالتوسية لا تكتفي بتقليص البروليتاريا ، بـــل تنجز أيضاً انعزالها نهائياً . يقيناً ، ما يزال الدخول اليهـا ممكناً ، بـــل حتى الخروج منها احياناً : لكن المرء يولد ويموت فيهـا عاملاً بنسبة تزداد اطراداً . ولا يكفي ان توقف هذه الطبقة الخطرة عند حدودها ، بل لا بـــد أيضاً من تطويقها . ففي القرن الماضي كانت البورجوازية تعيش في حالة حصار ، واليوم هي التي تعمل على حصار الزمرة العمالية . وكل فرد يتشبث بمكانه ، بما يعتقد انه امتيازه : الفـلاح بأرضه المرهونـــة ، ورب العمل الصغير بمشروعه البائس ، والمستخدم المرؤوس بوظيفته التي لا تغني ولا تسمن من جوع . والكبار يمسكون

بتقاليد كل شيء . وتكفي اشارة منهم حتى يفلس الصغار ، لكنهم لا يفكرون بذلك ، فالصغار حلفاؤهم وجنودهم . وهؤلاء الناس الذي يختلفون عن بعضهم بعضاً في كل شيء يجمع بينهم كره مشترك : كره البروليتاريا . ولولا كره البروليتاريا ، لأدرك رب العمل الصغير انه ضحية دهاقنة الصناعة وشريحتهم المتواطيء ، ولأدرك الفلاح ان أرضه تهرب منه وتسيل من بين أصابعه كالماء ، ولأدرك المستخدَم انه مستغل من قبل مستخدِمه . لكنهم لا يرون شيئاً : لا شيء سوى المطالب العمالية التي تسبب ارتفاع الأسعار الصناعية وتزيد دين الفلاح وتضع التاجر الصغير على شفا الافلاس ؛ لا شيء سوى الحوة المظلمة التي تجذبهم وتثير نفورهم . ان أرباب العمل الفرنسيين يعتمدون على ثلثي الأمة ليسقطوا في يد الثلث الثالث .

إنهم ما عادوا يسعون الى التخويف بالمجازر ، إنما يعملون على ان يضعفوا من الداخل طاقة العمال الكفاحية . وهم لا يترددون في حبس البروليتاريا في وضع لا مخرج له وعكس التركيب بصورة تختنق معها أو تتمزق إرباً إذا حاولت الخروج منه . والتطريق الذي تحدثت عنه لتوي إن هو أيضاً إلا نجاح خارجي تماماً . وهناك ما هو أدهى : فطالما ان الانتاج يلتهم العامل وطالما ان المالتوسية هي الصفة السائدة في انتاجنا ، فإن البروليتاريا الفرنسية ضحيتها وانتاجها في آن واحد : ولسوف نرى كيف انها مشروطة في نضالها بالذات بالداء الذي عليها أن تناضل ضده .

١ – يقول آباؤنا لنا إن فرنسا عرفت بروليتاريتها الطليعية بين ١٨٩٠ و ١٩١١. وبالفعل لا بد ان نعترف ان الطبقة العاملة قد شنت أكثر من ١٨٫٠٠٠ إضراب خلال تلك السنوات الواحدة والعشرين . وإذا ما أحصيناها بالنسبة الى كل سنة على حدة ميزنا فيها حدوداً عليا وحدوداً دنيا . لكننا سنلاحظ أيضاً ان هذه الحدود وتلك كانت تتقدم باستمرار : فالحدود الدنيا ترتفع من ٢٦١ الى ١٠٢٥ ، والحدود العليا من ٢٦٧ الى ١٥٢٥ . كما ان نسبة الاضرابات الناجحة لا تكف هي الأخرى عن الارتفاع : فقد كانت ٥٣٪ في نهاية القرن الماضي ،

وأصبحت ٦٢٪ عام ١٩١٠ . ولقد انتهى هذا العصر المبارك مع الحرب العالمية : تصحيح ان إضرابات ما بعد الحرب زادت عـــدداً من حيث المعدل الوسطي، لكن حتى عام ١٩٣٦ تراجعت الحدود الدنيا والحدود العليـا بصورة مستمرة ، وسقطت نسبة النجاح بشكل خاص من ٧٠٪ عـام ١٩١٩ الى ٣٥٪ في الأعوام ١٩٣٠ - ١٩٣٥ . وبعد مد ١٩٣٦ سيظل عدد الاضرابات مرتفعاً للغاية لكن الميل الى التراجع سيظهر من جديد وسيشتد : وهو ما يزال قائماً حتى يومنا هذا، ونسب النجاح هي دون الوسط . فهل ينبغي ان نعتقد حقاً ان العمال كانوا أكثر شجاعـــة في زمن النقابية الثورية وان قادتهم كانوا أكثر ذكاء وتفانياً ؟ ومـا سيكون ، على أساس هـــذا الفرض ، سبب التغير ؟ ان الشراح البورجوازيين يتلجلجون عند هذا السؤال : « السبب ، يا روحي ، السبب ؟ » . ليس هنـــاك سوى سبب واحد : لاحظوا صعود البروليتاريا المنتصر حتى عام ١٩١٩ ، العام المبارك الذي مـــا كان فيه على العامل إلا ان يبدي أمنية حتى تلبى فوراً ، وانظروا ما حدث فيما بعد : ارتفاع نسبة الاخفاق ، عودة البؤس ، التدهور . ١٩٢٠ او العـام الحاسم . ولمَ ١٩٢٠ ؟ لأنه عام مؤتمر تور والانشقاق العمالي . ان البروليتاريا ، بدءاً من هذا العام ، قد باتت تحمل معها سرطانها .

انه لمن الغباء أن نتصور إن العامل فقد شجاعتـــه لأن السرطان الشيوعي يتآكله . لكن مما لا شك في صحته إن عمله قد وهن بعض الشيء . فلنرجع اذن الى الوقائع ولنرَ ما تقوله . اننا سنلاحظ اولاً ان العـــدد السنوي للاضرابات ونسبة نجاحها ازداد حتى عام ١٩١٢ مع التصنيع . وقد لاحظنا من جهة أخرى إن هذا المنحنى الصاعـــد يشتمل على بعض التجاويف : فأحياناً يقل عـــدد الاضرابات وتتضاءل فرص نجاح كل واحد منها إفرادياً . والمنحنى العام للأسعار يقدم المظهر نفسه : ففترة الازدهار لا تخلو من بعض الأزمات الزهيدة . واذا ما قارنا المنحنيين أدركنا فوراً ان الحدود الدنيا لكل منهما تتناسب بدقة . وبين ١٩١٩ و ١٩٣٥ ينعكس الميل لكن العلاقة لا تتغير[1] : فالاضرابات تزيد مـــع

---

١ — مع تحفظ واحد سنعرضه فيما بعد .

ارتفاع الأسعار وتتناقص مع انخفاضها . ومغزى هـذا واضح : ففي فترات الانطلاق يتغير وضع العامل في المجتمع ، ويصبح موضع طلب ، وهـذا يعني أن الدخل القومي في أوج النمو وإن طلب اليد العاملـة يكفي لتسبيب ارتفاع الأجور . وإذا ما حاولت الطبقة العاملة ان تزيد نسبة هذا الارتفاع عن طريق الاثارة الاجتماعية ، فهذا لأنها تطالب بالمشاركة في الاغتناء الجماعي . وبعبارة أخرى ، تنتقل البروليتاريا الى الهجوم وتستمد عدوانيتها من الظرف التاريخي . وعلى كل ، يسمح نظام المزاحمة المشغلة بتدعيـم انتصاراتهم : فالتنازلات التي انتزعوها من رب العمل ، لا يستطيع هـذا الأخير ان يجردهم منها من جديد ، فإذا ما أراد أن يعوض عن ارتفاع الاجور برفـع الأسعار كان مصيره الهلاك : إذن فعليه إما ان يتخلى عن أرباحه أو يزيد الانتاج. وعلى هذا فالممارسة مرسومة مسبقاً في حركة الاقتصاد : فالعامل الذي تتجاذبه تيارات تلقي بـه في قلب المعركة، يجد نفسه فاعلاً من غير أن يكون قد قرر ذلك،وفاعلية أفعاله متناسبة طرداً مع قوة ازدهار صناعتنا. إن البروليتاريا تفصّل لنفسها مستقبلاً في مستقبل الرأسمالية . ونحن نعرف الآن ان تلك الحقبة السعيدة كان لا بد ان تنتهي مـع هدنة ١٩١٨ . لكن الممارسة تخلق تصورهـا عن نفسها بنفسها بإسقاطهـا في اللامتناهي المستقبل المباشر الذي يولدها : فالعمال وأرباب العمل ، بمجرد تجاوز الحد المرسوم ، طرحوا أمامهم اسطورة التقدم والوهم الاصلاحي . وكان يكفي أن تتابع البروليتاريا فتوحاتها ، فبذلك كانت سترغم الرأسمالية على زيادةالانتاج باستمرار ، وستقترب باستمرار من لحظة استلام السلطة . وهذا مـا عبر عنه جوريس عام ١٩٢٠ بعبارات تبدو لنا اليوم جارحة لكنها كانت تعبر فعـلاً آنذاك عن الرجاء المشترك :

« يستحيل على النقابات ان تنتظم ، أن تتوسع ، ان ترسخ دعائمها ، من دون أن تتدخل سريعاً في سير المجتمع الرأسمالي ... وفي اليوم الذي ستتدخل فيـه النقابات العمالية ، ولو عن طريق التفتيش ، ولو عن طريق الرقابة ، في طريقة استخدام الآلات ، وفي اليوم الذي ستنصح فيه أرباب العمل وتفرض عليهم هذه

الآلة أو تلك وهذا الجهاز التكنيكي او ذاك ، تكون قد تعاونت ، شاءت أم أبت ، مع ارباب العمل في قيادة الآلة الرأسمالية . وأنا بالطبع لا آسف على البروليتاريا لهذا التعاون الذي هو بداية التملك » .

وهكذا كان المستقبل الحقيقي لكن المحدود للرأسمالية الليبيرالية يمتد كسراب خادع حتى اللانهاية ، وكان العامل يعتبره مستقبله هو بالذات . وكان هذا المنظور الكاذب يهيج الكفاحية العمالية مع دفعه بالمستقل ، عن طريق سراب الاصلاحية ، الى التعاون مع مستغليه . ولم يكن العمال قد نسوا عجازر سان بارتلمي القديمة ، لكن كلما كان العالم البورجوازي يستسلم لعملهم ، كان شعار النقابية الثورية يتحول الى محض لفظية ميتة . ولم يعد التعارض قائماً بين الثوريين والاصلاحيين إلا على صعيد اللغة وحدها تقريباً : فحين تبدو الثورة وكأنها نهاية تقدم متصل ، فما الذي يميزها عن محض تطور بسيط ؟ كانت البروليتاريا قد ظلت معادية للسياسيين وللبرامج ، لكنها كانت تميل الى الخروج من منفاها الاختياري ، والى التسلل الى معسكر العدو ، والى « اثبات وجودها » . وكانت قد تعلمت ان الواقعة الاجتماعية ، كما يقول ماوس ، هي واقعة كلية . لكن الحقيقة الموضوعية لنضالها هي ان هذا النضال كان يزيد يوماً بعد يوم في اندماجها بالمجتمع الرأسمالي ، وسيحتم في النهاية على تنظيماتها النقابية ان تصبح ملحقة بالدولة .

اما في زمن التراجع والأزمات ، على العكس ، فإن البروليتاريا تتآكل متقهقرة . ترى هل تلاشت شجاعتها ؟ بالتأكيد لا . لكن اذا قسنا كفاحيتها بعدد المعارك المشنونة ، فلا بد ان نعترف بأنها وهنت ، وهذا لأن الاضراب فقد فاعليته ، واصبح العاطلون عن العمل يشكلون احتياطياً لا يتوانى رب العمل عن النهل منه . ثم اذا كان الحل لا يدر ربحاً يذكر ، فإن صاحبه سيتذرع بالمنازعات الاجتماعية لإغلاقه . بالأمس كان العامل يقول كلمته بصدد كل شيء . واليوم اذا ما احتج وجد نفسه ملقى به على قارعة الطريق . وسعيد هو إن لم يفصل من غير ان يكون قد قال شيئاً . بالأمس كان يشكل جزءاً لا يتجزأ من المصنع ، واليوم يخيل اليه انه مقبول فيه على مضض . وبالطبع ليس هو الذي

يعاني من هذا التدهور في القيمة ، انما هي قوة عمله . لكن هذا لا يمنع انه يحس بأنه مصاب في واقعه كإنسان . كان يظن نفسه لا غنى عنه : والآن يرددون على مسمعه بأن الحظ وحده او طيبة قلب رب العمل هما اللذان يتيحان له ان يظل في عمله ، وبأن هناك نوعاً من الظلم إذ يقدم له رب العمل عملاً في الوقت الذي يضن به على كثيرين غيره . ومن كثرة ما يسمع الشغيل ان حظه شاء له ألا يكون عاطلاً ، ينزع الى ان يعتبر نفسه عاطلاً واتاه الحظ : وزبدة القول ان البطالة ، في زمن الازمة ، هي التي تعطي العمل معناه . والحال ان العاطل نتاج للانحلال ، مواطن سلبي فرضت عليه الاقامة بعيداً عن مركز المجتمع ، وتقدم له وسائل الوجود بتقتير مع انه لا يعمل شيئاً حتى لا يقال انه ترك يموت جوعاً. والشغيل ، العاطل بالقوة والعاطل بالحقيقة ، يشعر بأنه فائض عن الحاجة : ان الازمة تجرده من سلطاته ومن مسؤولياته معاً . كان يتوهم انه « يتعاون » مع الرأسمالية : وهو يدرك الآن عجزه ، وما عاد يكفي ان ينفذ بدقة بنود عقد العمل : اذا كان يريد ان يحتفظ بوظيفته ، بل لا بد أيضاً ان يستحقه ، وان يصبح ما يسميه رؤساء الورديات وأرباب العمل عاملاً « صالحاً » . وعلى كل ، يستفيد المستخدمون من المناسبة ليصطفوا جهازهم : سوف يسرّحون « الرؤوس العنيدة » والمنتسبين الى النقابة والمناضلين ، ويحتفظون بالآخرين ، أي بأولئك الذين اقلعوا عن الاحتجاج بدافع من استسلامهم وتعبهم واعبائهم العائلية . وهكذا يتم تطهير الطبقة العاملة : فأخيار المناضلين يختفون ، وقد نفوا من هذه الـ No man'sland التي هي البطالة، ويفقدون وسائل عملهم والتماسّ مع الجماهير في آن واحد . وبين الذين يظلون قادرين ، رغم عجزهم النسبي ، على ممارسة الضغط على أرباب العمل ، تزيد نسبة المستسلمين . لقد فقد الشغيل وهم التعاون مع الرأسمال : فبالأمس أيضاً كان يساهم بعمله المُطالِب في ازدهار الصناعة ! واليوم يعاني من نتائج الانتكاس من غير ان يكون قادراً على وضع حد له : كان اندماجه التدريجي يقوده الى ان يتقاسم المسؤوليات مع مستغليه ، والمنفى الآن يحرره لكنه يعزله ؛ فيفقد كل تماسّ مع المجتمع الذي أقصاه : وهذا ما يجعله

شديد العداء للتظاهرات السياسية . كتب لينين : « إن الوعي الطبقي العمالي لا يمكن ان يكون وعيا سياسياً حقيقياً اذا لم يتعود العمال على الرد على جميع انواع سوء الاستغلال ، وعلى جميع تظاهرات التعسف مهما تكن الطبقات التي تذهب ضحيتها ، على الرد من وجهة النظر الاشتراكية - الديموقراطية على وجه التحديد[1] » . انه على حق بلا ادنى ريب لكن من الاسهل بما لا يقاس ان تطرح الشعارات السياسية على الجماهير ، في فترات الانطلاق الصناعي منها في ايام الأزمات : ففي ايام الازمات تتراخى الروابط بين الجماهير والطبقات الحاكمة ، بما في ذلك ، وعلى الأخص ، رابطة الصراع الاجتماعي . وينزع التناحر الى إخلاء مكانه لعلاقة تقوم على التحاذي المحض[2] . ولا نسرع الى الاستنتاج بأن البروليتاريا نسيت ذكرى مهمتها اللامتناهية : والحقيقة هي ان الظرف يحرمها من كل مستقبل بإرغامها على التشبث بمصالحها المباشرة وحدها : كانت تناضل لتأخذ ، وهي تناضل الآن لتحتفظ . ومع ذلك لم يسبق قط للحقيقة ان تجلت بمثل هذا الوضوح : فكل طبقة تنشد موت الأخرى ، واذا ارادت الرأسمالية ان تحافظ على مصالحها ، فعليها ان تبقي البروليتاريا تحت الحد الادنى الحيوي . إن أكثر المطالبات تواضعاً تهدد بدفع الصناعة الى الدمار بدلاً من ان تدفع بها الى الانتاج . والواقع ان الازمة اذا ما استفحلت ، فقد تؤدي الى الثورة ، أي الى انفجار اقتصاد نخرته تناقضاته الداخلية . لكن هذا المنظور بالذات يعرقل العمل النقابي ، فحين لا تكون الظروف مؤاتية للحركات الكبيرة ، يجازف الاضراب المحلي بأن يُقمع بالقوة أو بأن يدمر المشروع .

ان الدرس لن يذهب هباء : فأرباب العمل يعتمدون على الملاحظات السابقة ليحققوا بصورة مصطنعة الشروط الموضوعية لتثبيط همة العمال . عدد الاضرابات

---

١ - المؤلفات المختارة - طبعة موسكو - المجلد ١ ص ٢٢ .

٢ - القصد بالطبع العلاقة الاجتماعية ، فالرابطة الاقتصادية تظل الاستغلال . اما ذلك التلاحق المحض فلا ينبغي ان نفهمه كصلة حقيقية ودائمة بأرباب العمل بل كشكل مؤقت يتخذه الصراع الطبقي حين تبلغ الكفاحية العمالية الى الاقتراب من نقطة الصفر .

ينمو مع الانتاج ؟ اذن فسوف يحولون بين الانتاج وبين النمو . وإذا تدهور إلى ما دون مستوى معين ، فقد يخشى من اضطرابات تمردية ؟ اذن فسوف يعملون على ألا يتدهور ايضاً . يكفي ان يُبقوا الاقتصاد القومي في حالة ازمة جنينية. واحدى النتائج الغريبة لما يسمى بالقانون الحديدي هي ان الطبقات تنعكس في بعضها بعضاً : بروليتاريا مقاتلة مقابل طبقة تقدمية من ارباب العمل،وبروليتاريا منهكة القوى مقابل طبقة كسول متوانية من ارباب العمل.وحتى يخمد صناعيونا الوعي العمالي لاختاروا ان يعيشوا عيشة القتار . وهم يأملون في ان تعيش البروليتاريا من الداخل هزال الانتاج تحت شكل فاقة دم مستشرية . وبالفعل ، وبفضل هذه الطرائق ، تواجه البروليتاريا الفرنسية نقصاً في العدد وفيضاً طفيفاً فيه في آن واحد . فعددها ليس كافياً بالنسبة إلى اقتصاد يطمح الى ان يلبي بالانتاج الكثيف جميع حاجات الأمة : وعلى هذا فإن المالتوسية تقضي عليها بنقص التطور.لكن بالنسبة الى اقتصاد يزعم انه حول نفسه إلى اقتصاد متحفظ، تجازف الطبقة العاملة بأن يكون عددها اكبر مما ينبغي : والواقع ان الأزمة هي متطورنا الوحيد والخوف من الازمة يشرط كل شيء . والصناعة الكبيرة ، بإحاطتها نفسها بمشاريع صغيرة بصفة صمام أمان،توحي بأن الكارثة على ابوابنا. والدولة ، بمبالغتها في احتياطاتها ، تثبت عندنا هذه القناعة : لا مجال لتلافي تلك الكارثة،لكن من الممكن ارجاؤها بفضل الحيطة الدائمة. إذن فأملنا الوحيد هو اطالة أمد الجمود . يقيناً ، هناك عمل للجميع ، لكن هذا لأن الأمة تفرض على نفسها تضحيات قاسية لتمنع البطالة . وسيكون العامل أول ضحية عندما يطرأ ظرف غير مناسب . إذن فهو المستفيد الأول من الرعاية الحكومية . إذ يكفي ان تكف عن سد الطريق في وجه المنتجات الأجنبية ، حتى تجد نفسه على القارعة . وحتى عندما سنسمح بدخول المواد الغذائية وحدها ، فسيحل البوار بمزارعينا ، وسيأخذ الفلاحون طريقهم من جديد إلى المدن ، ويأتون ليضخموا صفوف البروليتاريا في الوقت الذي ستكابد فيه الاسواق الصناعية من نتائج تدهور الاسعار الزراعية . وليس هذا كل شيء : بل ان الاجراء ما كانوا

ليجدوا عملاً لولا طيبة قلب رب العمل . ولو لجأ دوغما مراعاة او تحرّس الى استخدام اليد العاملة الأجنبية او الكولونيالية ، لتعرضت الطبقة العاملة الى خطر الانقسام نتيجة الشقاق والمزاحمة . ولو حسّن طرائق الانتاج من غير أن يزيده ، لتعرضت البروليتاريا الى خطر البطالة التكنولوجية. إن العامل الفرنسي: عاطل بالقوة، وإذا لم يكن كذلك في الواقع، فهذا بفضل حماية السلطات العامة والرأسمال الكبير . اذن فرف يفهمونه ان اقتصادنا سيتداعى عند ابسط نسمة . وليضرب إذا شاء : فقد أعذر من انذر ، ولا مجال للشك في انه سيخسر كل شيء .

يبقى ان يقنعوه بأنه لن يربح شيئاً. ولقد أتت المالتوسية بالمعجزات في هذا العدد . ولقد تم وضع النهج عام ١٩٣٦ وهو ما يزال يستخدم الى اليوم . فقد جاء في اتفاقيات ماتينيون[1] ان « الأجور الواقعية يمكن ان تعدل تبعاً لسلم متناقص يبدأ بـ ١٥٪ بالنسبة الى الأجور الأقل ارتفاعاً وينزل حتى ٧٪ بالنسبة الى الأجور الأكثر ارتفاعاً » . والواقع انه ليس من المستحيل أن ترتفع الزيادة الكلية ، تحت ضغط الجماهير ، الى ٢٠٪ . ولقد اقترحت الحكومة والنقابات على أصحاب العامل ان يعوضوا عن زيادة الأعباء بزيادة الانتاج ، لكن أرباب العمل أصموا آذانهم . ورفعوا عن عمد الأسعار معتمدين على صراخ صغار النفوس من التجار وشكواهم من الفقر . وبين أيار وتشرين الثاني ١٩٣٦ ارتفعت نسبة أسعار المنتجات الصناعية وحدها ٣٦٪ . وقد استمر هذا الارتفاع طوال تجربة بلوم . وقد ظل دوماً أعلى من ارتفاع الأجور . وفي شباط ١٩٣٧ صرح ليون بلوم نفسه في خطابه الى الموظفين : « إن ارتفاع تكاليف الحياة منذ ثمانية شهور يحمّل الأسرة المحدودة الأجر اعباء أكبر من المكاسب التي أمكن التدابير المتخذة في صالحها ان تكفلها لها » .

ومنذ ذلك اغلقت الدائرة ونظمت « دورة الأسعار والاجور الجهنمية » .

---

١ — هي الاتفاقيات التي عقدت في ٧ حزيران ١٩٣٦ بين أرباب العمل الفرنسيين وبين الاتحاد العام للشغل . « م.م »

ويديهي انهم سيصورون لنا هذه الدورة وكأنها قانون صارم للاقتصاد، لكن هذا كذب محض ، ولا وجود هنا لا لقانون ولا لدورة ولا لجهنم . والحقيقة هي ان « كتلة المداخيل القابلة للاستهلاك » لا يمكن أن تزداد ما لم يتم الانتاج : فمعروف ان آلة سك النقود لم تغن احداً قط . اذن فتصحيح وضع الاجور لا يؤدي إلا الى تنقل المداخيل : يبقى ان نقرر على حساب من ستتم إعادة التوزيع هذه . لقد رأينا أن على رب العمل ، في النظام الليبرالي ، أن يقبل بلا مقاومة بالأعباء الجديدة . أما في نظام الاحتكارات ، فسوف يلقي بها على عاتق المستهلك . والمكسب هنا مزدوج : فالطبقات المتوسطة تحرض على البروليتاريا ، ويتحقق مبدأ فرق تسد . كذلك فإن العامل يُضلل : فمهما يكن ارتفاع الاجور الاسمية فإن القدرة الشرائية لا تتبدل في الواقع . كل شيء يتغير ولا شيء يتغير ، وما يمنح باليمنى الى الاجراء ، تسترده اليسرى من جيوبهم . وبعد انتصار ١٩٣٦ الشعبي ، لم يحتج أرباب العمل الى أكثر من عامين ليعيدوا القدرة الشرائية لساعة العمل الى سابق مستواها عام ١٩٢٩ . ولقد تدهورت اكثر ايضاً في ظل الاحتلال، واليوم بعد عشرة اعوام من التحرير لم ترجع الى مستواها عام ١٩٣٨: إذن فمنذ ربع قرن من الزمن ، وبالرغم من المد والجزر والمنازعات الاجتماعية الحادة ، لم تتحرك اجرة العامل الواقعية : فقد كفّت عن النمو مع الدخل القومي ، ولن تستأنفه إلا معه . هذا هو المقلب الذي يسبب حيرة الشغيلة ولا اعتقد انني اهينهم اذا شبهتهم بتلك الثيران العارمة بالشجاعة والتي تنقضّ عشر مرات على طيلسان مصارعها وتتوقف على حين فجأة وقد خاب أملها لأنها لم تلق سوى خديعة . إن العامل يفعل كل ما بوسعه ، ويحمل نفسه حرمانات كثيرة ليكسب معركة الاضراب ، ويصل الى النصر منهك القوى ، فإذا به يشهد ارتفاعاً عاماً في الأسعار يعيد الامور كما كانت . انهم لا يتركون وسيلة إلا ويستخدمونها لإقناعه بأنه أضاع جهده وتعبه سدى: بل إن الوقاحة تبلغ ببعض أصحاب العامل حداً لا يتورعون معه عن رفع اسعار المقصف الملحق بالعمل بسرعة حتى يتمكنوا من تعليق التعرفة الجديدة في اليوم نفسه الذي حصل فيه

الاجراء على زيادتهم . وهكذا ، وبمثل لمح البصر ، يكونون قد قلبوا الموقف . وبلا أزمة وبلا مجازر استقل أرباب العمل الكفاحية العالية : فيفقد العامل كل أمل في الانتصار ، وليعمل اذا شاء على زيادة الاجور ، لكنه لا يكون قد قال شيئــاً اذا لم يحاصر الأسعار ويوقفها عند حدها . بيد انه يعرف انه لن يوقف الأسعار عند حدهــا إلا اذا استلم السلطة ، والطبقات الاخرى تبدو مصممة كل التصميم على الحيلولة بينه وبين استلامها . فهل ينبغي ان نقول إن البروليتاريا مقطوعة ، كما في أزمان الأزمات ، عن مستقبلها ؟ كلا : لكننا رأينا إن هــذا المستقبل هو أولاً مستقبل الرأسمالية[1] . والحال أن مذهب الجمود الانحطاطي هو الذي يعطي الزمن عندنا صفتيه المتناقضتين : التكرار والتراجع . والتكرار هو الظاهر المباشر : فالأيام تتوالى وتتشابه ، وطوال ثلاثة قرون توفر للأبنـاء مأكل ومسكن بفضل المأكل والمسكن اللذين توفرا للآباء لكن لا شيء يتغير منذ خمسة وعشرين عاماً ، وكمية الخيرات المخصصة للتقاسم لا تزداد . واذا كان هناك اناس يعيشون حياة أفضل فهذا لأن هناك آخرين يعيشون حياة اسوأ . إن اوروبا بكاملها تصفنا بالشح : وهذا اللوم لا يمكن بالطبع ان يصيب البروليتاريا التي لا تملك الوسائل ، على كل الأحوال ، لتكون بخيلة . لكنه لا يخص ايضاً الطبقات المتوسطة : فالشح كامن في النظام ، ولا ينبغي ان نرى فيه صفة قومية ، بــل ينبغي ان نعتبره موقفاً جماعيــاً فرضه علينا سادتنا . ان البخل ، في بلدان الرأسمالية المتقدمة ، حادث فردي عرضي تتقاذفــه حركة المبادلات ، لكن مالتوسيتنا تثبط همة التوظيفات ، والمال عندنا يلعب دوراً محافظاً للغايـــة : فطالما انه لا يوظف في المشاريع الجديدة ، فإنه يجرنا في اعقابه نحو اقدم المشاريع ونحن نخاف من المجازفات لأنه يحال بيننا وبين ركوبها ، فينتهي بنا الأمر الى كره كل ما هو جديد . صحيح اننا نحافظ على كل شيء ونتمسك به ، لكن هذا لأنهم « يفبركون » لنا مستقبلاً هو نسخة طبق الأصل عن ماضينا . ان الاميركان

---

١ ـ يكثل بساطــة لأن المشروع الثوري ، شأن المشروع الاصلاحي ، يتطور ضمن اطار الرأسمالية الزمني .

يرمون بالشيء قبـــل ان يستعملوه : فغـداً ستكون المنتجات افضل وبأسعار أرخص . اما عندنا فالبضاعة لا تغير نوعيتها ، انما ستزداد كلفتها ، هذا كل شيء. فكيف تدهش بعد هذا إن وجدنا المسكن الفرنسي يشبه عش العقعق السراق ؟ فساتين اعراس ، بزات مهترئة ، قبعات بالية ، قناني فارغة ، شرائط ممزقــة ، علب مهشمة ، خيوط : إن في خزائننا ما فيه الكفاية من الآثار لإعادة احياء تاريخ نصف القرن الأخير[1] . ويبدو اننا نريد بأي ثمن ان نمسك بماض يتفسخ: لكن هذا لأننا خائفون من الغد .

ان هذه العودة الأبديـــة تخفي انحطاطاً متصلاً : فكل شيء يهترىء ولا نستبدله بغيره إلا بتقتير شديد ، ونلجأ مـــا أمكننا الى رتقه ورقعه . والبلاد تتعفن من أساساتها : دور قديمة في مدن قديمة ، أجهزة بالية في مصانع قديمة ، أراض قديمة ، روتينات قديمة ، سكان نسبتهم العظمى من المسنين ، وأطفـــال يشيخون قبل الأوان ، أطفالٌ مسنين . وأثناء ذلك ، تنتصب البلدان الأخرى ، المندفعة في مغارة هائلة ، أسوارها الفولاذية من حولنا .

ان هذه الأسوار هي التي ترتفع بالطبع : لكن كل شيء يجري كما لو أننا نحن الذين نهبط . فحين يتغير كل شيء ، فلا بد ان نتغير حتى نبقى كما نحـــن : واقتصادنا برغبته في البداية في ألا يتغير يولد موته الخاص ، وهذا الموت هو الذي يصبح مستقبلنا : فهم يكررون على مسامعنا يومياً ان عظمتنا تقف وراءنا واننا نبتعد عنها باطراد يومياً ، أن عظمتنا تقف وراءنا واننا نبتعد عنها باطراد يومياً ، ويتغنون بما لست أدري أي حياة عذبة لم نعرفها ، وربما عرفها آباؤنا حين كانت الآلات جديدة . اننا نعيش زمن الملامة والحسرة . وما فرنسا إلا حنة المجنونة[2] المستلقية فوق زوجها الجميل المنتن . لقد سقط الفكر البورجوازي في النزعـــة التنبؤية . فهو يعجبه ان يتكلم عن أوروبا بـ « ألفاظ القدر » ويتنبأ بالطوفان ،

---

١ - يوم وجه الاب بيير (كاهن كرس حياته لخدمة العمال والفقراء - « هـ. م ») نداءه ، وزع على حين فجأة سلام معجب : بطانيات ، اجهزة تدفئة ، ملابس قديمة ، الخ .

٢ - ملكة قشتالة بين ١٥٠٤ و ١٥٥٥ ، زوجة الارشيدوق النمساوي فيليب الجميل ، وأم شارل الخامس . « هـ.م »

لكن ليست هـذه سوى طريقة لتغطية رغبتنا في الموت بسلام : الطوفان ، أجل ، لكن من بعدنا . اننا نجس الحيطان ، ونفحص حالة السقوف : انها ستصمد حتى الارتحال النهائي .

ان الطبقة العاملة تعمل وتحارب في هذا الجو الموهن المثبط للعزائم . انها ليست يائسة ، والشغيلة لم تسر اليهم عدوى الرغبة المخزية في الموت بسلام لأنهم محرومون من الحياة بسلام . لكن كيف يمكنهم ألا يروا مستقبلهم الخاص في هذا المستقبل الثقيل الوطء ، المليء بالنذر الذي يعد لقرننا اليوم ؟ لقد كان عالم العمل اليدوي عالم التكرار دوماً ان كثيراً وان قليلاً . ولقد كان العامل يحافظ على الأقل ، في فترة الازدهار ، على الأمل في تحسين مصيره . وكان البؤس والحنق يدفعان به على الأقل ، في فترة الأزمة الحادة ، الى اطراح الحمل الذي ينوء تحته وإلى محاولة الثورة . لكن كل شيء يتآمر اليوم على إقناعه بأن مصيره لن يتغير مهما يفعل.بل انهم يذهبون في حسن الالتفات والرفق الى حد يشرحون معه له الموقف عدة مرات في اليوم الواحد : ماذا ينتظر ؟ ألا يعرف ان الدخل القومي جامد آسن ؟ يقيناً ، ان الجميع راغبون في توزيع أعدل للخيرات ، وكبار أرباب العمل على استعداد ، من جهتهم ، للتسليم له ببعض الترضيات : لكن هذا ما لا يمكن فعله مع الأسف بدون إلحاق الدمار بصغار ارباب العمل . أوليس لهم ، هم أيضاً ، حق في الحياة ؟ والنتيجة : لن يتحرك شيء ، ولا يمكن لشيء ان يتحرك . فما الداعي لأن تكون البروليتاريا ثورية ؟ لو فعلت ذلك لخسرت شيئاً ما . وما الداعي لأن تكون اصلاحية ؟ انها لن تربح شيئاً . ان العامل لا يسقط في هذين الفخين : لكنه لا يستطيع على كل حال ان يمنع نفسه من قياس مدى عجزه . لقد قلت سابقاً انه ما يزال يؤمن بالثورة : لكنه لا يفعل شيئاً سوى انه يؤمن بها مجرد إيمان . انها لم تعد مهمته اليومية ، ولقد فقد يقينه المتكبر بانه يقرّب ساعتها بجهوده . لقد كان في السابق يرى في العدد المتزايد دوماً لانتصاراته المحلية دليلاً على قدرته على العالم . لكن المالتوسية ، بثمنها اسلحته ، جردته من سيطرته على الكون : لقد برهن انه لا يخشى لا ارباب

العمل مهما كانوا قساة ، ولا الدولة ، ولا قوات الأمن . لكن عدوه الرئيسي كائن بلا وجه وبلا جسم لا يتوصل إلى الإمساك به : السعر . لقد أنشأت النقابات خلال العشرين عاماً الأخيرة ، وشيئاً فشيئاً ، مفهوم « الحد الأدنى الحيوي » ومفهوم « السُلم المتحرك » : ولقد شاء البعض ان يرى في هذه الأفكار تقدماً احرزته الحركة العاملة . لكن هذه الافكار لم تولد ، على العكس ، إلا من المالتوسية : فجمود اقتصادنا يرغم العامل على القتال للحفاظ على راهن الامور .
وهذا ما يسمح لنا بأن نفهم بصورة أفضل نفوره الراهن من التظاهرات السياسية . ذلك أن الأهداف السياسية والاجتماعية للبروليتاريا تقدمية من حيث التعريف : فحين تكون البروليتاريا قادرة على فرض ارادتها في المضمار الاقتصادي ، يولد العمل السياسي من تلقاء نفسه : فهو دلالة التقدمات المنجزة في النضال اليومي . لكن حين يتعثر العمل النقابي ويراوح في مكانه ، وحين يكون العامل مكرهاً على اتخاذ موقف دفاعي ، فإن الغايات السياسية تنفصل وتتناءى عن الغايات الاقتصادية ، وتجازف بأن تظل معلقة في الهواء : وعلى وجه التحديد لأنها مواقف متقدمة ، يرنو اليها العامل من بعيد كآمال او امنيات ، لكنه يظل مقطوع الصلة بها كلياً ولا يعود يجد الدروب التي يمكن ان تقربه منها . انهم يرونه على مد النظر تكرار اعماله واتعابه . واذا ما أصر على ابقاء الثورة في أبعد الآفاق، فكيف يمكنه ان يتخيل انه يمد لها العدة ؟ ان العالم يتغير وفرنسا لا تحرك ساكناً : فتتساءل البروليتاريا الفرنسية إن لم تكن قد سقطت خارج التاريخ . في الصين يشاد مجتمع جديد، وفي الاتحاد السوفياتي يرتفع مستوى الحياة : والعامل عندما يطلع على هذه الانباء بمشاعر مختلفة معتدلة ، فهي تحرك شجاعته لأنها تبرهن له ان التقدم الاجتماعي ممكن ، وتحط من معنوياته لأنها تبدو وكأنها تشير الى أنه ساكن في مكانه لا يحيد عنه ، منفصلٌ عن رفاقه الروس والصينيين بمسافة تتعاظم باستمرار ، وان الخلاص ، اذا ما جاء قط ، فسيجيء من الخارج . وسوف اعود الى هذا الموضوع ، لكن لنتذكر من الآن ، اذا كنا نريد ان نفهمه ، ما كنا نشعر به في ظل الاحتلال ، حين كنا ننتظر ان يربح الحلفاء بالنيابة عنا

حرباً لم نكن نملك الوسائل لربحها معهم[1] . وهكذا تسمح الاستراتيجية المالتوسية لأرباب العمل بالمحافظة على المبادهة : فالاقتصاد الانحطاطي يتحكم من الخارج بالممارسة العمالية ، ويرسم لها على نحو اجوف عملياتها الممكنة ، ويحدد صفاتها ، ويحد من مداها ودلالتها . وهو الذي يبرر أخيراً الغايات واحتمالات النصر . وما ان يلتزم الشغيل بهذا العمل « المفبرك » سلفاً ، حتى يطبق عليه كاشه : فيجد نفسه حبيساً في نطاق مصطنع يفرض عليه طرقه ومساره وآفاقه . وعلى هذا فإن فتور همة البروليتاريا هو نتاج للانتاج الصناعي الدون . انه يعبر ذاتياً عن الحدود الموضوعية التي تفرضها بنية الاقتصاد على الممارسة .

٣ – المالتوسية إذن تريد أن تتمكن من العامل عن طريق إثارة قرفه . لكن هذا غير كافٍ أيضاً : إذ ينبغي ان تفرق حتى تسود .

لقد بيّن مارشال ان عدد الاضرابات ، بين ١٨٩٠ و ١٩٣٦ ، يزيد او ينقص مع زيادة الانتاج ونقصانه . لكنه كان أول من كشف النقاب عن الاستثناء الجدير بالاهتمام : فبدءاً من عام ١٩٢٠ انخفض عدد الاضرابات ونسبة نجاحها انخفاضاً ملحوظاً . لكن اقتصادنا ظل حتى عام ١٩٢٩ في حالة ازدهار . وهذه الواقعة تفسر بالانشقاقات العمالية وهذا ليس بالتفسير الخاطىء . لكن هذه الانشقاقات ، من أين جاءت ؟ سيقال لي : آه ! من الحرب ، من الخيانة الاشتراكية ، من الثورة الروسية ، من كل شيء باستثناء المالتوسية التي لم تكن قد وضعت موضع تنفيذ حين ظهرت تلك الانشقاقات . هذا صحيح : فتعدد الاتحادات النقابية سابق في التاريخ على الجمود الصناعي ، ولقد وجد مالتاسيونا البروليتاريا مقسومة الى قسمين . لكن من يثبت لنا انهم لم يستغلوا هذه الفرصة

---

١ – كان هناك ، بالتأكيد ، المقاومون ، ولا اظن احداً يتصور انني اقلل من اهمية عملهم . وكانت هناك ايضاً مقاومة الجماهير السالبة اللامنظورة : وهذه كلها امور تؤخذ بعين الاعتبار . وهناك اليوم الحزب الشيوعي ومناضلو النقابات . وهناك وزن الجماهير الضخم والعمل الذي تمارسه من بعد ، حتى لو كانت هامدة ، على مختلف الأوساط الاجتماعية . لكن للمقاومة ولدت من هزيمتنا العسكرية . والمنظمات الحالية للبروليتاريا تستمد صفاتها الرئيسية من الجزر العمالي فكبير التي بدأ مع المالتوسية .

الى أقصى الحدود ولم يخلدوا حالة مؤقتة بمرقلتهم الانتاج ؟

ان البروليتاريا المتسلسلة هرمياً في الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى هي نتاج الآلة البخارية . نقد حلت هذه الآلة محل العضلة ، لكنها لم تكن قد حلت بعد محل المهارة . كانت ما تزال بعد في حالة تبعية : كان لا بد من رعايتها وتنظيمها وتوجيهها ومراقبتها . ان المخرط المتوازي يغني العامل عن تحريك أداته وعن وضعها على القطعة المطلوب قصها : لكن يبقى عليه ان يعد العدة للعملية ، ان يثبت وضع القطعة ، وزوايا القطع ، والسرعات ، الخ . والمخرط ، بنواقصه بالذات ، يحدد الخرائط : فهناك وجوه خاصة تعجز الآلة عن قصها ولا يمكن الحصول عليها إلا بالعمل اليدوي المنجز بواسطة أدوات مساعدة . إذن فالعملية ، وبالتالي العامل ، يحافظان جزئياً على الصفة اليدوية . والانسان الذي تتطلبه الآلة إنما يصنعه المجتمع : فهو يوفر له المعرفة الحرفية والخبرة الفنية عن طريق تدرب يمتد عدة سنوات . ثم تصطفي المزاحمة الأخيار : أي أولئك الذين يدللون على البراعة والدقة والمهارة الجسمية والمبادهة . لكن تكوين عامل مختص يكلف غالياً : وفي نظام الرأسمالية الليبيرالية يقع على عاتق الأهل القسم الأكبر من التكاليف . والفلاحون الذين يهجرون أرضهم وأبناء العمال غير المختصين لا يملكون ، في غالبيتهم ، لا الوسائل ولا الرغبة في التدرب[1] .

وهكذا فإن متطلبات الآلة تفرض حتى نمط العمال الواجب تجنيدهم لها : فالعمال المحترفون هم ابناء عمال محترفين أو أبناء صناع . وهذه الأرستقراطية تشتمل على بعض حديثي النعمة ، لكن الدخول اليها لا يكون بالدرجة الأولى إلا عن طريق حق الولادة . يقيناً ، إن العامل المصطفى مستغل شأن سائر رفاقه : لكنه يختلف عنهم لأن كفاءته تسمّيه وحده لتسيير آلة من الآلات . اذن فهو المنتج من حيث التعريف . ولما كان عاملاً رئيسياً في عملية تحويل المادة

١ – اظهر جورج ناقيل في « اعمال » للصاحب لتي كان ما يزال يلاقيها حوالي عام ١٩٢٠ ابن العامل غير المختص ليصبح محترفاً. فقد اضطر هو واثنان من أخوته الى اللجوء الى الغش حتى يصبحوا عمالاً محترفين من غير ان يمروا بمرحلة التدرب .

الى نتاج مصنوع وشاهداً رئيسياً عليها ، فإنه يعي ذاته من خلال إنشاء الشيء الجامد . والتدرب يمثل بالنسبة اليه شيئاً اهم بكثير من مجرد تكوين فني : فهو يرى فيه زيادة ثورية وطقساً انتقالياً يفتح له منفذاً الى طائفته والى العالم العمالي.

والآلة هي التي تضمن أيضاً وحدة زمرة العمل ، أو تضمنها بالأحرى العملية المعقدة والتركيبية التي ينفذها المهني بواسطة الآلة وبمساعدة شغيلة آخرين. وفي مطلع القرن كان المعمل الميكانيكي الذي يعمل فيه فرضاً مئة عامل ، يضم عشرين « ميكانيكيا » اجتازوا فترة السنوات الاربع من التدرب ، ويقفون جهدهم على التركيب الميكانيكي ، وستين خراطاً وثقاباً وفرّاضاً ، وكلهم من العمال الماهرين الاكفاء لكنهم بعيدون عن التمتع بما يتمتع به الأوائل من خبرة وتكوين ، وأخيراً عشرين عاملاً غير مختص يعيشون بعيداً عن الآلات ولا يشاركون البتة في صنع النطع . والميكانيكي يوجه آلته ورجاله في آن واحد : فهو يسمي العمال انصاف المختصين « مساعديه » و « يشغلهم » في عدة أعمال لحسابه . والعمال غير المختصين أيضاً يخضعون له : وهو يعهد اليهم بالأعمال الحقيرة. وهذا التسلسل التكنيكي مدعوم بتسلسل الأجور ، فالمحترف يكسب سبعة فرنكات عندما يكسب غير المختص أربعة فقط . وفي ذلك العصر كان اسم « الجماهير » قد بدأ يطلق على الطبقة العاملة ولم يكن ذلك صحيحاً : فالجماهير متجانسة وعديمة الشكل في حين ان بروليتاريا ١٩٠٠ كانت عميقة التمايز ، وكان تسلسل العمل والأجور ينعكس بتمامه على الصعيد الاجتماعي والسياسي . ان تجمع العمال غير المختصين انفسهم لا يمكن ان يكفي لتكوين « الجماهير » ، وانما من قبيل التجريد يُفصلون عن سائر العمال ، إذ ان كل واحد منهم مرتبط برفاقه في الورشة أكثر من ارتباطه بسائر العمال غير المختصين في المصنع وفي المدينة . والحق ان الطبقة العاملة مؤلفة من عدد وفير من الانظمة الشمسية التي هي عبارة عن مجموعات متلاحمة البنية تدور حول آلة . وفرق العمل هذه تتصل فيما بينها من فوق : إذ ان شكل الجهاز النقابي محدد بتكوين الطبقة العاملة ، وفي عام ١٩١٢ كانت فرنسا تضم أكثر من ستة ملايين عامل يدوي ولم يكن الاتحاد

العام للشغل يضم أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ منتسب . ومع ذلـــك كانت الاضرابات تقاد بصرامة، وهمة، وانضباط، ولقد رأينا انها كانت تنجح في غالب الاحيان، وهذا يعني ان مناضلاً واحداً يكفي بشكل عام ليجر خلفه خمسة عشر عاملاً من غير المنتمين الى النقابة . وفي النضال المطالب يحتفظ المختصون بالهيبة التي يتمتعون بها اثناء العمل . ليس جميعهم بالطبع ، باعتبار انهم ينتسبون الى النقابة بنسبة واحد الى ثلاثة : انما على وجه التحديد أخيارهم ، ممن كانت لهم الشجاعة على ان يثقفوا انفسهم ثقافة عامة وممن يجمعون بين الارادة الثورية وبين أصفى وعي للشرط العمالي . اذن فمع الآلة البخارية تتجاوب بروليتاريا متسلسلة تنتج بدورها نقابية تتوجه الى اطارات ، ولتتخذ من الورشة قاعدة لها ، ومن المصنع ميداناً للحرب ، ومن العامل المصطفى مناضلاً .

ويبدو أنه كان زماناً جميلاً: فأرواحنا المرهفة قد اكتشفت النقابية الثورية ، بعد ربع قرن من موتها ، وهي لا تكف عن إشهارها في وجهنا كمثال يحتذى : ففي عصر مؤتمر اميان الذهبي لم يكن للبيروقراطية وجود ، وكان الجهاز النقابي ينبثق مباشرة عن البروليتاريا ، ويظل مقيماً فيها كمجرد مبدأ باطني للتنظيم ، وكان العمال يتولون بأنفسهم حماية المصالح العمالية ، وكانوا يناضلون بدون أن يتركوا الورشة ، وبالتالي بدون أن ينقطعوا عن الاحتكاك بمشكلات المصنع العينية . والواقع ان قيادة أركان الاتحاد العام للشغل البرغسونية كانت تحمل من نفسها بطلة العفوية : فتارة كان بيللوتييه يتغنى بـ « رابطة سرية » تجمع بين النخليات العمالية وطوراً كان غريفيوله يمجد « العمل العفوي والخلاق » للنقابية الفرنسية . وخلاصة القول ان الأنا النقابية كانت تغرس جذورها في أنا البروليتاريا العميقة . وكان الصراع الطبقي ، قبل الحرب العالمية الأولى ، له طابع لا أدري ما هو .

وبالطبع كانت هذه اقوالاً لا طائل تحتها : إذ ان الاندفاع الحيوي للطبقات الشغيلة كان يخفي وراءه دكتاتورية النخبة المحترفة . وكانت « الاقلية الفاعلة » تحتقر ما سمته بـ « الجمهور » ، وتمقت الديموقراطية . يقول لاغارديل :

« ليس الجمهور الثقيل والمتخلف هو الذي سيبدي رأيه هنا ، كما في الديموقراطية، قبل الشروع بالنضال . وما عاد العدد هو الذي يصنع القانون . لكن ثمة نخبة فاعلة تتكون ، تجر بفضل نوعيتها الجمهور خلفها ، وتوجهه في دروب المعركة ».
وهذا معناه بعبارة اخرى : ان الفئة « العليا » من البروليتاريا تأخذ على عاتقها العمل لتحقيق مطالبها الخاصة ومطالب الفئات « الأقل حظاً » . وهذه النخبة تزعم انها وحدها المؤهلة لإدراك خير الجميع ولا تسعى الى فهم المقاومات الشعبية بقدر سعيها إلى تحطيمها . ولن اكون ظالماً فأقول إن هؤلاء المصارعين المدهشين قد خانوا طبقتهم : فهم إذا كانوا قد ارتابوا في رفاقهم فذلك لأنهم كانوا يشكون في انهم مسيرون كالغنم اكثر منهم ثوريين . ولهذا كان همهم الدائب ان يوفقوا مصالحهم مع مصالح غير المختصين، ومثل هذا التوفيق لم يكن بالغ الصعوبة، في البداية على الأقل ، في بلد مزدهر يشق طريقه الى التصنيع . لكنه ازداد صعوبة وندرة في الاعوام الأخيرة من فترة ما قبل الحرب . فللنضال العمالي وجهان : فهو بالنسبة الى الاقلية الفاعلة تجربة عملية واداة تحرر ، اما بالنسبة الى الغالبية التي تسير في ركاب الأقلية فيظل في غالب الاحيان آمراً مجرداً . وحين يجر المناضلون العمالَ غير المختصين الى عمل « مطالب » يمكننا ان نقول ، مع ارواحنا المرهفة ، ان الطبقة العاملة قد اتحدت في العمل وان وحدتها تظل عابثة وملازمة لها . اما في الواقع فقد كانوا يجدون أنفسهم مضطرين اكثر فأكثر الى النضال على جبهتين : ضد رفاقهم وضد أرباب المصنع . لكننا نجد مع ذلك في القمة قبضة من المناضلين يتمتعون بنظرة ارحب واشمل ، ويسمون انفسهم باعتداد « اقلية فاعلة » : لقد اتخذوا هدفاً لهم حماية المصالح العامة للطبقة ضد خصوصية النخبة . لكن هذه الاقلية تسير في عكس التيار عندما تحاول ان تهدي المحترفين والمختصين وتردهم الى نقابية الصناعة وإلى التمركز . ذلك ان الارستقراطية العمالية تظل محبذة لـ « الادارة الفوضوية » ولنقابية الحرفة . ولقد كان من هم على شاكلة بيللوتيه وبوجيه وميرهايم وموناتي سيخسرون المعركة لولا تحول الصناعة المفاجىء .

في عام ١٨٨٤ ظهرت أولى المحولات العملية . وبعد عشرة أعوام بات المحرك الكهربائي يزاحم في كل مكان الآلة الحرارية ويتيح المجال أمام انتشار المكننة : وهكذا أدى التقدم التكنيكي الى تقليل حصة العامل في الصناعة شيئاً فشيئاً ، الأمر الذي أدى بدوره الى تدهور العمل اليدوي تدريجياً . ان المخرط الجديد ينتج الخراطين الجدد : فهو لا يحتاج إلا الى تدخل طفيف من طرف العامل ينتقل من تلقاء نفسه إلى آليات التنفيذ . وعلى حين غرة ، وبين العمال المياومين والعمال إنصاف المحترفين ، تم اكتشاف ذلك المجهول ، العامل نصف المختص الذي يستلم الآلات كما لو أنه محترف والذي يؤدي عمله بلا تدريب[1] كعامل مياوم . والواقع انه كان موجوداً من قبل لكن لم يلحظه أحد : فمن أين أتى ؟ من كل مكان : فهو أحياناً قروي وصل لتوه الى المدينة ، وهو في غالب الأحيان عامل مياوم سابق في صناعة أخرى . ومنذ ١٩٠٠ ، في سانت – إتيين ، وفي بعض ورشات « معمل الأسلحة » ، كان يحدث « ان يوجد ٥٠ ميكانيكياً بين ٢٥٠ عاملاً ، وكان هؤلاء العمال يعملون سابقاً في المناجم او في الحياكة[2] ، وكانت بين أيديهم آلات متقنة تغني عن المعرفة المهنية[3] » . وكان هؤلاء القادمون الجدد ما يزالون يشعرون بالوجل والتهيب : فهم لا يملكون لا الوقت ولا الإرادة ولا القوة لتنظيم أنفسهم بمفردهم . إنما طلبوا من النخبة المحترفة والمناضلة مساعدتها . ففي ١٩١٢ ، وفي مؤتمر الحافر الاتحادي ، نسب ميرهايم الكلام التالي لأحد عمال تطريق المعادن في منطقة الإيست : « كيف تريدوننا ، نحن عمال التطريق المساكين الذين يعودون الى بيوتهم مساء منهكين ، أن نهتم بالنقابة ؟ وأولئك الذين يمكنهم ان يهتموا بها ، أقصد العمال التكنيكيين ، قد أنشأوا نقابات حرفة » .

إن مطالبهم ، كما نرى ، متواضعة : واذا كانوا قد طالبوا بحق الانتساب الى

---

١ – أو بعد تدريب قصير الأمد للغاية .

٢ – كانت المكننة متقدمة جداً منذ ذلك الحين في صناعة النسيج . والحياكة هم عمال الصناف مختصين انتقلوا من العمل في آلة الى آلة أخرى .

٣ – نقلاً عن كولينه : « روح النقابية » – ٢٤ .

المنظمات النقابيـــة ، إلا انهم كانوا عازمين عزمـــا اكيداً على تقويض النخبة بصلاحياتهم بأسرع مـا يمكن . لكن النخبة لم تأبه بهم : انمـــا وقفت تدافع بشراسة عن النقابية الارستقراطية وتحميها من القادمين الجدد . ولقد آثر اتحاد الميكانيكيين في عـام ١٩١٠ ان يترك الاتحاد العـــام للشغل على الاندماج بعمال التعدين والسبك لتكوين اتحاد صناعة . وفي عام ١٩٠٠ نجد ٥١ نقابـــة صناعة مقابل ٣٤ نقابة حرفة ، وفي عام ١٩١١ نجد ١٤٢ مقابل ١١٤ : اذن فالنسبة لم تتغير . وأثناء ذلك ، تُرك العامل نصف المختص يواجه بلا تجربة نقابية وبـــلا ثقافة سياسية دعاية أرباب العمل واضطهادهم. وسوف استعرض السمات الرئيسية لهذا البروليتاري الجديد ، الذي ولدته على حين فجأة الآلات الحديثة وتقنيات التنظيم[1] .

إن ايقاع عمله ، المحدد في المكاتب بدلالة مختلف العمليات التي يجري تنفيذها في الحين نفسه في المشروع ، يُفرض عليه كقوة عدوة ويسوسه من الخارج . ولا يعود تعبه الى ما ينفقه من قوة عضلية بقدر ما يعود الى توتر عصبي مستمر والى جهد دائب للتلاؤم مع الشروط المحددة سلفاً . وعندما يأفل النهار ، يكون هذا التعب قد التصق بجلده ، ويرافقه حتى في سباته ، ثم في يقظته . وهـذا الكلل المزمن يصبح طبيعة ثانية والكيفية التي يشعر بها بجسمه . انه منقوش في وجهه ، في مشيته ، يحـد من قدراته ، ويجعل منـــه ، بالمعنى الحقيقي للكلمة، انساناً ناقصاً .

وخطة العمل تؤدي الى تدهور قيمة المعرفة . فأرباب العمل لا يحبّون ان يتثقف العامل، ولا ان يكون بخاصة ذكياً : فالذكاء يضر بالمردود باعتبـار ان العامل نصف المختص والآلة يحققان فيما بينهما اتحاداً شديد التماسك لا مفر معـه من تشبيه التفكير عند الأول بعطب وتلف في الثانية . بيـــد ان الغفلة الكاملة مستحيلة : فالتهرب والنسيان لا يقلان ضرراً عن الفكر الصاحي . اذن فعلى

---

١ – بديهي اننا لا نهدف هنا الى اجراء محاكمة الآلية البدائية ، فهذا امر لا طائل تحته، انما نريد أن نبين آثار هذه الآلية البدائية في اطار الانتاج الرأسمالي .

العامل ان يكون حاضراً ، ان يكون احتراماً بلا مضمون ، وعبداً أسيراً لا يحافظ على يقظته إلا ليحذف نفسه على نحو أفضل. لكن اذا كان العامل يكنس رأسه من فكره ، فهذا ليفسح فيه مكاناً لفكر الآخرين : فمنذ ان كرس التقنين الطلاق بين التصور والتنفيذ ، والعامل يجهل معنى أفعاله . فهي تُسرق منه ، وتُشرط من الخارج ، ويُبت في هدفها ومداها بالنيابة عنه . وفي الوقت الذي يجعل فيه من نفسه فاعل الانتاج ، يحس بأنه منفعل . وفي اعمق اعماق ذاتيته ، يشعر بأنه موضوع . انه يبذل قصارى جهده ، هو المتواطىء بغير ارادته مع رب العمل ، لينسى القليل الذي تعلمه لأن المعرفة قد ترجع اليه شرطه الذي لا يطاق . ويلتجيء الى السلبية لأنه حرم من كل مبادهة . وطالما انه يجرد من فكره ، فكيف يمكنه ان يعرف ان الافكار هي من نتاج الانسان ؟ وهو بالتالي يعوّد نفسه الى ان يرى في النظام الذي وطده التكنيكيون قدراً خارجياً هو أول ضحاياه . والتاريخ الاجتماعي للتقنين يتلخص في صيغتين . ففي نهاية القرن الماضي كان تايلور يقول للعمال : « لا تحاولوا ان تفكروا ، فسيتولى آخرون ذلك بالنيابة عنكم » . وبعد ثلاثين عاماً كان فورد يقول عن العمال : « انهم لا يجيدون ان يفكروا بالاصالة عن انفسهم » .

ان مكننة العمل تشوه العلاقات الانسانية . فقبل ١٩١٤ كانت البروليتاريا عبارة عن ثريا[١] : ولم تكن هذه البنية الارستقراطية تستبعد لا التضامن ولا ترابطاً بين انسان وانسان يشبه على نحو مبهم تبعية الاقطاعي الصغير للأمير . لكن تضامن العمل لم يعد قائماً بين العامل نصف المختص وبين « النخبة » . فقد كان المحترف يحدد للبارم مهمته . اما مهمة العامل نصف المختص فإنها تحدد من قبل رجل المكاتب . انه يحددها من بعيد وللجميع ، من غير ان يرى انساناً البتة : إن العامل نصف المختص ليس له من صلة اليوم إلا بأمثاله من العمال غير المختصين . وعلاوة على ذلك فإن الآلة تضع بينهم صلابتها : فكل واحد منهم

---

١ ـ معلوم ان الثريا هي مجموعة نجوم متجاورة ومنفصلة عن بعضها بعضاً بمسافات ثابتة ، وتشكل شكلاً يسمى بالنجم . [illegible]

يدرك وجود جيرانه تحت شكل ايقاع جماعي عليه ان يتلاءم معه . والآخر يظهر مع التأخرات أو الاخطاء أو الاختلالات : ان الشخص في العالم الميكانيكي غلطة تؤدي الى نقص في الربح . والآلة تصف الآلية هي خير اداة لتنفيذ عملية التحويل الى كتـلة : فهي تتفجر بنى البروليتاريا الباطنية ، ولا تبقي إلا على جزئيات متجانسة منفصلة عن بعضها بعضاً بوسط هامد عادم المرونة .

إن العمل المجزأ ، بعزله العامل نصف المختص عن رفاقه ، انمـا يرجعه الى ذاته . لكن هذا العامل لا يجد في ذاته غير ماهية عامة وشكلية : فمـا يفعله يستطيع كل إنسان ان يفعله ، اذن فهو كسائر الجميع ، ومـا واقعه الشخصي غير سراب . بيد ان ثمة حاجات آمرة ملحة تعود بـه الى ذاتية الرغبة والآلم الخالصة : فالجوع والوجع والتعب تدفع به الى تفضيل ذاته لكن من غير ان يبررها . لمَ انت لا انا ؟ — لأنني أنا — ومن انت ؟ — أنا كانت . ان الذاتية غير القابلة للتبرير تدخل في نزاع مع قابلية الاستبدال الموضوعية . وينجم عن هـذا النزاع على الصعيد الفردي شعور عميق بالنقص والدونية . وعلى الصعيد الجماعي يولي زمان الاشكال الكلاسيكية للنضال المطالب : فظهور اولئـك الشغيلة غير المتمتعين بقيمة مهنية ، والقابلين للاستبدال بغيرهم ، والمتسلط عليهم خوف البطالة ، يهدد بأن يجعل الاضرابات معدومة الفعالية .

وبالفعل ان الشيء المحسوس في البداية ليس هو ارتقاء عامل مجهول بقدر ما هو تصفية العمال القدامى . فالميكانيكيون الذين ألقت بهم أزمة ١٩٠٧ على القارعة لن يدمجوا من جديد . وفي عـام ١٩١٣ ، أثناء اضراب مصانـع رينو ، صمد انصاف المختصين زمناً اطول من الآخرين ، فقد كانوا يعرفون انهم غـير قابلين للاستبدال بغيرهم وأن رب العمل لا بد أن يسلم في النهاية . ولم يسلم رب العمل : بل استبدلهم بآلات وبعمال غير مختصين بالمرة . ووضح للجميع أن زمن العامـل المحترف قد ولى . بيد ان العمال انصاف المختصين ظلوا يتكاثرون بينما بقيت النقابية تحيا حياة شبه خامـدة ، خائرة المعنويات ، محرومة من سلاحها الرئيسي . ولم يعد لدى المناضلين القدامى ما يأولونه لهؤلاء الرجال الجدد المفتقرين الى التقاليد

والى الماضي . ثم على حين غرة ، في آب ١٩١٤ ، فتحت الحرب عيون النقابيين: فاكتشفوا الجماهير . ولقد كانت المفاجأة مؤلمة حين رأوا هذه الجماهير تخرج من الارض صائحة : « إلى برلين ! » . أعشرون عاماً من الدعاية للوصول في النهاية الى سورة الجنون هذه ؟ ويتساءل مناضل : « ما بقي من عملنا ؟ مـا بقي من مهرجاناتنا ضد الحرب ؟ » . يقول آخر : « في قاطرة لشحن الحيوانات ، ومع رجال آخرين يصرخون « الى برلين » ، احسست بإفلاس الاتحاد العام للشغل ، بإفلاس المرتبين ، بإفلاس البلاد الفكري » . ويقول ميرهايم : « كانت الطبقة العاملة قد حركتها موجة هائلة من النزعة القومية » . ويقول موناث : « لقد مرت الموجة وحملتنا معها » . كانت الجماهير ، المجهولة ثم المكتشفة على حـين غرة ، تتطلب إنشاء نقابيـة جماهيرية ، وحزب جماهيري ، ودعاية وايديولوجيـة جديدتين . واكتشفت النقابية الثورية ، العاجزة عن إداء هذه المهام ، اكتشفت على حين فجأة انها قد أصبحت بالية ! وسقط الجهاز القديم للطبقة العاملة خارج الحركة ، وباغتت الحرب القادة بدون جماهير ، والجماهير بدون حماية . ولم يكن بعد في وسع تلك الجموع الفتيـة ، ضحايا الطلاق الذي يفصل نشاطها المنتج عن المضمون الواقعي لرجائها ، ان تكون بالنسبة الى ذاتها ما هي في ذاتها : فنزعتها الجذرية وعدم استقرارها وهيجانها الذي سرعان ما تلاه فتور الهمة ، تعبر بكل بساطة عن واقـع ان الشرط العمالي الجديد لا يطاق . وسوف تخدع اسطورة الحرب الأخاذة لبعض الوقت صبواتهـا الثورية وسوف تجعلها تعمي للعنف الكامن فيها : لكن هذا الوعي ظل اسيراً ، مستلباً .

وانما من الحرب ايضا سيأتي بطلان مفعول الأساطير والأضاليل . من الحرب لا من ظروف الانتاج . وليسوا هم القادة النقابيين الذين سيمزقون الصورة الوهمية التي تملكها الجماهير عن ذاتها، انما ستتمزق هذه الصورة في معارك لاسرم وفردون . كتب دومولان : « حين انضممت اليهم في فردون ، كانوا حاقدين على الجميع : على الصحفيين ، على النواب ، على الاشتراكيين ، على الباريسيين ، على رجـال الدرك ، على القابعين في المؤخرة . وكان أقوى وأوضح شعور سائـد بينهم هو

الشعور بحشو الدماغ وبالكذب والمبالغة والخطأ » .

وحين عادت الجماهير عام ١٩١٩ ، سكرى بالغضب والريبة، كانت ثائرة. وفي كل مكان من اوروبا تقريبــاً سيصبح نشوب الثورة منوطاً بالتقــاء الجنود والعمال . وفي فرنسا انضم مليونان من الجنود المسرحين الى ثلاثة أو اربعة ملايين عامل يعملون في المصانع . وكان هذا امتزاجاً انفجارياً مترجرجاً : فتضخمت اطارات الاتحاد العام للشغل بمناضلين جــدد . ويبدو ان الثورة كانت ممكنة والبورجوازية مستعدة « للقبول بأثقل التضحيات لصالح البروليتاريا » . لكن اضراب حزيران١٩١٩ أثبت ان الجماهير لم تكن مستعدة. ومن أين كان سيأتيها الاستعداد ؟ ومن ذا الذي أعدهــا وهيأهــا ؟ في ٢ حزيران ترك عمال التعدين الباريسيون العمل . وامتد الاضراب الى ثــلاث نقابات في سين - اي - واز ، وبلغ عدد المضربين ١٣٠،٠٠٠ ، وعدد الهويات النقابية الموزعــة ٨٠،٠٠٠ . اضراب نصف سياسي ، نصف مهني : فهناك مطالب لكن هنــاك ايضاً « قلق كبير ... فكرة عامة تهم البروليتاريا قاطبة » . وقــد وجهت الاضراب في البداية « لجنة تفاهم » ، وهي منظمة نقابية أنشئت لتوجيه الاضراب . لكن جمهور النقابيين الجدد الكبير - اكثر من نصف المضربين - كان يرتاب في جميع المندوبين ، فغزا أمكنــة الاجتماعات النقابية ، واتهم ممثليــه بأنهم مباعون ، وانتخب في النهاية لجنة عمل زعمت انها ستحل محل لجنة التفاهم . ولمــا وجدت لجنة التفاهم ان الأمر أسقط في يدها ، تخلت عن سلطتها لاتحاد المعادن الذي أخذ الاضراب على عاتقه . وقد اجتاحت لجنة العمل في ٢٢ حزيران مكاتب الاتحاد ، وطالبت بحضور الجلسات ، ووصفت القادة بأنهم غير بارعيــن إلا في « حشو الأدمغة » . بيد ان الاتحاد كان يريد الاضراب العـــام . فدعا الى انعقاد هيئة الاتحــــاد المهني . ورفضت الهيئة توسيع النزاع لكنها نصحت المضربيـــن بألا يستأنفوا العمل قبل الحصول على ضمانات . والحال أن لجنة العمل بالذات كانت قد أصدرت أوامرها منذ ٢٦ حزيران بإنهاء الاضراب، نظراً الى شعورهــا بفتور العزائم حتى قبل أن يتخذ الاتحاد المهني قراره . وكان الفشل تاماً شاملاً . وعاد

العمال الى الآلات من دون أن يحصلوا على شيء . والواقع أن الجماهير وجدت نفسها مشتبكة مع بيروقراطية ثبطت من عزيمتها بطرائقها الحذرة وتوقعاتها البعيدة المدى ، واتتخبت لجنة أضر طيشها وعدم كفاءتها بحزمها وهيبتها . لقد كان هذا الحدث بمثابة دليل وإشارة : فالجماهير ، التي هي نتاج حديث لانتشار استخدام الآلة ، كانت بحاجة الى قيادة والى انضباط متلائمين مع بنيتها الأساسية ، وكانت تنكر النقابيين الذين انكروها قبل الحرب ، وما كانت تقبل بأن تسلم مقاليدها إلا لسلطة حديدية تكافح بلا كلل اللاتوازن الدائم في التشكيلات الجماهيرية . وأين كان يمكن ايجاد سلطة كهذه في ١٩١٩ ؟ كان قادة « الشعبة الفرنسية من الاممية العمالية » و « الاتحاد العام للشغل » يتهمون أنفسهم ، او يبررونها ، او يقرّون بأخطائهم . وما كانوا يتفقون إلا على ادانة القادمين الجدد. وقد قدم لهم إضراب حزيران « حيثيات » جديدة لدعم الحكم الصادر عنهم : فأحدهم يتكلم عن « لجنة العصيان وعدم الانضباط » ، ويشكو آخر من أن « غرائز جمهور الشارع الذي يصرخ ويسحل قد انتقلت الى اجتماعاتنا » ... ويتحدث ثالث عن الألم الكبير الذي أحس به لأنه « لاقى في فرنسا موقفاً ثورياً بدون روح ثورية لدى الجماهير » . وسيقول بلوم في عام ١٩٢١ : « ونحن نعرف ما هي الجماهير غير المنظمة ... نعرف وراء من تسير اليوم ووراء من ستسير في الغد ... ومن سار وراءكم بالأمس قد يكون في الغد أول من سيهاجمكم ... ان الثورة لن تصنع مع هذه العصابات التي تجري وراء جميع الحلول » .

ومع ذلك ، كان لا بد من التخلي عن صنعها او صنعها مع « تلك العصابات » . اما عن عدم تنظيمها فلم يكن ثمة مجال للشك في ذلك ، لكن كان هذا محض دليل على انها بحاجة إلى تنظيم . ومن سوء الحظ انها ما كانت تستطيع ان تخلق هذا التنظيم من تلقاء نفسها نظراً الى عدم وعيها حاجاتها . ترى ألم يكن للطبقة العاملة ، الممزقة بين ارستقراطية مختصرة وجمهور يستهلك طاقته على التمرد في الفوضى ، من حل آخر غير العجز والتسليم ؟

كلا : فهذه التمزقات كانت تبدو مؤقتة . ولم يكن هناك بد من تطور

الموقف : يقيناً ، إن التنظيم لن ينبثق على حين غرة من فوضوية الجماهير لكن صغار السن من مناضلي « الاتحاد العام للشغل » و « الشعبة الفرنسية من الاممية العمالية » كانوا قد بدأوا يتقربون من المعارضة الاشتراكية . ذلك ان التجارب التي اكتسبوها من الحرب قد قادتهم جميعاً الى ادانة الاممية الثالثة ، فقرروا ان يضعوا انفسهم في خدمة الجماهير وأن يقدموا اليها الجهاز الذي هي بحاجة اليه .

ثم كان كل شيء يدفع إلى الافتراض بأن حركة التمركز ستستمر وستنجز تصفية الارستقراطية العمالية . وحتى يقتنع المرء بأن العمال انصاف المختصين لا بد ان يكونوا في النهاية الغالبية الساحقة من البروليتاريا ، كان يكفي ، في حوالي ١٩٢٥ ، ان يلقي نظرة خاطفة على الاحصائيات المقدمة من مؤسسات فورد [١] : ففي هذه المؤسسات كان عامل واحد فقط من اصل مئة يستحق اسم « محترف » ، وكان كل ثمانية عمال من أصل عشرة عمالاً انصاف مختصين . وكان من الممكن لهذا الانحطاط العادم الشفقة ان يبعث على الاشمئزاز : فهو قد نزل بمرتبة مناضلي النقابية الثورية المعتدّين بأنفسهم الى مستوى أولئك البشر الدون الذي يتكلم عنهم ماركس. لكنه استبعد من جهة ثانية العامل غير المختص، واعاد على الأخص الى الحركة العمالية قوتها . وحين ستجد هذه « النيو بروليتاريا » البالغة التجانس إطاراتها وصيغة للكفاح ، فسيصبح انسجامها أقوى منه في اي وقت سبق ، ولن تعود الوحدة العمالية مجرد كلمة تقال .

* * *

---

١ - نسبة الشغيلة	٤٣٪	٣٦٪	٦٪	١٤٪	١٪
مدة تكوينهم لدى فورد	يوم واحد لا أكثر	من يوم الى ثمانية أيام	من اسبوع الى اسبوعين	من شهر الى عام	حتى ستة اعوام

وهذا الجدول مأخوذ عن يوليوس هيرش : « المعجزة الاقتصادية الاميركية » ، نقلاً عن فريدمان : « المشكلات الانسانية للآلية الصناعية » .

لكن هذه الافتراضات لم تحسب حساب مالتوسيينا . نهم بإيقافهم حركة التمركز ، أرجأوا التوحيد إلى أجل غير مسمى. فالصناعة الكبيرة لا تستوعب أكثر من ٤٥٪ من الشغيلة ، والباقي يتوزع بين ٥٠٠,٠٠٠ مشروع . وبالطبع ليست أهم المؤسسات هي دوماً خيرها تجهيزاً : ففي صناعة السيارات يفوق قطاع البناء تمركزاً ويقل آلية عن قطاع السيارات . كما أن المشروع المتوسط لا يملك الوسائل لاستخدام الآلية استخداماً مكثفاً . والمشروع الصغير ما يزال بعد في مرحلة يدوية . وبين ٣,٦٧٧,٠٠٠ عامل في صناعة التحويل عام ١٩٤٨، نجد ١,٢٠٦,٠٠٠ عامل مختص ، و ١,٣٢٠,٠٠٠ عامل نصف مختص ، و ١,٠٥١,٠٠٠ عامل غير مختص . والصنفان الأولان يتعادلان تقريباً[1] . أما الصنف الثالث فكبير التشعب : ففي مؤسسة و الكتاب والبناء ، حيث يتفوق المختصون عددياً ، بقيت البنية القديمة البالية للبروليتاريا على حالها : فالعامل غير المختص يعمل تحت أوامرهم . وأما في صناعة الحديد والفولاذ والنسيج ، فإن الغلبة هي للعامل نصف المختص ، بينما ينفصل المختصون عن الانتاج المباشر ويشكلون فرقاً للصيانة وللإشراف على الآلات لا يعود لها أي تماس بسائر العمال[2] : وعندها يشكل العمال انصاف المختصين وغير المختصين كتلة شبه متجانسة ولا سيما انه تكفي بضع ساعات او بضعة أيام لاستبدال أولئك بهؤلاء . ولا ينبغي ان نعتقد أن هذا الانقلاب يوفر للبروليتاريا تجربة جديدة : وإلى ازدواجية الذات التاريخية : فالطبقة العاملة مهددة — وما أعظم فرصة أرباب العمل بذلك — بأن تظل منقسمة الى قسمين شبه متساويين ، ليست لها بنى واحدة ولا قيم واحدة ولا مصالح واحدة ولا تقنيات واحدة في التنظيم والكفاح .

أ — ثنائية القيم

بنى العامل المختص مطالبه دوماً على اختصاص عمله ونوعيته . فالمنتج

---

١ - ٣٥٠٠,٥٪ مقابل ٣,٢٠٩٪ .
٢ - أمكنة الانتاج تقع في غالب الأحيان على بعد عدة كيلومترات عن أمكنة الآلات .

الحقيقي ، المصدر الأوحد لكل ثروة إنما هو . وهو الذي يحول المواد الخام الى خيرات اجتماعية . وفكرة الاضراب العام ، التي تتمتع بشعبية كبيرة قبل ١٩١٤، قد ولدت من وعي الذات المتكبر هذا: فللإطاحة بالمجتمع البورجوازي، يكفي العامل ان يصلب ذراعيه . وإذا كان هذا العامل يطالب بملكية أدوات عمله فهذا لأنه وحده القادر على استعمالها . وعلى كل ، فإن معرفته الفنية في المشاريع الصغيرة نادراً ما تكون أدنى من معرفة رب العمل . والنقابة تضم الكفاءات وتعتبر نفسها بالتالي مؤهلة لمراقبة الانتاج : انها ستتحول بصورة طبيعية غداة الثورة الى جهاز تسيير . ولما كانت حقوق هذه الارستقراطية تنبع من جداراتها ، فهي ليست بعيدة عن اعتبار نفسها الضحية الوحيدة للرأسمالية . والكلمة التالية التي ألقاها عامل ميكانيكي في المؤتمر الاتحادي عام ١٩٠٨ تعبر عن الشعور العام : « إن إنكار القيمة الاختصاصية للعامل إنما يعني بشكل أو آخر إيجاد ظروف مخففة للاستغلال الرأسمالي » . ومن هنا يمكن لبعض النفوس الحزينة ان تستنتج دونما مشقة كبيرة ان استغلال العمال غير المختصين ليس بعد كل شيء عملاً بالغ الإجرام . ولم تكن النخبة العمالية تغالي في موقفها الى هذا الحد : لكن ما لا ينكر هو انها كانت تعتبر مساعديها « أعباء ثقيلة » . هل كانت تعترف لهم بحقوق ؟ هذا أمر مشكوك فيه . ولنقل انها كانت ترى فيهم مواضيع دائمة لكرمها . وهذا المذهب الانساني القائم على العمل ملتبس : فنحن لا نشك في أنه يحقق تقدماً على المذهب الانساني القائم على الثروة . بيد انه لا يعدو ان يكون أكثر من مرحلة . ولو توقف المرء عندها ، لظلت الغالبية مستبعدة عن الانسانية . تقولون : على الانسان ان يستحق ان يكون انساناً . لكن ماذا ستفعلون بأولئك الذين لا تتوفر لديهم الوسيلة لذلك ؟

ان البروليتاري الجديد لا يستطيع ان يبرهن على اي استحقاق او جدارة لأن كل شيء يستغل لإقناعه بأنه لا يملك اي استحقاق او جدارة . بيد ان التعب والبؤس يرهقانه : فإما ان يفطس او يحصل على تلبية لمطالبه . لكن علامَ سيقيم مطالبه ؟ على لا شيء على وجه التحديد . او عليها ذاتها اذا شئتم:

فالحاجة تخلق الحق . لقد حدث انقلاب في القيم مع ظهور الجماهير ، ورسخت الآلية دعائم المذهب الانساني . ولا نحسب العامل نصف المختص انساناً معتداً بنفسه وواعياً لحقوقه : انما هو « انسان دون واع لإنسانيته الدون » ، ويطالب بحقه في ان يكون انساناً . وعلى هذا فالمذهب الانساني القائم على الحاجة هو المذهب الوحيد الذي يتخذ الانسانية قاطبة موضوعاً له : فتصفية الجدارة والاستحقاق تنسف آخر حاجز كان يفصل بين البشر . لكن هذا المذهب الانساني الجديد هو بحد ذاته حاجة : فهو معاش على نحو اجوف باعتباره معنى حرمان غير مقبول . ان الانسان بالنسبة إلى العمال المختصين يصنع نفسه ، ولا يبقى عليه إلا ان يعيد تنظيم المجتمع . اما بالنسبة للعمال انصاف المختصين فإن الانسان لما يصنع بعد : انه ما ينقص الانسان ، ما هو موضع تساؤل بالنسبة إلى كل واحد منا في كل لحظة ، ما هو مهدد باستمرار بأن يضيع من غير أن يكون قد وجد قط .

كان كل شيء سيسير على خير ما يرام لو ان المذهب الانساني القائم على العمل امحى تدريجياً امام المذهب الانساني القائم على الحاجة : وهذا ما كان سيحدث لو لم توقف المالتوسية الثورة الصناعية . واليوم يتعايش هذان المذهبان الانسانيان وهذا التعايش يشوش كل شيء : فلو تجمد الاول وطرح ذاته لذاته ، لأصبح عدو الآخر . والجماهير ، من جهة ثانية ، قد سرت إليها سراً عدوى ايديولوجية النخبة العمالية : فهي لا تشعر بالخجل امام البورجوازيين لأن أفضل واحد فيهم لن يستحق ابداً ، مهما يفعل ، الامتيازات التي يتمتع بها . لكن العمال المختصين ينتمون إلى البروليتاريا وهم مستقلون شأن العامل نصف المختص ، وإذا كانوا يعيشون بصورة أحسن منه بقليل، فهذا الفرق يبدو وكأنه قابل للإهمال عندما يقارَن مستوى حياتهم بمستوى حياة البورجوازيين . وهم يزعمون على الأخص انهم مدينون بهذه المزايا الطفيفة الزهيدة الى جدارتهم. فماذا لو كان هذا صحيحاً؟ لقد قلت ان معظمهم من ابناء المختصين : لكن هذا غير محفور على جباههم بعد كل شيء . ان العامل نصف المختص يقول في نفسه ان اهله لو فرضوا على انفسهم

بعض التضحيات لأرملته هو ايضاً ليتدرب . او لعله يلوم نفسه على انه كان يفتقر الى الارادة والمثابرة . ان لا تساوي الشروط الظاهري يدل في نظره على لا تساوي القيم : إذا كان العامل المختص يستمد قيمته من عمله، فإن العامل نصف المختص لا يساوي شيئاً طالما انه ، من حيث التعريف ، قابل للاستبدال بغيره . وخلاصة القول انه يشعر بالخجل امام اولئك الذين يقترحون فيهم انهم رفاقه في الكفاح . وبالتالي فإن كفاحيته مهددة بالتناقض . ولتحرير الجماهير من شعورها بالنقص ، توجب تصفية جميع القيم الاشتراكية لفترة ما قبـــل الحرب تصفية جذرية . توجب إفهامها بأنها تقدم للبشر جميعاً فرصة النظر إلى الانسان والمجتمع على حقيقتهما ، اي بعيني أقل الناس حظاً واكثرهم حرماناً . ولما كان تطور التكنيك يؤدي إلى تدهور قيمة العمل، ذلك التفوق الأسمى للانسان على الانسان، فقد توجب ان يُبين لهذه الهمجية الفنية، ضد كل اخلاق وضد كل نخبة، ان «التفوق» تشوبه، ان العلاقة الانسانية الوحيدة هي علاقة الانسان الواقعي الكلي، بالانسان الكلي، وان هذه العلاقة، المنعمة أو المتجاهلة، موجودة بشكل دائم في قلب الجماهير، وانه لا وجود لها إلا منا . لكن بقدر ما كانت الغالبية تأخذ بهذه الايديولوجية الجذريـــة ، كان العمال المختصون ، الذين رأوا قيمتهم تنفض ، يتصلبون على مواقفهم . إن الارستقراطية تعي ذاتها حين تُهاجَم : لمنذ آخر اعوام فترة مـــا قبل الحرب ، وكرد فعل على صعود الجماهـــير ، اطلق نظريون مفرضون اسم « الفروسية » على نقابية الأقلية وأرادوا ان يجعلوا من المناضل سادناً جديـــداً لهيكل الرب : فالعامل المختص ، ذلك المستبد المستنير ، يقبل بأن ينذر نفسه للجماهير لكنه ينكر عليها حق الدفاع عن مصالحها بنفسها . ولقد حققت فترة ما بعد الحرب تصفية جديدة واختفت النقابية الثورية . لكن ليس روحهـا : فحتى في داخل « الاتحاد العام الموحد للشغل » بـــين ١٩٢١ و ١٩٢٧ سيقاوم انصار نقابية النخبة الشيوعيين بقوة . وبين ١٩١٩ و ١٩٣٤ أكره الاتحاد العام للشغل برئاسة جوهو[1] على الوقوع في مزالق البيروقراطية « نتيجة التعقـــد

١ – ليون جوهو : رئيس الاتحاد العام للشغل بين ١٩٠٩ و ١٩٤٧ . نال جائزة نوبـــل للسلام عام ١٩٥١ . «م»

المتزايد للمهام النقابية ، لكن موظف النقابة لا يمثل سوى النخبة العمالية وقد ظلت الجماهير خارج التنظيم . وفي ١٩٣٦ ، حين صرح سيار في مؤتمر تولوز : « ما تزال هناك ايديولوجيتان رئيسيتان تتواجهان في الحركة العاملة وفي الحركة النقابية وهاتان الايديولوجيتان هما ايديولوجية برودون وايديولوجية ماركس » ، كان جوهو على حق إذ أجابه : « منذ ١٩٠٩ ، لم اسمع قط مناضلين يعرضون وجهات نظرهم بالاستناد الى ماركس أو برودون » . كان على حق من حيث الشكل لكنه في الواقع تهرب من المشكلة . ذلك ان الاتجاهين اللذين تكلم عنهما سيار ليسا في البدء ماركسيين أو برودونيين : بل هما موجودان في البروليتاريا الفرنسية بغض النظر عن كل ثقافة فلسفية أو سياسية . اسألوا مناضلاً شيوعياً عن رأيه بـ « الكرامة الانسانية » ، تجدوه يهز كتفيه . فهل من قبيل الصدفة ان يكون اتحاد المعادن والاتحاد العام للشغل ، في عهد رئاسة جوهو ، قد أعلنا عن تأييدهما للتنظيم العلمي للعمل شريطة « ألا يمس الكرامة الانسانية[1] » ، وأن تتكرر هذه الكلمات نفسها عام ١٩٤٥ في تصريح لـ « الاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين » ؟ إن « كرامة » العامل المختص انما هي تفوق عمله . انه من الاساس انسان — طالما انه فخور بعمله — ومن الاساس حر — طالما ان الآلة العامة تترك مكاناً واسعاً للبادهة : انه يطالب باسم الحرية والكرامة بمجتمع اعدل يعترف بقيمته وحقوقه . اما الجماهير فلا كرامة لها ، ولا تتصور حتى تصوراً ما الحرية : لكن محض وجودها يُدخِل التطلب الجذري للانساني في مجتمع لا انساني ، كما تدخل الشظية في اللحم .

ب — ثنائية المصالح

كثيراً ما لوحظ — ولن أماري في هذا — ان الجماهير ترضى بإيقاع عمل يأباه العامل المختص . ففي « مؤسسات ستروين » قامت اضرابات ١٩٢٦ و١٩٢٧ على أساس التعارض بين الآلات والعمل . كان المنتسبون الى النقابة — وجميعهم

---

١ المؤتمر الاتحادي للمعادن ١٩٢٧ . نقلا عن كولينه ، المصدر المذكور آنفاً ص ٦٠-٦١.

من المختصين – يريدون تخفيض معايير المردود . وكان العمال انصاف المختصين يريدون تسريع الايقاع : فطالما أن عملهم هو في كل الأحوال لمنة، فمن مصلحتهم ان يدر ويغل . وربحهم على أساس القطعة يمكن أن يعادل الربح على أساس الساعة للعامل المختص : انه نوع من ثأر . لقد أدان ممثلو البروليتاريا العمل المسلسل والعمل بالآلات نصف الآلية عند ولادته : لكنه أنتج، مع مر الزمن، عمالاً جدداً يعيشون من المكننة، وعليهم، شاؤوا أم أبوا، ان يعلنوا عن تضامنهم معها . ولا مجال للشك، بالفعل، في أن « النيو – بروليتاريا » تلبي، بوظيفتها بالذات، متطلبات الانتاج المسلسل : فلقد ظهرت في الولايات المتحدة حين أراد أصحاب المعامل، تحت وخز المزاحمة، أن يوسعوا السوق الداخلية وان يتخذوا من الجماهير زبائن لهم، عن طريق زيادة المردود لتخفيض التكاليف . وهذا بالتأكيد لا يعني أن الجماهير تعمل لذاتها : فبين العامل نصف المختص المنتج والعامل نصف المختص المستهلك ينتصب حاجز الربح والاستغلال. لكن من الصحيح بالمقابل ان ارتفاع مستوى الحياة يرافق نمو الانتاجية . ففي ١٩٤٩ كان العامل الأميركي ينتج، في ساعة واحدة من العمل، أربعة أضعاف ما ينتجه العامل الفرنسي . وفي العام نفسه ارتفع الدخل القومي بالنسبة الى الفرد الواحد، الى ١٤٥٣ دولاراً في الولايات المتحدة مقابل ٤٨٢ دولاراً في فرنسا . ان مصلحة العامل نصف المختص عندنا لا تكمن في زيادة مجهوده أو زيادة عدد ساعات عمله : إنما عليه ان يطالب بالزيادة التدريجية لانتاجيته مقابل المجهود نفسه وعدد الساعات نفسه . لكن هذا يتطلب، أقل ما يتطلب، هجر الطرائق المالتوسية : فمن الواجب تجديد الآلات، وتشديد التمركز، والتقنين، ونشر الآلية . والحال ان مصير العامل المختص منوط بالإبقاء على أشكال الانتاج القديمة : إن مصلحته مرتبطة بصورة ما، بالمالتوسية . يقيناً، ان ارتفاع مستوى الحياة يمكن أن يعوض عن تدهور قيمة العمل وعن سحق تسلسل الأجور : لكن النزاع إنما يدور حول امتيازات النخبة وكبريائها و « فرحها بالعمل » وكرامتها، أي وعي تفوقها . وعلى هذا فإن مطالب الجماهير تنزع الى

تحطيم الإطارات الراهنة لاقتصادنا . والنخبة بالمقابل تعتدل في مطالبها حتى لا تسبب تحولات تكون شؤما عليها .

جـ – التعدد النقابي

ان الاختصاص المهني يتطلب وينمي لدى العامل حس الحكم والمبادهة والمسؤوليات . وهو الذي يجعله أيضاً غير قابل للاستبدال بغيره . والمستخدم – في المشاريع الصغيرة على الأقل حيث الآلية معدومة – يظل قريباً جداً من جهازه المكون في غالبيته من عمال مختصين . وهؤلاء العمال قادرون ، بفضل نعومة عملهم بالذات ، على ممارسة تأثير ناعم ومتصل على أرباب العمل والتواجه الدائم بين الارستقراطية العمالية والصناعيين هو الذي يبقي على « التماس » والتوتر . وعلى صعيد المشروع تستطيع هذه النخبة ، بقدر ما يصعب استبدالها بغيرها ، ان تحصل على أشياء كثيرة بمجرد تهديدها بالاضراب ، وبالتالي عن طريق المفاوضة باعتبار ان هذا التهديد يظل دوماً ضمنياً . إن العامل المختص يتمتع بأوراق رابحة في رهانه : فهو يستطيع ان يناقش ويساوم ، ولا يلجأ الى العنف إلا كوسيلة أخيرة . انه يتقدم ويتراجع ، يهدد ويتساهل ، ويتلاءم مع موقف رب العمل مع الوضع ، مع ميزان القوى المتبدل دوماً ، وهذا كله بالكلمات : كلمات ليست في الواقع نفحات أصوات ولا أفعالاً ، بل بيادق ترمى على البساط ويمكن سحبها في كل لحظة . ان العامل المختص يستطيع ، قبل ان ينتقل الى العمل ، ان يكرر رمية زهره بقدر ما يشاء . تشهير وتهديدات متبادلة ، وعود ، قطيعة واستئناف للمفاوضات : ان هذه المناورات المجردة وشبه الرمزية تقطع في غالب الأحيان الطريق على امتحان قوة ، لتتيح المجال في اللحظة المناسبة لحل توفيقي . إن اختصاص العامل النقابي يسمح للنقابة بالاحتفاظ بحريتها في المناورة .

ولنضف بأن هذه النخبة متجانسة : ان حركة التمركز ولدت بيروقراطية ، لكن مناضل القاعدة يستطيع أن يعتبر نفسه قائداً بالقوة ، فهو لا يقل عن

رؤسائه خبرة او معرفـة نظرية . كما انـه يمارس عليهم رقابة فعلية ودائمة . وبالمقابل لا تستطيع القيادة ان تخطىء بصدد مشاعر القاعـدة : فالنقابيون يتكلمون ، ويدلون بآرائهم وتيارات الرأي تعلن عن نفسهـا . وهم يساهمون جسماً وشخصياً في تحديد الخطوط الكبرى للعمل النقابي. تماس دائم بين الرؤساء والقاعدة ، ضغط مستمر يمارسه الشغيل على رب العمل : إذن فشرطا السياسة النقابية متوفران .

اما مع الجماهير فتتناقص فرص المقاومة . فالعمل، بعد ان تدهورت قيمته، يكف عن أن يكون بذاته وسيلة للعمل . وطالمـا ان الحركات تدور، فإن « العامل الانسـاني » يبدو قابلاً للإهمال . ويوماً بعد يوم ، وبحركة واحدة تزداد الانفصال بين العامل المحروم من الضمانة التي كانت توفرها القيمة المهنية وبين القيادة . وبهذا المعنى يميل الشرط الجديـد للبروليتاري الى تحطيم استمرارية عمله : فحتى يكون للمقاومة العمالية تأثيرها على قرارات ارباب العمل ، فلا بد ان تتخطى عتبة معينة ، وإلا فلن تكون محسوسة البتة . وبكلمة واحدة ، ان الاضراب ، اي العنف ، هو ملجؤها الوحيد . لكن « سلاح العمال النوعي »[1] هذا قد بدل من طبيعته : فالعامل المختص لا يمكن الاستغناء عنه ، وحتى يوقف الانتاج يكفي ان يظل في بيته لا يبرحه . يقيناً ، انه يمارس عنفاً : لكن هذا العنف مشروع ، ثم انه يميل – من حيث المبدأ على الأقل – الى ان يبقى مجرداً وسلبياً . ومن هنا فـإن رد فعل رب العمل لا بد ان يظل محصوراً ضمن حدود معينة ، والمستخدم يستطيع ، اذا ربح المعركة ، ان يضاعف العقوبات ، لكنه سيجد مشقة لو أراد ان يسفـح دماً . لكن العامل نصف المختص يمكن استبداله بأي عامل آخر ، باعتبار انه كمنتج لا يتميز عن اي عامل آخر . اذن لا يكفي ان يترك العمل ، بل لا بد ايضاً أن يمنع الآخرين من الاستمرار فيـه . وبعد عشرين عاماً من الحـيرة وتلمس الطريق وجدت الجماهير السلاح الجديد ، السلاح الوحيد المتناسب مع شرطها : الاضراب مع احتلال المصانع . وكان هذا

---

[1] : ليون جوهو . محاضرة في المعهد العالي العمالي ، ١٩٣٧ .

معناه التطاول على أقدس حقوق البورجوازيين ، والتعرض بالتالي لتدخل قوات الأمن . إنذارات ، قنابل مسيلة للدموع ، وإذا لم يكف هـذا أطلقت النار . فهل سنقول ان الجماهير اكثر استقراراً و « شبراً » من النخبة ؟ مثل هذا القول لا غر ولا طائل تحته . والحقيقة هي ان تطور التكنيك وطـد جذور العنف : فكي يدافع العامل نصف المختص عن أجره ، فلا مفر أمامه من المجازفة بجلده .

ولهذا السبب نفسه لا تملك الجماهير من وسيلة دفاعية غير العمل الجماهيري : فمن طريق عمليات جماعية تشن على المستوى القومي ، تحاول الجماهير ان تحصل على عقود جماعية تشمل فروعاً بأكملها من الصناعة . لكن هذه العمليات غير ممكنة إلا اذا التزمت الجماهير دفعة واحدة بشعار واحد . والحال اننا رأينا انه ينسب اليها خطأ نوع من وحدة وحشية : لأنها في الواقع تشتت جزيئي ، تجمع ميكانيكي من الوحدات ، نتاج حرف لآلية المهام . ولا ريب في ان البنية الأرخبيلية هي حد مثالي صرف لعملية التحول الى كتلة : اما في الواقع فإن قوى الانحلال تصادف عقبات عديدة . وبمحض حضور الجهـاز النقابي – تلك الجبلة العصبية – يحفظ البروليتاريا ، عندما يتراخى التوتر الاجتماعي ، نوعاً من « التقلص العضلي » . بيد انه من الصعوبة بمكان اعتبار الجماهير العمالية جيشاً في حالة تيقظ دائم . يقيناً ، ان الصراع الطبقي لا يتوقف لحظة واحدة ، كما ان العامل لا يني لحظة واحدة عـن معاناة العنف وعـن ممارسته بمحض واقعه الانساني . لكن نشاط الافراد لا يبرهن البتة على ان الجماهير نشيطة بحد ذاتها . ومن الخطأ ، كما رأينا ، ان نعتبر ذاتاً جماعية يمكن « تحليل نفسيتها » . إن سلوك الجماهير ليس نفسياً البتة وافدح خطأ يمكن ان نرتكبه هـو ان نقارنه بسلوك فرد من الافراد . ان إنسان الجماهير لا يتميز عن أي انسان كان ، فهو مثلي أو مثلكم ، ومواقفه الشخصية لا اهمية لها على الاطلاق . انه يجد ذاته عامل واع ، لكن قوى التشتت ، اذ تعارضه بجاره باعتباره أناه الأخرى التي تعكس له عجزه وتضاعف من عزلته ، تجمد نشاطه وتنتج منظومة جماعية يكون رد فعلها كرد فعل الشيء ، كرد فعل الوسط المادي الذي تتداخ فيه الإثارات ميكانيكياً . إن

الجماهير هي موضوع التاريخ : انها لا تعمل ابداً من تلقاء ذاتها ، وكل عمل تلتزم به الطبقة العاملة يقتضي ان تبدأ الجماهير بالغاء وجودها كجماهير لتأخذ طريقها الى الاشكال الأولية من الحياة الجماعية . ولا يحق لنا ان نتكلم عن « ضغط » يقال انها تمارسه على مستخدميها ، وتأثيرها لا يمكن ان يكون إلا سلبياً : فأرباب العمل يعرفون ان الاستغلال ، اذا تجاوز عتبة معينة ، لعب في عكس اتجاه قوى التكتيل ، وجازف بأن يسبب بلورة سريعة للجماهير العمالية وتحويلها الى بروليتاريا . أما فيما يتعلق بالعمل اليومي للمناضل فإن التناقض يثب الى العيون وثباً : فعمله ينصب على الجماهير - الموضوع ليحولها الى بروليتاريا - ذات. وهو يبذل جهده ، اينما كان ، لتصفية البنية الحُبَيْبية لصالح وحدة عضوية . والحال ان الوحدة لا يمكن ان تتحقق الا اذا كانت معطاة من البداية بصورة من الصور : فطالما ان كل فرد يرى عزلته في عزلة الآخر ، فإنه لا يستطيع ان يفلت منها إلا اذا افلت منها الآخر . وبكلمة واحدة : اينما كان المرء ، فلا بد ان تكون البداية في مكان آخر . وفي مناطق التمركز الصناعية الكبرى يمكن لنمط الانتشار الميكانيكي ان يحل في البدء محل الوحدة . وهذا ما يسمى بالتقليد : وهو بالطبع ليس عملاً جماعياً بل هو تلك الحركة الثقل التي تجعل العمل ممكناً : وانما على المناضل تقع مهمة تحويل المد الساري بالعدوى الى عمل عمد واضح . لكن ينبغي ان نضيف أيضاً ان التقليد نفسه يفترض وحدة معينة موجودة مسبقاً . وصحيح ان « قوانين التقليد » تنطبق فقط على القطاعات الاجتماعية التي هي في حالة انحلال دائم[1] : لما أقلده في جاري ليس هو الآخر، بل أنا نفسي وقد أصبحت موضوع ذاتي . وانا لا اكرر فعله لأنه فعله ، بل لأنني انا الذي فعله من خلاله هو . وخلاصة القول انه ينبغي ان أدرك وضعه وحاجاته كما لو انها وضعي وحاجاتي بصورة يبدو لي معها سلوكه من الخارج كمشروع

---

١ - لن أعضاء جماعة منحلة يتقلدون بفعل وظيفتهم (وكذلك وضعهم) بقدر ما يربطهم قانون الجماعة بالذات : لما حاجتهم الى تقليد بعضهم بعضاً طالما انهم مختلفون من خلال الوحدة ؟ انهم يتمايزون .

منبثق من رأسي. إن المقلِد والمقلَّد قابلان للاستبدال احدهما بالآخر ومنفصلان في الوقت نفسه، والسلوك المقلِد هو نتيجة ديالكتيك الهوية والخارجية. فطالما إن العامل نصف المختص لا يتميز عن اي انسان آخر، فإن نمط انتشار الحركة المطالبة عبر الجماهير سيتم عن طريق العدوى لأن كل فرد يرى الآخر قادماً نحوه كأي انسان آخر، اي كنفسه. وبقدر ما ان التكتيل يولّد في آن واحد الانعزال وقابلية الاستبدال، يولد ايضاً التقليد بصفته علاقة ميكانيكية بين الجزيئات. وليس التقليد ميلاً ولا صفة نفسية: بل هو النتيجة المحتومة لبعض الأوضاع الاجتماعية. ولا بد ايضاً من ان تستند هذه الصلات الميكانيكية الخالصة الى تركيب مسبق يسمح على الأقل بتواجه المقلِدين والمقلَّدين ولو كان ذلك من خلال وحدة السكن او المشروع المادية الصرف. لا بد على الأقل من وحدة الخطر الداهم أو الأمل المحسوس. والحال ان التشتت النسبي للصناعة الفرنسية يلعب دوراً في صالح أرباب العمل. ان التنائي لا يلغي سريان العدوى، لكنه يرفع من درجة المناعة. ان الأنا تصبح آخر عن بعد. وحتى ُتدرك وحدة الموقف، فلا بد أن يزداد استفحال الخطر: إن الظروف الاستثنائية هي وحدها التي ستكشف للجماهير المتناثرة المتفرقة عن الوحدة العينية والحاضرة للبروليتاريا. ففي عام ١٩٣٦ على سبيل المثال لا الحصر، أدى انتصار الجبهة الشعبية السياسي الى انتشار الحركات الاجتماعية عن طريق العدوى: فقد ادركت الجماهير وحدتها إذ رأتها متجسدة خارجاً عنها في تحالف الأحزاب الشعبية الثلاثة، فجاء رد فعلها، بصورة شبه ميكانيكية، متمثلاً في تشابه مسالكها. ولو أن الحركة لم توضع في وجهها العراقيل، لتحولت عاجلاً او آجلاً الى عمل ثوري.

إن الظروف التي تحقق تبلور الجموع الى جماهير ثورية، يمكن أن نسمي بحق «تاريخية»: فهي مرتبطة بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في اوروبا. لكن لا بد من الملاحظة بأنها لا تتوفر في كل آن. وعلى هذا فالانتقال من حالة الكتلة الى وحدة الجمهور البدائية له بالضرورة طابع تناوبي متقطع. ذلك إن الكتلة مصابة بجمود وعطالة يمنعانها من الرد على الإثارات الناعمة: فنحن لا

يمكننا أن ننتظر منها تلك الحركات السريعة والمجوبة بسرعة، وتلك التظاهرات الهادفة الى إثبات القوة، وتلك العمليات الجزئية، وتلك المناورات التي تسمح بممارسة ضغط متواصل على الخصم دون الدخول في صراع مكشوف معه. وعلى كل، فإن التبلورات البدائية تفتقر الى التوازن: فمكننة العمل قد سرقت مستقبل العمال: فإذا ما تحركوا فهذا لأن شرطهم الراهن غير مقبول، ولأنهم يلمحون امكانية تعديله على الفور. ولا يمكننا أن ننتظر منهم أن ينهكوا قوامهم في دعم مشروع طويل الأمد: اذن فمن المناسب ان نضيف الى التقلب والانقطاع اللذين تتميز بهما الحركة الجماهيرية شيئاً من عدم الاستقرار.

ولا نسرع على الأخص ونستنتج ان « النيو - بروليتاريا » اصلاحية اكثر منها ثورية: فالأمر على العكس تماماً. وصحيح انه لا تمكن تعبئة الجماهير إلا باسم الدفاع عن مصالحها المباشرة: لكنها حين تتحرك، تريد كل شيء، وعلى الفور. فلقد سبق للدعاية البورجوازية أن أقنعتها بأنها لا تستطيع ان تدخل أي تعديل على شرطها بدون كارثة. وهكذا أصبح الواقع اليومي في نظرها نظاماً صارماً من المحرمات. لكن ما يتشكلها من حالتها الكتلوية هي استحالة أعمق ايضاً: استحالة تحمل حاجاتها لمدة أخرى من الزمن. وامام هذه الاستحالة البالغة، تنهار المحرمات جميعاً، وعندها يصبح التغير استحالتها الأكثر مباشرة. فاليأس يولد الأمل، وتبلور الجوع الى جماهير يولد الايمان بأن كل شيء ممكن. إن العامل المختص يستطيع أن يقتصر على بعض المطالب، أما الجماهير فتريد كل شيء لأنها لا تملك شيئاً. إن عملاً منسقاً، مبنياً على سنوات من التجربة، متمكناً من تقنياته وتقاليده، واعياً لكونه مشروعاً طويل النفس، يمكن ان يقتصر حينياً على هدف محدد: لكن طالما إن الجماهير لا تملك ذاكرة جماعية وطالما ان « يقظاتها » متقطعة، فإن عملها يكون جديداً دوماً، معاوداً من البدء دوماً، بلا تقاليد ولا تحرُّس: لا شيء يحدده، لا الخوف من الفشل ولا التفكر بالتاريخ. عمل يطرح نفسه في ماهيته الصرف، كفعالية سامية وقدرة مطلقة على تغيير العالم والحياة. ومن هنا تتكشف الحاجات جميعاً دفعة واحدة.

وتعبير « الحد الأدنى الحيوي » يعبر بدقة عما يريد التعبير عنه : فتحت هـــذا الحد يكمن الموت. والحياة بالنسبة إلى انسان الجماهير هي بالضبط ألا يموت فوراً. إن الشغيل لا يستطيع ، في المراحل « الطبيعية » ، أن يلبي إلا عدداً زهيداً من حاجاته : الحاجات التي إن لم تُلبَّ قضت عليه . وعلماً إن قوى التشييء قد رسّخت فيه شعوره بالعجز ، فلا بد أن يمارس رقابة دائمة على جميع الحاجات التي ليست بحيوية . وهذه الحاجات ، نصف المكبوتة ، نصف المنمة ، تظل مع ذلك حاضرة في كل لحظة : وكل ما هنالك انه لا يتعرفها ولا يسميها . لكن حين يواجه الشغيل فجأة خطر الموت على إثر تدهور مفاجىء في مستوى حياتـــه ، تولد الحركة الشعبية وتتحول الجماهير وتتبدل . وعلى الفور تنعكس العلاقة بين الممكن والمستحيل وتسفر الحاجات عن وجهها لأن العمل يستطيع الآن أن يلبيها . وحين يكون كل شيء ممكناً يصبح « الحد الادنى الحيوي » لا يطاق . وانطلاقاً من هنا تتعاظم الحركة الشعبية وتوغل في سيرهـــا باطراد اللهم إلا اذا تحطمت على صخرة المقاومة المسلحة التي سيبديها أرباب العمل : إن كل نجاح من نجاحاتها تشجيع لها على تطلب المزيد ، وكلما تعمقت جذريتها بدون ان تكف عن أن تكون مباشرة ، طرحت بالضرورة ماهيـــة المجتمع بالذات على بساط البحث . إن الاجور ، بالنسبة الى نصف الفرنســيين ، تتأرجح حول الحد الأدنى الحيوي : ولو توجب اليوم أو غداً زيادة قدرتهم الشرائية الى الثلث ، فإن فرنسا البورجوازية ستتطاير في الجو حطاماً . إذن فلا أهمية تقريبـاً إن كان المضربون أو المتظاهرون يريدون أو لا يريدون تحقيق الثورة : فكل تظاهرة جماهيريـة هي موضوعياً ثورية : تبدأهـا الجماهير كيلا تموت وتتابعها لتحيا . وحتى اذا أمكن، في إطار الرأسمالية ، تلبية بعض حاجات الجماهير باتباع سياسة ملسقة على مدى عشرة أو عشرين عاماً ، إلا أن الحقيقة الاساسية تكمن في انهـــا لا تستطيع الانتظار : إن بورجوازياً يقطن داراً غير مرضية يستطيع ان يصبر ، فالمسألة لا تعدو أن تكون بالنسبة اليه أكثر من مسألة شيء من التضايق . أمـا الاسرة العمالية التي تتكدس في كوخ حقير ، فليس أمامها إلا أن تقطع اختناقاً

أو تنتقل الى مسكن آخر . لكن دور السكن التي نعد بها غير موجودة بعد ، فكيف تبدل سكناها اليوم إلا اذا امتلك الدور الموجودة الآن؟ إن الجمهور الثوري لا يمكن أن يحصل على تلبية كاملة لمطالبه إلا اذا استلم السلطة[1] . ولو أن البؤس لا يحركه إلا في الحالات التي يمكن فيها استلام السلطة ، لكان ذلك غاية المنى . لكن كيف نؤمن بوجود هذا « الانسجام المسبق » ؟ صحيح أن كل « حركة جماهيرية » هي بداية ثورة ، وأن الظروف التي تستلزم عملاً شعبياً يمكن أن تتمخض في الوقت نفسه عن مقاومة الطبقات الحاكمة . لكن تاريخ البروليتاريا الطويل والدامي يكفي لندرك أن شروط الانتصار المثالي نادراً ما تكون متوفرة جميعها معاً . ثم إن البروليتاريا لا تمثل سوى ثلث الأمة وليست الجماهير سوى جزء من هذا الثلث . وحتى يمكنها الانتصار ذات يوم ، فلا بد من إعداد العدة لهذا الانتصار بعقد التحالفات داخل الطبقة العاملة ، وعند الحاجة خارجاً عنها ، ورسم خطة ، وتحديد استراتيجية ، وابتكار تكتيك . وهذا بالضبط ما هي عاجزة عنه . ومن هنا فان دور المناضل سينقلب رأساً على عقب .

انه أولاً موظف . ولقد أصاب كولنه إذ قال : « لا يستطيع الجمهور ان يسأم من تلقاء نفسه في الحياة النقابية . انه يمحض ثقته المناضلين المسؤولين ، ويحكم عليهم تبعاً للنتائج المباشرة التي يأتونه بها » . لكن ما الداعي لأن يأتي فيما بعد ويصف لنا مناضلاً مثالياً يعمل كوسيط بين القادة والجماهير ؟ ولا أجهل بالطبع من ان ينذر مثل هذا الوسيط يومه ، شأن الرفاق ، « للعمل التكتيكي والمهني الصرف » ، مع تساميه في الوقت نفسه عن طريق التضحية فوق اختصاصه ليحكم على المشكلات المهنية ، وفوق المهن ، لينظر الى « المشكلات الاجتماعية في عموميتها » . ومن سوء الحظ ان مثل هذا الشخص « الراسخ الجذور » و « المتجرد » ، مما غريب تماماً عن العامل نصف المختص المعاصر . فهو ابن

---

١ ـ حين سيتعين سيترتب عن قدرته ان يصمد في آن واحد عن تلبية حاجاته وعن مقاومة تكاد صبره . وهكذا يرتد ديالكتيك جديد : ذلك أنه لا بد من مشروع طويل النفس لتحقيقها يطالب به الجمهور عن شعور .

الماضي، وكولينه انما يصور لنا، تحت اسم آخر، العامل المختص والمنظم نقابياً الذي عاش حوالي عام ١٩٠٠ . ولا تأخذنا الدهشة اذا اقر بعد ذلك بأن «المناضل نادر وغير مستقر لدى العمال انصاف المختصين». وأن يكون بعض الناس متجردين وراسخي الجذور معاً، فهذا ممكن: فكل شيء يتعلق بالشروط، بالصحة، بأوقات الفراغ، بالثقافة، وبكلمة واحدة، بنوع العمل. لكن اولئك الذين يرقدون مسحوقين تحت وطأة الأرض، لا يمكنهم في الوقت نفسه ان يحلقوا فوقها. وللوهلة الأولى لا توجد ثمة صعوبة مبدئية تحول بين العامل نصف المختص وبين ان يصبح مناضلاً ممتازاً. والعقبة الوحيدة الجدية ستبدو مبتذلة وعارضة: التعب. لكن هذا التعب في الواقع ليس حادثاً عارضاً. فهو يتراكم من غير ان يذوب، كالثلوج الأبدية، وهو الذي يصنع العامل نصف المختص ويكيّفه. يقيناً، انه سينقضي عندما ستخفض ساعات العمل او تطبق الآلية على أوسع نطاق. لكن العامل نصف المختص سينقضي معه. ثم اننا لا نحلم بإمكانيات الصناعة الاميركية او الصناعة السوفياتية ولا بشرط الانسان في عام ٢٠٠٠: انما اكلمكم عن عام ١٩٥٤ وفرنسا المالتوسية. اكلمكم عن الشغيلة الذين أضناهم التعب والبؤس معاً. ومنذ عام ١٩١٢ كان عمال تطريق المعادن، الذين استشهد بهم ميرهايم، يشكون من أن تعبهم لا يسمح لهم بالاهتمام بالنقابة، ويتمنون صراحة ان يتولى عنهم ذلك غيرهم. ومذ ذاك ازدادت الأمور تفاقماً وسوءاً: فحتى يكسب الشغيل قدر ما كان يكسبه عام ١٩٣٨، عليه ان يعمل اكثر. انه ينهض في الساعة الرابعة او الخامسة، وينطلق في السادسة، ويعود إلى بيته في الثامنة مساء، ويتناول طعام العشاء، وينام في التاسعة. وهو يشكو بمرارة من حرمانه من الحياة العائلية: فمن أنى له الوقت الثقال؟ ومواعيد العمل بالأصل تحول دون عقد الاجتماعات النقابية، اللهم إلا اذا عقدت في مكان العمل بالذات. وكثيراً ما يتوجب تحريض العمال على وقف العمل حين يراد أخذ رأيهم بصدد مسألة تخصهم. اما المناضلون «النادرون» الذين يستطيعون تلبية مطالب كولينه، فإني أفهم أن يكونوا «غير مستقرين»:

فهم مرغمون على اقتصار مدة نومهم، وعاجلاً او آجـلاً سينهارون . اللهم إلا إذا تركوا العمل اليدوي وغالتهم النقابة، اي رفاقهم. يقيناً، لا غنى عن خروج المناضل من الكتلة : لكنه على وجه التحديد يخرج منها. فهل ستتكلمون ايضاً، بعد هذا ، عن « الخيانة الشيوعية » ؟ هيا كفـاكم ! فهذه « البيروقراطية » ضرورة في عصر « التنظـيم العلمي » . وفي الولايات المتحدة الأميركية نفسها حيث ظل الحزب الشيوعي عملياً بلا تأثير على التطور النقابي، تقوم الشعبة المحلية للنقابة او المستخدم نفسه بإعالة جميع المندوبين العماليين للمصانع الكبيرة – بما فيهم مندوبو « الورشات » – بشكل دائم . وتقسيم العمل الذي يتم بـين المناضلين والشغيلة في قلب المنظمات المهنية انما يعكس تقسيم العمل الذي تم في المجتمع والذي خلق البروليتاري الجديد. وما « البيروقراطية » النقابية إلا الرد المناسب على بيروقراطية أرباب العمل . فطالما ان « آخرين يفكرون بالنيابة عن العامل نصف المختص »، وطالما أن الاختصاصيين يأخذون على عاتقهم ان يوزعوا عليه المهام من مكاتبهم في المشروع » فلا بد ان يكون هنـاك اختصاصيون آخرون » في مكاتب أخرى » يفكرون ضد هذا الفكر ويقررون كيفيات العمل المطالب . ان استعباد الانسان من قبل الانسان [1] في العمل لا بـد ان يكون له معادله النقابي ، وانفصال التكنيكي والعامل نصف المختص يجب ان يعوض عنه بانفصال العامل نصف المختص والمناضل المحترف . أهذا شيء يؤسف له ؟ ممكن. لكن ما العمل ؟ فشكل الجهاز النقابي محدد ببنية البروليتاريا . ثم ان هذا المأخذ لا تصيب هدفها علاوة على ذلك . فكولينه يسفر عن مقاصده الحقيقية حين يستخدم كلمة « النخبة » ليشير إلى فرق الوسطاء : وهذا هو الاسم الذي كانت تتسمى به « الأقليات الفاعلة » في حقبة ما قبـل الحرب الأولى . ومؤلفنا يعرف بالتأكيد الجماهير ويظهر اهتماماً مشكوراً بمصالحها . لكنه حين يريد ان يحكم عليها ، لا يتوصل إلى التجرد من الآراء المسبقة الارستقراطية ، وهو يقدم ، بالرغم من انه ليس ببروليتاري ، الوسيلة لفهم الشقاقات العمالية لأنه

---

١ ـ التعبير لفريدمان (الى اين يسير العمل الانساني ؟) .

يلبثي وجهة نظر قسم من البروليتاريا عن القسم الآخر منها . أجل ، انها باسم نخبة قديمة يلتمس البيروقراطية الجديدة وفهمه للجماهير يجد حده في الازدراء الذي ينظر اليها به .

لكن إذا ما قبلنا بمنظورات مذهب إنساني قائم على الحاجة ، تغير كل شيء ووجد الموظفون الجدد تبريرهم في الحاجة إليهم . فهم يناسبون الجماهير أكثر من أي نخبة أخرى لأنهم لا يواجهون التزاماً متناقضاً بحماية المصلحة العامة ومصلحة خاصة معينة في آن واحد . قد يريد البعض ان يقول إنهم يشكلون هم أيضاً نخبة ، لكن هذا غير صحيح : فعامل النخبة هو العامل الذي يؤدي العمل نفسه الذي يؤديه رفاقه ، وعلاوة على ذلك يناضل . فهو الأول بين أقرانه . ووظيفته الاضافية والطوعية تكسبه منزلة ومكانة والحق في ان تكون كلمته مسموعة . أما الموظف النقابي فقد ولد ، على العكس ، من تقسيم العمل : انه يفعل ما لا يملك رفاقه الوقت لفعله ، ولهذا السبب بالذات لا يعود يفعل ما يفعلونه . وما داموا يعرضونه على خدماته ، فلا حق له البتة في عرفان الجميل من جانبهم ، ولا سلطات له غير السلطات التي فوضوه بها . هناك بالطبع مجازفة : فكثيراً ما نزه الكتاب يميل التنظيم البيروقراطي الى اعتبار نفسه غاية ذاته ، لكن هذا السبب ، بخلاف ما قيل ، أقل ظهوراً في النقابية منه في أي تنظيم آخر . يقيناً ، لا بد ان نهجر الى الأبد التصور الرومانتيكي القائم على مبدأ المسامحة الذي تقول به نخبة مرسخة جذورها في الطبقات العميقة من اللاشعور الشعبي : فالجماهير تفتقر الى اللاشعور افتقارها الى الشعور باعتبار انها محض تشكلت ميكانيكي . كما انه صحيح ، من جهة أخرى ، انها عاجزة عن ممارسة رقابة دائمة ومفصلة على الجهاز . فهل ينبغي ان نستنتج من هذا أنه بالامكان جرها أينما يراد؟ العكس هو الصحيح : فتشتتها بالذات يحميها من التأثيرات كافة . ان للفكرة البورجوازية القديمة عن « الحرض » راسخة الجذور بصورة لا يتوصل معها الكتاب السياسيون اليوم الى التحرر منها . ولقد أدلى السيد بيرتهم بحماقات مدهشة كثيرة بصدد هذا الموضوع . وكولينه ، الأكثر تحرزاً بكثير ، لا يتردد

عن الكتابة : « ان الجمهور يدلل على طاقات انفجارية ... لكن ما ان تنطفىء هذه الطاقات ، حتى يستقيل بين أيدي الاطارات التي تتلخص فيها آنذاك كلية الحياة النقابية » . والحال أن هذا رأي خاطىء مئة بالمئة : يقيناً ، ان الجماهير لا تملك لا الارادة ولا الوسائل لتجديد الاطارات ، وهي تفضل أن تحتفظ بالقادة الراهنين . لكن هذا من قبيل اللامبالاة أكثر منه بدافع الروتين . فقبل ١٩١٤ ، ما كان المناضل يعهد إليه بوظائف السكرتارية النقابية إلا لأنه استحق ثقة رفاقه . لكنهم كانوا يطيعونه ، فيما بعد ، لأنه سكرتير : إن مصدر السلطة ، في نقابية الأقلية ، تأسيسي الى حد كبير . والجماهير اليوم لا تأبه بالمؤسسات : وهذا أولاً لأن عدداً كبيراً جداً من العمال انصاف المختصين يعيشون على هامش المنظمات العمالية ، ولا يتقيدون بالشعارات والأوامر إلا عندما يرونها منسجمة ومصالحهم . أما العامل المختص والمنتظم نقابياً فيطيع لأنه يعترف بسلطة القادة الذين انتخبهم . فيطيع لأنه يعترف بسلطة القادة الذين انتخبهم . لكن العامل نصف المختص إذا كان يعترف بسلطة الرؤساء الذين قد لا يكون شارك في انتخابهم ، فهذا لأن الظروف قد حملته على طاعتهم . وعلى هذا فإن العمل لهو أشبه باستفتاء : فالجماهير لا تتمرد أبداً ، ولا تحتج ، ولا تطالب بتجديد الاطارات ، ولا يمكننا ان نتكلم عن ضغط القاعدة على الرؤساء : فهي تسير او لا تسير ، هذا كل شيء . وهذا يعني انها تنتظم في جماعية فاعلة او تنهار وتستسلم لأشكال التكتيل . والقوى النقابية تزداد او تتضاءل حسب النتائج التي يتم الوصول إليها ، أما الاطارات فتظل بالطبع بمنجى عن كل تبدل ، لكن يحدث لها أحياناً ان تشكل وحدها كلية النقابة . ولا مجال للشك في ان عدم الاستقرار هذا يشجع على تحول الموظفين الى أوليغارشية ، لكن من غير الصحيح انه يشجع الروتين : بل هو يرغم القادة ، على العكس ، على تقويم سياستهم باستمرار . ولا يمكن بالطبع اعتبار هذا المد وهذا الجذر شهادة على الرضى او الاستياء : إنما هما أمارات غير إرادية وأعراض . لكن هذا لا يمنع أنهما يشكلان على طريقتهما رقابة حازمة وإن لم تكن واعية . فالجماهير تراقب المناضل كما

يراقب البحر رجل الدفة . فهو رئيس عندما تتحرك ، ولا يعود شيئاً عندما تتشلل . وإذا كان يهتم بالجهاز أكثر من اهتمامه برفاقه ، فإن المصلحة العامة تكون مصلحته الخاصة . وهو لا يستطيع ان يحقق مطامعه الشخصية، إذا كانت لديه مثل هذه المطامع ، إلا اذا اوحى للجماهير بثقة متجددة يومياً . وهو لن يوحي اليها بالثقة إلا اذا قبل بأن يقودها حيث تذهب . وبكلمة واحدة ، عليه ان يكون المصنوع حتى يكون ذاته .

بيد انه مهما يحاول ان يوجد من أجلها وحدها ، فإنه لا يستطيع ان يغير شيئاً من واقع انه كف عن ان يكون جزءاً منها . صحيح أنه شاطر رفاقه شرطهم ، لكنه ما عاد يشاطرهم اياه منذ ان اصبح مناضلاً . وهل من سبيل الى تغيير هذا الواقع طالما ان الجماهير ليست شيئاً سوى وحدة كاذبة من العزلات تخفي تحتها تشتتاً دائماً ؟ ولو ظل في خضم الجماهير ، لحكم على نفسه بالانعزال وعدم الفعالية شأن أي إنسان آخر . لقد كان تمايز البروليتاريا في عام ١٩٠٠ يسمح للمناضلين بالبقاء في الطبقة : كانت الفروق المهنية تؤمن التسلسل ، وكان أساس السلطة الرابطة التي تجمع بين السيد المختص والتابع غير المختص . إن الجماهير كالرمال : فإذا كنت مجرد حبة فيها ، فكيف يمكنني ان أوجه الحبات الأخرى ؟ وما الواقع الشكلي الغريب المسمى بـ « أي إنسان كان » إلا عزلة تبادلية: فأنا أيّ كان في نظر أيّ كان. وأيّ كان هو في نظري أنا نفسي . ومن هنا تنقلت مني هذه الصفة المجردة: فهي دوماً في مكان آخر. وما كان لهذا من أهمية لو كنت استطيع ان احدد نفسي بنشاطي المتفرد. لكن طالما ان العامل نصف المختص يفعل أي شيء كان ، فإنه يرتد الى تلك الماهية المجردة التي لا تخصه . وهذا الهروب الدائم لواقعي يفسر التقليد، لكني لا أفلت ، كما رأينا، إلا لأستعيد واقعي الشخصي الذي يتجلى دوماً كآخر ويستند الى الآخر . لكن اذا ما زعم أيّ كان انه يوجهني ويقودني، فإنه يتحول الى شخص معين، فأطالبه بمستنداته . يقيناً ، حين تتحرك الجماهير ، يخرج من صفوفها رؤساء : لكن هذا لأنها كفت ان تكون جماهير ولأنها تبلورت الى شكل بدائي من الجماعية يركز رئيسها

المرتجل ويجسد في شخصه سيادتها المتدرجة : وحين تعود الى حالة التشتت يختفي الرئيس . اما الجهاز فيظل قائماً : انه يبرر ديمومته بطابعه التأسيسي . لكن سلطة المناضل ليست إلا منفى : فهو اذا كان يصدر أوامر الى الجماهير باسمها بالذات ، فهذا لأنه يستند الى وحدتها الماضية أو المستقبلة ، ولأنه يجعل من نفسه قيّماً على سيادتها المرتقبة دونما اي تكليف . انه يقف امام هذا الجمهور كشاهد على تحولاته إذ يذكره بانه كان مجتمعاً رهيباً ، عنيفاً ، استبدادياً يمارس على كل عضو من اعضائه ضغطاً لامتناهياً . ومن هنا تأتي عند الجماهير : انها لا تنقض سلطته باعتبار انها لا تستطيع ان تعارضه بسلطة أخرى وباعتبار ان بلبلتها المتوزعة المشتتة تمنعها من ان تكون مصدراً شرعياً للسلطة ، بيد انها لا تعترف بها : والواقع ان هذه السلطة تأتي من مكان آخر ، من تلك الزمرة المتعبئة التي كفت عن ان تكونها . إن وحدة البروليتاريا — التي يجسدها على الدوام الجهاز النقابي — تظل شعاراً مجرداً او مثلاً أعلى غير قابل للتحقيق أكثر منها تركيباً حياً . بل ان الجماهير لتشتمل على نوع من النزعة المناوئة للنقابية : فالعمال يرتابون بعض الشيء دوماً في اولئك الموظفين الذين لا يعيشون الشرط العمالي بكامله مهما يكن تفانيهم واخلاصهم . وحين تكون الغلبة لقوى التكتيل (التحويل الى كتلة أو جمهور) ، فإن وجود الجهاز النقابي يمنع انحلال البروليتاريا انحلالاً كاملاً من دون ان يضمن لها الانسجام الطبقي التام . إنه يبقي على الجمهور العمالي في حالة غير متوازنة لا تكف عن التأرجح بين الاصطفاف الميكانيكي الصرف وبين التركيب العضوي ، والجماهير إذا ما حركها تيار آمر عادت من جديد جماعية متلاحمة ، وبدأت ترى في التنظيم النقابي تحررها ورمز وحدتها المتطور ، واعترفت بالتالي وقد استعادت سيادتها الغامضة بسلطة الموظفين[1] . ولا أهمية عندئذ اذا كانت غالبية النخبة تملك او لا تملك البطاقة النقابية : فهي

١ ـ يظل متفاوتاً . ربما نلاحظ في جميع الحركات الشعبية الكبرى تواطؤاً كامناً أو علنياً بين القادة المرتجلين والمسؤولين النقابيين . وفي غالب الاحيان تكون الغلبة للموظفين الدائمين إذ ان لديهم خبرة أكبر . لكن لا بد ايضاً من ان يظهروا كفاءتهم في خدمة المصالح العمالية الحقيقية .

لتبيع الأوامر وتصدر حكمها بعد التنفيذ . والنزعة هي التي توحد بين هذه الجزئيات المتفرقة ، والممارسة هي التي تدمجها من خلال توكيدها لتمايزها، والجهاز هو الذي يقوم بدور الوساطة بين الفرد والمجموع . لكن أصل التيارات يظل ما فوق نقابي : فالجوع او الغضب او الخوف هو الذي يصدر إشارة التحرك ، او هي ، كما حدث عام ١٩٣٦ ، إشراقة الأمل الباغتة . ولولا المنظمة النقابية لتوقفت الحركات على الأرجح : فوجودها يحافظ على ظاهر الوحدة الذي يسمح بانتشارها الساري . وصحفها ومندوبوها يحذفون المسافات ، ويضمون عامل ستراسبورغ على احتكاك مباشر مع عامل بيربنيان [1] . لكن المنظمة النقابية عاجزة بحد ذاتها عن انتاج الحركات . وحين تشعل شرارتها فهذا لأنها تكون قد أدركت بسرعة قضيتها الحقيقية . وبالمقابل فإن المنظمة النقابية مسؤولة – الى حد ما – عن قوة الحركات واتساعها واتجاهها وفعاليتها فعليها تقع مهمة إرشاد الجماهير إلى غاياتها الخاصة ، وتسريع او عرقلة التطورات المحلية بدلالة التطور العام . ولا بد أيضاً من أن تكون مطلعة على الوضع الاقتصادي، وعلى الموقف الاجتماعي وميزان القوى المتواجهة . ولا بد على الأخص من ان

---

١ – الوقائع التي سنذكرها تظهر اهمية الإعلام والدور الذي يمكنه أن يلعبه في عرقلة او مساعدة حركة يزعم انها عفوية : ففي ١٩٣٦ حدث اول اضراب مع احتلال المصنع في الهافر في ١١ أيار . وفي ١٣ أيار توقف عمال مصانع لاتيكوتير في تولوز عن العمل وبقوا في المصنع . لكن هذين الاضرابين ظلا مجهولين في باريس لأن الصحافة النقابية لم تذكر عنهما كلمة واحدة . و « لومانيتيه » هي وحدها بين الصحافة البورجوازية التي نوهت بها في عدة سطور وبلا تفصيل . وفي ١٤ أيار حدث اضراب جديد مع احتلال المصانع في كوربفوا . والتزمت الصحافة الصمت . واخيراً في ٢٠ أيار ولا سيما في ٢٤ أيار قارنت « الاومانيته » بين الاضرابات الثلاثة ونوهت بجدة طرائق الكفاح ونتائجها . وفي اليوم نفسه تظاهر ٦٠٠٠٠٠ نسمة امام « جدار رجال الكومونة » بدعوة من لجنة التضامن الاشتراكي – الشيوعي والاتحاد العام للشغل . اذن فقد كان العمال يتعلمون قوتهم الجديدة وطرائق النضال الجديدة في آن واحد . والحال انه بدءاً من ٢٦ أيار امتدت حركة الاضراب الى منطقة باريس كلها وبدءاً من ٢ حزيران الى فرنسا كلها . ودور الاعلام يتضح من خلال هذه التواريخ : لعبت الصحافة شبه التام أخر انتشار الحركة التي عشر يوماً . وما ان ذكرت الصحف الاضرابات الثلاثة الاولى ، حتى عمت الحركة .

تكون قادرة على توقع ردود الفعل العمالية : هل الحركة التي تلوح بوادرها قابلة للاستمرار ؟ هل ينبغي دعمها بالطاقات النقابية كافة . ودفع العامل إلى الانخراط فيها حتى النهاية ؟ أم انها لا تعدو ان تكون اكثر من ذر قش تاقضي المصلحة بتركها تنطفىء ؟ وكيف السبيل الى اتخاذ قرار في الموضوع إن لم تجمع المعلومات وتسبر الأغوار وتستشر الاحصائيات ؟ ان الجماهير لا تكف عن إعطاء اشارات : وعلى المناضل تقع مهمة تأويلها . لقد ولى زمن التذرع بمعرفة غامضة يزعم انها تولد من تأصل الجذور والقرارات التي تتخذ استناداً الى حدس خلاق مزعوم : فالجماهير التي هي موضوع بطبيعتها تصبح موضوع المناضل الخاص [١]، وهناك تكنيك للجماهير كما ان هناك للملاحة . والنص التالي الذي نشرته « القوة العمالية » له دلالته المميزة في هذا الصدد :

« . . . في رأينا ، لا مجال للمماراة في ان حركات إضراب ١٩٤٧ تستند إلى الصعوبات الحياتية المادية لجمهرة الكبرى من الأجراء الصغار والمتوسطين ... إن عربة تقف على منحدر لا تحتاج الى مسرّع حتى تقلع . انما يكفي ان يرخى بها الفنان وترفع من امامها العراقيل . امـا المميزات الخاصة بهذه الحركة – لأن كل حركة اضراب لها مميزاتها الخاصة – فإنها تذكرنا ولا شك بما علمنا إياه فنّيو العلوم النووية من أن لعل القنبلة الذرية يكمن في حدوث ظاهرة ناشئة عن تفاعل متسلسل يتم بها وينتشر انحلال المادة[٢] » .

إن الطابع الميكانيكي الصريح لهذه الصور يناقض تناقضاً صارخاً والانشاء « العضوي » لحقبة ما قبل الحرب الأولى . فـ « القوة العمالية » تعترف صراحة ببذور الدعاية السارية والصفة مـا فوق النقابية لأسباب الحركة . لكن أولئك

---

١ . الشيء الذي لا يعني بالطبع اصدار حكم مسبق على العلاقات الشخصية التي يمكن أن تكون للمناضل مع العمال .

١ – عدد ١٢ حزيران ١٩٤٧ . وكانت « القوة العمالية » ما تزال مندمجة بالاتحاد العام للشغل ، وكان موقف جوهو ملتبساً : فهو لم يكن يريد لا ان يؤيد الاضرابات ولا ان يدين المضربين .

النقابيين المذعورين (انهم سيتركون عما قريب الاتحاد العام للشغل) يقررون صراحة بعجزهم : « من الممكن عرقلة حركة وكبحها ، لكن اذا انقطع العنان أو تخريب السد ، فإن التربة ستتدحرج حتى أسفل المنحدر أو ستتدفق المياه على السهول الواطئة » . ونحن نجد في تلك السطور صدى للرعب الذي كان يشعر به بلوم والنقابيون القدامى تجاه الجماهير : فانشقاق « القوة العمالية » تم على أساس مبدأ « لينبح بجلده من يستطيع » .

التمركز ، البيروقراطية ، التكنيك : إن طبيعة « النيو - بروليتاريا » هي التي تفرض هذه السمات على النقابية الجديدة . وهي التي ستبدل أيضاً التكتيك النقابي بإدخالها عليه ثلاثة مميزات جديدة : تغذية التحريض الاجتماعي ، تشجيع توسيع الاضرابات في كل مرة يمكن فيها ذلــك ، العمل على جعــل النزاعات نزاعات جذرية .

التحريض الدائم

إن الجماهير متخلفة أو متقدمة دوماً على رؤسائهــا . لكن لنحذر من الاستنتاج بأنها غبية أو بأن البيروقراطيين أنذال : وإلا سقطنا من جديــد في المذهب البسيكولوجي . والواقع ان هذا التباين ليس إلا الانعكاس الزمني للبعد المكاني الذي يفصل المناضل عــن موضوعه ، وهــو يتفسر بالطابع التخميني لتكتيك الجماهير . إن مناضل القاعدة يقف تجاه رفاق يدعوهم الى العمل : انه يكلمهم وهم يصغون اليه ، لكن من النادر ان يمكنه الكلام معهم . ولقد عبر أحد النقابيين ، غي توريل ، عن موقفه بهذه الألفاظ : « تجولوا في المصانــع ، اذهبوا الى الورشات ، ترثروا في المكاتب ، احضروا الاجتماعات ذات العــدد الكبير أو الصغير . أصغوا الى حديث المناضلين وراقبوا الجمهــور : ولــسوف تذهلون إذ تلاحظون انه نادراً ما يكون هناك حوار بــين المناضلين والجمهور . انما هناك مونولوج من قبل المناضلين وسلبية كبيرة من قبل الجمهور . وغالباً مــا يحدث ألا ينجح المناضلون في كسر شوكة هذه السلبية . فالجمهور يسمع لكنه لا

يقول شيئاً . وإذا ما توجهتم بالسؤال مباشرة الى أحد افراد الجمهور ، لما حصلتم في غالب الاحيان على أي رد فمل يمكن ان ينير السبيل امامكم[1] » .

وهذا لن يدهشنا : فهؤلاء الرجال متحدون في وحدتهم . فاذا ما فصل بينهم التعب والجوع ، فأيهم سيجرؤ على الكلام باسم الجميع ؟ وأيهم سيجرؤ أيضاً على الكلام باسمه الشخصي هم الذين يقرّب بينهم الوعي المشترك لمزلتهم ؟ إن المناضل يظل غريباً عنهم : فهو لا يعكس لهم بعد قوتهم ووحدتهم . ومع ذلك انما تقع عليه مهمة التكهن باستعداداتهم ، وبمفعول خطاباته عليهم ، وبامكانيات الموقف الموضوعية. وإذا ما قبلنا بصحة تشخيصه ، فاننا لا نستطيع بالمقابل إلا الاقرار بأن نقل الأوامر يشوه الرسائل المنقولة : فالاتحادات النقابية تتلقى المعلومات بطريق التسلل ، ونادراً ما تكون على « تماس مباشر » بالاحداث ، وحين تجمع القيادة أخيراً جميع المعلومات المتوفرة لديها لا يكون التركيب الذي تقوم به إلا اعادة بناء لا يمكن لاحتمال صحته ، في أحسن الأحوال ، ان يتجاوز احتمال صحة فرضية علمية قبل التحقق التجريبي منها . وسيكون هناك بالطبع امتحان مضاد : لكن لما كان العمل يقوم هنا مقام التجريب فان الخطأ يكلف غالياً ويمكن ان يؤدي الى كارثة : ومن حسن الحظ انه ليس من الضروري ، في حالات كثيرة ، انتظار نتيجة الصراع لإدراك ان النضال انطلق من بدايات غير سليمة . وهكذا يتبع الأمر سريعاً بأمر مضاد. لكن على وجه التحديد لأن الجمهور هو غير المناضلين ، ، فان الجهاز يجازف بأن يعزل نفسه اذا ما طالب قوى الجماهير بما لا تستطيع ان تقدمه على الفور . كما ان القادة يجازفون ، اذا ما ارادوا تصحيح خطئهم ، بأن يجدوا انفسهم يسيرون خلف المقودين . يقيناً ، إن التجربة وسداد البصيرة والصفات الشخصية تتدخل على جميع المستويات : لكن « الاستبدادية » و « الذيلية » تظلان أخطر خطرين يواجهان العمل النقابي . ذلك ان الموظفين يوجهون الحركات بتقريبات متتابعة : ضربة الى اليسار ، وضربة الى اليمين . ولهذا فان مهمة

---

١ - نشر في مجلة « اسبري » - تموز - آب ١٩٥١ - ص ١٧٠ .

المناضلين الاساسية هي ان « يظلوا على تماس مع الجماهير » . وهذه الكلمات ما كان لها معنى كبير في زمن نقابية النخبة . فهل نقول ان الحال ما تزال على ما هي عليه اليوم أيضاً ؟ ذلــك ان خاصية التشتت الجزيئي هي جعـل التماس مستحيلاً . فالمرء يمكن ان يحتك بجماعة ما بواسطة ممثليها ، لكنـه لا يستطيع ان يحتك بمجموعة من الجزيئات المتفرقــة . واذا أراد المناضل « ان يحتك » بالجماهير ، فعليه أولاً ان يعطيها ظاهراً من تنظيم . أهي حلقة مفرغة اذن؟ كلا، ذلك ان مهمته هي ان يؤثر عليها باستمرار عن طريق نوع من إثارة جماعية حتى يبقي عليها في حالة تصلب وعدم تميع . ولما كان العمل وحده يستطيع ان يخضها الى ان تنضج ، فعلى المناضل ان يضعف الشعارات حتى يهيء الجـو لبدايات عمل : فحتى لو ظلت هذه البدايات مبتورة ، فانها ستقرب بين الافراد، وتخلق تيارات انفعالية، وتسمح بامتحان الكفاحية العمالية ومراقبتها . وسوف يتخذ منها أرب العمل والنخبة المهنية المختصة ذريعة لتوبيخ البيروقراطية على تفضيلها الفوضى على المصالح العمالية الحقيقية : فالنقابي « الصالح » في رأيهم لا يعمل إلا في الوقت المناسب ، ويعمل بسرعة ودقة حتى يحصل عــلى نتائــج محدودة ، وينهي النضال عندما يتم التوصل الى هذه النتائج . لكن هذا النضال الناعم والمحــدد ، الذي يبدأ وينتهي في النظام ، ليس ممكناً إلا بالنسبة الى النقابات النخبوية التي هي كلها نشاط وايجابية . بيد ان عطالة الجماهير تحتم على العكس ان تأتيها الحركة من الخارج . إذن فهي تحمل معها معادلها ، التحريض ، الذي يهدف عن طريق مخض دائم الى تغذية بداية حياة جماعية حيثما يهدد الموت بحط رحاله . ولولا التحريض ، لكانت الحركات الشعبية الكبرى أكثر تردداً ، ولتأخرت طويلاً قبل ان تولد ، ولأمكن القضاء عليها بسهولة أكبر .

التوسع

إن العامل نصف المختص « قابل للاستبدال بغيره » ، والاحتكار حل محـل المزاحمة : ولهذا السبب المزدوج ما عاد في وسع الاضراب ان ينجح على مستوى

المشروع وحده . فلا بد ان يمتد الى فرع صناعي بكامله او الى الأمـة بكاملها . ومن هنـا ، فإن العامل لم يعد هو الذي يقرر على مستوى المشروع الخاص . أو انه بالأحرى ما يزال يقرر لكن تحت الضغط : كان قبل الحرب العالميـة الأولى يقيّم الموقف المحلي ، ويوازن الأخطار واحتمالات النجـاح ، وينخرط في النضال دفاعاً عن مصالح عينية . أما اليوم فيُطلب منه أن يلتزم بحركة تتجاوزه ولا يدرك معناها إلا إدراكاً أولياً غامضاً . والمناضل يقوم بدور الوسيط بيـن المجموع والاجزاء . والجهاز قد توحد بالحركة التي تلوح تباشيرها : وعلى هذا فإن الموظف المحـلي يتكلم باسم الجميع . وكل مستمع من مستمعيه معزول في قلب الجمهور ، إلا ان المناضل يفهم هؤلاء المستمعين ان البروليتاريا تعيد تكوين نفسها في كل مكان : فعليهم اذن تقع مهمة الخضوع للتدريب العام والافلات من العزلة . انهم يشعرون ، حتى قبل ان يكتمل الاندماج ، بالقوة القسرية لجماعية بدائيـة في سبيلها الى التكون من جديد . وهذا أمر لا يتم بدون أن تتشوه الديمقراطية النقابية تشوهاً عميقاً . وما ان تتجلى الذات الجماعية[1] ، حتى يتم تمزقهـا من الضغط الذي تمارسه على أعضائها . فالقرارات تتخذ في جو من الحماسة والانفعال . وبالطبع لا بد من التشاور والنقاش ، والجماهير ترى أن عليها ان تقرر بحرية السلوك الذي ينبغي أن تسلكه . لكنها تعرف ان فاعلية عملها ستكون متناسبة

---

١ ـ أقصد بالذات الجماعية ذات الممارسة وليس ما لست أدري أي « وعي جماعي » . لن الذات هي الجماعة التي جمع بينها الموقف ، وحدد بنيتها عملها بالذات ، وأوجدت التمايز بينهـا المقتضيات الموضوعية للممارسة وتقسيم العمل المرتجل في البدايـة ثم المنظم ، ونظمها القادة الذين اختارتهم لنفسها او الذين اكتشفتهم ووجدت في شخصهم وحدتها الذاتية . وما سمي بـ « سلطة الزعيم » يثبت بما فيه الكفاية ان الوحدة العملية للجماعة إسقاطية ، أي انها بالضرورة خارجية عنها . فالسيادة المبهمة المخلخلة تتجمع وتتكثف في شخص الزعيم الذي يعكسها فيما بعد لكل عضو من أعضاء الجماعة ، ويجد كل واحد منهم نفسه قيّماً على السيادة الكلية تجاه الآخرين والمرؤوس وذلك بمقدار ما يطيع . وإذا كان هناك زعيم ، فإن كل فرد يكون زعيماً باسم الزعيـم . ومن هنا فإن « الوعي الجماعي » هو بالضرورة مجسد ، انه بالنسبة الى كل فرد البعد الجمـاعي الذي يلتقطه في الوعي الفردي للآخرين .

مع قوة اندماج الجماعة . ان كل فرد يستطيع ان يبدي رأيه ، حتى تتم الموافقة على اقتراح ما فلا يكفي ان يكون عملياً : فطالما ان خطر الانهيار يظل قائماً باستمرار في قلب الوحدة ، فلا بد أن تنـــال الصيغة المقترحة موافقة الجميع . وإذا ما أخفق رأي من الآراء في تعزيز الوحدة الجماعيـة ، تداعى واختفى من غير ان يخلف أثراً ، وينساه حتى أولئك الذين عبروا عنه في البدء . سيقال انـه هكذا هي الحال أيضاً في المجالس النيابية طالما ان الأقلية تطأطىء الرأس أمـام قرارات الغالبية . لكن هذا غير صحيح مطلقاً : فهي تطأطىء الرأس لكنها تظل قائمة بجانب الغالبية وكأنها تجربتها الدائمة ، وتحتفظ بادعاءاتها في ان تصبح ذات يوم غالبية بدورها . أما على مستوى الجمـاهير فإن الغالبية تلتهم الأقلية . أو ان هناك بالأحرى أقليات متحركة لا تكاد تظهر الى الوجود حتى تختفي بعد أن تكون قد أدلت برأيها . وتتم إعادة توطيد الوحدة باستمرار عـــن طريق تصفية المعارضين : وإذا ما قاوموا حوربوا حتى بالعنف: فالمنشق في نظر الجماعة مجرم يؤثر عاطفته الخاصة على الرأي المجمع عليه ، خائن يرفض الاعتراف بخطئه ويقبل بالمجازفة بتمزيق وحـــدة الصف العمالي . ولقد عرفت حكومتنا كيف تستغل الموقف : فقد فرضت ممارسة الاستفتاء ومنحت حق التصويت لغـــير المنظمين في النقابات . ولقد زعمت ان قصدها ، بالطبع ، حماية حقوق الانسان. أما في الواقع فقد كانت تريد ان تفكك الروابط الجماعية . وهذا الغش يظهر للعيان الهوة التي تفصل الديموقراطية البورجوازيـــة عن ديموقراطية الجماهير . صحيح ان التصويت برفع الأيدي يعني الاستسلام مقدماً للضغط الجماعي ، لكن الانتخاب بالورقة السرية يلقي بالجماهير من جديد في لجة تشتتها الأولى . فلا يعبر كل فرد ، وقد وجد نفسه وحيداً من جديد ، إلا عما يفكر به بمفرده ، نظراً الى أنه لا يعرف كيف سيفكر لو كان جزءاً من جماعة . لقد كان لتوه ، في الاجتماع أو في الورشة ، يرى فكره يتكون ، وكان يستمع إليه ، يتعلمه من شفاه رفاقه . أما الآن فإن رأيه ، هذا ان كان له رأي ، إنمـا هو جهله برأي الآخرين . ان وزراءنا ، بزعمهم انهم أنقذوا الشخص ، حطوا مكانته من جديد

الى مستوى الفرد . فتلك الاستفتاءات تشجع على المطالة : فحين يتخذ قرار النضال بصورة جماعية ومشتركاً يسود جو من الحرارة وتتفشى الحماسة بالعدوى، لكن الشك يولد من جديد في الغرفة السرية : فكل فرد يخشى تخاذل الآخرين ، ويعود كما كان أياً كان . وهذا مثال بين ألف : ففي تشرين الثاني ١٩٤٧ ، قرر عمال مؤسسات ستروين الاضراب مع احتلال المصانع . وتدخل البوليس وأجلاهم عنها . ثم نظمت السلطات العامة استفتاء مرغمة العمال على التصويت على فشل نصفي . وأسرع الاتحاد العام للشغل بوصيهم بالاستنكاف . وجرى الاستفتاء : فاستنكف ٣٨٢١ من أصل ١٠,٠٠٠ ، وكان المستنكفون من ذوي الشكيمة الذين يرفضون الاستسلام . كما انهم كانوا بالطبع أكثر العمال عداء لذلك الشكل من الاستشارة الشعبية . أمـا بين الذين توجهوا الى صندوق الاقتراع ، فقد صوت ١٠٢١ على متابعة الاضراب : إذن فقد كانوا متفقين مع الأوائل على الأهداف والتكتيك ، لكنهم لم يتقيدوا بتعليمات الاتحاد العام للشغل لأنهم كانوا يريدون أن يتصرفوا بحرية بحق التصويت حتى ولو كانت الحكومة هي التي تضمنه لهم[1] . وبذلك يكون مجموع الذين أبدوا الاضراب ٥٠٢١ . أما الذين أيدوا استئناف العمل فقد كان عددهم ٤٩٧٨ . والحال ان الاضراب قـد بدأ بدون تصويت مسبق . لكن من الواضح أنه ما كان أحد ليجرؤ على تقريره مع مثل هـذه الغالبية الضئيلة . وبعبارة أخرى ، لقد تمكن ذوو الصلابة البالغ عددهم ٥٠٠٠ من جر الآخرين . وقد انضم المترددون الى الجماعة خوف الانعزال ، بينما لزم المعارضون الصمت وتراجعوا عن المقاومة لأنهم عرفوا انها لن تجدي . إنهما كما نرى تصميمان متباينان . ولأرباب العمل ملء الحرية في أن يزعموا بأن الثاني هو وحده الصحيح : والحق أنهما كليهما صحيحان ، لكنهما يمكسان حالتين مختلفتين من حالات الجماعة . فصحيح أن إجلاء العمال عن المصانع وجه ضربة

---

١ ـ يمكن الاعتراض ـ لكن التفاصيل غير متوفرة والمسألة مسألة حصيلة لا أكثر ـ ان هؤلاء كانوا من العمال المتمسكين : انهم من ذوي الصلابة وفي الوقت نفسه يريدون التصويت الذي يحمي الحقوق الفردية .

فادحـــة الى أنصار الاضراب ، لكنه كان سيستمر لولا الاستفتاء : وكان المترددون يعلنون عـــن تأييدهم له لأنهم لا يعرفون من وسيلة لإيقافه . لكن التصويت أهاج تردد « الفاترين » وأعاد الى المعارضين شجاعتهم . وعلى هذا فإن الإضراب يعبر عن اندماج الجماعـــة المقاتيء بينما يؤدي التصويت الى تفسخها الجزئي . ووحدة الكفاح هي تكوين بداتي يرسخ جذوره في جو من الحماسة ويقف على قدميه في غالب الأحيـــان بفضل الإكراه . والموظفون النقابيون مستبدون بمقدار مـــا ان الجماعة اختارتهم ليمارسوا باسمها الدكتاتورية على كل عضو من أعضائها .

الجفرية

إن الجماهير لا تفوض ابداً : فهي لا تصوت إلا على برامج . انهـا تشير الى الهدف الواجب بلوغه ، وعلى المناضل أن يجد أقصر الطرق اليـــه . ومطالبها بسيطة للغاية حتى أن تحقيقها يبدو للوهلة الاولى بمتناول اليد : خبز ، مسكن ، إبطال مفعول قانون قذر ، إنهاء حرب. أما في الواقع فان أبسط رغباتها تكون مفصولة عن موضوعها بالعالم أجمع ، ولا يمكن ان تلبى إلا بعمل طويل النفس . خبز ، مسكن ؟ لقد رأينا انه لا بد لهذا من زيادة الانتاج ، وبالتالي التخلي نهائياً عن الطرائق المالتوسية ، الأمر الذي يستلزم ، على الاقل ، ان تتشكل غالبية أخرى وان تفرض حكومة جديدة ارادتها على كبـــار أرباب العمل . والوهم « العفوي النزعة » يدفع بالنفوس الصالحة الى الاعتقاد بأن المطلب الشعبي سياسة مضغوطة : فيكفي بسطه حتى تجد فيه وسيلة تلبيته . لكن هذا غير صحيح : فالحاجـة ليست إلا نقصاً ، وهي تستطيع أن تؤسس مذهباً انسانياً لكن ليس استراتيجية . والجماهير بمطالبتها بالخبز ترغم ممثليها على النضال ضد المالتوسية ، لكن مطالبتها لا تشتمل في حد ذاتها على ادانة الطرائق المالتوسية[1]. وهكذا

---

١ – او اذا شئتم : ان تلبية هذه المطالب لا تنسجم موضوعياً والتمسك باقتصاد الخطاطي. لكن من الممكن أن تطرح هذه المطالب ذاتياً من دون ان تكون المبالاة أي معرفة بالمالتوسية .

يأخذ المناضل على عاتقه النزاع الدائم الذي يعارض بين الحركة الثورية التي ليس لمهامها من حدود ، وبين الاندفاع الثوري الذي يطرح الغايات دفعة واحدة ليطالب بتحقيقها فوراً . وما دامت الجماهير لا تستطيع ان تتحرك بدون ان تزعزع المجتمع ، فهي ثورية بفضل موقفها الموضوعي : وعلى المسؤولين ، كيما يخدموا قضيتها ، أن يرسموا سياسة ثورية . لكنهم من هنا بالذات يعارضونها بصورة مزدوجة : فالهدف الواضح والمحدد الذي يأخذون على عاتقهم بلوغه في لحظة معينة من التاريخ بعيد جداً وخاص جداً في آن واحد بالنسبة الى قواتهم . خاص جداً : فبقدر ما أن الغاية التي تطرح على الجماهير لا تعدو أن تكون اكثر من وسيلة لإدراك وسيلة أخرى، فان الجماهير لا تتعرف فيها دوماً الغايات المطلقة التي ارتضت بأن تقاتل وتموت من أجلها . وبعيد جداً : فبقدر ما أن هذه الغاية لا تعدو أن تكون أكثر من نتيجة تكتيكية ، فانها تبتعد عن التلبية المباشرة التي تطالب بها الجماهير . ذلك إنه لا فرق بالنسبة الى الجماهير بين المطالبة بالخبز وبين المطالبة بتوطيد نظام انساني : لكننا لن نستنتج من ذلك من تلقاء نفسها أن علينا أن تكون مع أو ضد السلم المتحرك . وبكلمة واحدة : إن ماهية الجماهير بالذات تحرم عليها التفكير والعمل سياسياً . وما من ريب في أن سياسة الجهاز هي تعبير عملي وزمني عن مطالبها . ولما كانت الجماهير تمثل عين القوى التي تستطيع تحقيق المشروع الثوري ، فسيقال عنها انها وسائل هذه السياسة بقدر ما أنها غايتها . لكن لما كانت الاستراتيجية تظل من حيث المبدأ غريبة عنها ، فاننا لا نستطيع أن نقول ان الجماهير تصنع هذه السياسة بكل ما في الكلمة من معنى ، بل هي بالأحرى أدوات لها . وبالطبع يرفض القادة إصدار الأوامر الى قواتهم وتوجيه حركاتها . انما هم دوماً يحثون ويحرضون ، ودوماً يفسرون ويسعون الى الاقناع . لكن الصعوبة لا تأتي من الرؤساء ولا من صلاتهم بالجنود : انما تكشف فقط عن التناقض الخصب الذي يعارض المرجأ بالمباشر ، والديمومة باللحظة ، والمشروع بالحاجة ، والنشاط بالهوى . ونظراً الى اقتناع القادة بأنه من المستحيل كل الاستحالة تعبئة الجماهير في سبيل غايات بعيدة ومجردة ، فانهم

يلجأون دوماً الى ما يسمى بـ « الهدف المزدوج » . وهذا يعني انهم يدعمون الهدف الأعم والأبعد بهدف مباشر وعيني ، وانهم بالمقابل لا يملون البتة ان يظهروا خلف الهدف القريب وجود هدف بعيد يشكل إن صح القول معناه السياسي . وعلى هذا فإنهم سيشرحون للأجراء أن رفع الأجور مرتبط بوقف الحرب في فيتنام وبنزع السلاح العام . وهذا اللجوء الى « الهدف المزدوج » الذي طالما تعرض الى الاحتقار والافتراء ليس ، بمعنى من المعاني ، سوى طريقة معينة في تفسير التاريخ : فعن طريقه يكشف القادة للجماهير النتائج البعيدة لعملها المطالب ، ويدلونها على ماهية الشروط العامة التي يمكن أن تلبى فيها مطالبها الخاصة . ولا مجال للشك بالفعل في أن على البروليتاريا ، في الظرف الراهن ، أن تفرض نزع السلاح اذا أرادت أن ترفع مستوى حياتها ، وانها بالمقابل تعرقل يومياً « المجهود الحربي » بقدر ما تدافع عن أجرها ضد أرباب العمل . لكن الطابع المتنافر للعمل الشعبي و « تفاوتاته » وتقلبه وتصلباته المفاجئة وانهياراته اللامتوقعة تكون نتيجتها تسليط الضوء على « تسيس » النقابية . فالاضراب الرابع يبدو كواقعة كلية ، لا يمكن عزل معناها السياسي عنها . والاضراب الخامس هو بعكس ذلك : هل استأنف الشغيلة العمل لأن الصندوق النقابي كان فارغاً ؟ هذا شيء لا اعتبار له : انما يبدو وكأنهم أنكروا رؤساءهم . ومم يكونون قد تبرأوا اللهم إلا من « تسيس » الاضراب ؟ ويظل الجهاز بالتالي معلقاً في الهواء ، مجرداً ، ويزيد « بعده عن الجماهير » نأياً . ويأخذ في نظر الجميع مظهر بيروقراطية سياسية . فقد كان الرؤساء يقولون للجماهير : لا تنسوا وأنتم تناضلون من أجل اجوركم انكم تناضلون أيضاً ضد الحرب . ونظراً الى أن الجوع قهر الجماهير فهي تتخلى مؤقتاً عن النضال : فيستنتج البعض انها لا تأبه بنزع السلاح .

* * *

مع تشرذم البروليتاريا يتجاوب انفجار السيادة الشعبية وتبددها . فالسيادة تقوم في نظر النخبة المختصة على الاستحقاق ، اي على الكفاءة والطاقة والثقافة :

والعامل غير المختص او المياوم لا يكون من جهته « ذا سيادة » إلا بقدر ما يكون مؤطراً ومسيراً ومراقباً . اما بالنسبة الى العامل نصف المختص فالسيادة تنبثق مباشرة من الجماهير ومنها وحدها . وهذه السيادة لا تتميز عن الحركة التي تتجمع بها الجماهير على شكل جسد تحت ضغط الظروف الخارجية . وعلى هذا فإن الطبقة العاملة ممزقة بصراع السلطات .

اذن فالتعدد النقابي معلول أكثر منه علة: يقيناً انه يساهم في تنمية الانقسامات العمالية لكنه في البداية يعكسها فحسب . قبل ١٩٣٦ كان الاتحاد العام للشغل برئاسة جوهو يضم بصورة أساسية عمالاً مختصين وموظفين او شغيلة من قطاع الخدمات العامة ومستخدَمين صناراً . وعلى الاجمال « نخبة » القطاع الثاني وبعض عناصر من القطاع الثالث . وبعد اندماج ١٩٣٦ الذي تم في جو من الحمى وتحت ضغط الاحداث ، تملك القلق هؤلاء المناضلين : كانوا يتكلمون في الماضي عن الاستعمار ، وعندما لاحت نذر الحرب أسرعوا يستعيدون حريتهم . وبعد التحرير تضخمت قوى الاتحاد العام للشغل من جديد ، ولم يبق في مواجهته سوى « الاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين » . وطرحت مسألة الوحدة العضوية على بساط البحث . لكن على الفور تقريباً بدأ المناضلون القدامى في الاتحاد العام للشغل التابع لجوهو يشكون من انهم ما عادوا يتعرفون « اتحادهم » ، وقد كتب برترو عام ١٩٤٧ : « انهم لكالأجانب في بيتهم بالذات » . ان هذه الجملة عميقة الدلالة : فالاتحاد العام للشغل كانت له عام ١٩٤٥ ، وبالرغم من اسمه الموقر ، جميع السمات التي تميز تنظيماً جديداً ما يزال يبحث عن طريقه . لكن « النخبة » العمالية ظلت مصرة على اعتباره مؤسسة قديمة جداً تخصها مباشرة : فكانت تستقبل فيه القادمين الجدد كما لو انها تستقبلهم في بيتها وتشكو من سوء تربية مدعويها . وبالطبع لم يفكر هؤلاء المناضلون في تجريم رفاقهم العاملين في الصناعة الكبيرة المقننة : انما وجهوا اتهاماتهم الى القادة الشيوعيين زاعمين ان الوحدة النقابية كانت ستقوم من تلقاء نفسها لولاهم . لكن المآخذ التي يوجهونها الى الحزب الشيوعي تصيب أولاً الجماهير . فهم يقولون : ان الشيوعيين يفضلون

الشغيلة غير المنظمين على المناضلين المجربين : فأولئــك اكثر قابلية للتحريك والتسيير من هؤلاء . لكن أليس هذا معناه انهم يتحرون عليهم باللائمة لأنهــم يمثلون الجماهير لا النخبة ؟ يقال ان القادة الجدد يلجأون الى العنف بسهولة اكبر مما ينبغي، وانهم يقومون في المصانع بتحريض لا هدف له يضر بمصالح البروليتاريا، ويدللون في المفاوضات على تصلب يهدد بإحباط خططهم؟ اننا لنفهم ان يستنكر المناضلون المجربون هذه المهجية . لكن العنف ، كما بينت آنفاً ، يولد من الموقف بالذات، وليس التحريض سوى نضال دائب ضد العمل المتواصل لقوى التكتيل.
اما التصلب فله سببان رئيسيان : فهو يرجع اولاً الى ان شرط العــامل نصف المختص لا يطاق ، وثانياً الى ان هذا العامل لا يملك امكانية المناورة . وطالما ان ملجأه الوحيد هو العنف فإنما في جو العنف يفرض مطالبه : فهو يحتل المصنع ، وقد تعمل قوات الأمن على إجلائه منه ، وستطلق النار إذا ما قاوم . والوقت غير مناسب للحلول الوسط والتسويات : انه بحـــاجة الى الكثير من الشجاعة والغضب لمواجهة الأخطار . والجماهير بالتالي على حق اذ تعتبر رب العمل عدواً، والتنازلات والتوفيقات خيانات : فهي تطالب بكل شيء طالمـا انها صامدة . واذا ما خانتها قواها انهارت . القادة الشيوعيون خنقوا الديموقراطية النقابية ؟ لكن أي ديموقراطية ؟ فالديموقراطية الوحيـــدة التي جرت ممارستها كانت ارستقراطية . ولقد نسيت «النخبة» ان الديموقراطية يمكن ان تكون استبدادية اذا كانت الجمــاهير نفسها مصدر الاستبداد . ان « الدكتاتورية » النقابية — اذا كانت هناك دكتاتورية — تمارس على الأقليات باسم الغــالبية لكن من اللغو الباطل الاعتقاد بأنه يمكن ان تمارس على الغالبية نفسها : فــالجماهير لا يمكن لا ان تُعبأ ولا ان تحرك ، وهي لا تقرر العمل إلا عندما تتحول الى جماعية فاعلة بتأثير الظروف الخارجية . النقابات « الشيوعية » قد نسيــت ؟ هذا لأن وجود الجماهير كجماهير يلتـــاقض والنظام الاقتصادي والاجتماعي الذي ينتجها . ولا يخطئنّ احد في فهمي : فانا لا أزعم ان البنية الراهنة للحزب الشيوعي واهدافه وطرائقه محددة كلياً بالمطالب الموضوعية للعامل نصف المختص وحدها ، فلهــذا

الحزب تاريخه وديالكتيكه الخاص ، وهو مشروط بالكون اجمع . لكني أقول ان هذه الاتهامات تستهدف الجماهير بالدرجة الأولى : ومناضل النخبة يدين هذه الجماهير بإدانته الوسطاء، وهو يخشاها وتسحره : فمن الممكن في الغد ان ينحط الى مرتبة العامل نصف المختص نتيجة تحول المهام إلى مهام آلية .

ويتهم ممثلو الجماهير بدورهم « القوة العماليـــة » و « الاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين » بأنهما يعملان في السياسة « خلسة وبشكل مراوغ » ، واتهامهم هـذا له أساسه من الصحة . فحين يكون كل شيء مرتبطاً ، المـــالتوسية والبؤس ، ارتفاع الأسعار ، إعادة التسلح والمرشلة ، فإن رفض سياسة الحزب الشيوعي انما يعني تنفيذ سياسة الحكومة . وعلى كل فإن « القوة العماليـة » تعتمد على الحزب الاشتراكي و « الاتحــــاد الفرنسي للعمال المسيحيين » يعتمد على وزراء « الحركة الجمهورية الشعبية » . وحصر المطالب العمالية في النطاق الاقتصادي والمهني انما يعني الرغبة في تبديل المماليل بدون مس الملل ، كما يعني بوجه خاص اطلاق يد الغالبية البرلمانية وترك ملء الحرية لها . انهم يريدون أن يحصلوا على الحد الاعلى في اطار النظام ، ويطالبون بنعم زهيدة ، وحتى يستحقوها يدينون الشيوعية في خطابات « لا سياسية » ويستقبلون « بعيـــداً عن السياسة » رسل النقـــابات الأميركية . لكن المآخذ التي يوجهها الاتحاد العام للشغل الى القادة تصيب ايضاً مناضل القاعدة : فـ « القوة العمالية» بعد كل شيء لم تكن تمثل حتى عام ١٩٤٧ سوى « اتجاه » ضعيف في قلب الاتحاد العـــام للشغل ، ولم يكن لا جوهو ولا ضباطه يريدون ان يكونوا المبادرين الى تحطيم الوحـــدة ، ومناضلو الأقاليم هم الذين فرضوا القطيعة بتهديدهم بعدم تجديد بطاقاتهم النقابية . وفي مؤتمر « اصدقاء القوة العمالية » ، الذي دعي للانعقاد على عجلة ، اقترح القـادة تسوية : مطالبة الأكثريـــة بتطبيق الديموقراطية داخل الاتحاد العــام للشغل . لكن عبثاً : فالمناضلون لا يريدون أن يعرفوا شيئاً واضطرت القيادة مكرهة الى السير وراءهم في الانشقاق[1] .

---

١ - ان اضرابات الصيف الماضي تسمح على العكس بالأمل في حدوث تقارب مفروض من القاعدة .

هل سنقول إن الجماهير وقفت جميعها وراء الاتحاد العام للشغل؟ وإن العمال المختصين هم وحدهم المسجلون في «القوة العمالية» أو في «الاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين»؟ إن هذا تبسيط للأمور. فكثير من العمال المختصين بقوا في الاتحاد العام للشغل من قبيل الانضباط الطبقي[1]. وانتسب آخرون الى النقابات المستقلة. لكن اذا ما نظرنا الى الامور بصورة عامة وبجملة، يظل تقسيمنا صحيحاً: إن الاتحاد العام للشغل يستقطب الميول الثورية للبروليتاريا العاملة في الصناعة الكبيرة، بينا تمثل النقابات الأخرى في غالبيتها الاتجاه الاصلاحي لنخبة مختصة تناضل ضد عدم الاختصاص. وعلى هذا، فإن التعدد النقابي «بمعنى ما» مشروع باعتباره انعكاساً لتمزق عميق. وهو، من زاوية أخرى، كارثة على الطبقة العاملة لأن تعدد الأجهزة يزيد من تفاقم المنازعات إذ يعطي شكلاً وحدوداً لكل اتجاه من الاتجاهات ويرغم كل زمرة على تحديد نفسها بمعارضتها لغيرها من الزمر. لكن التمزق له، على كل الاحوال، سبب أعمق: فهو أجمل ولاية قدمتها مالتوسية أرباب العمل للطبقة العاملة[2].

(«الازمنة الحديثة» – العدد ٨١، تموز ١٩٥٢ – العدد ٨٤ – ٨٥، تشرين الأول – تشرين الثاني ١٩٥٢ – العدد ١٠١، نيسان ١٩٥٣).

---

١ – قرر «اتحاد الكتاب» بـ ٢٨٠٠٠٠ صوت ضد ١٨٠٠٠٠ عام ١٩٤٢ البقاء في الاتحاد العام للشغل بالرغم من تقاليده الاصلاحية العريقة.

٢ – لقد تم تجاوز هذه المالتوسية اليوم (١٩٦٤). لكن لا بد ان ينقضي زمن طويل قبل ان تختفي البنى الاجتماعية الناجمة عنها لتحل محلها بنى جديدة وقبل ان يتلاءم النضال النقابي مع الضرورات الجديدة.

فهرست